"الرواية المرشحة لجائزة دي إس سي لأدب جنوب آسيا 2014"

فريق متميزون
E-BOOK

أرق من الجلد

أوزما إسلام خان

ترجمة: محمد عبد العزيز

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أرق من الجلد
رواية مترجمة..

الرواية المرشحة لجائزة دي إس سي لأدب جنوب أسيا
٢٠١٤

أوزما إسلام خان

ترجمة: محمد عبد العزيز

”قتل شبح أصعب بكثير من قتل حقيقة“.

- فيرجينيا وولف، “موت الفراشة ومقالات أخرى”

”وسط أي جمع، هناك قاتل واحد أو اثنان.

لا يرون مصيرهما بعد“.

- تشارلز سيميك، “ذكريات المستقبل”

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

شَعَرَتْ بذلك الإحساس ذات مرة من قبل، وربما كان مردَّ شعورها بالماضي هو الرياح أيضًا.

شمَّت رائحة الحصان قبل أن يركض مباشرة، فقد ارتفع البخار من أكوام الروث التي تركها على سطح النهر المتجمد. حملت الرياح تلك الرائحة إلى أنفها، في حين ارتجف أنف الحصان في ذعر، قبل أن ينطلق راكضًا إلى الأمام، متجهًا نحو سور من السلك الشائك يختفي خلف غابة من شجر الصنوبر. رفعت رفيقته رقبتها، وكذلك فعلت المَاعِز.

كلهم شعروا بما سيفعله، حتى الخراف الغبية شعرت به! تلك الخراف الأسترالية السمينة التي أجبرتهم الحكومة على شرائها شعرت بما يوشك أن يحدث. شعرت كل المخلوقات الحية بالمكان بأن الحصان قد جرح نفسه قبل حتى أن ترتفع صرخاته المتألمة لتتردد عبر الوادي، والتي تصاعدت بمجرد ارتطام جسده بالسور المصنوع من الأسلاك الشائكة.

حدث هذا منذ عدة أعوام، لكن ها هي الرياح تحمل من جديد نذيرًا مشؤومًا مشابهًا، لم يأتِ النذير في شكل رائحة وإنما أتى في شكل خفقات طائر، وقد تجمدت البحيرة من الانتظار!

انتظرت "مريم"، وانتظرت بجانبها ابنتها "كيران" كذلك، ومثلهما فعلت الفرس، والمهرة، والثلاث بقرات، والأربع مَعِيز، وكل الخراف الغبية!

ماذا سيحدث هذه المرة؟ مَن الذي ستشق صرخاته الوادي هذه المرة؟

سارت بمحاذاة شاطئ البحيرة، شاعرة بثقل الماضي - الذي تركته خلفها عامًا بعد عام عندما انتقلت عائلتها من سهول الجبال – فوق كتفيها.

ربتت على شعر ابنتها غير المجدول في شرود، فتجعد جبينها كأنه جلد حمل رضيع، فعقدت ابنتها حاجبيها مستاءة.

مشكلتها مع الذكريات تتمثل في أنها تذكرها بوالدتها التي اعتادت في أثناء حياتها أن تقول إن الخيول بمنزلة أجنحة هذا العالم، والبوم هي أجنحة العالم الآخر.

كانت تملك حكايات عن الجبال التي تحتويهم كذلك؛ حكايات في شكل أسماء. جبال "القراقرم" هي الباب الأسود، في حين أن جبال "بامير" هي الباب الأبيض، أما "الهيمالايا"؛ فهي الهاوية. هناك وقت أتى عليها لم تكن تجد فائدة من التمييز بينها، فصارت الجبال كلها ببساطة تسمى "الجدار". في تلك الأيام، صارت أمها نفسها مجرد جدار، فاعتادت أن تحبس "مريم" بين الجدران والأسقف، وتزجرها قائلة بحدة:

- سيري بجوار الجدران، وليس نحوها! بمقدار خطوة في كل مرة.

بينما في أوقات أخرى، كانت تطلب من "مريم" أن تبحث عن قمم منفردة، مثل الحبيبين، "مليكا بربت" و"نانكا بربت" - أو الملكة والعاري - اللذين ربما يظهران

كما تظهر النوافذ في الأبواب، أو كما تظهر مواطئ أقدام في الفراغ. كانت "مريم" تبحث دائمًا.

بدت القمم الليلة كأنها مكسوة بطبقة من الضباب ذات لون أزرق داكن، فلم تظهر القمم على الإطلاق! لم تظهر كالنوافذ، ولا حتى كمواطئ الأقدام.

لقد عاشت معهم طيلة حياتها، وعرفت أنه لا يمكن رؤية الجبل الأطول، "نانكا بربت"، من هذا المكان، بقدر ما يمكن الشعور به في أيام معينة عندما يقترب من "مليكا بربت". فهمت أن الجبال ليست ثابتة في مكانها كما يعتقد الكثيرون، كانت تعرف أنه عندما يتجلى الجبل الأطول للناظرين، فإنه يصبح ذا زوايا عديدة كخصر البقر. ثم إنه يتحرك مثلها، كما تحرك الأبقار مؤخرتها، أو عندما تهز ذيلها.

اكتسى بطبقة ذهبية في ضوء الشمس، كان هذا ما تبحث عنه في كل ربيع في أثناء جولتها في مراعي المرتفعات، وقد سار القطيع أمامها، فشابهت حركة كل بقرة حركة السماء. لكن هذا لم يمنعها من البحث عنه، حتى لو لم يكن موجودًا إلا في مخيلتها.

كان الجليد الناتج عن ذوبان القمتين هو ما صنع البحيرة التي تقف عندها الآن. لكن ذوبان الجليد كان جامحًا هذا العام! كما لو لم تُكفِّر خطايا العام السابق بالكامل.

تتبعهم تلك الخطايا في كل هذه المسافة من السهول الرابضة بالأسفل! تعلقت بظهور خيولها، وحتى بأجراس ماعِزها، فالحقيقة أنك لو لم تتخلص من خطايا الماضي، فإنها لا تظل معلقة بك! حدقت في البحيرة الواقعة بين الجبال، حتى اعتادت عيناها تدريجيًّا الصورة التي تصلها من أعماق المياه؛ كانت صورة رجل يعطيها ظهره.

على الرغم من أن "مريم" لم تستطع رؤيته، فإنه كان بوسعها رؤية القمة التي رقد عليها محبوسًا. تعرف لون كل جزء من كل انحدار في ذلك الوادي، لكنها لم تستطع تعرف القمة التي رقد عليها الرجل. ماذا كان يفعل هنا عند سفح الجبلين، عند قاع بحيرة الحبيبين؟ أبعدت "مريم" عينيها عن تلك الصورة، وقد راحت أصابعها تجري فوق شعر "كيران" الأشعث بتوتر متزايد حتى اشتكت الفتاة. عادت عينا "مريم" إلى البحيرة ثانية، لكنها لم ترَ شيئًا باستثناء طبقة الضباب الكثيفة في السماء التي انعكست على سطح البحيرة. اختفت صورة الرجل المحبوس على قمة الجبل الغريبة. حاولت أصابعها أن تسترخي.

أخذت ابنتها تتلوى بين ذراعيها، لكنها حاولت أن تبقيها مكانها وهي تغني لها بنعومة. كانت تحب الحيوانات، فعندما تناديها، تأتي مسرعة. لم يلبث أن جاوبها صليل جرس. كان ذلك صوت البقرة المدعوة "نور"، وهي تنظر بلامبالاة من فوق كتفها من مكانها على الشاطئ، وقد تدلت بعض الحشائش من بين شفتيها، وأخذت تمضغها كأنها سجائر.

لم تكن هناك أي أسلاك شائكة هنا، ولا هناك مَن يقطع الأشجار، ولا يوجد مفتشو الغابات الذين يأمرون البدو بأن يرفعوا أذرعهم إلى أعلى إلى أقصى درجة، قبل أن

يقبضوا عليهم.

جذبت شعر "كيران" بخشونة، وهي تفكر أنهم قد تركوا كل هذا خلفهم هناك عند السهول بالأسفل! أما هنا بالأعلى فهم أحرار يرعون ماشيتهم حيث يشاؤون. تنتمي مراعي الجبال إلى أولئك الذين يأتون هنا كثيرًا لقضاء فصول الصيف، وهم فقط يعرفون ماذا يفعل جبل الملكة مع الجبل العاري عندما لا ينظر أحد نحوهما.

ركدت حركة الريح، في حين بدأ الهواء يرن كالأجراس بخفوت لكن بقوة كالنجوم المتعلقة بالأعلى. لم تكن هناك أي رائحة نفاذة تلك المرة، ولم تسمع صرخات، ولا حتى خفقة جناح بومة تطير نحو العالم الآخر. ابتعدت "كيران" عن "مريم"، ساحبة الظلام حول كتفيها كأنه شال، فبدأت تلك الأخيرة تطاردها، ناسية أنها قبل لحظات قليلة فقط كانت تتساءل عمَّن سيعثر على ذلك الرجل الذي ظهر للحظات معدودة على سطح المياه قبل أن يختفي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسم الأول

قل «بومة»!

وقفت بومة مزارع خارج نافذتي في تلك الليلة في "كاجان". وقفت - وأنا أصفها كأنثى لأن كل الأشياء الجميلة تبدو لي أنثوية، ولا توجد استثناءات في هذا - على فرع شجرة لوز عند حافة النهر، في حين تألق القمر بالأعلى. وبينما كنت أفتح باب كوخي، مالت البومة برقبتها لتنظر مباشرة إليَّ.

لا يوجد مخلوق صريح كالبوم. الزهور لديها أشواك، والقطط لديها مخالب، لكن كل ما لدى البومة هو الشراسة البادية في نظراتها! ولأنني لم أستطع تحرير عينيَّ من منظر الريش الأبيض الذي انتفش حول نظرتها الثلجية السوداء، أجَّلت فكرة التراجع إلى الكوخ لأحضر كاميرتي؛ كانت الكاميرا في معطفي بالدولاب في الناحية الأخرى من الغرفة.

تحركت سريعًا وتذكرت تلك الليلة في "سان فرانسيسكو"، حينما كنت عائدًا إلى البيت مع "فرحانة" من عشاء متأخر. أظهرت أضواء السيارة الأمامية شيئًا أبيض وضخمًا على الطريق. توقفنا، فنزلت "فرحانة" بسرعة على ركبتيها، ومسحت بيدها على الوجه الغريب الذي اتخذ شكل قلب.

كانت عيناه مفتوحتين - نعم، أتحدث عنه الآن كذكر لأن الموت يسلب أنوثة الكائن مهما كان جميلًا! - وقد حامت مجموعة من الريش حول نظرته الرقيقة لدرجة جعلتني أرتجف.

مسحت على جناحه ببعض الكريم، قبل أن ألفه ببعض الضمادات، متمنيًا لو كانت كاميرتي معي؛ حتى لو أثار ذلك ضيق "فرحانة".

تحركت أصابعي نحو الصدر الذي لا يتحرك، في حين قالت "فرحانة" إن البومة نذير للعديد من العجائب؛ الجيدة والسيئة، و"بومتنا" هذه كانت نذيرًا جيدًا. تساءلتُ أكان هذا هو الوقت المناسب لأتقدم للزواج من "فرحانة"، وبينما كنت بصدد فعلها، فكرت في أن أقترح عليها قضاء شهر العسل في مكان به غابة، لأنها تحب القرب من المساحات الخضراء، لكن ليس بعد الزفاف مباشرة، فلم أكن أكسب من النقود ما يكفي بعد. مع وضع تلك المعلومة في الاعتبار، هل من الأفضل أن أنتظر؟

اتخذت قراري بالانتظار عندما بدأت "فرحانة" في البكاء، طالبة مني أن تبدو ملامحي عامرة بالسلام مثل تلك البومة عندما أموت. أتذكر أنني تمنيت وقتها ألا أموت في حادث في وقت متأخر من الليل، مُلقًى على جانب الطريق، حتى يتوقف عابر سبيل فضولي ليتأمل جثتي الفارغة من الحياة، قبل أن يعود إلى سيارته ليقودها مبتعدًا.

بدت البومة الواقفة أمامي الآن جذابة للتصوير لدرجة تصعب مقاومتها، فالتقطت لها عشرات الصور في حين أنها تحدق إليَّ، قبل أن تدور في الهواء للحظة، ثم

تحدق إليَّ ثانية. ظلت البومة واقفة أمامي بوجهها المشابه للقلب، وأجنحتها ذات النقوش الدقيقة.

مددت أناملي نحو مكان قلبها، وسرعان ما كان بوسعي أن أشعر بدقاته، كأنه مربوط بزر فضي صغير يلين مع لمساتي. كان بوسعي أن أشعر بدقات نبض مفترس غاضب!

عندما عدت إلى داخل الكوخ لأرى نتيجة صنعي، وجدت كل الصور بيضاء تمامًا، ولا يظهر بها أي شيء! مجرد ملامح غائمة غير واضحة! صعقت، وأعدت التأكد من الإعدادات، والبطارية، والإضاءة. كان كل شيء كما ينبغي له أن يكون. وعندما قررت الخروج للتجربة مرة أخرى، وجدت أن زائرتي اختفت. تركت كوخي ثانية، وفي النهاية فعلت ما خرجت له من البداية، وهو المشي ليلًا، لم أفسر ظهور البومة بصفته فألًا شريرًا أو جيدًا، فبالنسبة إليَّ لم تعنِ إلا أنني كان من المفترض أن أستمع لنصيحة والدي، ولا أصبح الرجل الذي "يختبئ طيلة حياته خلف عدسة!".

من ناحية أخرى، أرادني أن أصبح مهندسًا، لكن ما دمت فشلت في مهمة بسيطة كتصوير بومة، فهل يتوقع مني النجاح كمهندس؟ فمَن سيشعر بالأمان الكافي للسير فوق - أو حتى تحت - جسر من تصميمي؟ كانت هذه هي أفكاري وأنا أتجه نحو النهر، أستنشق هواء الصيف البارد داخل رئتيَّ. فشعرت كأنني أسحب نفسًا من نرجيلة مليئة برقائق الزجاج.

الغريب أنه كان شعورًا ممتعًا. بالتأكيد هو بسبب الارتفاع الذي نوجد فيه الآن - يتفاخرون هنا بأن هناك خمس قمم جبلية بارتفاع 8000 متر وخمسين قمة أخرى بارتفاع أكثر من 7000 متر - لكن تلك المعلومة لن تؤثر إلا في مَن يتأثر بتلك المعلومات، بالتأكيد الموضوع له علاقة أيضًا بنقاء المكان، وهذا يحدث هنا فقط. تمنيت أن أظل هنا إلى الأبد، وهو شعور غريب نادرًا ما يراود رجلًا يحب الحركة مثلي.

أخذت أركض جانب نهر، يمر عبر وادي قدسه البدو.

كانت تلك هي ليلتنا الأولى هنا، على "طريق الحرير" القديم، وهو ما لم يمثل طريقًا لنا، ولا لأي رجل، أو حصان، أو حتى ذبابة. هناك الكثير من الطرق التي تمتد عبر تلك الجبال، كالأوردة التي تراها أحيانًا تشق الصخور. ولسببٍ ما، غيَّرنا طريقنا بعد وصولنا إلى البلد. لم يكن من المفترض أبدًا أن نتوقف في وادي "كاجان"، وهو ما تسبب في جدالي مع "فرحانة" في بداية اليوم. لم نكد نتحدث من وقتها، ونامت "فرحانة" في الكوخ، وانطلقت أنا أصور البومة، أو أحاول أن أصورها على الأقل.

خطر لي، وأنا أتلكأ بطول النهر - مستنشقًا الزجاج الخفي الموجود بالهواء، وشاعرًا بطاقة كبيرة بداخلي بطريقة لم تكن تحدث لي إلا في وقت متأخر من الليل - أنني لو كنت قد نجحت في تصوير البومة بكاميرتي، فربما كنت تمكنت وقتها من عرض الصور على "فرحانة" في الصباح بعد السير معها قليلًا، مع إضافة قبلة، وكنا سنتصالح وقتها. لكن مع إعادة النظر ربما لم يكن هذا ليحدث، فقد كانت

"فرحانة" تشكو بشكل متكرر من أنني أكون مصورًا في الصباح، ورجلًا سعيدًا في المساء. ومثل والدي، كانت ترى أن شغفي بالتصوير مجرد تمويه أكثر منه فنًّا، كما لو كانا شيئين مختلفين عن بعضهما.

كرهت "فرحانة" كاميرتي، كما لو كانت الكاميرا نظارة أرتديها طيلة اليوم فلا أنزعها إلا مع غروب الشمس. كانت محقة بشأن التوقيت، فقد كنت أترك الكاميرا الخاصة بي دائمًا ورائي في أثناء تمشيتي ليلًا، وكانت محقة كذلك بشأن أن تركها يجعلني أنظر إلى العالم بشكل مختلف! أحيانًا كنت أحب العالم أكثر، وأحيانًا أقل.

منذ التقيتها، بدأت أفكر في الحالتين اللتين تراودانني، فسميتهما: "بكاميرا" و"من دون كاميرا". بالنسبة إلى الحالة "من دون الكاميرا"، تظهر "فرحانة" بشكل أكثر في بالي، وفي أثناء تصوير البومة، لا تخطر "فرحانة" في بالي ولو مرة واحدة!

التقيتها بعد انتقالي من "توسان" إلى منطقة الخليج بقليل، منذ عامين. تركت وظيفتي في شركة تصميم وبناء، ولم يكن بوسعي أن أعود إلى بلدي في حالة الفشل هذه، فسيكون من الصعب أن أشرح لهم أنه اتضح أنني أبلي بلاءً أفضل كوني مصورًا للمشاريع الهندسية أكثر من أن أكون مصممًا لها، فقررت أن أصبح مصورًا. كنتُ أفضلَ مصور للمناظر الطبيعية، أو رغبت في أن أكون كذلك على الأقل.

تركت "توسان" وقضيت الأسبوعين التاليين محاولًا شق طريقي في الساحل الغربي، فكنت أحيانًا أغير طريقي عائدًا إلى الصحراء، عندما أتمكن من التطفل على إحدى السيارات المارة وأجعلهم يقبلون ركوبي معهم.

ما زلت أحتفظ في الملف الخاص بي بصور أولئك الذين توقفوا من أجلي، وبصور مبهمة للكثيرين الذين لم يفعلوا ذلك، مثل صور تظهر فيها شاحنات نقل البضائع، وصور أخرى لأحذية طويلة العنق، وصور ثالثة لأحزمة فضية تألقت في ضوء الشمس.

انتشر نبات "صبار الرجل العجوز" - الذي يشبه ثمرة كمثرى تغطيها الأشواك البيضاء - في كل مكان، كما كان هناك كثير من شجر "جوشوا". اعتدنا الرياح الشمالية الغربية والسحب الأرجوانية التي انتشرت في كل مكان من حولنا.

كنت أختار مَن يقلني بعناية بسبب كل قصص القتل والاختطاف التي تحدث في تلك الأماكن. كانوا يظنونني في معظم الوقت لاتينيًّا وليس عربيًّا، حتى اللاتينيين أنفسهم اعتقدوا هذا، ومن ضمنهم واحد بدا مستمتعًا بخطئه للغاية وتبعني داخل الصحراء. لو كنا في مكانٍ آخر، لظننته من طائفة "البنجاب" العرقية. سألني:

- إذًا، أأنت مسلم أم ماذا؟

- أستؤثر إجابتي عليك؟

التقطت صورة له وهو يهز كتفيه، ولاحظت في النهاية أنه كان يضحك. هناك شيء يجذب انتباهي في الرجال ذوي الأجساد الضخمة والضحكات الهادئة التي يكتمونها

داخلهم. هبطت قطرة مطر وحيدة على أنفه، في حين انعكس ضوء الشمس على حزامه، وأسنانه، ورقعة من جبال "سان بيرناردينو" البعيدة.

كان لا يزال يضحك حتى بعد سقوط قطرة المطر الثانية عليه، شكرته على توصيلي، ثم انطلقت سيرًا نحو الصحراء، وأنا أفعل أكثر فعل أخشى أن أقضي بقية حياتي في فعله. تأملت نباتات الصبار المنتشرة من حولي، والتي بدت لي كأنما تتباهى منتصرة، وقد أزهرت بزهرات زاهية متفاوتة الألوان ما بين القرمزي والذهبي، وسط ظروف طبيعية قاسية. ذكرني منظره بأزياء الاحتفالات التي ترتديها الغجريات في الصحراء الباكستانية المجاورة للحدود ووديان الجبال.

كلما جفت الأرض، ازداد ظمأ الروح.

عندما وصلت أخيرًا إلى "سان فرانسيسكو"، التقطت مجموعة من الصور لصحراء "سونورا"، والغابة المتحجرة، ووادي "تشيلي" الضيق. أرسلت أفضل الصور بالبريد الإلكتروني، وانتظرت أن يلتقط أحدهم الطعم، وكنت قد استأجرت شقة مع رجلين آخرين. حظيت بمقابلتي عمل، وقد سارت الأولى هكذا تقريبًا:

- لماذا تضيع وقتك يا "نادر شيخ" - نطقها "نادر شيك" - في التقاط الصور لمناظر طبيعية أمريكية، في حين أنك تملك مادة كافية على مقربة منك؟

- عفوًا؟

- هذه وكالة لبيع الصور. نبيع الصور للمجلات، وأحيانًا نبيعها مباشرة للعملاء، وفي بعض الحالات يكون المقابل الكثير من المال. ربما تثير أنت اهتمامنا أكثر من الصور التي التقطتها.

- كيف أثير اهتمامكم؟

- الأمريكيون يعرفون بالفعل المناظر الطبيعية التي لديهم!

- وهل يعرفون الصبار الذي لديهم كذلك؟

- ما أقصده هو أنك في المرة القادمة التي تعود فيها إلى بلدك، الأفضل أن تحرص على التقاط بعض الصور هناك.

وعنما بدا واضحًا له أنني لم أفهم مقصده بعد كل هذا، أفرغ ما بجعبته في وجهي مباشرة:

- أرنا القذارة، والبؤس، لا تضيع وقتك محاولًا أن تكون مصور مناظر طبيعية. استغل ما لديك من مزايا.

عندما عدت إلى الشقة، شعر زميلي بالسكن "ماثيو" بالأسف من أجلي. أخبرني عن صديق قديم له كان يعرف فتاة باكستانية صغيرة لطيفة. أخذت ألتهم "الناتشو" الخاص به، وهو يتحدث في التليفون.

سرت جانب نهر "كنهار"، مفكرًا في "فرحانة". أضاء القمر طريقي، يصاحبه اندفاع التيار وظلال الأشجار، والكوخ الموجود أسفل الطريق الذي التهمنا فيه سابقًا بعضًا من سمك "التروتة"، وقد أثارتني معرفة أن الباقين كانوا نائمين، فنزعت حذائي طويل الرقبة، وخلعت ما عليَّ من ثياب، قبل أن أقف عاريًا تمامًا.

سمعت مرة قصة عن النهر أنه في الماضي، قبل المكان الذي ينحني فيه مجراه عند مدينة "جيليم"، توقفت ملكة المغول "نور جيهان" - وكانت تعاني عدوى بعينيها - وهي في طريقها إلى "كشمير". قررت الذهاب إلى النهر لتضع يديها فيه وتغسل وجهها. كانت المياه باردة شديدة النقاء، لدرجة أن عينيها شفيتا. ومنذ وقتها صار اسم النهر هو "ناين سوخ"، ومعناه "الذي يهدئ العيون". كنت أعرف أنني أقرب إلى مقدمة النهر عن المنطقة التي وقفت فيها الملكة. كما أعرف أن المياه الثلجية لم تكن هي السبب في أسطورة الشفاء تلك، لكن هناك ما دفعني إلى الركوع على أي حال عند حافة "كنهار"، فغسلت عينيَّ، وشممت بعضًا من بخار النهر النفاذ. وفي أثناء هذا، رأيت تلك البومة ثانية! أخذت البومة تحوم من جانب إلى آخر، أسفل القمر المتلألئ الذي أرسل أشعته التي تساقطت على سطح المياه. خفقت بجناحيها مرتين قبل أن تستدير عائدة نحوي، واستقرت في النهاية على شجرة جوز ضخمة، ومن مكانها فوق الشجرة، نظرت مباشرة إلى أسفل نحوي مُصدرة نعيب البوم المميز.

شعرت بأن صوتها إشارة لي، أكثر من هروبها من كاميرتي، أو عودتها الآن، عندما صرت من دون كاميرا!

لا، بل الأدق في الوصف أن أقول إنني شعرت بنفسي معزولًا! شعرت أنني مراقب.

اتفقت معها أن نتقابل بعد الظهر، بعد مقابلة العمل الثانية، وأضفت في هذه المرة إلى الملف الخاص بي مجموعة من الصور كنت قد التقطتها في أثناء رحلة سابقة لباكستان، كانت تمثل مجموعة من الصور لمسند منضدة رخامي لأمي، ورثته عن أمها، ويعود إلى عام 1800.

تغيرت تفاصيل لوح الرخام نتيجة تلاعبي بالإضاءة، فبدا مرة أملس كالحرير، في حين بدا في مرة أخرى منتفخًا كطبق مليء بالمثلجات. بدت بعض الصور، دون مبالغة مني، محسوسة كصور الأحجار للمصوِّرة الشهيرة "ليند وايدهوفر". لم تختلف المقابلة الثانية كثيرًا عن الأولى.

- صورك تفتقد الأصالة!

- الأصالة؟

- أين صور الشحاذين والبازارات، أو أي شيء نابع من ثقافتك؟

- لوح الرخام هذا يمثل جزءًا من تراث عائلتي. إنه قديم للغاية، منذ عام 1800!

لوَّح بيده قائلًا:

- بالنسبة إليَّ، عندما تكون هناك حرب دائرة بالبلد، فإن مسند طاولة رخاميًّا يعتبر مجرد شيء تافه بجانبها!

تمنيت لو آتتني الجرأة - أو الرغبة - في أن أسأله عن أي صور من أي حرب تلك التي يبحث عنها.

وقف مستطردًا:

- أنا رجل مشغول، كان بوسعي تجاهلك، لكنني لم أفعل، أتعرف لماذا؟ لأنني ظننت أن هناك شيئًا مهمًّا بك!

مال إلى الأمام في ترقب، فشكرته على الاعتقاد بأن هناك ما يستحق لديَّ.

تركت المكتب وعبرت الطرقة متجهًا نحو السلم، مارًّا بمجموعة الصور المعلقة على الحوائط، وهي الصور التي أحببتها بشدة، وقد استطعت تمييزها جميعًا في أثناء قدومي طبعًا.

كانت هناك مجموعة صور للمصورة "ليند وايدهوفر" وكأنما عُلِّقت خصوصًا لمعايرتي، متضمنة واحدة من سلسلتها "صخور وصمت". بوسع "ليند" أن تكون مصورة مناظر طبيعية للغرب البري، أما "شيخ" فيجب أن يكون محصورًا في كونه مصورًا للشرق البري! ليس من المفترض أن تحاول إثارة إعجاب العالم بتأكيد وجود الجمال في صورك، بل عليك أن تثير الإعجاب بتأكيد وجود الرعب والبشاعة!

شققت طريقي ببطء، مجروحًا، عبر مجموعة صور "يوسيمت" لـ"آنسيل آدامز". كانت اللحظة الخاطئة عندما رأيت صورة "شلالات برايدل فيل"، فقد كادت قوة اندفاع الماء المتدفق بالشلال في الصورة تجعلني أبكي! وجدت نفسي أتمنى لو لم يكن فشلي حادًّا لهذه الدرجة، قبل أن أتجه في النهاية إلى صورة "جسر البوابة الذهبية" عند شاطئ "بايكر".

لم تصدمني المصادفة وأنا في طريقي للمقابلة لكنها صدمتني الآن، في حين كانت عيناي تنزلقان من فوق مشهد السحب البيضاء بالأعلى، لترتطم بمنظر الأمواج البيضاء التي تتكسر عند الشاطئ. المفترض أن أقابل "فرحانة" عند شاطئ "باكر" خلال ساعة. كانت فكرتها، وكانت دقيقة للغاية بصدد المكان الذي سأجدها فيه عند الشاطئ. حدقت إلى الصورة، متفاجئًا من اختلال دقات قلبي. أدهشني أنني تمنيت أن أجدها عند المكان نفسه الظاهر من الشاطئ في الصورة التي أمامي الآن.

الأسوأ أنني ظننت أنه بمجرد وصولي هناك، وربما دون أن تعرف هي، سأنظر إلى أعلى لأجد نفسي أحدق إلى الكوبري من المنظور نفسه الذي أراه أمامي بالصورة الآن. هل رغبتِ في أن تكون تلك الصورة علامة لي؟ ربما. فالأمور تسير هكذا بعدما تكون قد أُلقيت من فوق شلال هادر للتو، فتحاول أن تتلمس علامة في أي شيء، بل وربما تحاول إخبار نفسك أنك وجدت تلك العلامة.

قبل أن تنقض البومة على انعكاس القمر المتلألئ على سطح نهر "كنهار"، بدأت أفكر في تلك الكلمة: "كنهار"، وكيف يبدو المقطع "كن" للأذن كأنه لفظ آخر: "كيس"، أو "قبلة". فكرت في مدى احتمالية أن يتشارك البشر ما يحبونه ويكرهونه بالكلمات نفسها في كل اللغات؟

استشعرت طعم الجليد الذائب المُر في فمي لوهلة، وقرص القمر الفضي يغوص بسلاسة داخل أعماق النهر. غمست رأسي لأتذوق ثانية، وجمعت بعضًا من جواهر النهر بين أجزاء لساني، قبل أن أنظر إلى أسفل إلى طول "كنهار" الذي امتد عبر الوادي مسافة مائة وستين كيلومترًا. ولسببٍ ما، ذكرني منظر ضفتي النهر الطويلتين بمنظر مهبل المرأة من الخارج.

ارتفع صوت نعيب البومة وسرعان ما تبددت الفكرة كأنها ريشة في مهب الريح.

ومن جديد سمعت صوت النعيب المميز.

عندما سمعت الصوت مرة ثانية، تجمدت مياه النهر الجليدي المُرة داخلي، وتصلبت أصابعي لدرجة أنني حين كنت أمدها نحو ملابسي، ترتطم بالملابس كأنها عصي.

جثمت على ركبتيَّ بحثًا عن بعض الدفء، مسحورًا بهاتين العينين السوداوين اللامعتين اللتين توسطتا ذلك الوجه الجميل، وقد اتخذ شكل القلب، لكن بدلًا من وجه البومة، تمثل أمامي وجه فتاة. تخيلتها مخلوقة أسطورية يتحول وجهها إلى وجه بشري عندما لا يراها أحد، وتتحدث عندما لا يسمعها أحد. كم من دقائق أو ساعات مرت قبل أن تنطلق تلك البومة نحو السماء لتحلق في اتجاه البحيرة التي اتفقنا على الذهاب إليها غدًا؟

عدت في النهاية إلى كوخي، وأنا لا أزال عاريًا، وانزلقت داخل الفراش إلى جانب "فرحانة".

تحركت من مكانها، فشعرت بالفضل للحرارة التي أشعتها أسفل الأغطية. تكورتُ وراءها، فالتفتت إليَّ لتداعبني بالمداعبة نفسها التي منحتني إياها في أول ليلة لنا معًا، فقد انسلت أناملها لتداعب سُرَّتي. همست في أذنيَّ وهي تقلد لهجة "الصبي المطيع الذي تربى في مدراس الراهبات" الخاصة بي:

- سأستمع قليلًا!

ثم وضعت أذنها الساخنة على تجويف سرتي، لتخرج أنفاسها الحلوة الساخنة على بشرتي الباردة حتى أذابتني. سألتها:

- ماذا تسمعين؟

كان شعرها قد افترش تجويف بطني كمروحة وهي تهمس:

- ششششش!

وبينما شفتاها تلتهمانني، فكرت في شكر أنني لن أحتاج إلى أن أصالحها في الصباح، فهي مَن تصالحني الآن!

سمعت مرة أخرى أصوات خفقات أجنحة، ومعها صوت القمر وهو يغطس داخل "كنهار"، ثم صوت النعيب المميز.

بدا كصوت منخفض، أخذ يعلو تدريجيًّا، مخترقًا السماء الناعمة الفضية، قبل أن يصير أعمق فأعمق، ويغطس عبر سطح النهر الفضي.

سرت بخفة نحو شاطئ "بايكر" في خطوات سريعة مبتهجة.

نزلت من ساحة الجراج ونزعت حذائي، متوقعًا أن أرى فتاة تبدو كـ"فرحانة" - كانت قد قالت لي "ابحث عن ضفيرة طويلة، أطول ضفيرة على الشاطئ كله، وطبعًا ذات شعر أسود" - تنتظرني عند حافة البحر كما قالت إنها ستفعل، وقد أعطتني ظهرها لتظهر ضفيرتها، وكان "جسر البوابة الذهبية" على يمينها، لكنني عوضًا عن هذا وجدت حظي يقودني إلى مباراة كرة طائرة، جميع لاعبيها عارون تمامًا!

هل كانت من بينهم؟

اللعنة، كيف من المفترض أن أعرف؟

كانت هناك لاعبة ذات ضفيرة سوداء، لكنها كانت لديها ضفيرتان، كلتاهما ليستا بالطول نفسه الذي أبلغت به.

وبينما تثب اللاعبة لتحصل على الكرة، التفتت ليظهر جسدها العاري بالكامل لي! يا إلهي، كان جسدها مذهلًا! حدقت في بلاهة إلى الشعر الذي بين ساقيها، مفكرًا أكانت تلك مزحة قاسية - حسنًا، سأعترف، ليست قاسية تمامًا! - رتب "ماثيو" لأن يتفق مع "فرحانة" أن تغويني لآتي إلى هنا. لا بدَّ من أنه يراقبني ضاحكًا حتى تؤلمه معدته! فتاة باكستانية صغيرة لطيفة. ظريف للغاية يا "ماثيو"!

حدقت إلى لاعبة كرة الطائرة مرة أخيرة؛ لا، مستحيل أن تكون "فرحانة"، أرجو أن تكون شخصًا آخر غير "فرحانة"، أو ربما من الأفضل لو تكون هي.

التفت لأنظر نحو المستحمين عند الشاطئ. كانوا كلهم تقريبًا عراة، ومعظمهم من الرجال. ولما كنت أرتدي الكثير من الملابس بالنسبة إلى الموجودين بالمكان، فقد سرت مبتعدًا في خجل نحو مجموعة من الصخور في الجانب البعيد من غابة صغيرة من شجر "السرو" الضخم.

حاولت طيلة الطريق أن أتفقد المكان بعينيَّ، باحثًا عن ضفيرة طويلة من الشعر الأسود تزحف فوق ظهر حسن الشكل، لكن عددًا من الموجودات كن يرقدن على ظهورهنَّ أصلًا، في حين رقد بعضهنَّ على شعرهنَّ.

صار بوسعي الآن أن أرى الصخور، ولم تكن "فرحانة" هناك كذلك، بل كان هناك رجلان عاريان، أحدهما يسير نحو المياه وقد وضع يده على خصره؛ كان ذا قضيب طويل، وابتسامة واسعة.

خضت في مياه البحر، وقد أعطيته ظهري، لكن المياه كانت باردة للغاية بالنسبة إليَّ. بعد بضع دقائق، اقتربت بصعوبة من الصخور، محاولًا أن أنظر في الخفاء. كانت تجلس هناك مبتسمة، وقد وضعت ضفيرتها على أحد جانبيها، لتغطي كتفها اليسرى، ولوحت بها نحوي كأنها عَلَم.

- لا بدَّ من أننا لم نرَ بعضنا بعضًا!

- ظننتكِ أخبرتِني أن أنتظركِ عند الشاطئ!

- آسفة، كان الوقت قد تأخر.

كنت على شفا السؤال عن الطريقة التي وصلتْ بها إلى هنا دون أن ألاحظها، عندما لاحظتُ لمعان عينيها، لم يكن "ماثيو" هو مَن يراقبني كما ظننت، وإنما "فرحانة".

زحفت متسلقًا إلى أعلى دون كلمة أخرى، عابرًا مجموعة من البرك التي تكونت بسبب حركة المد والجزر، ومساحة رملية ممتدة بين الصخور التي امتدت على شكل حرف "V". جلست أرضًا بجانب "فرحانة"، نظرتُ إلى يمينها، فظهر لي "جسر البوابة الذهبية" عند الأفق البعيد. ضحكت "فرحانة" ساخرة وهي تقول:

- هل تظن أنك كنت ستتمكن من تعرفي وأنا مرتدية ملابسي؟

- أنتِ ترتدين ملابسكِ بالفعل.

- هل شعرت بالإحباط؟

- فلنقل إنني مرتاح لهذا.

- يا له من شيء مؤسف!

هكذا تعلمت تلك النقطة على الفور بخصوص "فرحانة". كانت تحب دائمًا أن تتلقى رد فعل ما، ولم تكن تحب الانتظار طويلًا قبل أن تحظى به. لا بد من أن رد فعلي في ذلك اليوم أسعدها بما فيه الكفاية، لأننا التقينا كل يوم بعد ذلك. ماذا كان رد الفعل الذي حظيت به مني؟ الإحراج والفضول. أعرف أنها أمسكت بي متلبسًا وأنا أتساءل عن كم من جسدها ستظهره لي، وبالتأكيد كانت تعرف أنني لاحظت أنها لا ترتدي مشدَّ صدر أسفل قميصها.

وكان هذا هو كل ما أراه لأسابيع؛ فتاة باكستانية صغيرة لطيفة.

بعد مرور نحو ساعة على موعدنا الغرامي على الصخور سألتني:

- لماذا تنظر طيلة الوقت نحو الجسر؟

لم أقل شيئًا عن الصورة، لم أخبرها أبدًا، لكن بينما كانت الشمس في طريقها للغروب، التقطت بضع صور للجسر. لم تظهر في مقدمة الصور الأمواج المتكسرة، ولا حتى الرمال المترسبة، وإنما مجرد سلسلة من الصخور الحادة المتعرجة، دون "فرحانة" التي رفضت أن أصوِّرها يومها. عندما وقفنا في النهاية

استعدادًا للرحيل، أدركت كم هي طويلة، وكم هي صبيانية المظهر. عرفتْ ما يدور بخلدي، فقالت:

- لو كان لديَّ ثديان، فلربما كنت فكرت في خلع قميصي.

ومن جديد نظرتْ نحوي في انتظار رد فعلي. لم أكن رجلًا فصيح اللسان، وغالبًا ما أكون معقود اللسان تجاه هذه الصراحة، على الرغم من أنها تجذبني. نظرت إلى "فرحانة" واحتضنتها، وسمعت منها كل ما كان لديها لقوله عن عملها مع الأنهار الجليدية، وعن والدها الموجود في "بيركلي"، ووفاة أمها، والرحيل عن باكستان وهي طفلة، وعن حياتها في هذه المدينة التي نشأت فيها.

كل هذا وأنا أتفحص طولها، ونحافتها، وشحوب بشرتها، والطريقة التي تلتف بها ضفيرتها حولها في شكل منحنى مائل، يمتد من عند كتفها اليسرى حتى جانب خصرها الأيمن. أدركت أنها سلبت ثلاثة أرباع عقلي، وربما قطعتُ منتصف الطريق نحو حبها، قلت لها إنها تشبه زهرة زنبق "الكالا" أكثر من أي امرأة التقيتها في حياتي! همستُ لها:

- وليس أي زهرة زنبق، بل زهرة زنبق "الكالا" الخاصة بمصور الطبيعة "جيفري كونلي"، هل رأيتِها من قبل؟

أومأت برأسها، وقد شعرت بالخجل فجأة. أدارت ظهرها نحوي، وخلعت قميصها.

- سأراك غدًا إذن؟

- متى؟

- في الوقت نفسه.

كم كان صعبًا أن أبتعد لحظتها!

تسلقت الصخور، ونظرت إلى أعلى مرة أخيرة قبل أن أتجه نحو شقتي.

انحنت "فرحانة" على نحو جعل عمودها الفقري الطويل العميق يبدو متوازيًا بشكل مثالي مع ضفيرتها، وقد أحاط كلاهما بها كأنهما يحتضنانها.

حاولت في اليوم التالي أن أثير إعجاب "فرحانة". في البداية، لم أكن أحضر هدايا، لكنني كنت أدعها تحدد المكان الذي نجلس فيه، لكن مع حلول الشهر الثاني صرنا نجتمع في بيتها، وبدأت أحضر معي هدايا لها، فأهديتها ذات مرة باقة من زهور زنبق الـ"كالا".

لم يسعدني شيء بقدر ما أسعدني نزول التل الذي يجاور مقاطعة "ماشن"، حيث تعيش بين ذراعيَّ كنبات داخل أصيص. عرفت محال زهور تبيع الكثير من الأنواع، بدءًا من البيضاء، والبنفسجية، وحتى الصفراء. بعضها زهور رقيقة طويلة ودقيقة برقة يد "فرحانة" نفسها، وقد مالت الزهرة بالطريقة نفسها التي مالت بها ضفيرتها لتحتضن عمودها الفقري في أول مرة التقينا فيها، وكما تفعل في كل ليلة عندما تنحني لتخلع ملابسها.

لطالما تمنيت أن أحظى بصورة لعمودها الفقري، لكنها لم تسمح لي بفعل ذلك أبدًا، لهذا كنت أكتفي بمراقبة أناملها وهي تفك عقد ضفيرتها. تعلمت ألا أتدخل في هذا الطقس الطويل والذي تتزايد أثناءه قسوة حركة أناملها، ويبدو على وجهها تعبير الانزعاج. كان المشط تلتف حوله دائمًا كومة تشبه الصوف الأسود، تلقيها فيما بعد في سلة المهملات، قبل دخول الفراش، وقد أشرق وجهها. أحببت رؤية تلك الابتسامة بالقرب مني كل ليلة.

في ذلك الصباح، في "كاجان"، كنت أنا مَن أشرق وجهه، وأنا أشاهدها في أثناء نومها. تذوقت طعم أنفاسها بسقف حلقي، فبدا لي كبخار يمزج بين رائحة الصنوبر والأنهار الجليدية. حركت طرف أنفي على شفتيها مستشعرًا إياهما؛ كان فمها ذا لون بيچ باهت ممزوج بأرق درجات اللون الوردي. بدت شفتاها كإطار رقيق ذي انحناء، نادرًا ما كانت تضع عليه أحمر شفاه، وهو الشيء الذي أسعدني، لأن منظر فمها الطبيعي بدا لائقًا مع بقيتها.

عندما تشعر بالقلق، كان لسانها يحفر طريقًا رقيقًا إلى شفتها السفلية الفاتنة، وأحيانًا ما كان إبهامها يتشارك في الأمر، فيخدش لثتها حتى يسيل منها الدم. عرفت تلك الحركات في الأيام التي تلت أول يوم تقابلنا فيه. عرفتها تحديدًا في الحافلة التي أخذتنا إلى وادي "كاجان".

لكنها نامت في سلام ذلك الصباح وقد ثبت لسانها مكانه ومثله إبهامها. تذوقتها ثانية، فبدا لي طعمها أقرب إلى البخار مما هو إلى الصنوبر. لم تكن رائحة أنفاس "فرحانة" بالصباح هي أسوأ خصالها، على الرغم من أنها لو ذكرت لها هذا تسأل في خجل:

-وما هي أسوأ خصالي إذًا؟

كان كوخنا قديمًا، وربما جدرانه هي مصدر رائحة خشب الصنوبر التي تغلف سريرنا. كان إطار الباب مصنوعًا من مزيج من الخشب الباهت والداكن. تخيلت اليد التي جلبت خشب شجر الجوز الفاتح عندما انتهى مخزون خشب شجر الأرز الداكن، ثم تخيلتها وهي تمتد بالورنيش الأحمر عندما انتهى الورنيش البني. ربما لم يتمكن الرجل الذي يقع في نهاية تلك اليد من الوصول إلى مكان حفظ الورنيش الأحمر. ربما كان عمره أكبر من عمر الكوخ نفسه! ربما لم يكن ينتمي إلى تلك الجزيرة، بل أتى من عالم آخر بعواصف أقوى وممتلئ بالرمال. رقدت على ظهري، مقلبًا كلمة "كاجان" على لساني بالطريقة نفسها التي تلاعبتُ فيها ليلة البارحة بكلمة "كنهار". هل أتت الكلمة من لفظ "كاجان"، وهو اسم المرأة التي أتت إلى ذلك الوادي منذ سنين طويلة؟

في رحلة سابقة سمعت الكثير من القصص؛ شظايا لم تجد طريقها إلى كتب التاريخ لكنها بقيت معلقة في الهواء، فقال البعض إن "كاجان" أتت من قبيلة "الكيلاش" التي تنتمي إلى وادي "شيترال" بالغرب، في حين قال آخرون سرًّا إنها بالكاد تعتبر من البشر، وإنما كانت تنتمي إلى عالم الجنيات والأرواح. مَن كان مسموحًا لهم بالوصول إليها هم عبيدها فقط، وبشرط أن تتنازل هي وتظهر لهم، لم تكن وقتها

ترتدي ملابس سيدات "كيلاش" على الإطلاق، وإنما كانت ترتدي الضباب وتمتطي حصانًا، أو ربما أتت كلمة "كاجان" من لفظ "خاجان"، وهي نسخة أقدم من كلمة "خان" التي تعني "أمير" أو "حاكم"؟

انقسم الحكام الأتراك - والذين انتشروا من تركيا إلى الصين على طريق الحرير القديم – إلى فريقين، أحدهما الأمراء الذين اتخذوا الأُسُودَ شعارًا لهم، أما الفريق الآخر فقد اتخذوا الجِمالَ شعارًا لهم، لم يعد لديهم بهذا الوادي الآن أُسُودُ أو جمال، لكن هناك بوم، وخيول، فهل كان ساكنوه القدامى يتخذون البوم شعارًا؟ أم الخيول؟

معظم الأحصنة الموجودة في الوادي تنتمي إلى القبائل شبه البدوية التي تقضي شهور الصيف في مروج الجبل والشتاء في سهول الأراضي المنخفضة؛ رأيناها في وقت لاحق ذلك اليوم عند البحيرة. لم يعرف أحد من أين أتى البدو، لكن يسود الاعتقاد بأنهم قد أتوا على أحصنتهم من مراعي بحر "قزوين" منذ آلاف الأعوام، وربما كانوا يتحدثون التركية في وقت ما. هناك إشاعة ثالثة انتشرت، مفادها أن "كاجان" المرأة كانت واحدة منهم، وكان يطلق عليها "باري خان"، أي "حاكمة الجنيات".

تحركت "فرحانة" بجانبي إلى أعلى قليلًا على وسادتها، نافخة المزيد من بخار النهر الجليدي في عينيَّ. لم يتحرك شيء بالغرفة باستثنائها، فلم تكن هناك أي رياح في الصباح في كوخنا بـ"كاجان". مالت بجسدها نحو جانبها من الفراش، وعلى المنضدة المجاورة للسرير رأيت خريطة وقد وُضِعت دائرة حمراء فيها لتحيط بوادي "كاجان" الموجود في الركن الشرقي من الشمال الغربي للحدود الإقليمية عند حافة "كشمير". كنت رسمت تلك الدائرة ونحن في الحافلة التي أقلتنا إلى الوادي، مخبرًا "فرحانة" أنه لكي يتمكن المرء من رؤية الحدود عليه أن يتخيلها كمنظر جانبي لنصف البقرة العلوي وقد واجه الغرب، وتكون العاصمة "بيشاور" مكان الأنف، ووادي "شيترال" مكان القرن الخلفي، ووادي "سوات" مكان العين، في حين يكون وادي "كاجان" مكان الأذنين، وتقع "كشمير" وراءها، في حين رقدت "أفغانستان" أمامها.

رفضت "فرحانة" عندما كنا في الحافلة الاستماع لي، أو بالذهاب إلى "كاجان"، ولوت شفتيها منزعجة وهي تذكرني بأننا لم يكن من المفترض أن نكون هنا على الإطلاق. حتى ليلة البارحة، لم أظنها ستسامحني أبدًا.

فتحت باب الكوخ، واستمعت لنداء "كاجان"، وقد انتصبت من حولي تلال كبيرة كأنها مجارف مخملية خضراء على أرضية حمراء كالطوب، والتي بدت كأنها حفنة من العصافير بللتها مياه الأمطار. كان هذا هو سبب حضوري الحقيقي، وليس أن أضايق حبيبتي.

تموَّج الوادي من حولنا مثل نهر "كنهار" الذي أعطاه شكله، محيطًا بتسع بحيرات في منحنياته، تنتصب من حوله غابات كثيفة من "الدوداري" والصنوبر التي ترتفع فوق الـ 4000 متر، قبل أن تتوقف فجأة عند أعتاب معابد "الهيمالايا" و"القراقرم".

الطريق الوحيد الذي يمر عبر الكتلة الجبلية هو مجموعة من الممرات الرفيعة التي تتلوى كالأفعى، كأنما بفعل السحر.

الشعور الذي يغمر الإنسان هنا لا يكون شعورًا بضيق المكان أو بالازدحام، بل يميل أكثر ليكون شعورًا تحذيريًّا، كأنما هناك من يحذرك بقوله: "انتظر لترى، استعد للقادم". وأن تبقى متحفزًا.

عرفت أنه في وقت المستعمرات كان البريطانيون يعتبرون تلك المنطقة محشورة نوعًا ما بين "كشمير" الأكبر من حيث المساحة، والتلال الضخمة التي تسكنها القبائل والتي تقع غربًا. هكذا تركوا الوادي في حاله. أما اليوم، فمعظم الفنادق، والمطاعم، والمحلات، فيديرها - دون أن يملكها - الكشميريون وأناس من "سوات".

كان أولئك الذين لا يستطيعون القراءة ولا يملكون تليفزيونًا متلهفين لمعرفة كل ما يحدث وأين يحدث. كانوا يفضلون القول إن البقرة اعتادت ما يدور وراءها بقدر اعتيادها ما يدور أمامها، وإلا فلماذا لا يكف عمودها الفقري عن الارتجاف من وقت إلى آخر؟ ولماذا تظل تهش على جلدها كل فترة بضربة من ذيلها؟

لاحظت وجود مواكب عسكرية أمس بعد وصولنا بقليل. على الرغم من أن هذا لم يكن معتادًا في ذلك الوادي، فإنني كنت منشغلًا للغاية فلم أهتم بالأمر. ارتجفت الشاحنات كذيول الأبقار، متسللة صعودًا وهبوطًا عبر الوادي، دون رؤية شيء، خائفين مما ينتظرهم. كانت البلد كلها تتعاون مع سائقي الشاحنات، ثم ماذا؟ لقد أتينا هنا لنستمتع بالمكان، حتى لو لم نتمكن من الاستمتاع بالوقت.

رفرف ظل على إطار الباب. ظهر تباين لون الخشب بشكل عشوائي في أماكن أخرى من الغرفة مثل السقف والمكان المجاور للفراش، لكن بمجرد أن تسحب الستائر يخيم الليل على الكوخ، على الرغم من تخطيط المكان المشابه لرقعة شطرنج. كان ذلك الظل المتحرك مجرد سحلية تتمشى باحثة عن رفيق.

قبَّلت "فرحانة" ببطء لأتشرب روحها بداخلي، متمنيًا أن أُبقيها بجانبي مدة أطول، أنا وهي فقط. همست وأنا أمسد على شعرها:

- سمعت قصة ذات مرة.

تصاعدت رائحة الشامبو الذي تستعمله، فاختلطت برائحة المسك التي علقت بأصابعي من ليلة البارحة. لم تكن الجدران هي مصدر الرائحة، بل "فرحانة". ولم تكن رائحة صنوبر، ولا حتى رائحة مسك، بل كانت رائحة تبغ، وهذا ما أثار دهشتي، فهي لم تدخن في حياتها أبدًا، وكانت تكره تلك العادة. كيف يمكن أن أخبرها أن رائحتها الأكثر الحميمية تبدو مثل السجائر؟ انزلقتُ بين ركبتيها، فابتسمتْ وهي تدفن رأسها في وسادتها.

- سيكونون هنا في أي لحظة.

- ربما يأكلون.

- كنت ستحكي لي قصة.

- يمكن للقصة أن تنتظر.

- أعتقد أنني أسمع صوتهم.

- أنتِ تسمعين أصوات كلينا.

ضحكت مجيبة:

- أستطيع سماعهم. أراهنك أنهم أتوا لتناول الإفطار معنا، فمَن سيرغب في السير حتى المطعم؟

ضغطت ركبتيها هامسة:

- احكِ لي قصة.

تجاهلتُ ما قالته، لكنها استطردتْ:

- هل ستكون قصة عن البحيرة؟ والجن، والأميرة؟ أرجوك!

تقوست بجسدها على الفراش، ثم أزاحت الملاءة بعيدًا عنها.

- تعرفينها بالفعل.

- أنا أعمل مع الحقائق فقط، لهذا أنسى القصص الخيالية.

فحكيت لها تلك القصة ثانية، وعندما انتهينا سمعنا دقات الباب. كان زميل "فرحانة" المدعو "ويس"، ومعه صديق قديم لي من أيام "كراتشي"، ويدعى "عرفان". كانا يقيمان في الكوخ المجاور، ومن المفترض أن نتقابل في المطعم لتناول الإفطار قبل الذهاب للبحيرة، لكن ها هما قد أتيا كما تنبأت "فرحانة"، لأن لا أحد كان مستعدًّا للسير ربع ميل ليظفر ببعض البيض. هكذا ارتدينا ملابسنا على عجالة، قبل أن ندعوهما إلى الداخل، وطلبنا توصيل الإفطار إلى كوخنا.

بردت العجة عندما وصل عامل التوصيل بها، لكن أطرافها كانت لا تزال مقرمشة، وقد حُشِيت بقطع الطماطم والفلفل الأخضر. تحدث "عرفان" مع العامل طويلًا باللغة الكشميرية؛ أم إنها كانت لغة "الهندكو"؟

استطعت تمييز بعض المقاطع القليلة منها، مثل akh, gari gari وحاولت التركيز أكثر على تعبيرات وجه "عرفان"، لكن لم تبدُ أخبارًا جيدة. تناقش "ويس" و"فرحانة" حول الأنهار الجليدية، وربما كانا يتحدثان باللغة الكجرية.

مضغت العجة الخاصة بي في صمت. صنعت ألوانها الخضراء والحمراء والصفراء عَلَمًا بدا مألوفًا لي، لكنني لم أستطع تذكر البلد الذي ينتمي إليه. العلم الأفغاني به اللونان الأحمر والأخضر، لكن اللون الثالث كان الأسود وليس الأصفر، ولم أكن أعرف حتى أي علم تستعمله أفغانستان هذه الأيام، فبعد الغزو الأمريكي تُوقِّف عن استعمال علم حركة "طالبان" الأبيض وبدأ استخدام علم آخر مشابه لعلم سيريلانكا وقت أن كانت مملكة. نعم، كان يحتوي عَلَمُها على هذه الألوان الثلاثة.

على الطبق الموجود أمامي تخيلت البومة التي رأيتها البارحة وقد حلت محل الأسد المرسوم على علم سيريلانكا. قررت إخبار الجميع بما حدث. قال "عرفان": "إن تلك الرؤية تمثل نذيرًا مشؤومًا"، على الرغم من أنني لم أستطع منع نفسي من التفكير في أنني أنا مَن رُئي وليس البومة. كان "عرفان" هو السبب في تغيير طريقنا، وهو السبب في مشاحنتي مع "فرحانة" أمس في محل لبيع الشالات. كنت مجروحًا عندما رفضت الشال الذي وضعته حول كتفها، ومجروحًا عندما صاحت غاضبة:

- لم نكن في حاجة إلى نأتي إلى "كاجان" على الإطلاق!

نظرتُ نحوها، خوفًا من أن يكون كل هذا الغضب لا يزال كالجمر الخامد الذي ينتظر أقل شيء من النار ليشتعل. خفت أن نفقد كل هذا السلام الذي حظينا به باستيقاظنا معًا هذا الصباح، أم إنه قد بدأ يخبو بالفعل؟ لكنها ظلت مبتهجة، فلم تمتعض وهي تلوي شفتيها على الإطلاق! وقالت: "إنه في بعض الأماكن يعتبرون أن البوم أرواح مقدسة لبعض الكهنة". وهنا أجبتها:

- مقدسة مثلنا؟

رمتني بنظرة جذابة، في حين تحرك "عرفان" في مكانه في استهجان مما قلته. ربما سمعَنا ليلة أمس، أو سمعَنا في هذا الصباح. بدا "ويس" متألقًا كأنما هو مَن قضينا الليلة السابقة بأكملها نستمع له. قال:

- هل التقطت أي صور؟

- نعم.

مضغ ما بفمه المفتوح من طعام وهو يقول:

- أرني إياها.

- لم يخرجوا بعد.

- ماذا تعني بأنهم لم يخرجوا بعد؟

كان يتأملني مبتسمًا بفم لطخه البيض، أجبته:

- أعني ما قلته!

- لمَ تخرج الصور من كاميرا رقمية؟ يبدو أنك حرفيًا في مجال العمل الخاطئ يا رفيقي!

ضحكت "فرحانة" وهي تتكزه قائلة:

- لا تضايقه، فهذا موضوع حساس بالنسبة إليه.

ماذا ستفعل "فرحانة" لو كشفتُ كل مواضيعها الحساسة؟

قلت وأنا أنهض من مكاني:

- يجب أن نرحل! ستزدحم البحيرة قبل الظهر!

عاد "عرفان" إلى كوخه ليحضر سترته، في حين التقطت "فرحانة" بضع قطع من الفلفل الحار من طبق العجة الثاني لـ"ويس". كانت تدعوه "ويسلي" وكان يدعوها "فرح". أحيانًا كانت تدعوه "ويمبي"، ويدعوها هو "هيلا الحلوة".

بعدما وضعت كاميرتي وعدساتها داخل حقيبتي قاومت رغبة ملحة بداخلي في النظر ثانية إلى "فرحانة"، وقاومت رغبة شديدة لطرد الجميع بعيدًا - كبقرة تنظف ظهرها بذيلها! – لنتمكن من البدء ثانية، نحن الاثنين فقط. لكن ما لم أستطع مقاومة فعله – على الرغم من معرفتي أنه سيثير ألمي، وعرفت أنني سأندم فعلًا قبل حتى أن أبدأ - هو استرجاع ما حدث خلال الأسبوع الماضي في عقلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطرق إلى «كاجان»

قبل "كاجان" توجد "كراتشي"، كان هذا هو المكان الذي تغيرت فيه خططنا! رغم اشمئزازي، التقطت صورًا للشحاذين والأطفال الذين يركضون عرايا في الشارع، يمتصون بذور المانجو ليلطخوا خدودهم المتسخة بلطخات برتقالية.

"من أجل الرجال الأثرياء ذوي البيوت الفاخرة في وادي نابا"، لم أقل تلك الكلمات لشخص معين، وإنما قلتها في سري قبل أن أمحوها من رأسي، قبل أن أمسح تلك الصور التي صورتها من أجل المقابلة الشخصية.

بقينا خمسة أيام. كانت الأحاديث تدور في الأغلب عن المختفين؛ الشباب الذين يُلتقَطون من شوارع "كراتشي" و"بيشاور". كل مرة كانت تمر فيها طائرة فوقنا يقول "عرفان" إنها واحدة من اللاتي لا توجد بها علامات، وهذا ما يعني أن وكالة الاستخبارات المركزية قد حكمت على بعض الأرواح الميتة بالذهاب للجحيم!

فكرت أكثر من مرة في تلك الأيام في مقابلتي مع الرجل الذي قال إنني محظوظ لقدومي من مكان يظهر دائمًا في نشرات الأخبار. ليته يعرف كم يخبو رونق الفوضى سريعًا عندما تقترب منه! ليته يعرف أنه من المفترض ألا يحاول شق بطنها، فهي مفتوحة بالفعل، وما يوجد بداخلها دائمًا فج وصادم! يقضي معظم الناس في "كراتشي" وقتهم في النظر من حولهم، محاولين ألا يقعوا في مدينة دمرتها سلسلة من الاعتداءات، كل واحد منها يحمل الكثير من الضغينة، والكثير من الأشواك بين براثنه! في يوم يكون هدف التفجير مسجدًا أو فندقًا، وفي يوم آخر يكون حافلة أو قطارًا، وفي اليوم التالي يكون هدفه مسؤولين صينيين في إقليم "بلوشستان" الباكستاني، وضباط باكستانيين في ولاية "بنجاب" الهندية، وسرعان ما يحدق الخطر بكل شيء، باستثناء الشيئين اللذين يثيران هلع الجميع - الجيش على الأرض، والطائرات الحربية من دون طيار في السماء - لا يمكنك التخلص منها، كما لا يمكنك التخلص من الجيش، فهو جيش مهما كان!

شاهدت والديَّ يشيخان، وشاهدت المرض يغزو أجسادهما ومعه الخوف، كوحشين ينهشان الأرواح مع التقدم في السن في أرض يستهلكها الرعب بقدر ما تستهلكها الأشياء التافهة؛ إصلاح التليفونات، والمراحيض، وأجهزة المكيف، والكابلات، والطرقات. هناك يوم كامل ضاع في التوسل لعودة الكهرباء، ناهيك بالمعونات التي انتهت خلال ساعة.

أين يمكن أن يكون لديك طموح أعلى أو القيام بثورة؟

ومع ذلك، على الرغم من الخوف المحيط، فإن المرونة والتأقلم يمكنهما أن يزدهرا وسط قذارة الموت واليأس، ولا سيما عندما لا يكون المرء مدركًا لهما. رأيت هذا تحديدًا في أختي، كانت لديها مرونة لا أظن أن "فرحانة" توقعت أن تراها، ولست متيقنًا أنها سعدت برؤيتها، فقد جعلتها تشعر بأنها ليست بالمكان المناسب.

قارنت بين أختي "سونيا" و"فرحانة"؛ عرفت أن "فرحانة" فعلت هذا هي الأخرى. هل توقعت أن تنظر إليها باعتبارها أفضل منها لما كانت قد تلقت تعليمًا أفضل، وتمتعت بثروة أكبر؟ صحيح أن "سونيا" تلقت تعليمها في مدرسة خاصة وتتقاضى خمسة عشر ألف روبية في الشهر، إلا أن "فرحانة" كانت تكسب كل شهر مائتي ضعف ذلك المبلغ. عندما ذهبنا للتسوق معًا، أخذت "سونيا" تساوم البائعين بخصوص الأسعار من أجل رفيقتها كما لو كانت تساوم لنفسها، كما أنها اشترت هدايا لها، لكن "فرحانة" لم تفعل المثل أبدًا، كانت محقة في وصف نفسها كمتلقية، من منظور ثقافة تقدس إكرام الضيف، لكنها لم تظهر أي رغبة حقيقية في العطاء. في حين أن "ويس" على الجانب الآخر كثيرًا ما كان يهادي أمي بالزهور والفاكهة، وسأعترف أنني تفاجأت بهذا. وتفاجأت بالمقارنات التي نفعلها، مقارنة "فرحانة" بي، ومقارنة "سونيا" بـ"فرحانة"، ومقارنة "فرحانة" بـ"ويس"؛ لماذا؟

لكن لم يتوقف الأمر. كلنا نعقد المقارنات في سرنا، فلم تحظَ "سونيا" من أبي بالقدر نفسه من الحرية أو الحب اللذين حظيت "فرحانة" بهما من أبيها، على الرغم من أن هذا أحاط "سونيا" بمناخ من الراحة والتلقائية اللذين أتيا من تسامح يسود البيئة التي تدعي أنها تحسدني على تركها.

نادرًا ما بدت "فرحانة" مسترخية مثلها؛ سواء في "سان فرانسيسكو" أم هنا. كانت "سونيا" تضحك أكثر من "فرحانة"، ثم إنها تداعب أصحاب الحوانيت ولديها عصابة كاملة ممن تطلق عليهم لقب "أقرب الأصدقاء". أما تليفونها المحمول فلم يكن يتوقف عن الرنين أبدًا، لاحظ زوجها المسالم كل شيء يحيط بها بنظرة مسالمة من جانبه، مهما كان ما ترتديه، لكن الملابس كانت مسألة مهمة عند "فرحانة". دومًا تأتي متسلحة برداءين كليهما كانا ملكًا لوالدتها في وقت ما، وكليهما من طراز "القُرطق" الشعبي الذي يصل إلى منتصف قصبة ساقها، ولم تكن ألوانهما تليق بها من الأصل. كانت شاحبة اللون للغاية بالنسبة إلى ارتداء زي ذي لون أخضر فاقع كهذا، أما الرداء الآخر ذو اللون البني الفاتح فلا يستحق أن أبدي رأيي فيه من الأصل. بالإضافة إلى هذا، توهجت طبقة من القطن المكوي بعناية حول جذعها.

كانت تشتكي أنها تبدو كامرأة حامل، وهو ما كانت تبدو عليه فعلًا، على الرغم من أنني قلت لها إن أفضل جزء فيها هو ما يوجد تحت الثياب. سألتني لماذا لم أخبرها بالموضات الأخيرة، فسألتها لماذا لم تبحث هي على الإنترنت، وهو السؤال الذي أجابت عنه:

- لم أكن أعرف أن أختك تتبع الموضة بتلك الدرجة.

وهي الإجابة التي لم أعرف كيف أرد عليها. هل تسببت إجاباتي في وصولنا إلى الشجار الذي نوشك أن نخوضه؟ ليس بوسعي الجواب، على الرغم من أنها في اليوم الثالث بدأت تبتعد عن ذوق "سونيا"، وبدأت تبحث عما هو أفضل. تزايد شعور "فرحانة" بعدم أهميتها.

في اليوم الثالث سمعنا الخبر في النشرة:

"انفجار قنبلة في فندق هذا الصباح، لتقتل أجنبيًا وسبعة باكستانيين".

تساءل "ويس" أكان يجدر بنا أن نتجه غربًا عبر الأطلسي بدلًا من الذهاب شمالًا نحو الجبال. قلت له:

- ولماذا القلق؟ أنت لست الهدف.

امتعضت "فرحانة" لأنني لم أكن متعاطفًا كفاية ومهتمًا بما حدث.

- متعاطفًا؟ لقد مات أجنبي واحد فقط في حين مات سبعة محليين. أين تعاطفه هو؟

بدلًا من أن أقول لها: "أين تعاطفكِ أنتِ؟!".

كنا من جديد نزن حياة كل واحد مقابل حياة الآخرين، واحد مقابل سبعة، ما هو مقبول مقابل ما هو غير مقبول. بدلًا من أن تجيبني نادت "ويس"، وسرعان ما انطلقا أمام عينيَّ نحو المطبخ، حيث أغدقت أمي عليهما بوجبة أخرى معقدة لدرجة مضحكة.

قضينا اليومين التاليين مفترقين، والليالي كذلك من سوء الحظ. بالكاد نمنا معًا في الأسابيع التي سبقت الرحيل عن "سان فرانسيسكو"، لكن عندما وصلنا إلى تلك المدينة - التي تصبح فيها الشهوة سرًّا ضخمًا - اشتهيتها ثانية. صارت "فرحانة" محرمة.

لماذا أريدها ما دمت لا أريد إمساك يدها؟ هكذا سألتني عندما تسللت إلى غرفتها. صعقني السؤال، لأنه يحمل إجابته بين طياته كما هو واضح. أردتها لأنه ليس بوسعي إمساك يدها أو أي جزء منها.

- المضاجعة السريعة لا فائدة لها.

قالت هذا لتجبرني على العودة إلى غرفتي.

بدلًا من التركيز على الأحداث التي تدور في البيت، ركزت على الأحداث في "وزيرستان"، على الحدود الأفغانية، حيث تكون الشهوة مشاعًا أمام الجميع، فهي تأوي القبائل المحلية من العرب، والطاجيكستانيين، والأوزبكستانيين، والشيشان، والصينيين "الأويغور" المسلمين. فرَّ بعضهم من الحرب في أفغانستان، لكن الآخرين كانوا هاربين من حكومة بلادهم نفسها!

رحب حكام قبائل "وزيرستان" بالجميع، ما عدا الباكستانيين الذين ينتمون إلى قبائل أخرى. يسمون هذا حسن ضيافة. قررنا أنا و"عرفان" أن مدخل "وزيرستان" لا بدَّ من أن يحتوي على تمثال يحمل مدفع كلاشينكوف ومصحفًا!

"أنا مستعد لمساعدة الفقراء والمحتاجين الذين يرفضهم الجميع مهما كانت جنسيتهم، باستثناء الباكستانيين!"

قلت:

- وماذا عن كرم باكستان مع الولايات المتحدة الأمريكية؟

فكر "عرفان" في هذا الموضوع قليلًا قبل أن يجيب بسخرية باطنة:

- "أعطني أسلحة وذخائر حربك المستمرة إلى الأبد، فأنا باكستاني!".

كنا نجلس بأحد المقاهي مع أربعة أصدقاء آخرين، بدت نوافذ المقهى باهتة الألوان، وتصاعدت رائحة أوضحت أنه لا يوجد مَن يأتي إلى هذا المكان باستثناء النادل ضخم الجسد شاحب البشرة، والذي قررنا أنه يشبه "طاهر يولداشيف"، المرشد الأوزبكستاني للحاكم الوزيرستاني المدعو "بيت الله محسود". حتى هذا الصيف كان هناك وقف لإطلاق النار بين "محسود" والجيش الباكستاني، ومنذ نهاية وقف إطلاق النار هذا زود "يولداشيف" "محسود" بحراس أوزبكستانيين صلب عودهم نتيجة عقود من الحرب في أفغانستان ضد السوفييت.

سلب كل من "يولداشيف" وآسيا الوسطي انتباهنا وخيالنا أكثر حتى من القنابل التي تهاوت على مدينتنا نفسها! لا نزال لا نعرف مَن ألقى القنابل على الفندق. استسلمنا لعدم معرفة مَن فعلها، في حين أن "يولداشيف" على الجهة الأخرى مُنظمًا معروفًا، فعلى سبيل المثال كَوَّنَ جيشًا للانتقام من التفجير الأمريكي لوادي "شاهي - كوت" بأفغانستان في 2002، وكانت تلك عملية منظمة ولا جدال في هذا. مرت على هذه العملية ثلاثة أعوام، وما زلنا لا نعرف لماذا سَمَّت أمريكا العملية "عملية الأناكوندا"! أشار "عرفان" نحو النادل الذي يحوم حول باب المكان قائلًا:

- لماذا لا تسأله؟

لوحنا له لنناديه، ثم سألته:

- لماذا سُمِّيَ حصار "شاهي – كوت" في آسيا الوسطي على اسم ثعبان ماء بأمريكا الجنوبية؟

خرج النادل ليظفر بسيجارة، في حين أجابني "عرفان":

- يظنون أننا نتبع الفيتناميين.

- وهل هناك ثعابين "أناكوندا" في فيتنام؟

- وأي اسم كنت تفضل حضرتك أن يطلقوه عليها؟

- عملية "الكوبرا" مثلًا!

- تقليدي للغاية!

- عملية "الظبي" إذًا؟

منحتني الحرب مزية أن أجد شيئًا أناقشه مع كل من أصدقائي بدلًا من مناقشة فشلي كوني عشيقًا، ومع والدي كذلك بدلًا من مناقشة فشلي كوني ابنًا.

كان هناك بالصحيفة ذات صباح كاريكاتير حرك الجليد الذي بيننا بضعة مليمترات، كان "يدًا بيضاء تنتمي إلى رجل أبيض - بقبعة رسمية ونجوم وشارات عسكرية - تعطي رجلًا بني اللون في ملابس رثة بعض النقود، يعيد الرجل البني وهو سعيد

حياكة دمية، وفي الإطار التالي تعطي اليد البيضاء نفسها خِياطا مبتسمًا ضعف القدر من النقود، وهذه المرة يستشيط الرجل البني غضبًا ويقطِّع ما صنعه، ويمزق ملابسه، ولحيته، وكل شيء!".

ولأجل أولئك الذين لم يفهموها، فالتعليق تحت الصورة كان:

تُهدر باكستان بلايين الدولارات للتخلص مما صنعته، أكثر مما أنفقته لصنعه بالبداية!

انطلقت ضحكاتي أنا وأبي.

بعدها بيومين كنا في إسلام آباد، وبينما كانت ترتقي "فرحانة" درجات الحافلة، لوت شفتيها ممتعضة دون أن تقول شيئًا، حتى عندما تعطلت الحافلة واضطررنا إلى الانتظار ثلاث ساعات حتى وصلت حافلة أخرى. اضطر كل الأجانب إلى تسجيل أسمائهم لدى الجيش كل ساعة تقريبًا، لذا اضطرت الحافلة إلى التوقف طيلة الوقت، واضطر الجميع إلى انتظارها "فرحانة" و"ويس". لم يتذمر أحد، ولا حتى مَن كان معهم ستة أو سبعة أطفال مكومين عند ركبهم. لم أعرف أكان صمت "فرحانة" له علاقة بالانزعاج الذي نتعرض له في تلك المحطات (والغريب أن "ويس" كان سعيدًا طيلة ذلك الوقت) والشعور بالإحراج للتسبب في جعل الباص ينتظر، أم إنه موجه لي فقط، أم إنها كانت تتخيل أنني أملك القوة لإنهاء كل هذه التوقفات؟ أم إنني أسخر منها باعتقادي أنها ستُعامل كما لو كانت من هنا؟ تعاملت بلطف مع باقي الركاب؛ لطف أكثر من اللازم.

لم تتوقف في الواقع عن إخبار "ويس" طيلة الوقت كم أن جميع الموجودين ودودين وشديدي اللطف، كما لو كان يحتاج إلى أن يخبره أحدهم بهذا. كانت لطيفة حتى مع رجال الجيش الذين سعدوا لتبادل الحديث معها، وغالبًا لم يكونوا ليشعروا بمثل تلك السعادة للحديث معها لو لم تكن أجنبية! ما أسعدهم أكثر هو عندما اُلتقطت صور لهم بكاميرتي - التي كانت تحتقرها - وهم يستعرضون بنادقهم بفخر. بعد هذا عرضوا على "ويس" درسًا مجانيًّا في استعمال البنادق الآلية موديل 101، وهو العرض الذي قبله "ويس" شاكرًا، في حين انتظر الناس الموجودون في الباص، وقد بدت السعادة على بعضهم، وصمت الباقون.

لم أعرف ما الذي ضايقها إلا بعدما وصلنا إلى "ناران"، عندما كنا في ذلك المحل الذي يبيع الشالات الكشميرية، والملاءات المصنوعة من صوف الغنم اشتريت لها واحدًا من هذا ومن ذاك، قائلًا إننا سنحتاج إليهما فيما بعد، يمكنني أن أقرر بثقة أنها أعجبت بالشال الذي كان خفيفًا كالحرير ومنقوشًا على الوجهين، كان ذا لون أسود من جهة ولون أبيض من الجهة الأخرى، وعلى الجهتين تألقت نقوش حمراء كالكرز، لكنها استدارت مبتعدة وانطلقت لتتفقد بعض أطباق السلطة المصنوعة من خشب الجوز. عندما وضعت الشال على كتفيها قالت إنها تشعر أنها رخيصة عندما أظن أنني يمكنني أن أستعيدها بتلك السهولة!

- ولماذا يجب أن أستعيدكِ؟ هل فقدتكِ من الأصل؟

- أنت لا تعرف حقًا؟

- نحن نشتري الهدايا لبعضنا بعضًا طيلة الوقت، لا أفعلها لأكسب أي شيء، هل تفعلينها أنتِ لهذا الغرض؟

- أنت لم تسمعني!

- أجيبيني! هل تفعلينها لهذا السبب؟

- لماذا أتى "عرفان" معنا؟

كان كل من "عرفان" و"ويس" خارج المحل، استطعنا سماع صوت "ويس" يخبر "عرفان" أنه رغب دائمًا في رؤية الوجه الآخر للهند، وسمعنا صمت "عرفان" (بماذا كنت سأجيب لو كنت مكانه من الأصل؟) واستطرد "ويس" بعدها:

- هذا المكان لا يبدو حتى كباكستان.

التفتُّ إلى "فرحانة" قائلًا:

- ولماذا أتى "ويس" معنا؟

تنهدت مجيبة:

- لقد أتينا إلى هنا في رحلة عمل، وأنت تعرف هذا بالفعل!

- ظننت أننا أتينا إلى هنا لأنكِ أردتِ العودة إلى بلدكِ.

احتقن وجهها، وفي النهاية قالت:

- أنا أستلطف "عرفان" وأعرف أنكما صديقان مقربان، لكنه يتصرف كما لو كان هو الرئيس، وأنت لا ترد له كلمة! لا يتوقف عن تحديد متى يجب أن نتوقف ولكم من الوقت نتوقف!

حسنًا؛ هذا صحيح، لكنها كانت تغير الموضوع. أخذتُ نفسًا مقررًا أن أذكر حقيقة أخرى:

- "عرفان" يعرف تلك الجبال أكثر من أي شخص أعرفه.

- لم نكن في حاجة إلى أن نأتي إلى وادي "كاجان" على الإطلاق!

ثم استطردت:

- كان بوسعنا الذهاب مباشرة إلى المناطق الشمالية كما خططنا.

- لا يبدو على "ويس" أنه يمانع فيما فعلناه.

- إذًا فقد صرت تحبه الآن؟

- لم أقل إنني أكرهه!

ثم ضحكت، لكنها لم تكن ضحكتها المعتادة. في النهاية قلت لها:

- لكنكِ ستحبين ذلك الوادي، فهو مليء بالغابات الغزيرة، وأنتِ تحبين الغابات الغزيرة! عندما نرحل من هنا، ستفتقدين كل تلك المساحات الخضراء، ثقي بي! لن نصعد إلى أعلى من هذا، وهناك أنهار جليدية هنا، ثم إنه يعطينا الفرصة لقضاء المزيد من الوقت معًا، سترين أنكِ ستحبين الكوخ، فهو بالقرب من النهر، وسيكون لدينا الوقت للذهاب إلى البحيرات، ستحبينها.

- توقف أرجوك!

وبينما هي ترحل عن المحل سقط الشال على الأرض، فالتقطه البائع لينفض عنه ما علق به من تراب بحب قبل أن يناوله لي. هكذا تركتُ أهم شيء في "كراتشي" خلفي.

كنا في "كراتشي" عندما اقترح "عرفان" الذهاب إلى "كاجان" أولًا. جلسنا وقتها في واحد من تلك المطاعم العتيقة التي لا تزال تعمل، ذات الطاولات الطويلة المقصودة لتكفي قبائل كاملة؛ كانت أصغر طاولة تكفي ستة أفراد، فمَن سيتناول طعامه بالخارج بعدد أقل من هذا؟! كنا اثنين وعشرين فردًا. جلست أنا و"عرفان" و"فرحانة" في ركن، وانحشر "ويس" - الذي جذب الكثير من الانتباه منذ اللحظة التي ترجل فيها عن الطائرة ببنيته الضخمة وشعره الأشقر الفاتح الذي تخلله خط أخضر - في مكان ما بين زوج أختي ووالدته التي لم تستطع التوقف عن لمسه، وقد أطعمته كل الشيش كباب الذي صنعته، ثم ناولته بعده السمك المطهو بصوص الباربكيو الذي طهته أيضًا قبل أن تفكر في إعطاء الباقين.

تحدثت "فرحانة" مع "عرفان"، لكنني لم أكن منتبهًا لحديثهما؛ ظننته يساعدها لضعف لغتها الأردية، وهي اللغة الشائعة في باكستان. جعلتني الشذرات التي التقطتها من حديثهما أفهم أنه كان ينجرف نحو تزايد سقوط الجليد في أثناء الشتاء في "الهيمالايا" الغربية و"قراقرم"، وكيف أن هذا يغذي الأنهار الجليدية، وربما كانت كلمة "يغذي" هذه هي ما جعلت عقلي يدور.

بدأت أفكر كيف أنه من الغريب أن أكثر شخص يجري إطعامه على هذه الطاولة هو أكثر مَن يُكرم فينا، في حين أن ثلاثة أرباع الباكستانيين يعيشون بأقل من دولارين باليوم، لا يملك 40% منهم مياهًا للشرب من الأساس، و50% ليست لديهم رعاية صحية. كان بوسعي أن أشم رائحة البالوعة المفتوحة بالخارج في الشارع. أين هو كرم ضيافتنا إذًا عندما يتعلق الأمر بهذا؟ لم يكن الأمر أنني أشعر بالضيق من أم زوج أختي أو من "ويس"، لست واثقًا من أنني أشعر بالضيق بالأساس، ولكن الأمر ببساطة شعور عميق من الهزيمة.

بدأت "فرحانة" تصف لـ"عرفان" غابات الخشب الأحمر بـ"كاليفورنيا". نظرت نحوها، لم تجذب انتباه الموجودين كما يفعل "ويس"، وقد أعطتها بشرتها الشاحبة وشعرها الثقيل داكن اللون، بالإضافة إلى عينيها السمراوين اللتين يظللهما حاجبان ثقيلان تشذبهما بانتظام، مظهرًا إيرانيًّا نتج عن أصولها التي تمزج بين الألمان والباكستانيين.

هناك الكثير من الناس في البلد بلون بشرتها هذا، هكذا لم تبدُ ظاهرة للغاية بسبب مظهرها بقدر ما بدت بسبب لهجتها، وطولها، وطبعًا مشيتها المتثاقلة وهي تحرك ذراعيها بتخشب، وقد نحَّت ساقيها للجانب كما لو كانت تتزلج طيلة الوقت. كانت تقول:

- يحبون قيعان الوادي والفيضانات، لكن ليس كثيرًا. ويحبون حزام الضباب، والرطوبة التي لا تتوقف. لا يمكن لـ"نادر" أن يكون من محبي غابة الشجر الأحمر.

التفتت لي فابتسمت، فانحنت بخفة كأنما تنتوي تقبيلي، فتراجعت إلى الوراء قليلًا لأذكرها أين نحن. نهضت متوجهة نحو الحمام، في حين مضغ "عرفان" قطعة من لحم الماعز محترقة عند الحواف وهو يقول إن "فرحانة" ستستمتع بغابات وادي "كاجان":

- إنها مليئة بالخضرة؛ ستحبها. وليست بعيدة جدًّا عن طريقنا، لدينا وقت كافٍ، وهناك أنهار جليدية هناك كذلك.

ثم فكرت في الأمر، نعم، ستحب ذلك الوادي، فقد كان رطبًا، مليئًا بالظلال والخضرة، فهي "فرحانة"!

هكذا قررنا الذهاب، ونسينا أن نخبرها حتى حان موعد تبديل الحافلة في "أبوت آباد". لم نأخذ واحدة لـ"جلجت" الموجودة في المناطق الشمالية، وإنما أخذنا واحدة لبلدة "ناران" في وادي "كاجان" في المقاطعة المجاورة. كان مجرد طريق جانبي سيستغرق ثلاثة أيام، قبل التوجه شمالًا إلى المناظر الطبيعية البرية الممتدة رأسيًّا التي وصفتها لها ذات مرة. جلست مع "ويس" في الحافلة، لا بدَّ من أنه أخبرها، ولا بدَّ من أن الأمر آلمها، أن يُخبر هو لكن هي لا - أتذكر شرح "عرفان" لـ"ويس"، لكن أين كانت هي وقتها؟ هل كانت في الحمام؟ أم تتسوق مع أختي؟ لم أستطع التذكر! - ولم تبدُ كعادتها عندما ظلت صامتة حتى تلك اللحظة التي انفجرت فيها في المحل، عندما رمت الشال!

لكن في الليلة التي سبقت ذهابنا إلى البحيرة اعتقدت أنها سامحتني، واعتقدت الشيء نفسه في الصباح. ظللت معتقدًا هذا حتى عندما سمعتها تشكو إلى "ويس" عن موضوع المنعطف، وهي تطعمه ذلك البيض البارد ثلاثي الألوان، قبل لحظات من رحيلنا عن الكوخ. اعتقدت هذا حتى وأنا أتمشى معها على النهر الجليدي، عندما التفتت مُعطية ظهرها إياي، واضطررت - كم تتحرك هي و"ويس" بنعومة على الجليد! - إلى التراجع، يا للغضب الذي اعتمل بداخلي لحظتها للظفر بها! وأنا أذكر نفسي أن أفضل التصالحات بين المتشاحنين تشبه أفضل الحكايات وأفضل جنس تظفر به، لأنه يثير الأسئلة ويؤجل الإجابات.

نعم، اعتقدت أنها سامحتني، لكن لم أعتقد بالكامل أنني سامحتها! صحيح أنني تركت أهم شيء بخصوص "كراتشي" خلفي قبل أن أذيعه بعدها، لكنه صحيح

كذلك أنني أترك أهم شيء إلى الأبد. سواء زرنا "كاجان" أم لم نفعل، ماذا كانت تفعل هنا من الأصل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

تزاوج الجليد

أحيانًا تسحبني "فرحانة" خارج الفراش - بعدما تكون قد فكت ضفيرتها ورمت خصلة من الشعر في سلة المهملات - للنظر عبر نافذتها ذات الخمسة جوانب والتي تطل على خليج "سان فرانسيسكو"؛ كانت تلك النافذة تطل بشدة على الشارع. ادعت أن نافذتها هي السبب الذي جعل المدينة تصدر قانونًا يحدد بروز كل النوافذ التي تطل على الخليج.

اعتدنا الجلوس هناك وقد أحاطنا الزجاج من كل جانب داخل أحضان منزلها الأرجواني، كان المنزل رائعًا حتى بمقاييس المدينة؛ انتصبت أعمدة رشيقة حلزونية تفصل جزءًا من الغرفة، كل واحد منها له حواف لامعة كأنها أقفال ذهبية بطرف كم أبيض متجعد، في منتصف الطريق للباب الخشبي غير المكتمل انتصب لوح زجاجي بيضاوي. كانت تهتف أمامه ضاحكة:

- مرآتي يا مرآتي!

في المرات القليلة الأولى كنت أقبِّلها في ذلك المكان، اعتدت أن أترك لها زهور زنابق "الكالا" في شرفة غرفة النوم التي توجد بها أعمدة معمارية ذات رؤوس ذهبية، كأنني أقدم أضحية لإلهة الجمال والشهوة، أمام لوح الزجاج الخاص بالنافذة، تحت السقف كنا نراقب الآخرين في الشارع من خلال تلك النافذة، وعندها سألتني:

- ما هو أجمل شيء رأته عيناك؟ أعني أجمل لحظة مرت بك.

اعتدنا أن نلعب لعبة الأضداد عند النافذة. كانت مقاطعة "ماشن"، حيث تعيش هي، رطبة وخصبة في وقتٍ ما، على عكس منطقة "ريتشموند" التي أعيش بها، والتي كانت في وقتٍ ما شاطئًا يابسًا مقفرًا من الرمال، لا تكف الرياح عن الهبوب به لتكنس ما يأتي بوجهها.

اعتدنا أن نقول إنها خرجت من مستنقع، وخرجتُ أنا من الصحراء. أحبت "فرحانة" الرطوبة التي تشع من منحنيات وأنقاض الأنهار الجليدية والدلتا الغنية. كانت تحب قفازاتها وجواربها، وكرهت أنا - رغم شعوري الدائم بالبرد - تغطية أطرافي، كنت أفضل الجمال العنيف والوحشي لساحل المحيط الهادئ، حركة المد والجزر الهادئة للخلجان التي تحدها الأسوار. قلنا: "المتضادات تجذب بعضها".

وكنا محقين، فقد كان تقاربنا هو ما قسمنا، في أول أعياد ميلادها بعد لقائنا، في العام الذي سبق رحيلنا إلى "كاجان"، حملت بإحدى يديَّ زهرة زنبق "الكالا" بشفتين أكثر وردية من شفاهها هي، وفي اليد الأخرى حملت زجاجة شمبانيا. وبينما أنزل التل إلى قصرها الأرجواني، سحبت أشعة الشمس كل أثر للضباب من على جلدي، وبدأ لعابي يسيل عندما ظهرت رائحة الفاصوليا التي أعيد شيُّها وتتبعتني طيلة الطريق إلى بابها. التقتني أمام الباب وقد ارتدت ثوبًا من الصوف مع حذاء طويل العنق، قائلة إنها تعرف ماذا تريد بدلًا من الزنابق. قلت:

- ماذا؟

قالت:

- دعني أُريك.

أغلقت عينيَّ، عددت حتى عشرة، ثم فتحتهما ثانية.

- حسنًا؟ أين ما تريدين أن تريه لي؟

- ليس هنا يا ذكي، هيا نذهب لنتمشى، فلنذهب إلى الأماكن التي حول منزلك وتحب تصويرها، الأماكن ذات المنحدرات وأشجار "السرو" التي أخبرتني عنها سابقًا.

ثم نظرتُ نحوي كأن تلك المنحدرات وأشجار "السرو" أشياء خاصة بالرجال وحدهم، والغريب أنني وجدت هذا جذابًا.

كان يومًا باردًا للغاية من شهر مايو، وعلى الرغم من أنني كنت أحب الجُرُف العالية، فإنني كنت أرغب في نهاية أكثر حميمية لليوم، سَمِّه عكسًا للأدوار بيننا. وضعت زجاجة الشمبانيا بالمبرِّد، واتجهت نحو نافذة الخليج لمراقبة حركة المد والجذر.

أغظتها آخر مرة مارسنا فيها الجنس عندما أخبرتها أن احتياجاتها المتزايدة في الفراش تشبه المد الذي يتدفق بقوة، وبتلك الطريقة سنمارس الجنس - كما المد - مرتين في اليوم، لكن لم يحدث هذا.

خططت لرحلتنا بأن نمر أولًا بأنقاض حمامات "سوترو" التي بدت ذلك اليوم خضراء ورائقة وسميكة، كأنها قماش أتى من "كراتشي". شاهدنا البجع الذي بدا كظلال داكنة تجلس القرفصاء، أحيانًا في جماعات من عشرين أو أكثر، فتهجم على الحفلات الماجنة الكثيرة التي تدور بالقرب من البحيرات الصغيرة المذهبة مثل سحب شريرة أو قنابل؛ يخترقون سطح المياه بسرعة ليبعثروا النوارس وطائر "السمامة"، قاذفين إياهم واحدًا خلف الآخر في الشلال الضخم المرعب، كأنهم سرب من القنابل. تسمرنا في مكاننا أمام هذا الغزو.

حركت كاميرتي بحثًا عن جزيرة سجن "ألكتراز" التي تطفو في مكان ما من الخليج، لكنها كانت مغطاة بالضباب. و"ألكتراز" هي الترجمة الإسبانية لكلمة "بجع"، وأتت من الكلمة العربية "القطرس".

كان وجوب الصمت طيلة الوقت هو ما يدفع المساجين إلى الجنون، لأنه يذكرهم أن نفيهم هنا صار كاملًا. حركت كاميرتي نحو الحمامات ثانية، ومن هناك حركتها لتلتقط ظل طيور "الغاق" المتجهمة التي بدت كأنها تراقب هجوم البجع بلا أدنى اهتمام.

- "نادر"، تحدث معي دقيقة دون هذا.

اضطررت ألا أنظر عبر العدسة لأرى ما تشير نحوه، أجبتها:

- دقيقة واحدة.

رحل البجع وتزايد عدد النوارس، رأيت زوجًا منهم يهبط على الصخور المترامية بطول شاطئ البحر، وكان أخف هبوط رأيته، فقد كانت النوارس تدع الرياح تسحبها إلى أسفل بنعومة، في حين حلقت الطيور التي تصدر ضجيجًا بالأعلى، كيف تمكنت تلك الطيور الضئيلة من تحمل تلك الرياح في مكان بهذا الارتفاع؟ جاورتها الكثير من النباتات المليئة بالعصارة بأوراقها الحمراء الشبيهة بالشمع، والمليئة بعصارة كالفلفل الأحمر، والزهور الأرجوانية بقلوبها البيضاء البراقة! بدت عنيدة كطيور "الطنان" التي رأيتها من قبل! والتي رأيت مثلها في صحراء "سونورا" ووديان "الهيمالايا".

- مرت أكثر من دقيقة!

وضعت الكاميرا في الحافظة الخاصة بها، وهي تتنحنح قبل أن تقول:

- هل أنت سعيد هنا يا "نادر" وأنت معي كما كنت سعيدًا وأنت بمفردك في تمشياتك الليلية؟

- بل أكثر سعادة!

نظرتْ بعيدًا، كنا نحافظ على توازننا فوق جدار من الأنقاض، حيث بدت المياه أقل لزوجة، في حين تألقت شمس ضئيلة عن بعد.

تطاير وشاح "فرحانة" البرتقالي عبر النباتات المتحجرة ذات اللون الأخضر الباهت، فأخرجت الكاميرا ثانية. دعتني الآن أصورها أحيانًا، لكن ليس كثيرًا، وبشرط أن تكون مرتدية ملابسها. تمكنت من التقاط صورة جانبية جميلة لوجهها وهي ترمق البحيرات، ربما تتخيلها كمساحة شاسعة من حمامات السباحة ذات المياه المالحة كما كانت من قبل.

وضعت إبهامها عند شفتها السفلية، وتجول الضباب فوق الدرجات الموجودة بالخلفية، قبل أن تسأل:

- أسعد مما كنت في جبال باكستان؟

ربما ترددتُ وهلة قبل أن أجيبها:

- نعم.

أعادت رأسها إلى الوراء، قبل أن تشد الوشاح حول رقبتها وهي تستطرد:

- وأيهما أجمل في نظرك، الصحراء أم الجبال؟

- من الصعب القول.

تسمرتُ وهلة راغبًا في الاستمرار في لعبة عيد الميلاد التي تعتمد على التخمين تلك، وأكملت:

- أحب الاثنين بشكل متساوٍ، وبشكل مختلف!

كيف يمكن أن تقارن بين مساحة أفقية مقفرة مع مساحة عمودية؟ لا سيما وأنها واحدة من أكثر المساحات العمودية التي لا يمكن اختراقها في العالم؟ وما لم أتمكن من شرحه هو أن كليهما كانا يبعثان الطاقة بداخلي عن طريق إبعادي عن نفسي! كأنني أرى العالم من خلف الكاميرا. لم تكن لتفهم هذا، بل كانت تسميه اختباءً، وجبنًا، لكنه لم يكن أيًّا من هذا؛ كان مجرد اختفاء، يمكنني أن أرى بشكل أفضل بتلك الطريقة. شاهدتني أتردد فسألت سؤالًا جديدًا:

- حسنًا، وأيهم يجعلك أكثر سعادة؛ الصحراء، أم الجبال، أم تلك الحمامات المليئة بالرغاوى معي؟

لم أتردد بالتأكيد في تلك المرة وأنا أجيبها:

- أنا سعيد في أي مكان أكون فيه معكِ!

ضحكتْ مجيبة:

- لم تكن في حاجة إلى قول هذا، لكن ما دمت قد قلته، فلماذا تشعر بهذا؟

كنت لا أزال أصورها، فأجبتها من وراء العدسة:

- لأنكِ لا تذكرينني بالماضي الخاص بي!

وبينما أنا أخطو نحو جدار منخفض من الأطلال لأتمكن من أن أُظهر المزيد منها بخلفية الصورة، فكرت في أن ما أخبرتها به هو عين الحقيقة، فهي لم تكن تشبه أي امرأة عرفتها في "كراتشي"، الطاقة التي تشع منها كانت مختلفة بشكل ما، لم تكن الطاقة التي تشع منها حارة رطبة، ولم تكن شرقية.

ها هي تسير مبتعدة عني وعن عدستي، لاحظت مشيتها الواثقة و - كيف أصف الموضوع؟ - تلقائيتها، كأنها لم تكن لديها عمة أو خالة لتخبرها بأن النساء يسرن بقدم أمام الأخرى. لم تكن مشية رشيقة بقدر ما كانت مشية قوية.

هناك رجال عند الحدود الباكستانية الأفغانية يتمكنون من تمييز الصحفية الأجنبية - حتى لو تخفت تحت برقع - من مشيتها. لا بدَّ من أن "فرحانة" ستفشل في اجتياز اختبار كهذا، لكنها على أي حال بوسعها التأقلم معهم على الجبال، في حين لا تستطيع الكثير من نساء "كراتشي" أن ينجحن في هذا، ومع هذا - لم أخبرها بالتالي - فأولئك الرجال لديهم الكثير من الصبر في الفراش، لم تكن "فرحانة" تحب استغراق مدة طويلة، سواء في الطعام، أم التسوق، أم الجنس. الشيء الوحيد الذي رأيتها تتحمل الإطالة فيه كان تسريح شعرها، ولم تكن مستمتعة بهذا. كان كل الترهل الموجود في جسدها مركز في عمودها الفقري، وهو الجزء الذي رفضت إظهاره أمام عدستي، أما أي شيء آخر يخصها فكانت له طاقة خاصة غير معقدة أو عصبية.

كانت "فرحانة" شغوفة بالأنهار الجليدية، أعني هذا بحق السماء. كم من نساء باكستان يعرفن شيئًا عنها؟ كانت "فرحانة" مَن أخبرتني أنه توجد بباكستان أنهار

جليدية أكثر من أي مكان آخر بالعالم، باستثناء القطبين طبعًا، وقد رأيتها! لقد رأيتها حتى وهي تتضاجع!

كانت تبكي، رأيت هذا أولًا عبر العدسة، رأيته متأخرًا للغاية بعدما التقطت الصورة وهي تمسح أنفها بظهر يدها. قالت:

- هذا أسوأ شيء قلته!

حلَّقت النوارس متحركة وسط النسيم، وقبل أن تلمس الصخرة، رأيتها وقد بدأت تنزل وسط المياه، لكن كلما حاولت أن أقترب من مجموعة منها، كانت الرياح تبعدني ثانية.

كنا نحب بعضنا بعضًا؛ أنا و"فرحانة". ولأكون دقيقًا، كانت أسبابنا عكس بعضها، لو كنت أنا أحبها لأنها لم تكن تذكرني بماضٍ، فـ"فرحانة" كانت تحبني لأنها كانت مؤمنة بأنني أنا ماضيها! اقتربت اليوم من فهم ذلك، وبمرور الوقت فهمت بالكامل.

كنا منغمسين في طقوس منفصلة من الصمت. توقعت أنها ستظل بالقرب من الساحل حتى محمية "بوينت لوبوس" الطبيعية، لكنها غيرت اتجاه سيرها وبدأت تتبع العلامات التي تقود إلى حصن "مايلي". لم أقل شيئًا، فلم أعرف ما عليَّ أن أقوله، كيف أعتذر عن كل ما يجذبني إليها؟ ربما كانت وقاحة مني، لأنني حاولت أن أصف من البداية، أو ربما كانت وقاحة منها أن تسأل. كان هذا هو ما تمكنت من قوله ونحن نتسلق إلى أعلى التل:

- هناك الكثير بشأنكِ يجعلني أشعر بالسعادة أكثر مما يمكنني أن أصف.

- تأخرت للغاية، فقد قلتها بالفعل.

ثم غمرنا الصمت.

كان هناك متنزهون مستلقون على الأعشاب، ومن خلفهم لوحة تقول إن هذا نصب تذكاري لما كان يمثل يومًا ما قاعدة إطلاق لمدافع منذ حقبة ما قبل الحرب العالمية الأولى. كان مكتوبًا على اللوحة:

"على الرغم من أنها لم تطلق نيرانًا على عدو أبدًا، فإن المدافع المتراصة على الساحل هنا وفي منطقة الخليج كانت في حالة استعداد كامل لردع أي هجوم".

تمتمت:

- أوه، فقد كان هناك أعداء بالماضي إذًا؟

قبل أن أتمالك نفسي فأستطرد سريعًا:

- لم أكن أعنيكِ أنتِ!

رمقتني بغضب، فوثبتُ على أصابع قدميَّ.

تسلقت إلى أعلى حيث كانت المدافع الضخمة موجهة في وقت ما إلى الخارج نحو الأطلسي، لتحمي الثلاثة مداخل التي تقود إلى "البوابة الذهبية"، كان هناك منظر

علوي لشاطئ المحيط، لكنني عرفت أنها لم تحضرني إلى هنا من أجل المنظر، ودون أن تلتفت نحوي قالت:

- هيا لنعود!

افترضت أنها تقصد أن نعود إلى بيتها الأرجواني الدافئ في منطقة "ماشن". أجبتها:

- هيا بنا!

- هيا نعود إلى الأماكن التي تحبها في باكستان!

صعقتُ، ما دامت لم تذهب إليها من قبل، فلماذا استخدمت لفظة "نعود"؟ ولماذا الآن؟ ولماذا تريد هذا من الأصل؟ عندما قالتها مرة ثالثة فهمت أنها عرضت فكرتها كشرط:

- خذني إلى تلك الأماكن وسأظل أحبك.

أردت أن أسألها: "هل ستحبينني إلى الأبد؟ أيًّا كان المكان؟".

نظرت نحوها بجرأة، بادلتني النظر. كنت أتمنى أن تفهم أن هذا ما تقوله عيناي، لقد أحبها رجل، رجل بوسعها أن تظل معه طيلة الوقت، يفعلان أي شيء تقريبًا؛ السير، الذهاب إلى السينما، تناول السوشي و"التامال" الجواتيمالية، كل هذا في اليوم نفسه، ثم تبادل الحديث عن أب في "بيركيلي"، أب لم ألقه حتى الآن، لأنه - مللت من سماع تلك الحجة - كان غير متوقع في تصرفاته - لم أعرف مَن كانت تحميه فينا من الآخر، هو أم أنا؟ - لكنه أحضرها إلى تلك البلاد عندما كانت في الثالثة من عمرها، واستقر.

لم أفهم لماذا لا تشعر امرأة في الثلاثين من عمرها - نعم، فقد بلغت الثلاثين اليوم، ومن المفترض أن يكون يومًا سعيدًا! - وتتمتع بوظيفة جيدة وبيت رائع في وسط جيرة ملائمة في مدينة جميلة، أن هذا هو منزلها. كل ما فهمته هو أنها لم تشعر به كمنزلها، كانت قد وصلت إلى مرحلة من الحياة تشتاق فيها النساء الأخريات إلى الحصول على طفل، لكن "فرحانة" كانت تشتاق إلى الحصول على بلد!

- أنت ذاهب إلى بلدك خلال الصيف التالي، وأنا أريد الذهاب معك؛ هذا هو ما أريده منك كهدية عيد ميلادي، أريدك أن تعدني.

لكنني لم أرغب في العودة معها، كما لم أرغب في أن أفسر لها أنها ستكون عودة لي أنا فقط وليس لها، أعتقد أن جزءًا كبيرًا من سعادتها لأن تريني تلك الأماكن نابعًا من كونها أماكن جديدة عليَّ، وبمثل هذا المنطق، فإن جزءًا كبيرًا من سعادتي معها عندما أريها موطني سيكون نابعًا من اعترافها بكونه مكانًا جديدًا بالنسبة إليها، لا أن تقول إنه ملك لها!

قضيت العام الماضي أتجول ببطء في شمال "كاليفورنيا"، ويجب أن أعترف أنه ما زال أمامي الكثير لأتعلمه. كم شهر ستحتاج لتكون مستعدة لأن تعيش في باكستان؟

أو كم سنة؟ هل لديها الصبر الكافي للانتظار والاستسلام، حتى تبدأ جغرافيا المكان في تشكيل الإنسان، بالطريقة نفسها التي تشكل الأمواج المتكسرة أسفلنا الشاطئ؟ هل تريد فعل هذا بالأساس؟ طبعًا لا، لقد كان بلدًا تحت الحصار فعليًّا!

"ربما تثير أنت اهتمامنا أكثر من الصور التي التقطتها".

ما الصور التي أرادت أن تراها وما الأرض التي رغبت في العودة إليها؟

كنا سعداء وأردت أن نظل كذلك. قلت إنني ذاهب هناك للعمل، ولم تكن كذبة؛ كانت الخطة أن أقضي الصيف التالي في المناطق الشمالية مع صديق لي من المدرسة يدعي "عرفان" لالتقاط الصور، وعلى الرغم من أنني كرهت أن أعترف بهذا لـ"فرحانة"، فإنه حدث في العام السابق أن لجأت إلى "عرفان" طلبًا للمساعدة لدفع نصيبي من الإيجار، اعتاد "عرفان" أن يرسل لي النقود دون شكوى، على الرغم من أنه من المفترض أن تكون الأمور بالعكس، أي أنني أنا مَن يجب أن يرسل النقود وليس العكس، وحتى أتمكن من إعادة نقوده كنت أضطر إلى العمل ساعات طويلة في حانة على بعد عدة عمارات من شقتي، وقبلت أي عمل يمر من أمامي، وغالبًا ما كنت أعمل مصورًا للأفراح. حدث الشيء نفسه حتى بعد مرور الصيف التالي، مهما كان عدد الصور التي التقطتها للصحراء أو للجبال! لكن رد "فرحانة" أفحمني:

- عمل؟ ما الفائدة؟ لن تتمكن من بيع أيٍّ منها، على الأقل أنا أفهم في موضوع الأنهار الجليدية.

توقفتُ عن العبث بأصابع أقدامي، لكنها استمرت:

- ربما كنت تعود للأسباب الخاطئة.

- وأن أكون مرشدكِ السياحي هو السبب الحقيقي مثلًا؟

وجهت نحوي نظرة جليدية سوداء، من النوع الذي كان مكتوبًا عليَّ أن أتلقاه في العام التالي من شخص آخر تمامًا، في مكان آخر.

كان بوسعي أن أرى خلف "فرحانة" البنادق التي وُجِّهت إلى حقول الألغام الموجودة خارج "البوابة الذهبية"، كم هو سهل أن ترصد الأعداء المختبئين في حركة المد والجزر. نظرت من فوق كتفيها متخيلًا أي أشكال أخذتها تلك الأشباح، لم أستطع أن أخمن أننا خلال أربعة عشر شهرًا سينطلق كل واحد منا في طريقه وحده، ليس على لسان ضيق يطل على المحيط الأطلسي، لكن بالقرب من نهر جليدي يطل على "كشمير".

وبينما نرقد بجانب بعضنا بعضًا بالقرب من نافذتها ذات الخمسة زوايا نلعب لعبة الأضداد هذه، اعتادت أن تسألني:

- ما هو أجمل شيء رأته عيناك؟ أعني أجمل لحظة مرت بك.

كنت أجيبها دائمًا أنها لحظة لقاء الأنهار الجليدية، فقد رأيت ذلك الطقس ذات مرة مع "عرفان" وزوجته "زليخة" في تلك الرحلة السابقة إلى شمال باكستان. حاولت أن أوصل المعجزة إلى "فرحانة" وهي تشد معدتها وتؤرجح ساقيها.

كنت أقول في البداية إن عجائز القرية كانوا يتناقشون حول: في أي مكان من النهر الجليدي سيحدث اللقاء.

يُلتقط لوح الثلج الذي يؤدي دور الأنثى من قرية تقطنها الحسناوات و - لأن الحسن ليس كافيًا - الموهوبات، الموهبة تعني معلوماتهن عن لبن حيوان "القطاس المستأنس"، والزبد، والسماد، وطبعًا الصوف. من القبعات إلى السترات، وحتى الجوارب كانت الأسئلة واحدة دائمًا: ما القوة المناسبة التي يجب أن يُغزل صوف الخراف بها؟ وهل ألوانها جيدة؟ والأهم، هل تتعاون كل النساء؟

ضحكت "فرحانة" وهي تسأل:

- وماذا عن لوح الثلج الذي يُمثل الذكر؟ لا أظن أن الجمال والثقافة يقعان على رأس القائمة عندهم.

أجبتها:

- يُلتقط من قرية أخرى، قرية يكون فيها الرجال أقوياء و - لأن القوة ليست كافية - ناجحين، والنجاح يعني معرفة ما يكفي عن الحطب، والزراعة، والارتحال، ورعاية الماشية. هناك نقطة خامسة تزيد من أسهم الرجل، وهي شعر "القطاس"، ومنه يستطيع بعض الرجال صناعة سجاد "الشارما"، وهو نوع من أنواع السجاد الخشن، والنهر الجليدي الذي سيكون في قرية بمثل هؤلاء السكان سيُصنف على أنه ذكر بالتأكيد.

أرجحت ساقيها بسعادة داخل جوربين من الصوف:

- وأين يعبِّر الذكر والأنثى عن حبهما؟

أجبتها:

- في حفرة تُحفَر في جانب الجرف.

أخبرتها أنه احتفال لم يُسمَح لي بمشاهدته إلا بعدما أقسمت ألا أفشي بما سأراه فيه؛ كان هناك اعتقاد بأن الكلمات تخل بالاتزان الموجود بين الحبيبين. ربما كنت أنقض عهدي هذا بوصفه لها بكامل تفاصيله داخل بيتها الأرجواني، على بعد أميال من الأرض المقدسة التي ينتمي إليها الاحتفال. استطردت:

- يُختار مكان الحفرة بعناية كما يُختار العريس والعروس، ويُقاس ويُحدَّد أي جانب من الجبل يجذب المقدار الصحيح من الظل، ليتمكن الجليد من التماسك عشرة شهور، على مسافة 14,000 قدم تحت سطح البحر يرفع حاملان لوحيَّ الجليد على ظهريهما طيلة الطريق. ذهبنا في سيارة "چيب"، بعدما أقسمنا القسَم السابق.

تذكرت "زليخة" وهي تقبل وجنة "عرفان" في عجالة، بعدما تأكدتْ أنه لا يوجد مَن ينظر نحوهما، كانت ذات شعر مموج يصل إلى كتفيها، وسمات وجهها تبدو لي أحيانًا كالجان مثل ملامح "عرفان" نفسه. كانا جارين في "بيشاور"، وقد ارتادا الكلية نفسها في "كراتشي"، وأحبا بعضهما بعضًا منذ كانا في السادسة من عمرهما، ولسببٍ ما تذكرت الفتاة التي كنت معها في ذلك الوقت، "ريدا"، والتي يعني اسمها "السلام الداخلي"، كانت تضع طلاء شفاه له رائحة النعناع المحترق، أطعمتها ذات مرة بعض الزهور الأرجوانية التي تركت علامات حمراء كالدم على شفتينا، وبالطبع أغفلت عن ذكر تلك النقطة لـ"فرحانة".

وقفنا جميعًا في الانتظار عند حفرة التزاوج، أنزل الحاملان العريس الثلجي والعروس الثلجية دون تجريحهما، ألقيا بالذكر أولًا. هووشوو! هووشوو!

بدت دفقة من الهواء كأنما تتراقص فوق الفتحة - حيث وُضِع لوحا الثلج - التي سيحدث عندها اللقاء التزاوجي قبل أن تجول داخل صدري. ألقوا بعد هذا العروس الأنثى الثلجية فوق الذكر، فسقطت فوقه في صمت. اعتقدته شيئًا جميلًا، أجمل شيء رأته عيناي، كأنهما ارتحلا مسافة طويلة بحثًا عن الحب. أخبرونا من قبل أنه فأل سيئ لو شاهدته عيون أخرى من مكان آخر؛ عيون من "كراتشي" مثلًا أو من "بيشاور"، لكن حتى في ذلك الوقت لم أستطع المقاومة، كنت أخرج كاميرتي وألتقط الصور، فهل جلب هذا علينا الحظ السيئ الذي قالوا عنه؟

أغفلت ذكر هذه النقطة كذلك.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

تقلبتْ لتصبح على ظهرها، وقالت إن صورة الثلج التي تمثلت أمامها جعلتها تشعر بالعطش؛ وضعت أكوابًا مبللة في المُجمِّد لنشرب البيرة فيها لاحقًا.

أخبرتها بالباقي؛ انتظر الكبار في أدب النهرين الجليديين من الذكر والأنثى لينتهيا من فراشهما الزوجي، وبعد هذا، حجب الحاملون الحفرة بحصيرة من العشب وقشور القمح وقشور عين الجمل التي سيزيلونها في الشتاء، ومن ثَمَّ يتجمع الجليد من حول العريسين الثلجيين مجددًا. عندما تسمن الأنثى يخرج أطفال مصنوعون من المياه الرائقة من رحمها، فتشربهم القرية بأكملها ويروون حقولهم منهم. بعد مرور خمسة مواسم شتاء، يبدأ الزوجان في الزحف أسفل التل ككتلة واحدة ليصبحا نهرًا جليديًّا طبيعيًّا. كنت أستمتع دائمًا عندما أسألها:

- وأنتِ، ما أجمل لحظة مرت بكِ؟

لم تتردد وهي تقول:

- الطريقة التي نظرت بها إليَّ أول مرة، عندما كنت تقف في الأسفل عند الرمال في شاطئ "بايكر" مرتديًا بنطالك، ورقدت أنا لأحظى بحمام شمس بين الصخور، عندما قارنتني بزهور زنبق "الكالا"؛ تلك هي اللحظة!

في أول مرة قالتها اضطررت إلى النظر بعيدًا.

هل أنا حقًا أفضل شيء حدث لها؟ أنا! لا أظنني أستحق كل هذا القدر من الحظ! أعرف أنني لا أستحقه! وإلا كنت اعتبرت أكثر لحظات حظي هي عندما لعبنا معًا عند نافذتها وحصلت على حبها المباح، كانت تلك هي أجمل لحظة مرت بي، لم يشهد تلك اللحظات غيرنا، كنا الوحيدين اللذين عشناها.

صرنا نلعب بطريقة مختلفة الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جن وجنية

يتقلص حجم الأنهار الجليدية في "الهيمالايا" الشرقية.

يقول البعض إن جبال "الألب" ستكون خالية من الجليد بالكامل بحلول عام 2100، وستذوب أنهار "جرين لاند" الجليدية بسرعة شديدة لدرجة أنها ستغرق جنوب "كاليفورنيا" وبنجلاديش، لكن في بعض أجزاء باكستان ربما تتمدد الأنهار الجليدية، وهي الفرضية التي حاول كل من "ويس" و"فرحانة" استكشافها.

بالنهاية تركنا كوخنا، وإن لم يكن في وقت مبكر كما كنت أرغب. قرر "ويس" و"فرحانة" التهام طبق "الأومليت" البارد الخاص بي، ربما كان الهواء هو ما يثير جوعهما.

بعد ساعة، وبينما أنا أشاهد "فرحانة" تترك النهر الجليدي لتصل إلى بحيرة "سيف الملوك" مع "ويس"، خشيت أن يكون حبها لي كالأنهار الجليدية الباكستانية؛ كان من الصعب تحديد أحجمه يتزايد أم يتقلص.

ما الذي تحبه في تلك الأنهار الجليدية؟ فهي ليست مظللة أو مخفية، ولا توجد بها مستنقعات، وإنما مجرد سطح رقيق قابل للانزلاق عليه. على عكس "فرحانة"، كانت الأنهار الجليدية تتحرك ببطء شديد، ويصيبها الركود ونوبات كثيرة من الغضب الشديد، وما بين لحظات الركود والاندفاع تلك، كانت تلك الأنهار تصدر الكثير من الضجيج والهدير، وهي تحاول تحريك عظامها العجوز، وعلى عكس "فرحانة" أيضًا، تسير هذه الأنهار متباطئة عن قصد وكأنها شبح، والواقع أن "فرحانة" تباطأت بما فيه الكفاية في تناول ذلك البيض اللعين في أثناء الإفطار!

لا بدَّ من أن القواقع وُلدت من الأنهار الجليدية. ذات مرة أعددت "كولاجًا" لصورة نهر جليدي مليئًا بالكثير من القواقع التي بدت كأنها فضلات النهر الجليدي، هل كان هذا هو مصدر انجذابها إليها؛ أنها تقدم لها ما تفتقر إليه؟ الجذور الراسخة العميقة؟ أم هي رفض للعالم الحديث؟

وجدت هنا في الأرض التي "عادت" إليها أنهارًا جليدية تغلبت على الانبعاثات الغازية العالمية، والحداثة المرفوضة من جانبها، لكن هذا لم يكن حقيقيًّا طبعًا، فنمو الأنهار الجليدية وتقلصها كانا مؤشرين متساويين عن ظاهرة الاحتباس الحراري كما كانت تحب أن تذكرني، ولو كانت الأنهار الجليدية تنمو في العالم القديم، فهي تنمو كذلك في العالم الحديث، فنموها يزداد في جبل "شاستا" في شمال "كاليفورنيا" على سبيل المثال، وقد أتت "فرحانة" إلى هنا لمقارنة معدل النمو في "الهيمالايا" الغربية مع معدلها في السلاسل الجنوبية. هذا غير "العودة" طبعًا.

هناك آخرون قرروا الارتحال صاعدين الأنهار الجليدية معنا، بالإضافة إلى خط من سيارات "الچيب" التي اتجهت كلها إلى البحيرة، في حين امتدت وراءهم قطع صغيرة بنية عبر الأفق الأبيض اللامع الممتد؛ إنها القواقع!

انزلقت السيارات "الچيب" عبر الجليد، في حين يدور سائقوها - الذين ابيضت أصابعهم من البرد - بعجل القيادة الذي قاومهم كأنه قطيع من الجياد الهائجة! كانت هناك نقطة على يميننا على بعد آلاف الأقدام بالأسفل في النهر. نظرت من فوق الحافة، هناك حافلة مدرسة ترقد على جنبها. سمعت سائق إحدى سيارات "الچيب" يخبر ركابه أن الحادثة كانت منذ يومين فقط، ولم ينجُ أحد!

غلفتنا هبة من دخان الحشيش، وأكملت "الچيب" طريقها إلى أعلى. انحنى "عرفان" على الحافة قائلًا:

- لا بدَّ من أن تلاميذ المدرسة كانوا يستمعون لمدرستهم وهي تقص عليهم كيف حصلت البحيرة على اسمها الحالي، والحافلة تنزلق على الجليد!

رددت عليه:

- يا له من خاطر مبهج!

- لا بدَّ من أن المدرسة وصلت في حكيها الجزء الذي يقع فيه الأمير في حب أميرة الجنيات.

ثم أضاف في سعادة:

- أو الجزء الذي يحكي عن الجن!

نظرت نحو "عرفان" الذي شعرت لحظتها أن مظهره يجعله يبدو كجني هو الآخر، بلحيته المدببة وعظام وجنتيه الحادة، باستثناء عينيه اللتين بدتا قاسيتين من فرط الحزن وانتمائهما إلى هذا العالم.

كانت لديه طريقة معينة في الانحناء بكتفيه وزم شفتيه عندما يتذكر كل ما تسبب في ألمه، وهو ليس بالقليل، فقد ماتت زوجته "زليخة" بعد زواجهما بقليل في أثناء هجوم مسلح على السيارة في "كراتشي"، وهي في طريقها إلى المنزل عائدة من حفل زفاف حضرته مع أخيها، أطلق المهاجمون النار عليهما معًا قبل أن ينطلقوا في طريقهم بسيارتها "الهوندا سيفيك"!

كان "عرفان" بالقرب من "كاجان" عندما حدث هذا يعمل على مشروع إدارة المياه لحساب شركة نرويجية، حدث الأمر قبل ظهور التليفونات المحمولة، ومن ثَمَّ عندما عاد إلى "كراتشي" كانت زوجته قد دُفِنت بالفعل! لو كان يعيش في أمريكا لقال طبيبه النفسي إنه يحتاج إلى وضع نهاية لتلك القصة!

أما في باكستان فهو يحتاج إلى الله، لكنه فَقَدَه عندما فَقَدَ زوجته، وقد جعلته وقفته الصامتة - التي يستغرق في أثنائها بالتفكير - يبدو كرجل لا يشبه "عرفان" الذي ذهبت معه إلى المدرسة على الإطلاق! جعلته شخصًا آخر غير الذي سافر معي عبر تلك الوديان من قبل لنرى تزاوج الأنهار الجليدية معًا. فكرت في أن تذكر "عرفان" كونه أتى مع "زليخة" إلى هنا من قبل هو ما جعله يغير خطته – ليتجول عند "كاجان" - أعتقد أن السبب لم يكن لأن "فرحانة" تحب الغابات على الإطلاق. تمتمت:

- تغيرت الكثير من الأشياء منذ كنا هنا آخر مرة.

ابتسم ابتسامة بدت لي شيطانية إلى حد ما، كما لو كان يقول: "كل هذا حدث من أجل سيارة هوندا سيفيك".

بينما أرفع ذراعي كما لو كنت سأعرض شيئًا، كدت أنزلق، فجذبت سترته لأستعيد توازني، وسرعان ما وجدنا أنفسنا على بعد بوصتين من الحافة!

- لا توجد مَن تستحق السقوط من أجلها، ولا حتى أميرة من الجنيات!

رنت ضحكته ونحن نبتعد عن الحافلة لنتبع "فرحانة" و"ويس" وهما يصعدان النهر الجليدي، كانا يسبقاننا بمسافة، وقد بديا كهيئتين طويلتين استطعت تمييز كل واحد منهما من ألوان معاطفهما، فقد ارتدت "فرحانة" معطفًا ذا نقط حمراء، في حين ارتدى "ويس" واحدًا أصفر كالخردل، وقد شتتت نهاية ضفيرتها ضوء الشمس أمام مجال رؤيتي كوهج من الضوء يشتت المنظر الموجود أمام عدسة كاميرا. غالبًا كانا يدونان القراءات التي تمر بهما في طريقهما، وقد بدا أن الناس تراقبهما. سرت في الطريق الترابي الذي ترك حذاؤها آثاره عليه، في حين بدأ النهر الجليدي يتشقق. بدا أن في الجليد الموجود أسفل أقدامنا ضغطًا مخزنًا لا يمكن تصوره.

بينما كنا راقدين على الفراش في كوخنا هذا الصباح - قبل مجيء "عرفان" و"ويس" - أخبرت "فرحانة" قصة عن الجن والحبيبين. رقدت على ظهرها، وحركت ساقيها في الهواء.

قبل أن تسحب الأغطية فوقها كنا عاريين معًا خلال تلك اللحظات القليلة، نستمتع بالدفء الذي ما زلنا نحتفظ به فيما بيننا، كنت سعيدًا لعدم وجود أطباق لنغسلها، ولا بريد إلكتروني لنتفقده، وإلا لم أكن لأتمكن من الاحتفاظ بها بجانبي مدة كافية لأتمكن من الهمس بتلك الحكاية في أذنها.

- وقع جني في حب أميرة من الجنيات، كان الجني حارسًا على "مليكا بربت"، الجبل الذي يحيط بالبحيرة.

- وما معنى كلمة "مليكا بربت"؟

- معناها "ملكة الجبال".

- حسنًا، استمر.

- تدعى أميرة الجنيات "بدر جمال"، عاشت في المياه، وكانت ذات لون فضي. اعتادت القفز داخل البحيرة وخارجها، لتتمدد بسعادة على "مليكا بربت"، واعتاد الجني مشاهدتها. المشكلة أن هناك أميرًا بدأ يشاهدها هو الآخر، كان يدعى "سيف الملوك"، وقد أتى من عند المنخفضات.

- إذًا فقد سُميت البحيرة باسمه هو وليس باسمها هي.

- بالضبط.

- استمر.

- بالنسبة إلى "بدر جمال" كان لدى الأمير كل ما يمكن أن يتصف به رجل؛ يمتطي حصانًا، والأهم أنه أتى من بلد بعيد، في حين كان الجني مجرد شيء معتاد تراه طيلة الوقت. يمكنكِ تخيل ما حدث.

رفعت ساقيها حتى فخذي.

- سيطر الأمير الأجنبي على عقلها بحياة مليئة بالمغامرات، لم تكن حياة هادئة لأكون صريحًا، كان الجني شريرًا غيورًا، وقد أذاب جليد "مليكا بربت" بقوة، لدرجة أنه تسبب في فيضان البحيرة وكاد يغرق الحبيبين تعيسي الحظ.

- كاد؟

- من حسن الحظ كان هناك كهف هربا إليه.

- إذًا، فقد تسبب الجني في ذوبان الجليد؛ الجني هو زيادة الحرارة على الأرض؟

- لا، الجني روح شريرة لا يمكنها أن تختبر الحب أو السعادة، ويتعذب عندما يرى آخرين يحظون بهما. الكهف هو أملنا الوحيد.

ضحكت قائلة:

- ألا تعتقد أن بين الذكاء الطبيعي والعلوم توازنًا؟

أجبتها وأنا أنفخ بخفة على جلدها:

- لا، بل أعتقد أن بينكِ وبين الجنة توازنًا.

سألت "عرفان" ذات مرة ونحن عند النهر الجليدي:

- هل عثرت على ذلك الكهف؟

كنت أسحب نفسي متناسيًا تلك الذكرى الجميلة في ذلك الصباح، وأكملت:

- أريد أن أريه لـ"فرحانة".

- أي كهف؟

- أنت تعرف مقصدي؛ الكهف الذي لجأ إليه "سيف الملوك" وأميرة الجنيات عندما تملكت الغيرة من الجني الغيور.

ابتسم "عرفان" مجيبًا:

- ذلك الكهف!

نظر نحوي بطريقة لم أفهمها، ثم أكمل:

- نعم، أعرف مكانه، لكنه بعيد عن هنا. ستحتاج إلى موافقة "فرحانة".

وهنا فهمت نظرته، كان "عرفان" القديم سيقبل الحب الموجود بيني وبين "فرحانة"، ربما يكون مترددًا، ولكنه لن يصدر أحكامًا.

تجاهلت تعليقه ونظرته، وركَّزت انتباهي على "مليكا بربت" التي لاحت بعيدًا بالأفق.

ارتفع الجبل أكثر من5000 متر، وهو طول متوسط لو قارناه بالعمالقة الموجودين في الشمال، لكن ما يجعله مميزًا لدرجة تسلق الناس كل تلك المسافة لرؤيته هو انعكاسه الذي يظهر على سطح البحيرة التي تقع على بعد ثلاثة آلاف متر فوق مستوى البحر، ولأن تلك البحيرة سُميت باسم أمير غريب. أخرج "عرفان" تليفونه المحمول من جيبه وقطب وجهه قائلًا:

- لقد فقدنا كل شبكات الاتصال.

- جيد، لقد تركت تليفوني في "كراتشي"، ولم أشتق إليه ولو مرة واحدة.

تمتم "عرفان":

- ليس الموضوع جيدًا لتلك الدرجة.

زدت من سرعتي وتركته مع تليفونه المحمول متجهًا إلى النهر الجليدي الذي امتلأ بالسائحين والمهاجرين، لم أستطع تمييز "فرحانة" من بينهم.

"اعتنِ بها، فهي كل ما لديَّ!"، هكذا أمرني والدها قبل رحيلنا.

حلقت الشمس فوقنا مباشرة، والتمع معطفها الأحمر بغير انتظام فوق أفق جليدي صار شديد البياض، لدرجة أنني كدت أشعر بالشكر للقاذورات التي تخلفت عن هؤلاء الذين مروا من قبلنا من هنا، فعكرت مخلفاتهم جمال النهر الجليدي الناصع لدرجة مؤلمة، كنت أعود أحيانًا إلى الساحل وحيدًا دائمًا في الأسابيع التي تلت شجارنا بالحصن، جزء صغير بداخلي كان يعرف أنني أفعل هذا لتنظيف عينيَّ، كما لو كنت أفعل هذا لإعادة إحياء ما فقدته عندما أصرت "فرحانة" على مصاحبتي في المجيء إلى هنا.

كانت عيناي جائعتين، فصوَّرت أشجار الصنوبر الموجودة في "مونتيري" ووادي "كويركوس"، ونباتات الصبار التي تمكنت من أن تتكاثر في وجه الموت، والحانات التي حلت محلها، بالإضافة إلى أشجار "أبو فروة" الموجودة في "كاليفورنيا"، والتوليب النجمية، والنباتات التي تشبه آذان القطط ذات الشكل الجرسي بأعناقها الرفيعة كاللعاب، بالإضافة إلى ورود ذهبية على شكل أجراس، وزهور الزنبق التي أعتبرها أجمل أنواع الزهور؛ ذات اللون الأصفر كأنها الشمس المتثائبة. كيف استطاعت كل تلك النباتات النجاة من رياح المحيط الأطلسي العنيفة؟ لماذا لم تتكسر الأعناق أو تسقط البراعم؟ لقد نمت عند حافة الفوضى، في صوبة من شجر "السرو" المعقودة، وأنا لست إلا مجرد دخيل، كذئب رمادي بفراء خشن، وقد تقوس عنقه تجاه القمر البعيد. زحفت عائدًا إلى منزلها، انحنيت على زجاجها هامسًا:

- مرآتي يا مرآتي؛ اغفري لأقبح مَن في المدينة!

لكنها لم تسمح لي بالدخول.

ذات مرة رأيت عبر ذلك الزجاج رجلًا داكن البشرة ضئيل الجسد يقترب من الباب، وعرفت أنه سيتمكن من فتحه، لكن قبل أن يفتحه، سمعت صوت "فرحانة" تصيح:

- بابا!

لكنه التفت مبتعدًا.

وفي مرة أخرى، توقف رجل أبيض طويل القامة عند الباب، ولم تكن "فرحانة" موجودة وقتها، ظللنا نرمق بعضنا بعضًا من خلال الزجاج، وأخذت صورته تتموج كما لو كان ينظر إليَّ من أسفل طبقة من المياه، قبل أن يسبح مبتعدًا.

عملت ساعات طويلة في حانة للخمور يائسًا من محاولة النجاح كمصور للمناظر الطبيعية، حتى لو كانت تلك المناظر هي قمة طاولة أمي الرخامية. "ما الفائدة؟ لن تبيع أيًّا منها"، ربما كانت محقة في كلامها! سمحت لي الحانة بعرض مواهبي كمصور أفراح، وهو المجال الذي حققت به سمعة معقولة. يا للسخرية! يقطع باكستاني كل تلك المسافة إلى أرض الفرص الموعودة، لينتهي به الأمر وهو يلتقط صور العرائس، كما لو لم تكن هناك عرائس كافية في بلده. بدا أن النساء، باستثناء "فرحانة"، أحببن أن ألتقط صورهن.

ثم دخلت "فرحانة" ذات ليلة إلى الحانة مبتسمة، حدث الأمر بهذه البساطة، قضينا الليلة برمتها نبتسم لبعضنا بعضًا، ابتسمنا طيلة الليل، وخلال الأيام التالية لم نتبادل إلا كلمات قليلة، ولم تكن تتعدى أسئلة من قبيل:

-كيف حال عملك؟

- بخير، كيف حال عملكِ أنتِ؟

وعندما أُضيفت المزيد من الكلمات إلى حديثنا بعد عدة أيام، كانت عن والدها. صارت جاهزة أخيرًا لتعرفني له.

رتبت اللقاء ذات ظهيرة من شهر أكتوبر، قبل موعد رحيلنا المفترض إلى باكستان بثمانية أشهر، على الرغم من أنني لم أكن أعرف أننا سنرحل معًا بعد، لم نجرؤ على زيارة المكان الذي حاولت أن تنتزع فيه مني وعدًا بزيارته في عيد ميلادها في مايو، على الرغم من أنه ملأ الهواء من حولنا بطريقة أصعب احتمالًا من الضباب.

بينما كنا نسير نحو محطة "بارت"، شعرت أنني لا أتطلع شوقًا إلى تلك الزيارة، فقد ظللتُ في حالة من التشكك بخصوص والدها غريب الأطوار هذا منذ مدة طويلة للغاية، لدرجة أن الأمر بدا لي وكأنني في حاجة إلى اجتياز امتحان ما؛ لدرجة أنني فكرت في ارتداء ربطة عنق، ربما كان هذا جزءًا من ترميم علاقتنا، لكنني لم أستطع التوقف عن التفكير أنها كانت أخيرًا تسمح بحدوث ذلك، والأسوأ أن يكون هذا السماح هو طريقة منها للحصول على موافقتي. صار لشجارنا وجودًا ملموسًا،

أصبح يسير جانبنا طيلة الطريق إلى المحطة، طالبًا أن نظل نحمله في عودتنا. بدا الأمر كأنها تقدمت للزواج مني، إذ ستكون جملة "خذني إلى الوطن" بمنزلة قبولي بالزواج، "خذني إلى الوطن" للمضي قدمًا.

فكرت للمرة المليون - تبًّا - في أن الأمر لا يمثل عودة بالنسبة إليها من الأصل! لو قلت لا، ستمضي هي إلى الأمام وتتركني. حشرت يديَّ في بطانة معطفي - الواقي من الرياح - الممزقة، وقد بدأ انزعاجي يتحول إلى غضب.

أهذا هو ما يكون عليه الزواج؟ تقديم معروف مقابل الآخر، في حين أن واقع الأمر أنه معروفان مقابل لا شيء؟ أهو أن تجمع قطع اللعب الخاصة بك وتخفيها حتى تضمن أن تربح الدور؟ أم أن تعيش طيلة حياتك في لعبة "ما هونج" الصينية اللعينة؟

نظرت نحوها لأجد ابتسامة تشق طريقها لتغزو فمها، لم تكن ابتسامة مكر، بل ابتسامة حلوة. لم أجد لمزاجي المعتل تفسيرًا، سحبتها نحوي؛ "أحبكِ"، ثم قبلة، بدأت تضحك قبل أن تقول:

- ليس بوسعك تقبيلي هكذا أمامه.

- إذًا اتركيني أقبلكِ هكذا الآن.

- حسنًا.

وبعد وهلة من الصمت استطردت:

- يجب أن أحذرك من أنه يكون غير متوقع التصرفات أحيانًا.

-حذرتِني من هذا كثيرًا بالفعل، لن تتمكني من جعلي مرعوبًا أكثر من هذا.

-مرعوب؟ لماذا؟ إنه رجل رائع.

- رائع؟

- حسنًا، المشكلة فقط أنه لا يمكن التنبؤ بـ...

أومأت برأسي مكملًا:

- تصرفاته. فهمت، لكن هذا لا يمنع أنه رائع، وأنه من الممنوع تقبيلكِ أمامه.

- وأحيانًا يتحدث كثيرًا، وأحيانًا أخرى يبتسم للفراغ.

- وصفكِ له يجعله يبدو معتوهًا!

- أوه، لا تجعل هذا يخدعك، هذا يعني فقط أنه يُقيِّمك. لم يتزوج ثانية بعد أمي.

- لقد أخبرتِني بهذا من قبل.

-أنا ابنته الوحيدة، لم تكن تصرفاته جيدة مع أصدقائي السابقين.

على الرغم من أنني سمعت هذا أيضًا من قبل، فإن سماعه ثانية لم يكن مطمئنًا على الإطلاق!

حاولت أن أشتت انتباهي عن هذا الموضوع عن طريق قصص حكتها لي كثيرًا من قبل عن والدتها، والتي كانت تحتفظ بصورة لها فوق فراشها داخل إطار منحوت من خشب "الصندل" الذي تصاعدت منه رائحة المسك، فكان يذكرني على الدوام بجدتي، كانت تدعى "جوتا"، أتت من مدينة "بافاريا" الألمانية، كانت ذات أصول من مجموعة "الكلت" الأوروبية، اعتاد والد "جوتا" الكاثوليكي المتجهم على الدوام أن ينتابه السخاء كل فترة، فيصطحب العائلة في رحلة إلى قلعة "كالتنبيرج" ليتذوقوا البيرة الخفيفة الداكنة التي تُصنع هناك منذ أيام الملك "لودفيك"، كانت "فرحانة" تشبه جدها في كونها تستمتع بالبيرة أكثر من أي شخص عرفته في حياتي، وتحب أن تتذوَّق عينات من مختلف أنواع البيرة في الحانة التي أعمل فيها، وكلما كان طعمها مشابهًا للشوكولاتة المُرة أحبتها أكثر.

أتت "جوتا" إلى "كراتشي" عندما أصبح زوجها الأول مديرًا لمعهد "جوتة"، وكان والد "فرحانة" موسيقيًّا موهوبًا حسب وصفها وعازف طبلة. في حفلة موسيقية أقيمت بالمعهد ذات ليلة كان العازف وليس المعزوفة هو مَن سحر السيدة الألمانية، وقد حولتهما علاقتهما إلى كائنين شاردي الذهن حتى قبل أن تولد "فرحانة"، بعدما تركت أمها زوجها الأول بشهور معدودة. لم يرد والدا "جوتا" على أي من خطاباتها، في حين لم يسامح جداها لأبيها، اللذين توفيا حديثًا، ابنهما أبدًا على هذا الزواج!

ترجلنا من القطار في "بيركيلي"، وبعدما مررنا بثلاث بنايات لمحت "فرحانة" والدها على كرسي بالقرب من نافذة في حانة مظلم لا تختلف عن تلك التي عملت فيها. ظننت أنني سأستطيع تمييزه بناءً على المرة التي رأيته فيها من خلال الزجا، وهو يقترب من الباب الأمامي، هل كان ينوي وقتها السماح لي بالدخول، أم الصراخ عليَّ؟ أم كلاهما؟ قالت:

- لقد زادت وفاة جدي من غرابة تصرفات أبي، لقد حكيت لك ما حدث بينهما، أقصد بسبب أمي.

شبكت ذراعها في ذراعي؛ لم تكن قبلة، لكن لا بأس، أفضل من لا شيء، وقالت:

- على الرغم من أنه لم يكن لطيفًا أبدًا مع أصدقائي من قبل، لكنني أعرف أنه سيحبك.

كانت محقة، فقد كان الأمر متبادلًا، في البداية على الأقل.

لم تحمل محادثتنا أي أثر لـ"ما الذي تراه ابنتي فيك؟" وهو السؤال الذي كنت أخشاه. في الواقع لم نتحدث عنها على الإطلاق، على الأقل في البداية، وهو الأمر الذي أثار ذعر "فرحانة". بعد أن صافحني، جلس ثانية وهو يمد ساقيه الطويلتين داخل بنطاله الواسع قائلًا:

- بحق السماء! لا تدعوني بسيد "رحيم"، نادني بـ"نياز"!

تخيلت منظره وهو يقول الجملة نفسها، ويسترخي على كرسي بالرشاقة والتباسط أنفسهما اللذين لا يوجدان لدى "فرحانة"، وهو في "كراتشي" بمنتصف السبعينيات، خارج واحد من محال الشاي في منطقة "صدر" التي اكتظت بالشعراء والثوريين. لا تزال لديه هالة "الهيبيز" الآتين من "صدر" حتى بعد مرور ثلاثين عامًا. في الواقع، لا يزال يحتفظ ببنطال الچينز نفسه الذي سقط عن وسطه، وقد أرخى حزامه بطريقة مضحكة، ليجبره على جذب بنطاله كلما تحرك، جعله هذا كوميديًّا وحساسًا، ربما هذا هو السبب في كون النساء يتركن أزواجهن من أجله. بدت البيرة التي يشربها، والتي كان اسمها "الغزال المجهد" متماشية مع مظهره، وقد طلب فنجانًا من الكابتشينو بجانبها، وطلبنا نحن الاثنين فنجانين من القهوة. نظر نحوي قبل أن يقول:

- أين كنت مختفيًا طيلة تلك المدة إذًا؟

نظرت نحو "فرحانة" التي تطوعت بالإجابة:

- أنت تعرف كم يعمل جاهدًا.

أضفت أنا:

- أنا غير متوقع التصرفات.

لكن "فرحانة" قرصت ركبتي من أسفل الطاولة!

أنهى بيرته وهو يبتسم ابتسامته نفسها. سألته عن أخبار صحته؛ كان واضحًا أنه يعاني مرض السكري. طلب كوبًا ثانيًا من البيرة، تبادلنا بعض الحديث عن نظامه الغذائي لأنه طلب بطاطس مقلية كذلك، لكنه لم يبدُ كمريض سكري على الإطلاق.

كان جسده لا يختلف عن جسد أي قارع طبول شاب، مثل مغني الراب الأمريكي "ليل واين" مثلًا، في حين بدا وجهه كنسخة شديدة النحول من الممثل الأمريكي "كريس كريستوفيرسن". شعرت بالذهول عندما مزجت هذين الشخصين معًا، وبدا لي الناتج قريبًا من صورة المسيح، واضح أنني كنت مذهولًا أكثر من اللازم، لدرجة أنه عندما سألني سؤالًا هززت رأسي دون سماعه. عندما وصلت البيرة الثانية دفعتها "فرحانة" نحوي، رمقتها كما لو كنت أريد أن أقول: "لماذا لا تتناولينها أنتِ؟"، لكنها تجاهلتني. مضغ والدها نهاية الغليون الخاص به، وكان الكابتشينو الموجود أمامه قد برد.

- ما هي إذن؟

سألته محرجًا:

- آسف، ماذا؟

أجابني مقطب الجبين:

- سألتك أكان والدك يرفض عملك لأسباب دينية.

أطلقت نظرة نحو "فرحانة". تحب دائمًا أن تخبر الجميع أن عملي موضوع شائك، وطبعًا يشعر الجميع بالفضول لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع الشائك! تنحنحت مجيبًا:

- لم أفكر في الموضوع بتلك الطريقة أبدًا.

- لا بدَّ من أنه افترض أنك ستفعل؛ الابن الصالح لا بدَّ من أن يفكر لماذا نهى الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن التصوير، ومنع الفنون التصويرية في العموم، أليس كذلك؟

فتحت فمي دون سبب، فوجه نحوي ابتسامة أظهرت أسنانه قبل أن يستطرد:

- أنا الآخر لم أكن ابنًا صالحًا تمامًا.

أخذ رشفة من الكابتشينو مكملًا:

- ألم يعودوا يصنعون مشروبات ساخنة كما يجب هنا؟!

نحى كوبه جانبًا، ومد يده نحو بيرته (أم هي بيرتي؟)، وأكمل:

- وهو الأمر الذي أسعدني كثيرًا، فقد مكنني من تصوير والدة "فرحانة" العديد من المرات قبل وفاتها، قبل أن أعرف أنها على وشك الموت.

استمر في امتصاص نهاية غليونه المطفأ في صمت.

نظرت نحو "فرحانة" ثانية، فلم يكن قد خطر لي أن الصورة التي تعتلي فراشها من تصوير والدها، ولم أفكر في سخرية القدر تلك.

حتى الآن كانت تقدس الصورة، لكنها لم تكن لتسمح لي بتقديسها هي بما يكفي. حركت "فرحانة" البيرة ثانية نحوي قائلة:

- هيا نذهب إلى الخارج ليتمكن أبي من التدخين.

ضحكت في سري لفكرة أنها تبذل جهدها لتمنع موته من مرض السكري، لكنها لا تهتم لو مات بسبب مرض السرطان حتى. حملت قهوتي - التي كانت ثقيلة للغاية كما اعتدت أن أشربها - وتركت البيرة الثانية بالداخل. استقررنا حول طاولة صغيرة في الممشى، لم يكن هناك حليب، وشعرت أنها ستكون فظاظة مني لو عدت إلى الداخل لأحضره. لماذا يصنع الأمريكيون قهوة ثقيلة هكذا كالطين، وشايًا خفيفًا كالمياه؟ عندما نظرت نحو السيد "رحيم" وجدته يرمقني من فوق غليونه الذي أشعله، وقد وُضع أمامه تل من البطاطس المقلية. قال:

- أتعرف أن والدي لم يسمح لي أبدًا أن ألتقط أي صورة له؟ كان يقول إنه يمكنني أن أستنسخ الصورة، لكن لن يمكنني مهما فعلت أن أستنسخ الروح.

قالت "فرحانة":

- الجو هنا بالخارج أدفأ كثيرًا من المدينة.

كرر السيد "رحيم" كلماته:

- لا يمكنك مهما فعلت استنساخ الروح، كل صورة تنزع الجسد من الروح، كان يرى اللوحات والصور مجرد سرقة، مجرد وسيلة لامتلاك الآخر، وربما تدميره!

قاطعته "فرحانة":

- أبي، لا تثير ذعر "نادر"، فهو يتلقى انتقادًا كافيًا على عمله.

أدهشني هذا، فتحويل المحادثة عن جدها المتوفى لتحمي والدها شيء، لكن اتخاذي أنا كذريعة شيء آخر تمامًا! دخلت لأحضر الحليب، وعندما عدت إلى الخارج ثانية كان والدها هو مَن حاول هدم الجبل الذي جثم على صدري فقال:

- أعتقد أنكِ تزعجينه أكثر مني باعتقادكِ أنه من السهل إثارة ذعره.

ابتسمت له قائلة:

- هل تريد فنجانًا آخر من الكابتشينو؟

طرق على فنجانه مجيبًا:

- ابتسامتكِ تبقي هذا الفنجان دافئًا بما فيه الكفاية.

بدا عليها الرضا لهذا الإطراء، فانحنت عبر الطاولة وقبلته. التفت نحوي ثانية وأكمل:

- أين كنت قد وصلت في كلامي؟ حسنًا، ربما كان الوقت الذي قضاه في "ملايا" في أثناء الحرب العالمية الثانية له علاقة بالموضوع. أيًّا كان السبب، فقد كان صار لدى والدي كره شديد لما سماه العين الفاشية، شعر بالذعر من قوتها على نسخ تخيلات صعبة المقاومة، انتحب حتى موته بسبب الطريقة التي يرى بها العالم الأول العالم الثالث، في حين أن العالم الأول هذا هو مَن يضع تلك المفاهيم، كان يدعوه "التحديق"، أو "نظرتهم إلينا"!

دهشت من قوة نظرة السيد "رحيم" نحوي. قالت "فرحانة":

- هل نذهب لنتمشى قليلًا بالخارج؟

استطرد والدها كأنها لم تقل شيئًا:

- كان يقول إن النظرات العلنية لا تختلف في شيء عن الكاميرا، فبالنسبة إليه مجرد فكرة النظر صارت سرقة، وربما جريمة قتل!

همست "فرحانة":

- أبي! أرجوك لا تبدأ في تلك المواضيع.

وقف ثم عاد إلى الداخل، قبل أن يخرج وهو يحمل كوبًا نصف ممتلئ، واستمر بالحديث كأنما لم يقاطعه شيء:

- رأى تلك النظرة في الطريقة التي يرمق بها الإنجليز نساء قريته، نظرات تحمل مزيجًا من الرغبة والازدراء، كما لو كان تحقيرًا من شأنهم أن يشتهوا النساء السمراوات، كما لو كان هذا يفسر عمق النظرة، ورأى هذا ثانية في "مالايا"، في الطريقة التي ينظر بها اليابانيون إلى النساء المحليات. عندما عاد من الحرب عاد إلى الهند وهي على حافة الاستقلال والانقسام، لكن لأن أصدقاءه ازدروه لقتاله لحساب الإنجليز، فقد شعر كأنه لا يزال تحت نظراتهم. عاد يحمل النياشين، والإهانات، وفي النهاية مات وحيدًا تمامًا!

طلبت "فرحانة" أن يأتونا بالحساب، واستمر هو:

- أليس هذا مضحكًا؟

كان يجلس على حافة كرسيه، ساحبًا ياقة قميصه إلى الجانب، وقد برزت عظمة الترقوة كأنها جبل.

- عانى بارانويا شديدة تجاه النظرات العامة، لدرجة أنه فرض ستارًا صارمًا على نفسه وعلى زوجته، لم يعد مهووسًا بفكرة الرؤية بقدر ما صار مهووسًا بفكرة كيف نُرَى، وأخذ يحافظ على أخلاقه وأخلاق عائلته بوضع الكثير من التحكمات، لدرجة أنه لم تعد هناك روح باقية ليحافظ عليها!

قالت وهي تلف أصابعها حول أصابعه:

- لكنك لست مثله؛ أنت مليء بالحماس وحب الحياة!

رمى الكوب ثانية قائلًا:

- أخبريني أنتِ، هل كان يقاوم الظلم، أم خاضعًا له؟

تحركت في مكاني شاعرًا كأنني دخيل على محادثة خاصة بين أب وابنته، لا، بل بين إنسان وروح.

ربتت "فرحانة" على يده وقالت:

- أرجوك توقف يا أبي، إنها أول مرة تلتقي فيها "نادر".

نظر نحوها بالطريقة التي لا بدَّ من أنه نظر بها نحوها عندما ولدت، وبدت عيناه كأنما تحتقنان بالدموع.

- لكنني أعرفه بالفعل! لماذا لم تخبريه بأي شيء عني؟

جارته في لعبته مجيبة:

- إنه يعرف بالفعل كل شيء! أليس كذلك؟

نظر كلاهما نحوي، ونظرت أنا نحو الممشى.

- إذًا فهو يعرف بالفعل أنكِ لا تشبهينني على الإطلاق وإنما تشبهين أمكِ، وأنا أشكر الله على هذا كل يوم!

صارت عيناه الآن تمتلئان بالمكر، وهو ينقل نظراته بيني أنا و"فرحانة" قبل أن يقول:

- على الأقل "فرحانة" ليست متزوجة.

شعرت بالقهوة تقف في حلقي، في حين تفحصت هي الفاتورة. توقفت عيناه عن التنقل بيننا، أخيرًا قال ما كنت أنتظره؛ حكمه عليَّ! دفع الحساب ووقف مستعدًّا للرحيل، وقال وهو يسحب بنطاله الجينز إلى أعلى:

- يجب أن تريني الصور الفوتوغرافية التي تلتقطها في وقت ما.

وقفت أنا الآخر قائلًا:

- سعدت بلقائك.

بدا وداعًا لا يقل ابتذالًا عن اهتمامه المصطنع بعملي. قال وقد ازداد سروره:

- الحقيقة أنا سعيد لأن "فرحانة" لم تعد تخفيك عني، عندما نلتقي المرة القادمة يجب أن تكون بمنزلي.

ظهرت خطوط رأسية عميقة من تأثير القلق بين حاجبيه، فبديا كما لو كانا يزدادان عمقًا، في حين ازداد لمعان وجهه. أجبته:

- أودُّ هذا.

صافحت يده بشكل أقوى. سار مبتعدًا فجأة وقد تغير مزاجه. بمجرد أن أيقنتْ "فرحانة" أنه لن يستدير ثانية شبكتْ ذراعها في ذراعي قائلة:

- حسنًا، يجب أن أعترف بأنه كان غير متوقع أكثر من المعتاد هذه المرة.

كل ما تمكنت من قوله هو:

- لقد استلطفته.

ابتسمت مجيبة:

- ومَن يقدر على ألا يفعل هذا؟

كان بوسعي تخيل الكثيرين الذين لن يطيقونه، لكنني قررت ألا أقول هذا لها. اتخذنا طريقنا عائدين إلى المحطة.

- إذًا فأنتِ أخبرتِني بكل شيء عنه، أليس كذلك؟

-حسنًا، أخبرتك الأجزاء المهمة. كان والداي يحبان بعضهما بعضًا للغاية.

"على الأقل فرحانة ليست متزوجة"، جالت جملته بخاطري. نظرت نحوي متسائلة:

- فيما تفكر؟

- ماذا حدث في "مالايا"؟

عبست مجيبة:

- لا أعرف الكثير.

- ما الذي تعرفينه؟

- كل ما أعرفه هو ما أخبرني به أبي ذات مرة في أثناء نوبة من اليأس هاجمته بعد موت والدتي، كلما كان يشعر بالحزن يفكر في والده، أم إن ما حدث هو العكس؟ على أي حال هل تريد أن تعرف ما حدث حقًّا؟

- طبعًا!

كانت هناك خصلة شعر اقتحمت فمها، فسحبتُها بأصابعي.

- أُرسل جدي إلى شبه الجزيرة، وبعد مدة قصيرة وجهه مجموعة أشخاص من الهند و"مالايا" إلى مكان تفجير امتلأ بصور العديد من النساء الصينيات المحليات، وفي الصور ظهر بعض الجنود اليابانيين يغتصبونهن، في حين كان معظمهم لا يزالون يرتدون أحذيتهم وأحزمتهم!

وتابعت:

- كان جدي يُحرِّم تصوير الحياة بالفعل من قبل أن تبدأ الحرب. طاردته تلك الصور حتى موته، لقد رأتهم كل القرية. في الواقع اتبع مَن أظهروا تلك الصور للجنود الهنود الطريقة نفسها التي أظهروا بها الفتيات للجنود اليابانيين، كانوا يلقبونهن ساخرين: "سكر! سكر!". تركوهن متعمدين هناك في العراء، لكل العيون التي أخذت تنهش ما تبقى منهن!

- ربما كانوا قد تركوهن لأسباب أخرى.

- مثل؟

- الإبلاغ بما حدث، إثارة غضب العالم مثلًا.

هززت كتفي مستهجنًا، وتابعت:

- انتهِكت حرمتهن على الملأ!

هزت رأسها، وقالت:

- لم يملك أحد أي فكرة عما حدث للفتيات، ولم يهتم أحد بالأمر. قال أبي إن تلك الحادثة، بالإضافة إلى كونه غير محبوب وسط أصدقائه بسبب قتاله مع الإنجليز، جعلت جدي يفضل الانعزال بعد ذلك. بدا كأن جدي قد شعر أنه هو الآخر محبوس في تلك الصور، آمن بأنه صار تحت سلطة أي شخص التقط صورة منها، سواء مصادفة أم عن عمد، بلامبالاة، أم بطمع، وبعد ذلك صار كل شخص دخل القرية مشتركًا في الجريمة. ربما كان اتحاده مع الضحايا هو طريقته ليشعر بأن ذنبه أقل وطأة.

وهمستُ:

- يا لها من قصة رهيبة!

أومأت برأسها. استقللنا القطار في صمت وقد اشتبكت أذرعنا. عندما عدنا إلى "سان فرانسيسكو" انقشع الضباب، وصار الجو دافئًا على نحو مفاجئ. أدركت أن شهر أكتوبر يكون بجو ربيعي في الخليج. قلت بتكاسل:

- يبدو أننا الوحيدان اللذان لا نركض، ولا نمشّي كلبًا.

التفتت لي قائلة:

- "نادر"، أنا لا أرفض عملك، أنت فقط تظن أنني أفعل هذا، أنا فقط أتمنى لو أنك سعيد معي مثلما تكون سعيدًا بمفردك في أثناء الليل، وأنت تركض دون كاميرتك.

- أنا كذلك بالفعل.

- كيف تبدو منطقة شمال باكستان؟

شعرت بمعدتي تتقلص، ها هو ما كنت أخشاه.

- إنها مكان منعزل، المرء هناك يشعر أنه بعيد عن كل المكدرات ويتطهر مما يعكر صفوه. لا أعرف كيف أشرح الأمر، مَن يعيشون هناك لديهم تسميات لأشياء لا تسمية لها لدينا، لا أعرف كيف أصف هذا الشعور بالكلام.

قفزت من مكانها قبل أن تستدير لتواجهني وتخطو إلى الخلف على الرصيف، وتحركت أنا إلى الأمام، محاولة أن تلحق بي، تتفادى مصباح الشارع بصعوبة، وقد تزايدت سرعة خطواتها وهي تهتف:

- أوه، يمكنني أن أرتب ذهابنا يا "نادر"!

- ماذا تعنين؟

- لقد تقدمنا للحصول على منحة، وسنحصل عليها!

-"تقدمنا"! مَن تقصدين؟

- أنا و"ويسلي"، ستلتقيه. إنها دراسة للمقارنة بين الأنهار الجليدية في شمال باكستان وتلك الموجودة في شمال "كاليفورنيا"، يمكنك أن تقول إنها مهمة لدراسة بعض الحقائق، لأرى إن كنت سأتمكن من العمل في بلدي!

- هل ستحصلين عليها أم حصلتِ عليها بالفعل؟

استقرت بين ذراعيَّ وجذبتني من ناحية إلى أخرى، قبل أن تصف لي الطريق الذي تعتقد أننا يجب أن نسلكه. سنطير من "كراتشي" إلى "راولبندي"، وحسب الطقس، سنأخذ إما الحافلة وإما الطائرة إلى "جلجت"، ومن "جلجت" هذه سنأخذ الحافلة إلى "هونذا"، والتي يسهل الوصول منها إلى نهرين جليديين يتناسبان مع متطلبات دراستها التمهيدية، واسمهما نهر "باتورا" ونهر "التار". هل كنت أعرفهما؟ طبعًا. هل كنت أعرف كم يمكن أن يكونا خطرين؟ طبعًا. هل أحتاج إلى التدرب على التسلق هنا أولًا؟ نظرت نحوها، لقد ذكرتْ اسم رجل يُدعى "ويسلي". واضح أنهما

عملا معًا في نهر "ويتني" الجليدي على جبل "شاستا"، حيث جمعا وأرَّخا عينات الثلج. هل كنت أهتم للطريقة التي يتبعانها؟ لا، لم أهتم في الواقع. وطبعًا طيلة هذا المونولوج من جانبها، لم يُذكر وادي "كاجان" ولو مرة! لاحقًا في تلك الليلة، في شقتي، سمحت لي بتصويرها عارية أول مرة وهي تطوق عمودها الفقري، محاولة صنع تلك الصورة التي وقعت في حبها أول مرة. سألتها:

-لماذا؟ لماذا اليوم؟

نزعت سترتها، وقميصها، ومشد صدرها، وهي لا تزال سعيدة من وهم أنها خططت لـ"عودتها للوطن"، وأظن أنها كانت طيلة ذلك الوقت تنتظر موافقتي. لم تكن هناك أي حاجة إلى إذن بالموافقة؛ كنا ذاهبين بالفعل. كررت سؤالي بإصرار:

- لماذا اليوم؟

ارتفعت ضحكاتها، كما لو كانت ثملة وترغب في ممارسة الجنس معي بعدما كانت رافضة وهي بوعيها. صحيح أنه اختيارها، لكنني يجب أن أفعل شيئًا بنفسي.

- التقط الكاميرا في صمت يا "نادر"، أعرف أنك تتحرق شوقًا لفعلها!

- في الواقع، لا!

- أأنت متأكد من هذا؟

ترددت؛ لو قلت نعم، فهذا يعني أنني أرفض. التقطت كاميرتي، لم أستمتع بالموضوع، وفي تلك اللحظات لم أكن أشتهيها حتى، ليس أمام عدستي، ولا تحت أناملي وجسدي.

لم يكن بوسعي رؤية زهرة زنبقة "الكالا" حتى عندما لفَّت ضفيرتها حول جسدها، بدا الأمر واقعيًّا أكثر من اللازم، وكأنها تدربت عليه كله! زيارة والدها، ثم السير إلى المنزل، ثم السؤال المتظاهر بالبراءة عن شمال باكستان، وبقية الأخبار، والآن هذا؟ ورغم ذلك، بينما كنت أقوم بضبط عدستي لتلتقطها، لألتقط صورة لذلك الجذع المنحني، وقد برزت ضلوعها للغاية الليلة، مر خاطر ببالي. هل كانت سعادتها هي ما يكتم سعادتي؟ نحيت ذلك الخاطر جانبًا، لا، تلك الفتاة المسحورة تبدو أجمل وهي متحررة من ملابسها حتى لو كان تحررها بشدة وانحناؤها هذا ينذران بانكسار عمودها الفقري.

التقطت مجموعة أخرى من الصور. لا، لم يكن هذا ما أريده، لم يكن ما ارتسم في عينيها نظرة سعادة، بل بدا أشبه بنظرة انتصار، قتلت تلك النظرة كل جمال كان يجب أن يكون في تلك اللحظة. استمررت في التقاط المزيد من الصور وهي تعدل خصرها، حاولت أن أظهر ذلك الشيء الذي لا يكون موجودًا على الدوام؛ كأنني ساحر، لكنه شيء يمر سريعًا مثل الحظ، أو الموهبة، أو الثروة، فلا يوزَّع بالتساوي بين المحبين ولا بين الأصدقاء!

لقطة!

كانت ترفع ذقنها إلى أعلى بشدة. نهضت من على الفراش، أطفأت كل الأنوار، وعندما انتهى كل شيء وراحت في النوم، هُرِعت خارجًا إلى قلب الليل؛ كنت مضطربًا.

"حتى فكرة الرؤية صارت سرقة، وربما جريمة قتل!"

كرهت تلك المحادثة التي دارت مع والدها باكرًا في اليوم نفسه، لا تستحق حتى أن أصفها بمحادثة، كرهت اليوم كله!

إذًا من المفترض أن أعود إلى باكستان كمرافق لها، في الوقت الذي بدأت أحقق فيه نجاحًا لا بأس به وأكسب مالًا؟ لقد وصلت إلى مرحلة جيدة في حياتها العملية وصارت تتقاضى راتبًا ضخمًا بالفعل، ستظل تتقدم في مسيرتها الوظيفية، وسأصبح أنا مجرد خادم لديها، وتصويرها هو الثمن الذي أدفعه مقابل إمتاعها. لا، لا! يجب أن أتوقف عن التفكير فيها بهذه الطريقة! طلبت من الله أن يعينني على ما أشعر به في المعتاد في أثناء تمشيتي بمفردي؛ أفرغ عقلي يا الله واِجعلني رجلًا سعيدًا. زدت من سرعة خطواتي.

انقلب حال الجو ثانية، فصار أكثر برودة مما كان عليه في أثناء ذهابنا إلى "بارت" هذا العصر.

كان الجو عاصفًا للغاية حتى بالنسبة إلى رجل من مدينة "ريتشموند"؛ أكثر برودة من جو ربيع بأكتوبر.

لماذا لا تكون "سان فرانسيسكو" هادئة حتى ولو لليلة فقط؟ فقد تركت سترتي بسبب تعجلي الرحيل، ولم أكن أرتدي فوق قميصي إلا معطفًا مضادًا للرياح.

تركت مظلتي كذلك، لكنها لم تكن لتساعد على أي حال. عندما هطلت الأمطار نثرتها الرياح في كل اتجاه، كأنها عجلات عربات ملونة تدور تحت أضواء الشارع.

مررت بجانب رجل وامرأة انحنيا ليحتميا أسفل المعطف نفسه، في حين انطلق رجل وحيد في الحديث برفق على تليفونه المحمول - يا لها من تركيبة غريبة، في مثل تلك الساعة، وفي مثل هذا الطقس! - لكنهم كانوا الوحيدين الذين لاحظتهم في أثناء سيري في شارع "بالبوا"، متجهًا نحو الطريق السريع الضخم، وهو طريق ساحلي ممتد، يذكرني دائمًا بشارع "كليفتون" في "كراتشي"، ويعطيني شعورًا بالسلام. لم يكن قريبًا من حمامات "سورتو"، لكنني كنت أعرف أنه وجهتي.

يحدث الأمر نفسه دائمًا عندما أخرج في المساء، أجد جسدي عارفًا بمفرده أين يريد الذهاب، كما لو كان مُبَرمجًا على الطريق في وقت مبكر. تركت ساقيَّ تقودانني، وقد أدركت، عندما فكرت وهلة، أن خطواتي السريعة كانت بلا جدوى، كما لم يكن تقلبي لأستلقي على جانبي الأيمن ذا فائدة عندما أزحف في وقت متأخر لأظفر ببعض النوم.

بدا كأن ساقيَّ واثقتان من طريقهما، وظل عقلي مشوشًا كما هو. حاولت شغل نفسي بمتابعة قطرات المطر اللامعة، وقد بدت كل قطرة مبهرة المنظر.

بدت كل مجموعة من القطرات لامعة لينة، وتذكرت شيئًا قالته "فرحانة" مرة لرفيقي بالسكن "ماثيو" دون سبب معين، وشعرت به يتحلق من حولي. كان شيئًا سخيفًا ولم يكن لديَّ الحق للاستماع له، وعلى الرغم من هذا فقد التصق بعقلي.

- وتحمل ريحه، وملابسه الداخلية ذات الرائحة الكريهة، والمرحاض الذي غطته بقع البول الذي سال على الأرض، ثم اصطحابه لحفلة سهرة عامة، إذ يصبح كائنًا ساحرًا جذابًا. ألا تعرف النساء حقًّا أنه تحت كل تلك الطبقة من الجاذبية يقبع رجل يطلق ريحًا وبقعًا؟ لماذا نقع في الفخ مرة بعد أخرى؟

سمعت "ماثيو" يضحك، فقد كان مرحاضه مُغطى بالفطريات بالأساس.

أولًا، لم نكن نعيش معًا، لهذا لم أستطع أن أفهم لماذا تصف كل هذا الوصف كما لو كنا نعيش فعلًا معًا. وثانيًا، أكانت فعلًا تتحدث عني؟ بشكل ما، كنت أتمنى هذا، لم أكن أعلم أنني جذاب كما تقول. أحب أن أكون حتى لو للحظات مضحكة معدودة في حفل ساهر.

ثالثًا، حفل ساهر عام؟ ما هذا بحق الجحيم؟ إذًا، أكانت تتحدث عني؟ رابعًا، لم أكن أصدر ريحًا بكثرة كما كان يفعل "ماثيو"، وكنت أغسل ملابسي الداخلية أكثر مما تفعل هي!

كان سيصبح الأمر منطقيًّا أكثر لو أنها قالت بدلًا من ذلك: "تحمل ذوقه في الطعام"؛ لأنه لا يوجد طعام ليقارن بطعام أمي، أو "نومه المتقطع"؛ لأنني كلما عدت إلى الفراش بعد إحدى تمشياتي الليلية تدعي هي أنني أوقظها من نومها، أما نقطة "المرحاض الذي تغطيه البقع" فهي حقيقية، ثم أجعله يصطحبني إلى مونولوجات أبي، شديد الجاذبية واللطف!

شعرت كأن هناك سكينًا يضغط على بطني. كنت بعيدًا للغاية عن الحمامات، مبللًا، وكان هناك ذلك الرجل الذي لا بدَّ من أنه خرج من وسط تلك الأمطار المتباينة الألوان، وأخذ يتحرك برشاقة ليحشر سكينه أسفل معطفي ليشق طريقه عبر قميصي، ليستقر يسار سرتي مباشرة!

تساءلت أكنت أعاقب على أفكاري المنحطة السابقة، أو ربما هو عقابي على التقاطي الصور، أو إنه عقاب فقط دون سبب؟ سمعت صوتًا مبحوحًا يخرج من حلقي:

- ماذا تريد؟

كان أقصر قامة مني، وذا بشرة أكثر شحوبًا. بدت عظام وجنته مرتفعة، في حين بدا ذقنه عدوانيًّا للغاية. على الرغم من أن ذلك الجزء من الطريق - مؤكد أنه ليس الطريق السريع، إذًا أين أنا بحق الجحيم؟ - كان مظلمًا للغاية، فلم أكن متأكدًا مما رأيت. ربما كان هناك لون رمادي بذقنه، ربما يكون أي شخص.

حدق إليَّ مدة طويلة، وقد بدت رائحة أنفاسه حمضية، كمزيج من النبيذ الأبيض ومرض ما؛ مرض بالمعدة ربما، أو ربما كان مرضًا عقليًّا. ابتسم بطرف فمه، وشعرت أن بوسعي سماع صوت أمواج البحر. توقفت الأمطار. كنت بعيدًا عن شقتي. كررت سؤالي:

- ماذا تريد؟

وشعرت بسكينه وهو يوخز لحمي، لكنه لم يرد على سؤالي. تساقط اللعاب على شفتيه، وبدا كأنه يرتجف إما من البرد وإما من الضحك، أقنعت نفسي أن الرطوبة التي أشعر بها عند معدتي بسبب تعرقي فقط. لم أكن أسير أو أركض، كنت واقفًا وساكنًا كأنني بقعة بول جافة، لكنني شعرت بنفسي أنجرف من مكاني، كما لو كان بفعل السحر، والهواء من حولي هو لوحة لعب شطرنج تتحرك عليها القطع، وقد اندفع وميض من الألوان من قبضة يده، ليشير نحو معطفي المضاد للرياح. سألته:

- تريد معطفي؟

لم يعد السكين موجهًا نحو معدتي، وإنما كان كل ما أشعر به في هذا المكان هو ألم حاد. نظر نحوي بابتسامة وحشية، وتطايرت سترتي وسط الرياح، أستنقذني؟! لكن هذا سيحدث فقط لو خلعتها، شرعت أخلع سترتي ببطء.

كان يتنفس بصعوبة، وبين كل نفس والآخر، سمعت الكلمات التالية:

- المعطف؛ أعطني معطفك!

لم تكن كلمات بقدر ما كانت أصواتًا تندمج معًا لتصنع كتلة واحدة، كأنها ترانيم. بينما هو يكرر تلك الترانيم، حررت ذراعًا وشرعت أحرر الأخرى، وأدركت، بعد فوات الأوان يا للأسف، أن محفظتي ومفاتيحي كانوا كلهم في جيب السترة. بدأ يقفز، فتمثلت "فرحانة" أمامي وهي تقفز في وقت مسبق من اليوم. عندما خلعت معطفي، وجدته يقفز مبتعدًا، ثم هرب نحو نهاية الشارع.

كان هذا أسوأ؛ لم يأخذ شيئًا، فلا بدَّ من أنه سيعود، لا بدَّ أنه سيتبعني ليعرف عنواني!

ضغطت على معدتي، فخرجت أصابعي لزجة؛ كنت أنزف! لم أرتدِ المعطف ثانية، لكنني نزعت محفظتي ومفاتيحي. تركت المعطف ورحلت مبتعدًا.

لا بدَّ من أنني سرت جنوبًا من "بالبوا" وليس شمالًا، لأنني تمكنت من رؤية خيال الطاحونة الألمانية عندما نظرت من فوق كتفي وجدتها تظهر عند الأفق، عند ركن حديقة "البوابة الذهبية".

كانت أول مرة تضللني فيها ساقي. اختفى أسفل الكوبري، عند الحديقة. سمعت الخطوات الخافتة، لكنني لم أرَ أي ذقن، ولا سترات رمادية، ولا أحذية ذات نعال ثقيلة وبلا رباط في القدم اليسرى. استوعبت أنني ظللت أحدق إلى حذائه عندما وجدت نفسي أبحث عنه في طريقي إلى البيت.

لا أتذكر دخولي شقتي، أتذكر أنني دهنت بطني بكريم مضاد حيوي من دولاب أدوية "ماثيو"، والموجود فوق مرحاضه المغطى بالفطريات، ثم وضعت ضمادة عليها، قبل أن أبتلع قرصين من المسكن "تايلينول"، وفي النهاية تمددت أسفل الأغطية عاريًا ومرتجفًا، وقد تسلحت بكيس من الثلج. لم تتحرك "فرحانة" من مكانها ولم تتكور بجانبي، كانت السماء لا تزال مظلمة عندما استيقظت ثانية، ووجدت نفسي أنزف، وقد جلس بجانبي صديق لـ"فرحانة"؛ اسمه "ويسلي"!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثقل في الجفون

رأى أبواي أولًا أنفسهما كزوجين في مرآة، كان يعتبر فألًا سيئًا أن ينظرا مباشرة إلى عيني بعضهما.

كانت هذه بمنزلة دعوة للجن، لكنه كان فألًا حسنًا أن ينظرا إلى انعكاس بعضهما، وهكذا أمسكت أخت والدتي بمرآة فوق حجر والدتي وقت الزفاف، ثم نظر الزوجين حديثي العهد إلى أسفل وابتسما حسبما تحكي عمتي.

- حاولت والدتك تغطية شفتيها، لكيلا يتمكن والدك من رؤية ابتسامتها العريضة، على الرغم من أنه بالتأكيد كان يجلس إلى جانبها وبوسعه سماع ضحكتها، كما كان بوسعها سماع ضحكته.

انطبق الكلام نفسه على منحدرات "مليكا بربت"، أو "ملكة الجبال"، لم يكن يفترض بعشاقها أن ينظروا إليها مباشرة، المفترض أن ننظر إليها من خلال البحيرة، وعندما تمكنًا من عبور النهر الجليدي ووصلنا إلى ضفاف بحيرة "سيف الملوك"، كان هناك تيار من الحجاج المتعبين ومجموعة من القوارب، الذين أخذوا يتأملون منبهرين انعكاس "مليكا بربت" الذي لم يلبث أن عكره كل ذلك الزحام.

حذر "عرفان" "ويس" و"فرحانة" بأن يتفاديا القوارب، مُعلنًا ببساطة: "إنها تغرق".

إن ذوبان جليد "مليكا بربت" هو ما صنع البحيرة التي عكست صورتها، ويمتزج ذوبانها مع ما يذوب من الجبال المحيطة، لو تركت لمخيلتك العنان فستتمكن من رؤية شذرة صغيرة تقع شمال غرب الملكة، والتي يمكن اعتبارها أكثر قمم سلسلة جبال "الهيمالايا" يجري تصويرها، وأخطرهم "نانكا بربت"، أو "الجبل العاري"، أو ربما كان مجرد جبل غامض يبدو مثلها، فهي أكثر بعدًا من أن تُرى من هنا.

أيًّا كانت من هي، فلم تظهر نفسها بوضوح كما فعلت في هذا اليوم، حتى أولئك الذين تناقشوا بخصوص عمق البحيرة الغادر ومياهها المتجمدة، بينما هم يجلسون في قواربهم ذات الصرير ليظفروا بنظرة أفضل لانعكاس الملكة، رفعوا الآن ذقونهم وحدقوا نحو تلك القمة الوهمية، لمنافسها أو حبيبها، وذلك اعتمادًا على مَن تسأله، حدق "عرفان" في اندهاش قبل أن يقول:

- لم أره أبدًا، هذا مستحيل!

أجبته:

- إنها مجرد قصة خيالية.

أكمل "عرفان" وهو لا يزال يحدق مفتوح الفم:

- بالرغم من أنني سمعت أنها ربما تحدث فعلًا!

يبدو أن الناس يصدقون الأيام التي يظهر فيها الجبل - الشبيه بـ"نانكا بربت" لكن لا يمكن أن يكون هو - فإن جليد الملكة يذوب بشكل أسرع، إما بسبب غضبها بسبب حجب جمالها وإما بسبب حماسها لرؤية حبيبها.

وفي مثل تلك الأيام كان جليده يذوب بشكل أسرع، إما بسبب رغبته الشديدة في كشف جماله - لكن أي عيون تستحق تأمل كل هذا الجمال؟ - وإما بسبب انتصاره بمشاهدة حماس الملكة، أيًا كان السبب فقد جعل تيار البحيرة شديدًا في ذلك اليوم، كان بوسعنا رؤيته من الطريقة التي تتدحرج بها المياه على الشاطئ، بطريقة مياه البحر نفسها.

قال "عرفان" في حيرة:

- لم أرَ التيار بهذه القوة أبدًا من قبل.

أجابته "فرحانة":

- ربما يكون الجن هنا؟

في حين تمتمت أنا:

- لا بدَّ من أنه يغير مني بسبب الحب الذي أكنه لأميرتي.

- إذًا تراجع إلى الخلف!

جذبتها إلى حافة المياه هامسًا:

- تعالي وانظري إلى نفسك أولًا.

تورد وجهها من كثرة السير، واكتسب خداها لونًا قرمزيًا يماثل لون معطفها، وأحاط شعرها الأسود المجعد بوجهها كهالة، فبدت ضحكتها متألقة أكثر من المعتاد. سحبتها نحوي، وعلى الرغم من أن جواربنا وأحذيتنا ستبقي مبللة بقية اليوم، فإننا خضنا أكثر داخل المياه لترى كم تبدو جميلة، وليتمكن كل واحد منا من رؤية انعكاس الآخر بالمياه.

لم أعرف أكنت أتخيل هذا أم لا، لكنني شعرت بالمياه في تلك اللحظة وقد صارت هادئة بشكل غير معتاد، وبدا المد كأنما يتباطأ، أصبحت البحيرة ساكنة كبركة من المياه، وعندما رفعت "فرحانة" رأسها بدت الصورة المنعكسة واضحة رائقة كالمياه نفسها، وقد ظهر جانبها فتى مسلوب العقل. همست:

- الجن ليس هنا، الجبال تمارس الحب بطريقتها العميقة الهادئة.

كنت على استعداد لتقبيلها في تلك اللحظة، لكن لا بدَّ من أن هذا سيثير سخط مَن حولي. بدا الأمر غير عادل، فالأرض من حقها أن تعبر عن حبها لكن نحن لا.

فكرت - وأنا أرمق انعكاسها في المياه - في أننا لاحقًا سنتمكن من التعبير عن كل شيء. لمحت تقطيبة خفيفة تمر سريعًا عبر انعكاسها قبل أن تمنحني ابتسامة نصف حنونة ونصف واعدة، وفي الأعماق الجليدية بالأسفل تحولت قمتا الملكة

المزدوجتان إلى جناحين مثلثي الشكل، ليغلفانا في قمة من السعادة. حصلنا على موافقتها وسحبنا نفسينا عائدين إلى الشاطئ، ومن الوراء استطعت سماع صوت المد والجزر يتدحرجان ثانية.

حيًّا "عرفان" القبائل شبه البدوية الذين نصبوا بيوتهم الصيفية على شواطئ البحيرة. كان يتحدث بلغة لا أفهمها، لكنني سمعت كذلك بضع كلمات بلغة "الأوردو". استوعبت أن معظم تواصلهم كان يتضمن أسماء؛ أسماء أولئك الذين انتقلوا إلى تلك المرتفعات لقضاء الصيف، وأسماء هؤلاء الذين ظلوا في منطقة السهول. أتوا بماشيتهم، وأحصنتهم، وكلاب حراسة القطيع. لمحت بضع مَعِيز بالقرب من البحيرة، والعديد منها على التلال الموجودة بالشمال. أخذت الأجراس المعلقة برقاب المَعِيز تدق من حولنا.

هناك طفلة صغيرة ترتدي قميصًا أرجوانيًا وسلوارًا أخضر من الساتان، تلوح بعصا، في حين تتبع ماعزًا صغيرًا أسود وهي تصعد التل. وقفت مجموعة من السياح يلاحقونها ويصورونها، سارت بثقة وهي تحك رأسها، ناظرة إلى الخلف وهي تبتسم.

كانت ذات شعر أشقر باهت كالنحاس مثلما هو مُعتاد في هذا الوادي، وقد عقدته بشدة حتى إنه لم يبدُ متدليًا على رقبتها بقدر ما بدا كأنه يخرج منها، كما لو كان يتحول إلى غبار.

كان خدها متسخًا، وفَقَدَت سنتين أماميتين. سمعت صوت كحة ببلغم، وطوقت عنقها قلادات ثقيلة، وأحاطت برسغيها أساور أثقل، لا بدَّ من أن النساء الأكبر سنًّا موجودات داخل الخيام. قالت "فرحانة":

- يا لها من طفلة جميلة! كانت ستبدو أجمل لو أن أهلها اهتموا بها أكثر. كان يجب أن تخبرني، حتى أتمكن من إحضار بعض المؤن.

- أخبركِ بماذا؟

تجاهلتْ سؤالي وبدأتْ تتبع الطفلة. اختفى الماعز الأسود تمامًا، فلا بدَّ من أنه وجد ما يلتهمه بين أشجار الدردار والصنوبر. على الرغم من أنني كنت أعلم بعدم جدوى هذا، فإنني ناديت "فرحانة"، وقلت:

- أكنتِ تعرفين أن البريطانيين كانوا يطلقون على عرقية "الجورجار" قوات حرب؟ أتعرفين لماذا؟

أتى السؤال من "ويس" الذي وقف خلفي:

- لماذا؟

لأكون أمينًا، كنت قد نسيت وجوده، ولأكون أكثر أمانة، رغبت في نسيانه. أجبت:

- لأنهم شجعان وغادرون عندما لا يقاتلون في صفك، في حين يكونون شجعانًا ومخلصين عندما يقاتلون في صفك.

ًّ

- حقًا؟

- النقطة المهمة هي أن تلك الفتاة لا تحتاج إلى "فرحانة".

هز كتفيه وقال:

- ربما كانت "فرح" هي من تحتاج إليها.

وصف الموقف بكل بساطة، لكنني لم أتحمل اللقب السخيف الذي أطلقه عليها.

- شطيرة؟

- فكرت في الشيء نفسه.

فتحت حقيبة ظهري وأخرجت منها حقيبة بلاستيكية تمتلئ بشطائر الدجاج التي صارت كالعجين من كثرة ما بها من زبد، وبالرغم من أنني فقدت شهيتي للخبز الأبيض منذ كنت بأمريكا، فإن شدة جوعي لحظتها جعلتها أفضل شيء التهمته في حياتي. باستثناء الرفقة، ما هي المزايا التي تراها "فرحانة" فيه؟

وصل إلى الشطيرة الثالثة بالفعل، وكنت أنا أجاهد في ثاني شطيرة، عندما انضم إلينا "عرفان" الذي صب لنفسه وهو صامت بعض المياه في كوب عازل للحرارة. سأل "ويس":

- عمَّ كنتما تتحدثان؟

أشار "عرفان" نحو السماء مجيبًا:

- السحب؛ يقولون إنها ستمطر، يظنون أنه من الأفضل أن نعود الآن، أو نقضي ليلتنا هنا.

- نبقى؟ أين؟

- لقد أحضرت خيمة.

تمتمت:

- ذكي.

بينما صفر "ويس" مبهورًا، وجَّه "عرفان" كلامه نحونا:

- كان يجدر بكم أن تُحْضِروا خيمة أنتم أيضًا.

رد "ويس" اللوم عليه بقوله:

- كان يجب أن تخبرنا.

وجه "عرفان" كلامه نحوي:

- الطقس متقلب، أنت تعرف هذا.

أعترف أن تجهم "عرفان" في تلك اللحظة قد بدأ يضايقني؛ أولاً قال إن ظهور البومة كان فألًا سيئًا، ثم حكى عن حافلة المدرسة التي سقطت في النهر الجليدي والتلاميذ البؤساء يتعلمون عن الأميرات والجن، ثم تلك الجملة عن الحاجة إلى الحصول على إذن "فرحانة" قبل البحث عن الكهف. هل ذكرت حاجته المتكررة إلى تفقد تليفونه المحمول؟ كان لطيفًا في "كراتشي" - ليس كحاله قبل وفاة "زليخة"، لكن لطيفًا بما يكفي - إذًا ما الذي حدث من لحظتها؟ عندما كنا في الكوخ بدا لطيفًا في حديثه مع العمال هناك، كان يعرف الحاكم المحلي جيدًا وتعامل بود معه كذلك، وقبل لحظات حيا البدو بحرارة واضحة. كان بوسعه أن يدخر بعضًا من لطفه هذا لتعامله معنا، أو على الأقل لتعامله معي أنا. ابتعد "ويس" وقد بدا عليه كأنه يتحدى "عرفان" أن يطلب منه فعل شيء آخر، قائلًا:

- سأركب أحد القوارب.

سألتُ "عرفان":

- هل ستكفينا خيمة واحدة؟

- يمكنك أخذها أنت و"فرحانة"، وسأنام أنا و"ويس" في الخارج.

- في المطر؟

قال وهو يشير نحو البدو:

- يمكنني طلب مساعدتهم.

- هل سيكون أسهل لو عدنا؟

- لم تكن الأمطار هي العائق الوحيد الذي تحدثنا عنه، فهي ليست بهذه الأهمية.

انتظرته ليكمل عبارته، لكن بدلًا من إخباري ما هو الشيء الأكثر أهمية عاد "عرفان" إلى تفقد تليفونه المحمول بحثًا عن إشارة، لا بدَّ من أن تلك هي المرة العشرون منذ الصباح!

- لا فائدة!

أغلقه في غيظ، فلم أتمكن من منع نفسي أن أهتف:

- ما خطبك؟ ألأنك لا تستمتع بوقتك هنا، فلا يجب أن يستمتع أحد؟

ندمت على قول هذا على الفور، بدا كتفاه كأنما تهدلا إلى أسفل أكثر، في حين انغلقت عيناه المليئتان بالحزن اللتان اعتادت زوجته أن تصفهما بالممتلئتين نشاطًا وحياةً، كما لو كانت كلماتي قد مزقت عصبًا ما بجسده، لتكون راحته الوحيدة في الظلام.

تذكرت تلك الليلة في "سان فرانسيسكو"، بالقرب من الحديقة، حين تعرضت للطعن. أبقى مهاجمي على حياتي، وربما لم يكن ينتوي شيئًا آخر، لكن زوجة "عرفان" لم تكن بذلك الحظ، كان سهلًا للغاية أن يحدث العكس!

فتح عينيه وقال:

- هل تعرف بشأن إلقاء القبض الذي حدث في "بيشاور" أمس؟

هززت رأسي نفيًا وقلت:

- كيف سأعرف؟ لم أقرأ أي جريدة منذ أيام.

وجه نحوي نظرة ازدراء كأنما يقول: "هل ما زالت تلك النوعية التي تنغلق على نفسها فلا تعلم أي شيء عن العالم من حولها بالكامل موجودة؟". كان "عرفان" القديم سيتفهم الرغبة في هذا التصرف، حتى لو كان معنى ذلك التصرف انعزالنا بالكامل، كان "عرفان" القديم سيملأ ذلك اليوم بقصص حب الأميرات والجبال، لكن "عرفان" الحالي كان قلقًا، وهو صديقي؛ لو لم يكن بوسعي تخفيف حزنه بسبب فقدان "زليخة" فيتوجب عليَّ أن أخفف عنه بمقدار ما أستطيع، ألم يكن موجودًا من أجلي عندما احتجت إليه طيلة ذلك الوقت في "سان فرانسيسكو"، عندما لم يكن بوسعي دفع الإيجار؟ تحملني "عرفان" وقتها دون أن يبدو عليه الضيق ولو مرة!

- أخبرني.

- ألم تسمع النادل هذا الصباح؟ إنهم يلومون الرجل على تفجير الفندق في "كراتشي"، وقد حدثت الكثير من الاحتجاجات وقُتل أحد المحتجين!

تسمرت مكاني، وقلت:

- ومَن كان؟

أدهشني أنني كنت أشير إلى الرجل بصيغة الماضي بالفعل، فعل "عرفان" الشيء نفسه.

- قال متهموه إنه كان متنكرًا في صورة راعي غنم، وكان معه شخص آخر شوهد هنا آخر مرة!

- هنا؟

كانت هذه مفاجأة، فحتى الآن لم يحدث أن سُلِّم أي متهمين إلى وكالة المخابرات المركزية من تلك الوديان، ربما أتى بعضهم من الجنوب، في "بيت الله محسود" على الحدود الأفغانية، لكن لم يحدث أن أتى أحدهم من هنا، في هذا الركن العالي من الإقليم المجاور للشمال الغربي، عند أقدام "الهيمالايا". يمتلك تلك الوديان مجموعة من المزارعين في السهول، والقطعان من حولنا.

- هذا مستحيل!

- بالتأكيد، والناس هنا متوترون، فهم يعتقدون أن الرجل بريء ويطلقون لفظ "الرجل" هذا على كل من السجين والشريك، فقد صاروا يعتبرونهما الشخص نفسه، لكنهم متأكدون أنه ليس من هنا.

توقف لحظة قبل أن يكمل:

- ويقولون كذلك إنه في السهول تتحرك المزيد من القوافل العسكرية، والعديد من الجواسيس في ملابس مدنية.

ثم وجَّه نحوي نظرة عدم رضا أخرى.

- هل لاحظت القوافل؟

ندمت بشدة على عدم انتباهي لكل ما كان يحدث خارج كوخي أنا و"فرحانة". نعم، بالكاد لاحظت القوافل. من الواضح أنه بينما كنت أركض بطول نهر "كنهار"، تطاردني بومة مجنونة، كان هناك عالم آخر بالكامل تدور أحداثه في الوقت نفسه، المدهش أنه في ذلك العالم الموازي دارت مطاردة أخرى. سألته:

- لماذا؟ ما دام بوسع الشرطة أن تقول إنه شوهد آخر مرة في أي مكان آخر، لماذا قالوا هنا بالذات؟

هز كتفيه مستهجنًا وهو يجيب:

- مجرد خطأ جغرافي. بالنسبة إلى من لا يهتم كل الأماكن متشابهة، وعلى أي حال الحوادث تحصل في كل مكان.

خطت الفتاة الصغيرة في القميص الأرجواني صاعدة التل، وكان بوسعي رؤية "فرحانة" بجانبها تمسك يدها. بدا أن الاثنتين قد استغرقتا في محادثة، التي لا بدَّ من أنها محادثة شيقة، بالتأكيد لغة "فرحانة" الأردية لا تقل سوءًا عن لغة الفتاة.

أسند "عرفان" ذقنه إلى كوعه ناظرًا تجاه "فرحانة"، ثم "ويس" الذي كان يقفز في قارب، قبل أن يقول "عرفان":

- لست متأكدًا أكان وجودهما هنا فكرة جيدة. لقد انقسمت القبائل بخصوص حقيقة الرجل؛ يقول البعض إنه أتى من "كشمير" بالأعلى، ويقولون إن كل الناس بطول الطريق إلى "جلجت" يتحدثون عنه خائفين من أن يكون قد اختبأ في مكان ما وسطهم، وآخرون يقولون إنه أتى من آسيا الوسطي، أو ربما يكون على اتصال بالقتال الذي يحدث في "وزيرستان". من الصعب تمييز قتال من قتال آخر.

كنا لا نزال ننظر إلى البحيرة، نحو "ويس" الذي يبتعد عن الشاطئ.

استطرد "عرفان":

- الأوقات الصعبة هي ما تصنع الناس الأقوياء. لا يرفض هؤلاء الرعاة في المعتاد ضيفًا، لكنهم لن يستضيفوا من يجلب عليهم "الاستخبارات الباكستانية"، على الرغم من خوفهم أن يكون الأوان قد فات بالفعل. أي شخص يمكن أن يكون جاسوسًا، حتى السياح. صاروا يرغبون في رحيل السياح، على الرغم من أن هذه ليست عادتهم.

- لسنا سياحًا.

ابتسم "عرفان" مشفقًا، وقال:

- لا.

- آسف على ما قلته منذ لحظات.

نظر بعيدًا وهو يتمتم:

- حتى لو لم تكن أحضرت خيمة، فعلى الأقل بوسعك إعطائي شطيرة.

بعد نصف ساعة سارت "فرحانة" نحو البحيرة مع الفتاة، في حين أخذ "ويس" يجدف بطول الشاطئ البعيد. كانتا تلوحان له، لكنني أشك أنه لمحهما.

وضعتُ آخر شطيرتين جانبًا من أجل "فرحانة"، ثم أخذت أملأ الفراغ الذي ينهش معدتي بالمياه، عندما أتى صبي بشعر بني مجعد نحونا في خطوات واسعة حاملًا بعض الهدايا؛ بعض الكمثرى، والخوخ، بالإضافة إلى بعض البطاطس وخبز الذرة الساخن. ارتفعت منه رائحة مثل رائحة الملح على النيران، وحمل كذلك قطعة من القماش الملفوفة بعقدة من خيط أسود. عندما سحبت العقدة من الصبي صارت أصابعي لزجة، فخمنت أنه يحمل بعض العسل. عانقناه شاكرين، وطلبنا منه شكر والدته بشدة على تلك الهدايا.

وأصقل "عرفان" شكرنا بشذرات من الكلمات بلغة "الهندوكو" أو "الجوجري"، لم أستطع التحديد.

قطعت بعض الخبز وتركته على لساني، تاركًا سخونته تهدأ ببطء.

أضفت ثمرة من الخوخ إلى ما بداخل فمي بسعادة، ثم أضفت آخر طبقة؛ ملأت إصبعي من العسل الطازج، فبدا طعمه كطعم زهور غير معروفة لي، زهور استوائية غامضة. كأنه عسل أتى من قاع بحيرة، لم يلمس أحدهم قاعها أبدًا، لكن ها هو دليل على وجود حياة في تلك الأعماق.

بعد هذا قشرت حبة من البطاطس المشوية بأسناني، مُخبرًا "عرفان" أن جزءًا من مغامرة الابتعاد عن المنزل يكمن في مزج الحلويات بالخضروات.

أجابني:

- أنا أفعل هذا على الدوام؛ أيًّا كان مكاني.

حمل نصف ثمرة كمثري بيد، ونصف ثمرة بطاطس باليد الأخرى، وبينما أخذت السحب تتلوى حولنا، والضوء يكتسب لون اللافندر، بدا النصفان كانعكاس مرآة لبعضهما بعضًا. مررت ثمرة الكمثرى الخاصة بي فوق قماشة العسل، قبل أن أناول القماشة لـ"عرفان" الذي سحب القطرات الباقية بلسانه. كنا نفعل الشيء نفسه في طفولتنا بلفائف حلوى "الإيملي"، التمر الهندي.

عدنا صبية ثانية، كنت أفتقد ذلك الشعور؛ بساطة الوجود مع أحدهم دون التحدث، ودون الحاجة إلى كبت الحديث. اعتدت هذا في "كراتشي"، إذ تتجمع مجموعات الرجال في الأماكن الصغيرة - مثل رقع الحشائش الموجودة بين البيوت، والمداخل، والمجالس المستديرة - مساحات تصير أكثر رحابة بالصمت الذي يخيم عليها. هذا

الرابط نفسه يوجد بالنسبة إلى السيدات؛ تقضي أختي وصديقاتها الساعات معًا متكئات على السرير، أو على سجادة، لو أفشيت أسرارًا، فهذا يحدث بطريقة خبيثة للغاية وتعتمد على بديهة من يسمعك ودون كلمات تقريبًا.

لم أصادف ذلك الشيء في الغرب، حيث يبدو أن الناس لديهم سبب لكل شيء، حتى الحميمية. كان الاستثناء الوحيد الذي استطعت التفكير فيه هو الوقت الذي قضيته مع "فرحانة" عند نافذتها التي تطل على الخليج في منزلها الأرجواني.

لكن تلك اللحظات كانت قليلة للغاية في الشهور التي سبقت رحيلنا. رقدت هناك بجانب "عرفان" عند قاعدة تل لا يبعد كثيرًا عن خيام البدو، ورمينا جواربنا المبللة وأحذيتنا على بعد عدة أقدام، وشعرت بكمية هائلة من السلام تغمرني.

ضحك "عرفان" وهو يضع ثمرتي بطاطس جانبًا قائلًا:

- سنبقي لهم تلك البطاطس.

ثم جمع قشور الفاكهة وبذورها في الحقيبة التي كنا نضع بداخلها الشطائر، كانت تلك هي أول مرة أشعر فيها بالراحة معه منذ تركنا "كراتشي"، كانت الطريقة نفسها التي كنت أشعر بها في أثناء حياة زوجته، وقبل حتى أن تصبح زوجته. لم يذكرها في أي مرة، لكنها طبعًا كانت حاضرة معنا.

وكنت أعرف - بالرغم من أنه لم يذكر ذلك أيضًا - أننا سنتوقف في طريقنا للشمال لنقدم فروض الطاعة للنهر الجليدي الذي شهدنا لقاءه مع "زليخة" من قبل؛ من أجلها ومن أجل إغلاق تلك القصة بالنسبة إليه، لو كان شيء كهذا ممكنًا، وربما أيضًا من أجل الله. طبعًا هناك طقس للرحيل وآخر للعودة، وكان يحتاجني، بشكل ما، ليكمل الدائرة.

كان حائر الفكر هو الآخر، ظننت أن بإمكاني أن أخمن فيما يفكر، إلى جانب "زليخة" طبعًا. بعدما شهدنا لقاء النهرين الجليديين بقليل، كرَّس "عرفان" نفسه لإحضار المياه إلى هنا والمناطق المجاورة، ومنذ ذلك الحين لم يتوقف سؤال واحد عن وخزه كعشرات الإبر: "هل يحتاجون إلى ذلك؟" فقد تمكن البشر من النجاة - بدرجات متفاوتة من النجاح - آلاف السنين، عن طريق بناء قنوات للري من المياه التي تنتج عن ذوبان الأنهار الجليدية. بالرغم من فقرهم وانعزالهم، هل يحتاجون حقًّا إلى رجل من المدينة ليعلِّمهم استعمال الأنابيب والصنابير؟ خط رفيع هو الذي يكمن بين مساعدة الآخر وجرحه، فعدم فعل شيء يمكن أن يعني أن تصبح شاهدًا سلبيًّا لكارثة محتملة الوقوع! في حين لو فعلت شيئًا يمكن أن يعني أن تصبح سببًا في كارثة أفدح!

في البداية استعان "عرفان" كثيرًا بالقرآن (تذكر أنه كان قبل وفاة "زليخة") وهو ما يضع قيمة عالية للنية، كان يقول لنفسه إن نيته جيدة.

شممت رائحة النيران من خارج خيام البدو، وقد جلست سيدتان القرفصاء بالقرب من النيران، ربما منشغلتين بصنع المزيد من الخبز. وقفت إحداهما، وعلى الرغم من كوني أبعد من أن أتمكن من رؤية وجهها، فإنني استطعت رؤية كم هي طويلة،

وكيف كان ظهرها مستقيمًا. كانت ترتدي قميصًا أسود مطرزًا بألوان زاهية؛ وردية وبرتقالية، بدرجات نارية كزهور الصبار، وشعرها إما مموج أسفل غطاء رأس باهت، وإما مشدود بإحكام في شكل ضفيرة. كان بوسعي سماع رنين الخلخال الذي ترتديه.

استلقينا هناك، ونظرت إلى الوراء حيث تقع الخيام، ونظر "عرفان" إلى الأمام، نحو السياح الذين ارتحلوا عائدين إلى أسفل باتجاه النهر الجليدي. قال إن الرياح قد غيرت اتجاهها، وإن السحب سرعان ما ستتفرق، وأشار نحو مجموعات مختلفة قائلًا:

- سيكونون بخير بالأسفل، يمكننا أن نرحل مثلهم لو أردتم.

- المكان هادئ للغاية هنا، فلنبقَ بعض الوقت.

استطعت رؤيته بطرف عيني يمد يده نحو تليفونه المحمول فقلت دون أن أتحرك:

- لا تفعل، غالبًا ما زال لا يعمل.

- حسنًا.

سحب يده بعيدًا، ثم تقاطعت ذراعاه وراء رقبته وانحنى ثانية.

- هل كان "ويس" و"فرحانة" متحابين فيما مضى؟

أجبت بسرعة كبيرة:

- لا!

- حسنًا، وأنا أصدقك.

أحاطت سحب رمادية بقمة الجبل الشبيه بـ"الجبل العاري"، هل كان ممكنًا أن تكون تلك السحب رتبت نفسها بهذا الشكل عن قصد، صانعة مجموعة من المرايا، بعضها فوق بعض، لتجعل الجبل يبدو أقرب لنا مما هو فعلًا جهة الشمال؟ بدت كما لو كانت تزعجه، فتعرض عليه غطاءً، ثم لا تلبث أن تسحبه!

كان "عرفان" مُحقًّا بخصوص السحب التي ستتشتت، لكن هذا حدث في مكان آخر؛ كانت تتفرق فوق التل حيث اتكأنا، فظهرت أشعة الشمس كشلال "نياجرا" بتيار متدفق ذهبي يسري حتى عمق البحيرة، كأنها نيران تغطس في بعض العسل.

ما الذي جعله يسأل؟ ألكي يرد لي الصاع صاعين بسبب عدم سعادته، لأنني جرؤت على تذكيره بها؟ بكل بساطة انتهى وقت استمتاعنا. قلت له:

- ربما يجدر بك تفقد تليفونك المحمول.

ضحك بنعومة، وقال:

- لقد احتفظت لهما كذلك بثمرة كمثرى.

درت على جانبي، وقد أعطيته ظهري.

- لديهم مثل شعبي في “هونزا” يقول: “حاذر من الضيف الذي لا يأكل”.

ماذا يعني هذا بحق الجحيم؟ أغلقت عينيَّ، لن أسمح لشيء أن يفسد ما تبين أنه وقت ظهيرة لا مثيل له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

"ملكة الجبال".. طقوس وثنية

وقفت "مريم" مبتعدة عن النيران قبل أن ترمق حافة المياه، انسابت أصابعها على الضفيرة التي أحاطت بوجهها مستشعرة مدى إحكام النسيج. هذا الصباح رفضت ابنتها "كيران" ثانية أن تُضفِّر شعرها، بالرغم من أنها أرتها طريقتين مختلفتين للتضفير، إما ضفيرة واحدة تحيط بالوجه، مثلما تفعل "مريم"، وإما مجموعة من الضفائر التي تنزل على الظهر، وهي الطريقة التي تفضلها والدة "مريم"؛ لكن "كيران" فضلت أن تطلقه حرًّا. تركت شعرها حرًّا طيلة الصيف، منذ تركوا السهول الموجودة قرب "بالاكوت"، لو كان بالإمكان تسمية تلك الفوضى التي تعتلي رأسها شعرًا حرًّا.

نحت "مريم" شعورها بالفشل جانبًا، قبل أن تتلو صلاة سريعة من أجل أمها المتوفاة، ومن أجل كل جبل، ومن أجل كل اسم أطلقته أمها على كل جبل؛ "الباب الأسود"، و"الباب الأبيض"، و"الهاوية"، بالإضافة إلى القمم المنفردة، كالقمم التي تحلق في الهواء أمام "مريم" الآن، والتي يمكنها أن تصبح نوافذ أو موطئًا للأقدام، لتسمح لك أن ترتقي في السماء.

لقد أحبت والدتها "مليكا بربت" و"نانكا بربت"، بالرغم من أن البعض سيقولون إن رؤيته من هنا مستحيلة، لكن اسمه عاش وظل يتردد حتى اليوم!

كان كرمح أبيض عارٍ، يرتفع عاليًا فوق الملكة، يتنفس إلى أسفل لتداعب أنفاسه مؤخرة عنقها وانحناءات فخذيها، وليس غريبًا أن ذوبان الجليد كان شديدًا اليوم.

ومثلما فعلت ابنتها عندما حاولت أن تمشط لها شعرها، لم تستطع البحيرة أن تظل ساكنة، لا بدَّ من أن هناك جنًّا أيضًا، يمكنها أن تشعر به، كما بوسعها أن تشعر بوجودهم كلهم هنا اليوم، الأمير "سيف الملوك"، والأميرة "بدر جمال"، و"مليكا بربت"، و"نانكا بربت"، والجن!

لو كانت أمها موجودة كانت ستدخن بعض أوراق أشجار "العرعر" قبل أن تنظر بعمق نحو الفراغ الكائن حولها، لكنها ليست أمها، والرؤى لم تظهر لها. أما شكوكها وهواجسها، حسنًا، كان هذا شيئًا آخر. شعرت بها طيلة الصيف، منذ تركوا السهول على عجالة، عندما نزعت كل العلامات التي تدل على وجود مزار مقدس بالسهول، بطريقة لا تليق بابنة قديس!

لقد فشلت حتى في تنظيف بيتها الموجود بالأراضي المنخفضة حسب الشعائر! ولم تنفخ في أماكنه المقدسة دخان أوراق "العرعر" جزئيًّا، بسبب أنها لم تصبر لتأتي هنا إلى مراعي الأراضي الجبلية بالأعلى، حيث ستكون قد تركت ماضيها وراءها، وجزئيًّا بسبب عدم تشجيع زوجها لمثل تلك الخطوة. كان الآخرون يقولون:

- طقوس وثنية لزوجة وثنية!

لهذا طلب منها أن تتوقف، كان يقول إنها أوقات صعبة، فقد امتلأ الوادي بجحافل من الرجال الذين أرادوا دليلًا على البراءة، والطقوس الوثنية لم تكن بريئة تمامًا، هنا بالأعلى وسط الجبال، يمكنها أن تفعل ما تشاء، ويمكنها كذلك أن تنسى لعنات الرجل القعيد، لو أنها تسمح لنفسها أن تنسى!

هناك خط يفصل بين الأراضي الجبلية والأراضي المنخفضة، ولم تستطع الأوقات العصيبة أن ترى هذا الخط، فقط مَن أتوا بسلام هم مَن يمكنهم أن يعبروا ذلك الخط، وسيكتشفون أن هنا بالأعلى كل شيء يتحرك؛ الجبال، والسحب، والجنيات، والجن، وحتى الكهوف! لكن هناك شيء واحد ظل دون أن يتحرك، وهذا الشيء هو الزمن!

أعطى هذا "مريم" شيئًا من السلوى لمعرفة أن الزمن بمتناول يدها، ويمكنها أن تمد يدها نحوه، وربما امتطاءه كما تمتطي الأحصنة، كان العالم يدور من حولها. وبالنسبة إلى "مريم"، كان العزاء والسلوان يأتيان بأكثر من شكل، على سبيل المثال في شكل كهف، مثل ذلك الذي استخدمته كمكان مقدس بالصيف، والذي تفضله عن ذلك الذي غطته على عجالة بالسهول، كان فوق التل، وقد أخبرها رجل ذات مرة أنه يقود مباشرة إلى مدينة "طشقند".

كان رحمًا باردًا من الحجارة التي آمنت والدتها أن الناس في وقت ما اتخذوه مأوى في طريقهم إلى أسفل من منخفض "كاسبيان"، فكانوا يأتون على ظهور الأحصنة، على الرغم من أن أحدًا لم يستطع أن يحدد وقت عودتهم على وجه التحديد، ولا حتى استطاعوا تحديده بالتقريب، فقد كان منذ ألفي عام أو ربما ثلاثة آلاف، وأتوا من مكان بعيد يقبع على شاطئ بحر عظيم تحيطه الأرض من كل جانب؛ بحر عميق أسود.

في حين أن الكهف بارد آمن.

بعد ألفي عام أو ربما ثلاثة آلاف، كانت عائلتها لا تزال تكدس الملابس، والأواني الفخارية، والخيام على ظهور أحصنتهم، متجهين نحو المراعي الخضراء كل صيف، والسهول الباردة عديمة اللون كل شتاء.

كانوا في حالة دائمة من الحركة، كالبحر! كموطئ الأقدام في السماء، أو كالفراغ الموجود أسفلها، كبحيرة "سيف الملوك"، لا سيما في وقت بعد الظهيرة ذلك، في حين أن "مريم" تشاهد ابنها وهو يعود إليها بعد أن حمل الهدية للرجلين الآتيين من المدينة، من مكان أبعد من خيالها، عسل، وخبز، وبطاطس. يعتبر العسل طبعًا هو أقيم شيء حملوه معهم على أحصنتهم، وافق زوجها، فالضيوف يجب إكرامهم.

أحدهم، وهو المدعو "عرفان"، لم يكن غير معروف في تلك الأنحاء، ربما كان صديقًا لرجل من المدينة، كان يتحدث بلسانهم ويعلم بأمر الكهف، بل إنه اختبأ فيه عدة أيام بعد وفاة زوجته، راغبًا في الحياة وحيدًا كالغجر على حد قوله لهم، لكن زوجها أخبره أن الغجر لا يعيشون وحيدين، قال له: "لدينا عائلاتنا وحيواناتنا، القديسون فقط هم من يعيشون في كهوف، ودعني أقول لك إنه لم يأتِ قديسون إلى هنا منذ زمن طويل". أجابه "عرفان" بمثل شعبي: "سينام معشر "الجورجار"

حيث يأبى أي رجل أن يسير" وهو المثل الذي جعل زوجها يبتسم، قبل أن يجيبه: "يمكنني أن أؤكد لك أن الكثير من الرجال قد ساروا وناموا في ذلك الكهف، ولم يصبح أحدهم قديسًا".

جلس بصمت شديد هذا الـ"عرفان" حتى عندما كان يحاول أن يفرض على نفسه عقوبة بالبقاء في الكهف، فبدا حذاءاه لا يزالان لامعين. عاد إلى منزله بالمدينة في النهاية، لكنه عاد الآن مجددًا. بوسع "مريم" أن ترى أنه لم يتحسن، فقد غاص خداه داخل وجهه، وبدت عيناه معتمتين. شعرت بالشكر عندما أضاءت عيناه للحظات عندما سار نحو خيمتهم في وقت مبكر من وقت بعد الظهيرة، ليعانق زوجها ثانية.

كان الآخر - والذي أشار "عرفان" نحوه من مسافة، ولم تتمكن هي من التقاط اسمه - قد أتى هنا من قبل أيضًا كما هو واضح، لكن لم تستطع "مريم" تذكره على الإطلاق.

لم يبدُ لها أنه يملك لسانًا، وإنما كان ينساق تحت قيادة "عرفان"، وعيناه تتجرفان هنا وهناك باستمرار نحو خيمتها، أو نحو البحيرة، أو نحو المرأة التي أمسكت بيد "كيران". سارت المرأة كأنها ماعز، وبدا أنها شديدة التلهف لتصادقهما. رأت "مريم" هذا من قبل؛ الغرباء طيبو القلب يرغبون في أن يصبحوا أصدقاء المحليين، وغالبًا يختارون الأطفال ليصادقوهم، ربما يحتاج أولئك الغرباء إلى أن يشعروا باختلاف بصدد أنفسهم عندما قطعوا كل تلك المسافة عبر البحار ليصعدوا النهر الجليدي، كانت معتادة تلك الحاجة التي تساور الناس، ويبدو أن البحيرة تثيرها. عندما تنظر إلى سطحها المشابه للمرآة، فأنت ترى ما ترغب في رؤيته، و"مريم" رأت الاثنين ينظران في البحيرة، صديق "عرفان" وتلك المرأة الأخرى، عندما وصلا. بالرغم من أنها كانت تقف بعيدًا للغاية لتميز هذا، فإنها خمنت. كانا مسرورين بالشيء الذي رأياه في البحيرة؛ أيًّا كان ما هو.

أرادت "مريم" كذلك أن ترى شيئًا آخر عندما تنظر إلى داخل البحيرة مثلهما، لكنها لم تستطع أن تحدد ما هو. مهما كانت حالة سطح المياه، ساكنة أو قلقة، فقد كانت تزيد من رغبتها ولم تخمدها ولو مرة! ربما لأنها أتت - منذ ألفي عام أو ربما ثلاثة آلاف - من بحر تحيطه الأرض من كل الجهات، ولو لم يكن أمام البحر مكان يذهب إليه، لا بدَّ من أن يدور في دوائر مثل تلك البحيرة الموجودة عند قدمي "مليكا بربت" التي تدور كأنها لبن يُخضُّ في إناء، في حين تنعكس السحب في سرعة شديدة، كأنما لتقلب احتياجات لا تنتهي.

نعم، كان الأمر كذلك.

هكذا فكرت وهي تشاهد "كيران" تطارد ماعزتها صاعدة التل، والمرأة التي تسير كالماعز تطاردها.

بداخل "مريم"، لم تكن هناك احتياجات بسيطة، كالحاجة إلى الإحسان إلى أطفال الفقراء والمحتاجين، فلم يكن لديها ما تندم عليه أو تصحِّحه حقًّا، بل كانت الحاجة أكثر إلى... عبست، غير قادرة على نطق الكلمة أو حتى وضع إصبعها عليها.

عادت تعبث بأصابعها في ضفيرتها وتفكر في الكهف، ذلك الكهف الذي يغير شكله، لو أن جداتها قد احتمين بداخله في أثناء رحلتهن نزولًا من فوق المنحدر، في بداية هذا العام، فإن طفليها قد احتميا به في طريقهما صعودًا من السهول. كان كهفًا منخفضًا وقد اصطبغ باللون الأسود من ملايين النيران التي أُشعِلت بداخله، ومن ضمنها النيران التي أشعلتها هي، لكنها كانت الوحيدة التي تعرف هذا، هي و"غافور"، الرجل الذي أراها الكهف أول مرة، قائلًا لها إنه يقود إلى "طشقند". هزت رأسها، لا، لن تفكر فيه الآن!

كان زوجها يعتقد أن الكهف غير آمن، فبدلًا من أن يصبحوا قديسين صار الرجال الذين ناموا في جوفه لصوصًا!

رأوا الشرارة الواشية من بين شقوق الصخور، وبمرور الزمن، كشطوه بالكامل.

دارت بعض المحاولات الصعبة لحمل السقف، والتي بقيت آثارها حتى الآن، وكانت أعمدة خشبية حُشِرت عشوائيًّا في كل مكان على الأرضية المتساوية. اعتاد طفلاها اللعب بالأعمدة، فيهزانها كأنها من الملح، فتتركهما لأنها تعرف أن السقف سيتحمل.

كانوا يسألون عن الحكاية كل ربيع، في أثناء ذهابهم إلى البحيرة بالأعلى، ويقصدون حكاية الأمير "سيف الملوك" والأميرة "بدر جمال".

لو تساقطت الأمطار واحتاجوا إلى دخول الكهف بعض الوقت، كما حدث هذا العام، كانت الحكاية تصبح أكثر سحرية لأنها تمسي أكثر واقعية.

هذا هو الكهف الذي اختفى فيه الحبيبان من الجن الرهيب الذي عاش في البحيرة، وعندما انطلقت عائلتها في طريقها أخيرًا وجدوا قطيعًا ظمآنًا من الماشية يسير بجانبهم وقد انطلقوا في الخوار، ويرعاها كلبًا حراسة.

عندما وصلا إلى البحيرة في شهر أبريل الحالي، كما يحدث في كل أبريل، صارت الحكاية رهيبة بشكل أخاذ بالنسبة إليهما. صارت بحيرة الجن الذي عاش على شاطئها -ذلك الشاطئ!

لكن الجن لم يحاول أن يؤذيهم، لا في فصول الربيع ولا في فصول الصيف التي خيَّموا فيها عند قدمي "مليكا بربت"، البحيرة التي أتت إليها الجنيات للاستحمام في ضوء البدر. بوركت كذلك تلك التلال التي تتجول فيها "مريم" بحرية كالماعز والخيول، وبوركت أيضًا قمة "مليكا بربت" التي كانت "باري خان"، أو "حاكمة الجنيات"، والتي وثقت فيه ليؤدي مهمة "إبقاء الجنيات تحت سيطرته". بورك أيضًا حرم "مريم" المقدس والسري كذلك، لتتمكن "مريم" من الصلاة دون إزعاج في رحمِه، بل إن حاسة تذوقها بوركت، ليكون مذاق كل شيء هنا حقيقيًّا؛ من الفاكهة وحتى العسل.

لماذا كل تلك الهواجس إذًا؟ ربما كانت الرياح هي السبب، ثانية.

التصقت كمية بسيطة من العسل بها، والذي كان في الطعام الذي لفَ للضيوف، لعقته لتنظفه، وهي تنظر نحو السحب التي انجرفت، و"مليكا بربت" تتشتت إلى شظايا في البحيرة كسواسة السلم.

ماذا أرادت أن ترى غير هذا؟ لم تستطع العثور على كلمات لوصفه، على الرغم من وجود السلم هناك عند قاع البحيرة، ولو أرادت، بإمكانها أن تخطو مباشرة داخل الفراغ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسم الثاني

"ملكة الجبال".. أرض خارج الأرض

تتضمن أولى ذكرياتها مشهدًا لها وهي تتحرك على ظهر حصان بين ذراعي والدها، أو على ظهر أخيها. لم تستطع أن تحدد هل هو عبورها هذا الذي تذكره، أم أنه عبور أمها، أو جدتها، أو امرأة أخرى لا سبيل إلى معرفة اسمها. ما كانت متأكدة منه هو أن عبورهم كان دائمًا صراعًا من أجل الحركة، فلن يتمكن أحد من التحكم من السيطرة عليهم إلا لو ظلوا مكانهم، وأمام كل طريق يظهر ليحد حركتهم، كان يظهر طريق آخر يتحركون فيه. لا أحد يعرف هذا كما يعرفه "غافور"، لهذا لم تستطع أن تبعد تفكيرها عنه.

سارت "مريم" إلى الجانب البعيد من البحيرة الذي كان خاليًا من القوارب، وعلى الرغم من أنها لعقت أصابعها من كل أثر للعسل، فإن الرائحة ما زالت موجودة.

تمايلت المياه أمامها. أول مرة رأته فيها استطاعت أن تنظر عبره، كان كالنفق الذي يشق الجبل، والشق الذي يقسم التل، واليد الممتدة في الفراغ. شعرت به في الهواء الذي داعب الضفيرة التي أحاطت بوجهها، وفي السحب التي تثاءبت متفرقة فوق البحيرة. كان بابًا للعالم الآخر الذي يقف خارج منطقة الجبال. ترك لها علامة داخل الكهف، وقد رأتها في طريقهم صعودًا من السهول عندما اتخذت عائلتها مأوى من مياه الأمطار، لكنها لم تجرؤ على التصريح بهذا في وجودهم، فربما يرى زوجها وقتها أن الكهف خطير، لأنه يحيل القديسين المفترضين إلى لصوص، لكن بالنسبة إليها كان الكهف يمثل الكثير من الأشياء، ولا يعتبر أيها خطيرًا. على سبيل المثال، كان يمثل ضريحًا، ورسولًا.

عرفت أنه قادم بسبب الكهف. في الشهور التي خيَّموا فيها هنا عند حافة البحيرة، كل مرة كانت تنسحب فيها تجاه الضريح في السر، كانت تتحسس بأناملها العلامة.

تزايدت سرعة خطوات "مريم" عندما وصلت إلى الشاطئ البعيد، وعندما أدركت أنه لا يوجد من يشاهدها، تسلقت أبعد تل عن القوارب والخيام، وبعد أن نظرت من فوق كتفها مرة أخيرة لحظة، رأت خيمتهم المصنوعة من الشراشف البلاستيكية وقد تهدل أحد أركانها.

طلبت من "كيران" في بداية هذا اليوم أن تصلح العصا التي تسند الخيمة، لكن "كيران" كانت مع تلك المرأة التي تسير كالماعز، وانطلق طفلاها الآخران يلعبان مع أطفال الجيران.

لم يلحظ أحد ما فعلته "مريم"، كانت تلك هي نافذتها. سارت بسرعة. ارتفع "نانكا بربت" بعيدًا عند الشمال، وقد اختفى وراء السُحب لكيلا يراه أولئك الذين لا يستطيعون تخيل وجوده. ظل "نانكا بربت" يراقب "مليكا بربت"، وهي تتأمل في إعجاب انعكاسها بالبحيرة.

أتى إليها في البداية كنبي، وقد تخضبت أصابعه بالعسل، وكان لديه حكاية ليقصها عليها. هناك أرض خارج الأرض، وخارج الجبال حتى، منها أتت، وإليها سيعود جزء منها، فوق مجموعة جبال "بامير"، بعيدًا جدًّا. في أول مرة سارا ببطء خارج الكهف. سار بجانبها، بخطوات طفولية كخطواتها. كان صديقًا لأخيها، وبالنسبة إليها كان نبيًا. مد يده قائلًا:

- لو تحول إلى قطع مشابهة للكريستال، فهذا يعني أنه نقي.

لعقت كل ما كان على إصبعه من عسل، فتجمعت كريستالات كهرمانية داكنة في شكل عقدة غليظة حول الحواف، من سخونته. على الرغم من أنها كانت صغيرة السن، فإنها لم تكن صغيرة جدًّا. نظرت إلى أعلى مرتين، وقد انعكس منظر خليط السكر البارد والساخن في عينيها. اضطر إلى أن يخبرها بأن تسرع قليلًا، فقد كان وراءه عمل. أطعمت أطفالها العسل بالطريقة نفسها، "كيران " تحديدًا شدت إصبعها كأنه حلمة، لكن هذا سيحدث فيما بعد.

حلق عقل "مريم" عبر شواطئ البحيرة، وحتى في فم الكهف حيث ستقضي بضعة أيام فيما بعد مع صديق أخيها الذي يستطيع رؤية العالم، والذي تتمكن عن طريقه من رؤية العالم كذلك، الصديق الذي أحبته وهي لا تزال صغيرة السن، لكن ليست صغيرة السن جدًّا. بدا مذاق جلده أسفل مذاق العسل الذي - بالرغم من أن مذاقه لم يكن جيدًا - كان يجعل شيئًا بداخلها يذوب، كأنما هو بعض الجليد. كان مذاقه يجعلها كذلك تُبقي الكريستالات على لسانها بعض الوقت، لتدعها تذوب وسط لعابها، فيبقى مذاقه الشبيه بمذاق الثوم الأخضر الطازج بعض الوقت كذلك. كانت الكريستالات باردة كالجليد وتحتك بأسنانها، وإصبعه دائمًا بارد، وهذا ما يجعلها هي مصدر السخونة. أخبرها أنها يجب أن تكون فخورة بالأسطورة التي سُمِّيت تيمنًا بها، كانت تركز مع المذاق الذي يداعب لسانها بشدة، لدرجة أنها اضطرت إلى أن تطلب منه تكرار ما قاله ثانية. سحب يده بعيدًا.

- كنت أقول لكِ ألم تسمعي بـ"مريم زماني"؟ سيقول البعض إنكِ سميتِ تيمنًا باسمها، فلا تصدقيهم، فهي التي سُمِّيت باسمك!

ارتفعت ضحكات "مريم"، لأن "مريم زماني" كانت مشهورة، كانت أسطورة، وهي مجرد "مريم" عادية، مهتمة أكثر بسماع القصص التي تدور فيما وراء الجبال عن سماع الأسطورة، فهي تعرف بالفعل كل أساطير الوادي. كانت تعرف الأميرة، والجني، والأمير الذي أتى من مكان بعيد، ربما حاملًا بعض العسل على جلده ذي رائحة الثوم.

كانت تعرف "كاجان" التي سُمِّي الوادي باسمها. لم تظهر "كاجان" أبدًا لـ"مريم"، لكنها ظهرت فيما يبدو عدة مرات لوالدتها التي كانت تستطيع رؤيتها لا سيما بعدما تُدخِّن أوراق "العرعر" وتشرب بعضًا من "البراندي" المصنوع منه، وبعدما تفعل الأم هذا، تريها "كاجان" هذه بعض الأشياء من المستقبل، وكانت تساعد أمها في تغيير شكلها، حتى بعد الموت!

عرفت أن "كاجان"، ومثلها والدتها، تحلقان في مركبات على شكل بوم. عرفت أنه لدى "كاجان" أضرحة مقدسة في كل أرجاء الوادي، وأنه في وقت ما، ترك أتباعها بعض القرابين لها بالمعابد، مزينة بقرون الكباش وذيول حيوان "الياك". عرفت أن معظم تلك الأضرحة قد هجرت، وأن غضب "كاجان" أسوأ بكثير من رمح "الجبل العاري" المسنون، كما عرفت أن غضبها كان محفوظًا لأولئك الذين يتعدون حدودهم؛ أبناء متعبديها الخرقين، الذين ينفذون طقس التنظيف دون إتقان كل ربيع عندما تموت أمهاتهم، قبل ترك السهول ليتوجهوا إلى الجبال.

عرفت "مريم" كل تلك الأساطير، لهذا لم تكن مهتمة للغاية بسماع تلك الأسطورة الأخرى التي تدور حول "مريم زماني" التي سمعت بها من قبل أيضًا، لكن لم تظنها تستحق التذكر الآن. بدلًا من هذا، سألت:

- كيف تبدو الأمور بالأعلى، بالشمال، حيث ترتدي النساء القبعات الطويلة ويسرن بجوار الرجال؟

- كلهم سمعوا عنكِ بالأعلى، فأنتِ الفتاة التي حركت الصخرة.

ربما كانت الأسطورة تستحق السماع ثانية بعد كل شيء. ظلت تستعيد القصة داخل عقلها وهلة، وقد تأثرت بمدى فخره بها. كانت القصة تحكي عن فتاة من "الجورجار"، تدعى "مريم زماني" التي ذهبت مع صديقاتها إلى "بالاكوت" لتحضر بعض المياه من الجدول. كانت الفتيات يضطررن كل يوم إلى أن يعبرن صخرة ضخمة ذات سطح حادٍّ غير متساوٍ، وهذا ما يجرحهن كل يوم، فيعدن إلى بيوتهن بأقدام دامية وركب خشنة. خطر لـ"مريم زماني" ذات يوم أن بإمكانهن أن يُزِلن تلك الصخرة ببساطة، لكن صديقاتها سألنها كيف سيفعلن هذا؟ أجابت:

- باستخدام شجاعتنا.

وبالفعل انزاحت الصخرة بعيدًا.

لم تصدق هذا طبعًا، فلا "مريم" الأسطورية لها علاقة بها، ولا كانت هي تصدق الأسطورة نفسها، فكيف ستتحرك صخرة من تلقاء نفسها؟ لكنها عرفت أنها لو تظاهرت بأنها مبهورة بالقصة، فإن "غافور"، المسافر، والتاجر، ذا رائحة الأنفاس الشبيهة بالثوم، والذي يحمل معه العسل، سيخبرها عما يكون عليه الحال بالأعلى، وقد فعل هذا فعلًا. أراها الأحجار الكريمة البيضاء التي قايضها في الجبال مع بائع صيني أخبره أنه كلما تغير من يرتدي الأحجار الكريمة، تغير لونها. تساعدك الأحجار الكريمة البيضاء في الهدوء والتركيز على المهمة التي أمامك، كتحريك الصخرة على سبيل المثال. ابتسم.

كان من أرفع "الجورجار" منصبًا، ولم يسمح بأن يُحبَس داخل حدود الأراضي المنخفضة، كما حُبِست هي مع الأساطير. شعرت ببعض القلق من كون حكاياته عن الأحجار ومقايضاته مع البائع ليست صحيحة هي الأخرى ومن ضمن الأسطورة كذلك. كانت قادرة جدًّا على التركيز على المذاق الذي يعتلي لسانها، دون أن تشتت حكاية الأحجار ذهنها. كل ما تحتاج إليه هو إصبعه والعسل. كان يضحك، وقال لها:

- لا تدعي أحدهم يجعلك تشيخين.

ثم تسمر، قبل أن يستطرد:

- حتى لو تزوجتِ، رحلاتي تبقيني شابًّا، فلا أرغب في رؤيتكِ عجوزًا.

عندما دخلا الكهف كان يضايقها بقوله إن صلواتها كانت كصلوات الوثنيين، واستفسر عن سبب إشعالها لكل فروع "العرعر" هذه، وعن فائدة الدخان الذي يلطخ جدران الكهف، وعن الرؤى التي تدعي أنها تراها، وهي كذبة كانت "كاجان" جديرة بمسامحتها عليها، فهي لا تستطيع أن تعترف له أنها، بالرغم من أنها ابنة أحد الكهنة، فلم تراودها أي رؤية. قال وهو ينظر حوله:

- ولا حاجة إلى ذكر كل قرابين الطعام التي تُقدَّم.

أجابته مقطبة الوجه:

- أحمق، الطعام لك.

وجذبت وعاءً صغيرًا من الأرز و"الميسري"، من اللوز والحليب والزبدة، من شق بالصخرة، راغبة من جديد في غفران "كاجان"، فالطعام كان بالتأكيد قرابين للآلهة. وسرعان ما غنى لها الأغنية نفسها التي غُنِّيت في زفافها، ومع ولادة كل طفل من أطفالها. أولًا "يونس"، ثم "كيران"، ثم "جومانة". كانت القصيدة هي "سيف الملوك"، وتحكي عن الأمير الذي وقع في حب أميرة من جنيات البحيرة، ومن جديد رأتهم واحدًا. أتى الأمير من مكان عند الجبال، مثل "غافور"، بالرغم من أن الأغنية تقول إن ساق الأمير كانت مقوسة، أما عماماته فقد ربطت بشكل خاطئ بالكامل. ثم إنه فَقَدَ سيفه عندما رأى الأميرة تستحم في البحيرة، وقد جعلتها الأغنية تضحك، وجعلت وجهها يتورد خجلًا كذلك.

أسقط الأمير ذو العمامة المقلوبة سيفه

عندما انحنت الجنية إلى الأمام، وعندما قفز عن جواده.

يا لتقوس ساقيه!

يا لانحناء ثدييها!

يا لخبث الجني بنيرانه ولهيبه!

أحيانًا، كان يحضر الفلوت الخاص به، أو - لو كانت محظوظة - آلة "الألغوزا" الخاصة به، وهي مزماران متصلان ببعضهما بعضًا، يشيع استخدامها في صحراء "راجستان"، وكذلك يحبها غجر الجبال. كانت تحب الطريقة التي يجعل بها المزمار الأول يعزف بأنفه، وهو يعزف نغمة أخرى على الفلوت الثاني بلسانه. (أحيانًا، وبينما هي تلعق العسل عن أصابعه، كانت تتخيل الفلوت، ولسانها وأنفها هما من يعزفان). أحبت كذلك الحلي التي عُلقت على الخشب، وصوت الخشخشة الصادر عنها، وأحبت الطريقة التي يهتزون بها مع النغمات، وهو يحرك رأسه ويغلق عينيه حتى لا يراها وهي ترقص. لو فتح عينيه كانت تستمر في التمايل

وتظل عيناها مثبتتين على الخرز المعلق بالفلوت والخيط الذهبي، وعندما يصل بالأغنية إلى الجزء الذي يحكي فيه عن اختباء الأمير والأميرة من الجني ولجوئهما للكهف، لم تكن تتمكن من تفادي النظر في عينيه، فهما الآن داخل الكهف نفسه، كهفهما. شعرت بملمس الحجر المعلق برقبتها ناعمًا وساخنًا على جسدها، في حين أنه من المفترض أن يكون باردًا.

ظلت ترتدي القلادة طيلة سنوات، ولا تزال تشعر بها على بشرتها أسفل قميصها الأسود، في حين تدخل الكهف فتتأمل العلامة. مرت سنوات منذ آخر مرة ترك لها فيها علامة! لماذا الآن؟ لماذا كان على وشك العودة، والعودة من أين بالتحديد؟ شعرت بانقباض في معدتها. راودها ذلك الشعور بالشك، لكن خالطه بعض الشعور بالإثارة. لم تشعر أبدًا بالحزن لرؤيته. تلت "مريم" صلواتها ونثرت بعض الأرز في الشرخ الموجود بالجدار. ابتهلت للآلهة طالبة حمايتها، وطلبت من أمها حمايتها كذلك، كما طلبت من والدها، لكن حتى الحجر الأبيض المُعلق حول رقبتها لم يساعدها في التركيز، ففي أثناء صلاتها لم تستطع التوقف عن تأمل العلامة، وهي مجرد ريشة زرقاء وحيدة من طائر "الرفراف"، أيمكن أن تكون مصادفة؟ ربما كان ذلك الطائر قد صنع عشه في أثناء الشتاء ثم رحل عنه تاركًا هديته من خلفه.

أنهت "مريم" صلواتها بسرعة - كما كانت تفعل كل شيء خلال هذا العام بسرعة! - وسارت حول الأعمدة الباقية من عشرات السنين.

تحمل تلك الأعمدة الكهف كما تحمل العصيان الخيام - ومن جديد انجرفت أفكارها نحو الشراشف البلاستيكية - المائلة والمسربة للمياه، ولـ"كيران"، التي لا يمكن احتواء حركاتها، بالرغم من أن الحقيقة هي أن الكهف لا يحتاج إليهم، فهو مثل الرحم، صرح متكامل بمفرده، كلما توغلت داخل الرحم ازداد ضيقًا وبرودة، انخفاض درجة الحرارة كفيل بتهدئتها.

ضغطت بكفها على الجدران، وقد حنت كتفيها، لتسمح لذلك المكان الضيق باحتوائها، تتبعت أناملها الخدوش التي حدثت في مرة سابقة، خدوش أخذت شكل صيادين ذوي عمامات، أو صيادين برؤوس عارية، غزلان وأبقار، بوم وأحصنة، الخدش المفضل لديها كان يمثل ثلاثة خيول، أحدهم يحني رأسه، والثاني يرقص، والثالث ينظر إلى الخلف إشارة إلى حسن الضيافة، والحرية، والذاكرة، وعلى كل جانب من جانبي الثالوث حلقت بومة، كل واحدة منهما بيضاوية الشكل، بعينين متسعتين كالعجلات. في كل مرة تقف هناك، تتلمس بأناملها أحلام الموتى. كان بوسعها أن تسمع أمها وهي تقول إن الخيول هي أجنحة هذا العالم، والبوم هو أجنحة العالم الآخر.

كان بوسعها سماع خفقات أجنحة، ليست خفقات سريعة كأجنحة الولادة ولا خفقات بطيئة كأجنحة الموت، بل إن تلك كانت ناعمة وخفية، وهذا ما يعني أنها حركة أجنحة الخفافيش: أجنحة لما بين العالمين.

وقعت بركبتيها على الأرض التي امتلأت بصخور حادة، كان بوسع "مريم" الأسطورية أن تزيل تلك الصخور كذلك! زحفت أعمق داخل الكهف الذي احتواها

حتى لم يعد هناك مكان آخر تضغط عليه. يقسم "غافور" إن الكهف يؤدي إلى طريق يقود عبر الجبال لأماكن لن تراها أبدًا، مثل "قشغر"، و"بيشكك"، و"طشقند"، "إلا لو كنت خفاشًا!"، هكذا فكرت. مررت يديها على الجدران، صحيح أن عليها رسومًا، لكن لا نوافذ، ولا أبواب، ولا أثر لريشة ثانية كذلك، أو عش، أو قشور بيض، أو ياقوت؛ كما لو أن ذلك له أهمية.

لم يكن طائر "الرفراف" هو الذي ترك الريشة الزرقاء، فهو طائر يظل في السماء. تُركت الريشة الزرقاء كعلامة على أنه قادم، فكرت في العلامة الأخرى التي أُعطيت لها ليلة أمس بالذات. حلقت بومة فوق البحيرة، كانت قد تركت خيمتها الآيلة للسقوط لتستحم عند حافة المياه، استمتع زوجها بكونها تؤدي طقسًا في كل مرة يمارسان فيها الجنس، أيًّا كان المكان الذي يمارسانه فيه. وعندما رأت الأجنحة البيضاء تدور وتدور، متبوعة بنداء، لم تعد إلى النوم!

تسارعت اضطرابات معدتها، صلت من أجل والدتها مرة أخرى - وقد رفضت هذه المرة أن تحدق إلى الريشة الزرقاء، أو الرسومات على جدران الكهف، أو الخفافيش - قبل أن تترك الكهف، ثم هُرِعت عائدة تجاه البحيرة والخيام.

انتصب "الجبل العاري" خلفها، في حين رقدت "ملكة الجبال" أمامها على بعد، وهي لا تزال تعدل من هندامها، وكانت "كيران" لا تزال مع تلك المرأة التي تسير كالماعز. ظنت أنها رأت الرجل الأبيض عائدًا إلى الشاطئ، أما "عرفان" ورفيقه فكانا بعيدين للغاية فلم تستطع رؤيتهما، لكن بدا لها أن المرأة تسحب "كيران" نحوهما. يجب عليها أن تعلِّم "كيران" أن تقلل من اختلاطها بالضيوف، وتدربت في سرها على التحذير الذي ستلقيه عليها: "ابقي بالقرب من المراعي التي ترعى فيها أغنامك، أو على الأقل ابقي في مجال الرؤية من خيمتنا!" وستضيف بعد ذلك "الخيمة التي كان يفترض بكِ إصلاحها!".

أسرعت "مريم" في سيرها، كانت أمنية "غافور" أن تحافظ على شبابها، حتى لو تزوجت، وقد فعلت. لم تتباطأ سرعتها أبدًا، في كل ربيع، في أثناء رحلاتهم الطويلة صاعدين تلك المنحدرات، كانت هي الوحيدة التي تستمر بالحركة، في حين يتوقف الباقون كلهم للراحة. لا بدَّ من أن "غافور" هو الآخر قد حافظ على شبابه، وهي متأكدة من هذا، وعندما يكبر أطفالها سيحافظون على شبابهم كذلك؛ كانت تصلي عند الضريح المقدس داعية بهذا دائمًا.

قررت "مريم" التوجه مباشرة نحو الضيوف لتسحب "كيران" بعيدًا وتوبخها، لكنها تعرف أنه يجب ألا تقترب منهم بنفسها، لهذا اتجهت نحو خيمتها، سحبت الغطاء الأسود الذي بدا مهلهلًا كأجنحة الخفافيش إلى الخلف، وأسرعت إلى الداخل تخبر زوجها أن الشاي يجب أن ينتظر، يجب أن يعيد "كيران" أولًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

أقدام باردة

لم أنسَ سؤال "عرفان".

استمرت السحب تحوم حول مجمع الجبال، كزوبعة قرمزية في السماء، تحيط بالجبال كما تحيط الذكريات بالواحد منا سواء كالذكريات الجميلة أم الخبيثة، وكان العسل العالق بأصابعي لذيذًا للغاية. رقد "عرفان" بجانبي في سلام وسكون، وقد ثنى ذراعيه وراء رقبته، وهناك احتمال لا بأس به أن يكون نائمًا، في حين رقدت أنا مستيقظًا جدًّا؛ مستيقظًا للغاية!

يسير "ويس" و"فرحانة"، ومددت أنا أصابعي نحو الندبة الموجودة أسفل سترتي وقميصي، كانت ندبة طويلة، بالرغم من أن الجرح نفسه لم يكن عميقًا، لكن كان هناك الكثير من الدماء. يقولون إنه في حالة حدوث حادث سيارة، لا يجب على الإنسان أن يتأخر في القيادة ثانية، وبالطريقة نفسها، بعد ما حدث لي من الرجل الذي رغب في معطفي تقريبًا، قررت عدم إلغاء موضوع تمشيتي الليلية، أو هذا ما قلته لنفسي في تلك الليلة، بمجرد عودتي إلى شقتي.

نمت من دون الشعور بالراحة، مستمعًا لصوت همسه: "معطفك.. أعطني معطفك!". كان بوسعي سماع صوت الخطوات المكتوم، لم يكن بإمكاني الرؤية، لكنني رأيت الحذاء، وقد بدا موحلًا وسميك النعل. رأيت يدي تمتد بالمعطف له، يدًا تنتزعه من على جسدي. رأيت نفسي أنهض من الفراش ثانية، لأصل إلى المعطف، قائلًا لنفسي إنني يجب أن أخرج من جديد في أثناء الليل، لأن فَقد تلك التمشيات سيكون بمنزلة فَقد لطبيعتي، لكنني في الواقع كنت أمشي نحو مجمد الثلاجة مرارًا وتكرارًا. مشيتي نصف الواعية نحو مجمد الثلاجة من أجل قالب من الثلج أشعرتني كأنني أخرج من الباب. أخبرت نفسي أنني في طريقي للتعافي. عندما استيقظت في الصباح، كان "ويس" يجلس بجانبي. وجدت أنني صرت في شقتي في "ريتشموند"، ووجدت نظرة رعب مرتسمة على وجه "فرحانة" التي صاحت:

- أنت تنزف!

حاولت أن أجلس على فراشي، وقلت:

- ماذا؟

- "نادر"، أنت تنزف!

بالطبع، فقد شعرت بألم شديد في بطني، وقد تخضبت الشراشف بالدماء. بدت أجزاء جسدي المكشوفة والملاصقة لهم، ذراعي وساقي، شاحبة للغاية. تذكرت أنني غفوت نائمًا بسعادة لمعرفة أنه كان جرحًا سطحيًا، لكنني الآن أسمع "فرحانة" من بين موجة من الضباب، وهي تقول شيئًا بخصوص الحاجة إلى تخييط الجرح وعناية طبية وسيارة.

تقلبت في مكاني وتقيأت على الأرض، قبل أن أفقد وعيي. لم يكن لديها سيارة، وكذلك أنا، ورفاقي بالسكن كانوا مع عشيقاتهم أو عشاقهم، لهذا اتصلتْ بـ"ويس". فيما بعد، خطر لي سؤال: لماذا لم تتصل بالإسعاف؟ كانت الرابعة صباحًا، وقد غفوت ساعتين فقط، وأيقظتها بكل استيقاظاتي وتشنجاتي. لماذا أزعجت "ويس"؟

في الطريق إلى المستشفى، طمأنها "ويس" قائلًا:

- أشك أن الجدار البطني قد دُمِّر..

ثم أضاف بعد لحظة في حنان:

- سيكون هذا سيئًا للغاية.

فقدت الوعي ثانية، وفي غرفة العمليات، تحت الأضواء، نظرت إلى الجرح عن قرب، أدهشني طوله الذي قارب طول إصبع السبابة مرة ونصف، لكن طوله كان أكثر من عمقه، ويحتاج إلى بعض الاستكشاف لمعرفة أكان "ويس" محقًّا بخصوص كون جدار معدتي قد ثقب.

كان مخطئًا، فصحيح أنني طُعنت، إلا أن الطعنة لم تكن عميقة لدرجة اختراق أي أعضاء، هكذا أعلن الطبيب وهو ينبش هنا وهناك، أم إن ما شعرت به كان تأثير المخدر وهو يتجول عبر جسدي؟ قارنت بين شعوري الآن وشعوري في حالة خلع ضرس العقل، فلم أجد الكثير من الاختلاف، ربما باستثناء أنه في حالتي الآن هم لا يحاولون خلع شيء من مكانه، بقدر ما يحاولون – آمل ذلك - إبقاء ما بالداخل في مكانه. استلقيت مكاني متمنيًا أطيب التمنيات لمعدتي، وتلوت صلاة قصيرة من أجل أحشائي الصغيرة، ثم وجدتهم يلفونني بالضمادات قبل الذهاب إلى المنزل. بعد الظهيرة، عرفتني "فرحانة" عليه بصفته "ويسلي"، لكن الفتى أردف بود:

- نادني "ويس" فقط.

- لكنك لست مجرد "ويس".

أجابته مبتسمة وهي تلقي بملعقة من الحساء في فمي. لف ذراعه حول عنقها، وهو يلمس ذقنها بيده، فتساقط الحساء فوق ذقني.

- كيف حالك الآن يا "نادار"؟

فكرت، وأنا أستقبل ملاعق الحساء داخل فمي: "اسمي نادر!". قالت "فرحانة":

- قضى "ويسلي" بعض الوقت في كلية الطب، قبل أن يقرر تركها من أجل البيئة.

لم أفهم ما كانت تريد شرحه، ولا فهمت كذلك لماذا يفعل شيئًا غريبًا كهذا. كان يدعوها "فرح".

- اذهبي للراحة قليلًا يا "فرح"، وأنا سأعتني به.

شكرته، ثم قَبَّلَت أنفي قبل أن تترك الغرفة، وستتجه غالبًا نحو غرفة المعيشة لتتكور على الأريكة مع مجلة "الطبيعة". التقط طبق الحساء، قلت:

- الأحسن لك ألا تفعلها!

ضحك وهو يضع طبق الحساء مكانه. مسحت ذقني بظهر يدي، قبل أن أميل برأسي متسائلًا:

- لماذا تدعوها "فرح"؟

هز كتفيه مجيبًا:

- أتعرف الممثلة الأمريكية "فرح فاوست"؟ كانت أمي تعرفها وقت أن كانت تدرس في جامعة "تكساس" في "أوستن". انضمتا إلى الجماعة النسائية نفسها المدعوة "دلتا دلتا دلتا".

- هذا هو السبب إذًا؟

هز كتفيه دون إجابة. هل يعرف أن والد الآنسة "فاوست" كان لبنانيًّا وسمى ابنته في البداية باسم "فيره" الذي غيَّرتْه فيما بعد ليصبح "فرح"؟ أو يعرف أن اسم "فرحانة" له المعنى نفسه، وهو السعادة؟ لم يبدُ عليه الاهتمام، أو ربما هو لم يسمعني فقط.

- تبدوان متشابهتين.

- تقصد الشعر الداكن والعينين الداكنتين والطول نفسهم؟

ضحك مجيبًا:

- لكن الأنف مختلف.

- باستثناء كون أنفيهما مختلفين فعلًا.

أغلقت عينيَّ، وفي النهاية شعرت به يبتعد، وعندما استيقظت في اليوم التالي كنت قد نسيته تمامًا، فقد أيقظتني "فرحانة" بمداعبة سرتي بإصبعها، وهي خائفة من وجود الضمادات، وأعلنت بداية حقبة من بقائي في الفراش مستريحًا، والمآدب الفاخرة تأتي إليَّ في مكاني، وعنايتها بي بكل شغف ممكن. جربت العديد من وصفات أمي - وقد تمكنت من طهي وصفة الدجاج في المقلاة الصينية "الووك" بشكل رائع - وأضافت الزهور إلى السلطات. حان وقت الحبهان، الخرشوف، والفن. أهدتني كتبًا عن التصوير لم يكن بإمكاني تحمل تكلفتها، من ضمنها مجموعة "إليزابيث كارميل" المسماة "مياه لامعة". كان هذا هو يوم نزع ضماداتي. بدا سطح المياه في الصور التي التقطتها "إليزابيث" كأنه جلد كائن ما، أما صخورها فبدت حية للغاية لدرجة أنني مددت أناملي أتحسس أمعائي، مستشعرًا مكان الجرح حسب ذاكرتي، شاعرًا بالأمان لأنني أعرف أن أعضائي كلها بالداخل كاملة، قلت لها من مكاني في الفراش:

- شكرًا لأنكِ طهوتِ؛ أعرف أنكِ لا تهوين فعلها كثيرًا.

- كل ما في الأمر أنه من الصعب إرضائي للغاية فيمَن أختار أن أطهو له.

ليتني كان بوسعي أن أمكث أكثر من هذا في الفراش، تمنيت لو أنني مكثت بمكاني أسابيع أخرى، وبينما كنت أتعافى، تناقشنا حول تفاصيل رحلتنا. سنطوف بـ"كراتشي"، و"إسلام آباد"، و"جلجت"، و"هونزا". كان لديها العديد من الخرائط، واحدة منها أظهرت الطريق لنهر "التار" الجليدي، ومن بعده يوجد نهر "باتورا" الجليدي. تحدثت عن العمل الذي ستعمله - بسعادة واضحة لدرجة أنها بدت متألقة بمجرد بدئها في الحديث عن الموضوع - وقد سمته "قراءة الجليد". تحركت عيناي نحو نقطة مختلفة على الخريطة، "إذًا فأنت تقرئين الجليد؟"، شردت بذهني دون أن أفكر في سؤالها أستظل تقرأه إذا ما تَكوَّن بيننا.

كنا في المدة التي تسبق شهر العسل، وبعكس أول مرة وصفت فيها ماذا ستفعل في باكستان، كنت مهتمًّا هذه المرة. تعلمت شيئًا عن نفسي في تلك الأيام التي كنت فيها طريح الفراش، وهو شيء تمنيت ألا أحتاج أبدًا إلى الاعتراف به: أحببت حبها، أردتها أن تطعمني، تضعني في الفراش، وتهدهدني كطفلها. صحيح أنني رغبت في العودة إلى عادتي الليلية المنفردة، لكن تلك الفجوة من الزمن التي كنت فيها تحت رعايتها، كانت رائعة. أردتها أن تدللني لدرجة إفسادي، لهذا أبحرت عبر خرائطها، لأشعر بفضولي يتزايد. قالت وقد أدركت أنني جمهورها المخلص ومستمعها المريض:

- ربما كانت الأنهار الجليدية تنمو بشمال باكستان منذ ثلاثة عقود.

ثم استطردت:

- في بعض أكثر الأماكن انعزالًا على الأرض. أريد أن أصنع أرشيفًا من البيانات الجيوكيميائة ونظائر العناصر الكيميائية.

بدأت أحب لغة الأنهار الجليدية. كانوا يركضون ويزأرون، ويتشققون ويزحفون. كانوا بذيئي اللسان ومسالمين في الوقت نفسه. كانوا كل صفة وعكسها.

وقعت عيناي أكثر من مرتين على نقطة لم يكن من المفترض أن نراها إلا كنقطة على الخريطة، مجرد نقطة عل شكل صورة جانبية لوجه بقرة، حيث يمثل وادي "كاجان" الأنف، والوجه متجه صوب الغرب. على الرغم من أنني أتذكر تسلق أذن البقرة مع "عرفان" وزوجته المقبلة (التي سرعان ما صارت زوجته الراحلة)، لم أقل أيًّا من هذا لـ"فرحانة"، ونحن نتطلع للخرائط، فطريقنا سيكون مختلفًا. لم تذكر ولو مرة خلال تلك المدة أن "ويس" سيأتي معنا. لم تذكر مَن سيأتي ولا أين سيأتي، وهي عناصر رحلتنا المشتركة، ظننت أنني أعرف مَن سيأتي، وهي ظنت أنها تعرف أين ستذهب.

أخذنا سيارة "ماثيو" في اليوم المقرر لفحصي بشكل نهائي في المستشفى. أعلن الطبيب أن الجرح قد التأم بشكل جيد، وعلى سبيل الاحتفال (بتشجيع شديد مني) بقينا في الخارج حتى وقت متأخر نمر بمتاجر الكتب، واستمتعنا بعشاء مكون من بلح البحر والنبيذ في حانة تُدعى "بيت المنحدر"، ثم ذهبنا إلى الطريق السريع الكبير، وهو امتداد للطريق الساحلي الذي ينقلني دائمًا إلى "كراتشي"، الوجهة التي

ظننت نفسي ذاهبًا إليها عندما التقيت الرجل الذي هاجمني! رأينا شيئًا أبيض في منتصف الطريق على بعد كيلومتر من شارع "بالبوا".

كانت بومة مزارع، وقد أضاء وجهها الذي يشبه شكل القلب. قالت إن البوم يرمز إلى العديد من الأشياء، الجيدة والسيئة، وبومتنا كانت فألًا جيدًا. أعدت التفكير في تلميح والدها عندما قال: "على الأقل هي ليست متزوجة"، ولم أعد أجده يثير ذعري كالسابق، على الأقل لم يثر ذعري حتى بدأتْ في البكاء وهي تقول إنها تريدني أن أبدو عامرًا بالسلام مثل تلك البومة عندما أموت!

عندما عدنا إلى شقتي أعطتني هدية، وهي مجموعة من صور "روبرت فرانك". كانت الصفحات محددًا عليها بالقلم، وهذا ما جعلني أظن بالخطأ في البداية أنها مستعملة، وقد وُضعت خطوط تحت بعض الجمل مثل: "وَضَع خريطة للفراغ الفاصل بين الذاكرة العامة والخاصة، وسجل العنصرية التي توغلت داخل الوعي الجمعي لجيله". انتقلت إلى مجموعة من الصور لزوجته وطفله داخل سيارة، وقد التقطت الصور من خارج السيارة. بدا على وجه زوجته تعبير معقد للغاية، لدرجة أنني لم أستطع أن أبعد عينيَّ عنها؛ أحيانًا كنت أراه استسلامًا، وفي أوقات أخرى كنت أراه تصميمًا، أحيانًا كنت أرى السيارة قفصًا يحبسها، وأحيانًا أخرى رأيتها ملجأ لها، والشيء نفسه بالنسبة إلى الطفل، لكنني نادرًا ما لاحظت وجود الطفل من الأصل. نظرتها التي بدا عليها الوقوع في الفخ هي ما أسرتني! المواجهة الهادئة بين المرأة، والطفل، ومختلس النظرات لهما. قلبت "فرحانة" بضع صفحات، ثم بدأت تقرأ بصوتٍ عالٍ:

- كان يحتاج إلى تخليص نفسه من أعباء الماضي ليعيش بشكل أفضل في الحاضر.

أردت أن أجيب بأنه ما من شيء خطأ في هذا، نظرت نحوي وقالت:

- ما هو أكثر عبء يضايقك؟

أخطأت مرة في الماضي عندما أجبتها وهي بمزاج مثل هذا، فقلت هذه المرة:

- كل ما أعرفه هو ما لا يمثل عبئًا عليَّ، أنتِ.. أنتِ مصدر سعادتي يا "فرحانة".

أجابتني ضاحكة:

- لكن ربما كانت احتياجاتي عبئًا عليك، لو كذبت بصدد هذا سيصير أنفك طويلًا مثل "بينوكيو".

- أتفهم احتياجاتك.

قرصت أنفي وهي تضحك مجيبة:

- أنا أحبك، والأنف الطويل سيليق بك على كل حال.

- أيمكنني تصوير ساقيكِ الآن؟

- هذا مجهود كبير لسلب روحي.

أجبتها:

- سأصور ساقيكِ فقط؛ لا تقلقي.

عندما رفعت عينيها نحوي كانت ترتسم فيهما تلك النظرة التي ارتسمت فيهما من قبل، في تلك الليلة التي خلعت فيها ملابسها من أجلي، لكنني هذه المرة كنت مستعدًّا.

التقطت مجموعة من الصور بالأبيض والأسود وهي ترقد على جانبها وساقاها مختبئتان وسط الظلال، وقد التمعت عضلاتها كأنها الكواكب، بدت ساقاها منحنيتين كأنما هما سيقان لجبل، وقد انحدرت سمَّانتاها المدببتان نحو الكعبين بشكل رائع، ممتلئتين لكن مائلتين، وقد مال فخذها على لحمها كشريط ناعم. كان انحدارًا لا يصدر إلا عن زنبقة "كالا" - رأيت التشابه ثانية في تلك اللحظة - لكن الاختلاف الآن في كون الضفيرة تبدو كعضلة تحيط بطول فخذها كالأفعى. كانتا ساقين تعبران عن نفسيهما من الأمام كما من الجانب، وسرعان ما صنعنا نسختنا الخاصة التي نقلد فيها كتابًا آخر - عثرت عليه ذلك الأسبوع - على سبيل المزاح، كتاب مربع صغير الحجم جعلني لسبب ما أفكر في أيدي الأطفال، اسمه "صورة الذكر والأنثى وهما يتحركان"، يُظهِر رجلًا وامرأة عاريي الجسد، يؤديان الأنشطة اليومية المختلفة ليظهرا تشريح جسديهما، ومن ضمن هذا ارتقاء درجات السلم حاملين سلة في كل يد، ويرميان مناديل من فوق أكتافهما، ويجريان عجلات لفوق التل. أنشطة لا تحدث يوميًّا. اُلتقطت الصور من زاوية عريضة، فبدت هيئاتهما بعيدة لدرجة أنهما لم يبديا كأنهما يتحركان بقدر ما بديا كأنهما متجمدان. كان من الممكن أن يكون كتاب أطفال، كالذي يغسل فيه الرجل المصنوع من بسكويت الزنجبيل الملابس، وترتب ذات الشعر الذهبي الوسادات.

أما في النسخة الخاصة بنا، فكنا نرمي ملابس داخلية متسخة من فوق أكتافنا، عوضًا عن المناديل، ونرتقي "التل" للفراش، وبعكس الصور الأصلية التي ظهر فيها الكادر كاملًا، كانت لقطاتنا تملأ الصورة بالكامل، فعندما انحنت "فرحانة" إلى الأمام التقطتُ صورة لمؤخرتها، وعندما التويت متفاجئًا التقطتْ صورة لقضيبي. فتحنا ثلاث زجاجات من النبيذ، فشربنا اثنتين وسكبنا واحدة، وبحلول المساء بعد أن مارسنا الحب مرة، وحاولنا مرة ثانية لكن دون أن يحالفنا الحظ، انهرنا عاريين وواقعين في الحب.

مر بنا شهران من السعادة، بدت هي الجانب المشرق من الجرح الذي بجسدي. شهران لم يبديا أنهما فجوة، أو ضمادة. لم يكن لدينا ما نرغب في الهروب منه أو إخفائه، بل كنا نعود ببساطة إلى الطريق الذي كنا عليه، لكن هل بوسعنا تمييز الفاصلة الموسيقية من الأغنية نفسها؟ وفيمَ سيهم أيهما ما كنا نمر به ما دام كلاهما يجب أن ينتهي؟ ومتى انتهى على وجه التحديد بالنسبة إلينا؟ هل انتهى مع إعلانها أنها ستُحضر "ويس"؟ أم قبل هذا، في ذلك اليوم من ديسمبر، عندما زرنا والدها؟ أم عندما وصلت تلك الرسالة على البريد الإلكتروني من "عرفان"؟ سيخبرنا "عرفان" عن الرجل الذي فجر "كراتشي" وشريكه المتواطئ معه، على ضفاف

بحيرة في "كاجان" في العام المقبل، وسيقول إنه من الصعب تمييز صراع من الآخر، أو تحديد متى صار صراعًا من الأصل.

رأيت والد "فرحانة" عدة مرات في أثناء تلك الأشهر، وكما حدث في أول يوم في "بيركيلي"، كان كل لقاء يبدأ بظهوره كأنه ذو قلب طيب، يكاد يكون مثل الأطفال، وعند نقطة ما في هذا السيناريو تتغير شخصيته دائمًا دون أن أفهم السبب في هذا. في ذلك اليوم من ديسمبر، بعد شهرين من أول لقاء لنا (ومن الهجوم الذي تعرضت له)، وصل عند بابي ملوحًا بصندوق من الكراميل المملح بيد، وساحبًا بنطاله الچينز باليد الأخرى. وقد اتفق رأينا نحن الاثنين أنه أيًّا كان مَن صنع حلوى الكراميل هذه، فلا بدَّ من أنه قد قضى بعض الوقت في باكستان، حيث يرتبط الملح والسكر بانجذاب طبيعي تجاه بعضهما بعضًا. قال و"فرحانة" تقلب وجهها:

- طبعًا أنت تضع السكر على عصير الليمون، أو على طبق سلطة الفاكهة.

(أخبرتها ذات مرة أنه في باكستان تُوصف المرأة الجذابة بلفظ "ملحية"). استقر على الأريكة بجواري، وأشار نحو بطني قائلًا:

- هل تحسنت؟

أومأت برأسي في احترام. على المنضدة الموجودة جواره وضعت "فرحانة" طبقًا من الفاكهة، وهناك ملاحة موضوعة دائمًا، في محاولة فاشلة من جانبها لتبعده عن الشوكولاتة. مددت يدي ملتقطًا بعض حلوى الكراميل، ومثلي فعل هو، وفي أثناء مضغها تنهد قائلًا:

- المشكلة أنه لا يمكننا معرفة من أين أتى من فعل ذلك التفجير، وإلى حد ما هذا مريح في الوقت نفسه.

كان هذا رأي الجميع، فأومأت برأسي مجددًا في احترام.

- هل أخبرتك "فرحانة" كيف تمكنت من إعالة نفسي في بداية وجودي في هذا البلد؟

قاطعته "فرحانة":

- لقد تأخرت على عملي!

مدت يدها نحو حقيبة يدها تلتقطها قبل أن تميل نحوي هامسة:

- أحبك.

كان هذا أكثر تعبير للعاطفة أبدته نحوي في حضور والدها.

رش والدها بعض الملح على برتقالة، فتساقط بعضه على الأرض، في حين رحلت "فرحانة"، أعاد هو البرتقالة ليلتقط قطعة أخرى من حلوى الكراميل، ودون أن ينتظر إجابتي على سؤاله، استطرد:

- لم أقدر حتى على كسب ما يكفي من مال لأضيف الحليب إلى الشاي الذي أشربه، والشاي طبعًا كنت قد أحضرته معي من وطني. عملت بجد شديد.

استمر يحكي عن صراعاته، وأنا أومئ برأسي إيجابًا، لكنني بداخلي تساءلت في غلظة متى سيرحل؟ يا للأسف، لن يحين موعد مناوبتي في الحانة قبل بضع ساعات، لهذا لم يكن لديَّ عذر أهرب به منه، ولا حتى كان بوسعي الاعتماد على رفاقي في السكن لتشتيت انتباهه، فعشيق "ماثيو" الجديد يعيش في "ماوي"، لهذا يعتبر في حكم الراحل، في حين أن الآخر، والمدعو "سيزار"، هو فنان جرافيتي مغمور واعد، يحمل الأثقال أمام التليفزيون طوال اليوم، ثم يختفي أسابيع. (وحسب قول "ماثيو"، كان "سيزار" على وشك اعتناق الإسلام حتى قابلني!).

- نعم، كان يجب أن أعمل بجد شديد، لكن راحتك أتت. لم تُضطر إلى الانتظار.

راحتي؟ هل كان يقصد "فرحانة"؟ هل يقصد أنني لم أحتج إلى المحاولة بجد كافٍ قبل أن أحصل عليها؟ أم كان يقصد أنني لم أحاول بما فيه الكفاية في أي شيء؟ لوح بقطع الكراميل أسفل ذقني، وهو يبتسم بابتهاج قائلًا:

- يجب أن تنهيها، فهي تفسد بالرغم من الملح المضاف إليها.

لم تكد الساعة تصل حتى إلى التاسعة والنصف صباحًا. تناولت قطعة كراميل أخرى وأنا أسمعه يقول:

- احتجت إلى العمل بكد قبل أن أصل إلى المرحلة التي أرتاح فيها، لكنها أتت في صورة...

فاتني الجزء الذي يحكي فيه عن كيف حصل على حليب من أجل شايه، يا للأسف.

كنت أتخيل المرأة صاحبة الصورة الموجودة فوق فراش "فرحانة"، والمدعوة "جوتا"، أمها. كانت تذكرني بزوجة "روبرت فرانك"، التعبير المرتسم على وجهها لم يكن نفسه، فقد بدت نظرة "جوتا" نظرة تأمل أكثر منها نظرة تحدٍّ، لكن لم تتمكن أيهما من التحرر من الصورة. كان يقول:

- من كان يستطيع تخمين أين بدأت المشكلة؟ ما النقطة التي اتخذها السرطان مركزًا انطلق منه ليغزو جسد أمها؟ كان قد غزا المخ بالفعل عندما اكتشفنا وجوده!

نظر نحوي بطريقة جعلتني أشعر كأنني متهم، كما فعل في أول مرة تقابلنا فيها، لكنني لم أستطع فهم متهم بماذا!

- الأمر يبدأ دائمًا قبل الموعد الذي تظنه بدأ فيه...

التهمت قطعة كراميل ثالثة.

- اعتنِ بها عندما تذهبا هذا الصيف، فهي كل ما تبقى لي.

بعد فاصل من البديهيات التي تبرر سبب رحيله عن باكستان ("مجتمع سخط علينا، أنا ووالدتها") ومفسرًا لماذا لم يعد ثانية ("العمل الجاد يعطيك نتيجة بالنهاية")، بدأ

يشرح لماذا كان يعرف ما يحدث أفضل من الأغلبية ("طريقة التفكير هي ما تحدث الفارق").

عندما رحل، تفقدت رسائل بريدي الإلكتروني، لأجد أن هناك رسالة من "عرفان" بها أخبار من الوطن، وهو ما لم يسعدني؛ كانت هناك المزيد من المشكلات في "وزيرستان"، إذ انطلق الجيش الباكستاني لاصطياد "بيت الله محسود" وضيوفه الأوزبك، وتحولت الصين لتصبح أكثر دموية. لم يصدق أحد أن هجمات الطائرات من دون طيار تبدأ من باكستان، أو على الأقل ليس من باكستان فقط. كان "عرفان" يدعو الطائرات من دون طيار بـ"العيون الغبية"، "ما داموا دقيقين بتلك الدرجة، كيف تتطور الحرب هكذا لتصبح أكثر دموية إذًا؟". كما أرسل إليَّ روابط إلكترونية للعديد من المقالات التي تتناول موضوع "دقتهم"، كما لو كنت راغبًا في قراءتها.

قضيت نهاري مرتديًا المنامة، وبعد الظهر، تقهقرت حياتي إلى الوراء بين جدران الحانة الباردة المظلمة، حيث لا يكون لي وجود إلا في لحظة سكب الشراب، وجمع الحساب، ومسح الطاولات، والاستماع للآخرين الذين يشعرون أن حياتهم تتقهقر إلى الوراء أيضًا.

في المساء، أُستغرق في النوم على أريكة غرفة المعيشة، في حين أتصفح صور "روبرت فرانك" و"إليزابيث كارميل" في أثناء التهام قطع الكراميل المملح. استيقظت على قبلة من "فرحانة" وهي تدفعني أعمق داخل الأريكة، ثم أخبرتني أن "ويس" سيأتي معنا؛ لقد ذهب إلى الهند من قبل ولن يمانع في رؤيتها من جانبها الآخر. حاولت الجلوس متسائلًا:

- أي جانب آخر؟

شعرت بأن شفتيَّ تصيران جافتين ملتصقتين ببعضهما.

- ثم إنه أنقذ حياتك...

- ماذا؟!

استقرت أقدامي على الأرضية صائحًا:

- كان جرحًا جراء طعنة صغيرة وأنتِ تعرفين هذا!

- وماذا كان ليحدث لو لم تذهب إلى المستشفى في الوقت المناسب؟

- وماذا كان ليحدث لو كنا طلبنا الإسعاف؟

- لا داعي للشجار، لديه خبرة كبيرة؛ حينما كنا في جبال "شاستا" معًا ندرس الجليد هناك وقراءة بياناته تعلمت منه الكثير، وربما تتعلم منه شيئًا أيضًا.

- أتعلم شيئًا عن ماذا؟ الهند؟

قرصت ركبتي بشيء من الحنان قبل أن تجيبني:

- لقد مررتُ بيوم طويل ومجهد، وأنت هنا تأكل الكراميل.

لوحت بالصندوق نصف الخالي أسفل ذقني، فذكرتني بوالدها. استلقت نسخة من كتاب "مياه لامعة" على المنضدة بجوارنا، وكان مفتوحًا على صورة بحيرة ذات سطح غزير ساكن.

استلقى "عرفان" جواري في سلام دون حراك، وعلى الرغم من أنه فتح عينيه الآن، فإننا لم نقل شيئًا، فقد بدت الأمسية أكثر درامية لتبادل أي كلام. بدا الجبل الغامض فوق البحيرة خاليًا من أي أثر للسحب، وقد اكتسب لمعانًا فضيًّا ونقيًّا لدرجة أن المشهد بدا كأنما من عالم آخر؛ عالم من الأمراء، والأميرات، والجن، والجنيات.

بالأسفل، حيث يرقد الأموات، استمرت البحيرة في التكسر على الشاطئ كأنها بحر هائج، وقد صار من الصعب تحديد أيهما يجب تصديقه: الانتصار في السماء، أم القلق في ذوبان الجليد. رنت الأجراس المعلقة في رقاب المَعِيز كأنها ناقوس بين العالمين.

على يساري، كانت "فرحانة" تنزل التل بصحبة الفتاة الصغيرة. تحركتا تجاهنا، وقد حافظت الماعز على مكانها عند قدمي الفتاة، لاحظت وجود كلب كذلك، لونه أسود كلون الماعز، كان الحيوانان يدوران حول بعضهما بعضًا، كأنهما حبيبان واثقان من وجود حبهما منذ الأزل.

تمتم "عرفان"، فيما بدا كمعلومة يعلنها وليس سؤالًا ينتظر إجابته:

- لم تعد مستاءة من انحرافها عن طريقنا للمرور بهذا الوادي.

لكنني أجبت على أي حال:

- لا أظن.

أومأ برأسه.

- في هذا الوقت نفسه غدًا، سنصل إلى "جلجت"، وبعدها بيومين سنصل إلى نهر "التار" الجليدي، وهناك سيصبح بوسعها هي و"ويس" التقاط كل القراءات التي يريدانها.

- أتعرف أنها كادت ألا تأتي على الإطلاق؟

لف عنقه تجاهي متسائلًا:

- ظننت أن القدوم إلى هنا كان فكرتها!

- كان كذلك فعلًا، لكنها بدأت تتردد قبل قدومنا بعدة أشهر.

- لماذا؟

- ربما بسبب والدها، فهو لم يرغب في مجيئها.

- ولا أنت كذلك رغبت في مجيئها.

- كانت أسبابي مختلفة.

- وماذا كانت أسبابه؟

- ماذا تظنها؟ إن المكان ليس آمنًا، ولم يكن مستعدًّا لتصديق أي كلام آخر.

ضحك مجيبًا:

- إخبار مهاجر أن الدولة التي تركها ليست كما يتخيلها مثل إخبار أب أن ابنته التي كبرت ليست كما يتخيلها.

– سنمر بالقرب من نهرنا الجليدي.

ابتسمت مجيبًا:

- أعرف.

اعتادت أن ترسل لي رسائل نصية: "أسمعت بموضوع انفجار القنبلة؟"، فأرسل إليها رسالة مجيبًا بـ"لا داعي للذعر، كل شيء سيكون على ما يرام". بدأت تركز في حديثها على "الأراضي الوعرة" على حدود باكستان، وبدأت محادثتنا تتمحور حول مخابئ تنظيم "القاعدة"، وتفجيراتهم الانتحارية، والمتطرفين من ذوي اللحى. أقرت أن باكستان ليست دولة يمكن للنساء النجاة فيها، سألتها عن كيفية وجود 85 مليون امرأة باكستانية إذًا ما دام الموضوع بتلك الصعوبة؟ لكن الرسائل المتوترة لم تتوقف، قالت في رسالة أخرى: "هذا العدد أكثر مما كان موجودًا في العام السابق، أليس كذلك؟".

ذات يوم جلست إلى مكتبي متسائلًا عن كيف حدث كل هذا، بعدما تمكنت بصعوبة من تقبل فكرة "عودتها"، بدأت فجأة بتصرفاتها تجعلني أرفض الفكرة، كيف حدث هذا؟

دخلت على الإنترنت، وعلى موقع "ياهوو" وجدت عنوانًا رئيسيًّا يعلن عن أن تهديد الإرهاب صار على أشده، كانت هناك رسالة من "عرفان" تصاحبها صورة طائرة من دون طيار مسلحة بقذائف مشتعلة، وصفت بأنها متوسطة المدى وبعيدة التأثير. دققت النظر في الصورة، بدت الطائرة من دون طيار بيضاء ومائلة، أشبه بلبوس أُقحمت في شرجي مرة عندما كنت طفلًا، عندما أصبت بالديدان. (وعندما أفكر بالأمر، أتذكر أنني رأيت شيئًا مشابهًا في مرحاض "ماثيو" المغطى بالفطريات؛ كان لبوسًا لعلاج البواسير). كان لدى الطائرة جناحان، وذيل، وقد أخذ ذلك الذيل يهتز، فشعرت بالأعصاب الموجودة بشرجي توخزني، في انتظار الشيء الذي سيقتحم مؤخرتي!

أقلعت من مدرج مطار يقع في "نيفادا"، بمكان يُدعى "ينابيع الصبار"، أحببت الاسم، فقد أحببت فكرة أنه يمكن أن يُقرأ بالعديد من الطرق؛ يمكن أن يكون إعلانًا عن قدرة الصبار على القفز، وهو شيء يفعله البعض لو ناوشتهم، أو ربما كان شيئًا لا علاقة له بالحركة، يمكن للصبار أن يقف ساكنًا، لكن بمنتصف بئر، أو نافورة،

أو العديد من النافورات، كلها يتدفق ماؤها، أو ربما يُفهم أن الاسم أتى من وجود الصبار مواسم طويلة؛ سنين كاملة تتكون فقط من مارس، وأبريل، ومايو.

هذه هي الطريقة التي ينجح بها الأمر.

بقي طيار على الأرض. بمجرد تحليق الطائرة التي تعمل عن بعد في الهواء، حتى ضبط الطيار مسارها وهي تحلق فوق أفغانستان وباكستان، لتصطاد مقاتلي القاعدة. داخل الطائرة من دون طيار، هناك كاميرا تصور قرى كاملة، فتلتقط صور هيئات داكنة تُهرَع مسرعة داخل المتاهات، تتحرك ظلالهم، وتتقاطع، وتدخل عبر جدران، وتدلف إلى غرف، أو تمر عبر بعضها بعضًا. يتعسر الوصول إلى الهدف، فيختفي من كنت تركز معه ويظهر آخر مكانه قبل أن تتمكن الكاميرا من تمييزهما عن بعضهما، يمكن إنقاذ العالم.

أسفل الصورة كان هناك تعليق: "لو تخفى الهدف تحت شيء أو تمدد أرضًا سيقل التأثير، لكن لو أُمسِك بالهدف واقفًا أو وهو يركض، سيكون مدى التأثير بنصف قطر مائتي قدم".

انتهي التعليق بخاطر حزين: "في حين أن بوسع الطائرة من دون طيار أن تُسقط في كل هجمة قنبلتين تزن كل واحدة منهما أكثر من 225 كيلوجرامًا، فالكاميرا الخاصة بها تظهر لنا صورًا لتفاصيل الحياة اليومية في منطقة لا يفكر فيها معظمنا".

لتكون الشخص الذي ينظر إلى هذا، ولتكون واحدًا عند محل للعب "البلايستيشن" في "ينابيع الصبار"، تنظر إلى أسفل نحو أرض لم تكن حتى بالأسفل، وأنت توشك أن تدمرها.

شعر جزء صغير مني بالابتهاج لقوة الكاميرا الخاصة بالطائرة (في حين شعر جزء كبير مني بالابتهاج لقوة كل الكاميرات) منظور عين الطائر ذاك. حياتي كنورس، أو بومة. صارت رسائل "عرفان" مهتمة كثيرًا بالمكان الذي تقلع منه الطائرات من دون طيار، هل تقلع من "ينابيع الصبار" في "نيفادا"، أو مطار "شمسي" في باكستان، بالقرب من الحدود الأفغانية؟ فمنذ بداية "عملية الحرية الدائمة"، ومطار "شمسي" يُستخدَم كقاعدة للقوات الخاصة الأمريكية، هذا هو ما نعرفه عن الموضوع. ذكَّرني "عرفان" من قبل، دون الحاجة إلى ذلك، أن الأثرياء العرب استخدموا هذا المكان لإطلاق قناصين آخرين كالصقور، كانوا يستقلون طائرات نفاثة لاصطياد طائر "الحبارى" المعرض للخطر، وهو طائر ذو لحم مثير للشهوة الجنسية، بالرغم من أن المثير للشهوة حقًّا هو مشاهدة الصقر وهو ينثر ريش "الحباري" (كان الصيد باستخدام الصقور محرمًا بالنسبة إلى الباكستانيين، وبالرغم من هذا، صنعت باكستان أدوات الصيد المستخدمة في ذلك النوع من الصيد أكثر من أي بلد آخر، لدرجة أن زبائنهم من العرب يطلقون على هذا اسم حفاوة)، والمثير للسخرية أنه منذ بداية الحرب واستخدام القوات الأمريكية للمطار، لم يعد بالإمكان اصطياد طائر "الحبارى" بالمستوى نفسه، لكن بوسع الناس فعلها. هل أهدت الحكومة الباكستانية مطار "شمسي" هذا لوكالة المخابرات المركزية لكي تطلق منه عملية الصيد المدعوة "م م ب ت"؟ طرح "عرفان" كل تلك الأسئلة

عليَّ، بالإضافة إلى هذا: في الكثبان الرملية قرب "شمسي"، توجد قاعدة جوية أخرى يمكنها أن تختفي أيامًا بعد قيام عاصفة رملية وبعد بداية الحرب بقليل، عثر راعي ماشية باكستاني في تلك الرمال على قنابل عنقودية أمريكية لم تنفجر بعد، ارتطم بواحدة منها بالخطأ وهو يرعى ماشيته، فمزقت يديه وساقيه لتثير الغضب وتصنع الأخبار. ومنذ وقتها، لو فقد أي راعي ماشية أيًّا من أطرافه، حتى قصته تختفي.

سمعت صوت رنين في جيبي، كانت رسالة نصية من "فرحانة"، تقول: "قُتل أربعة عشر شخصًا داخل جامع! لماذا داخل جامع يا نادر؟" أجبتها بأنها ربما يجدر بها أن تسأل الله هذا السؤال! أغلقت تليفوني المحمول تمامًا، ومثله أغلقت "اللاب توب"، ذهبت للتمشية قليلًا، فمررت بخبر جديد: "الاختطافات تعبر الحدود". افترضت أنهم يقصدون الحدود الأفغانية - الباكستانية، لكن بينما كنت أبتعد عن البائع، قفزت كلمة المكسيك في وجهي، فاندهشت، ثم استمررت في القراءة:

"صارت "فينيكس" بـ"أريزونا" أكثر مدينة تحدث فيها حالات اختطاف في أمريكا، وثاني مدينة في العالم بعد "مكسيكو سيتي".. تقنيات التعذيب التي تتبعها اتفاقيات تبادل الأسرى في مجال المخدرات في المكسيك - والتي تتضمن قطع اليدين والقدمين - قد انتشرت عبر الحدود".

وتلخص نهاية المقالة إلى أنه:

"هل صرنا مهووسين بتنظيم "القاعدة" لدرجة عدم الاهتمام بفنائنا الخلفي؟ فبالنسبة إلى "كاليفورنيا" و"أريزونا" يمثل الإرهابيون المرتبطون بتجارة المخدرات تهديدًا أشد خطورة".

أثارتني المقالة، انظروا! لسنا أكبر خطر يهدد العالم! المكسيكيون يحتلون الصدارة! حتى لو أنني أبدو مثل الاثنين! حملت الجريدة حتى بيت "فرحانة"، كما لو كنت أنتظر مكافأة، لكنها أحبطتني بقولها إنني عنصري!

- النظر إلى المكسيكيين على أنهم كلهم تجار مخدرات ورجال عصابات عنيفين ليس تفكيرًا سليمًا، فهو يثير الرعب ويروج له، ويجعلك تفكر في بشر مثلنا على أنهم "آخرون".

- وبالنسبة إلى الخوف من الباكستانيين؟

- هل تقصد أنني عنصرية؟

- ولماذا سأقول شيئًا كهذا؟

- لماذا لا تجيبني مباشرة؟ أنت تعرف أنني حزينة لكون هذا صعبًا بالنسبة إليك.

- أعرف، وأنتِ كذلك تعرفين أنني حزين لأنكِ تشعرين بالخوف، لكننا لسنا ذاهبين إلى أي مكان قرب الحدود الأفغانية - الباكستانية.

(مرت بخاطري فكرة عابرة عن كوننا الحدود).

- لن أفعل، ماذا تريد أن تتناول على العشاء؟

- حسنًا، ماذا عن السوشي؟

لاحقاً، كانت في مزاج مناسب لممارسة الحب، لكنني لم أكن. حاولنا ثانية في الصباح، كنت متراخيًا.

عندما نهضت من الفراش، سألت الظل الذي بيننا أكانت "عودتها" طريقة لتتطهر من خوفها من المكان الذي تدعوه وطنها، خوف لم أتعرف عليه إلا قريبًا، خوف سيطاردنا حتى رحيلنا في يوليو (واكتشفت بعد هذا أنه سيظل باقيًا حتى بعد وصولنا)، أرادت أن يكون لها دور في وطنها، لكنها لم تكن تعرف ما هو هذا الدور. كنا لا نزال في شهر مارس.

تمدد الظل وأظهر أسنانه، ولم يقل شيئًا. ومع العديد من المحاولات الفاشلة - من دون ارتفاع أو ثبات - ظل حجم الظل ينمو، ومعه تزايد حجم صمته.

هل سمعت الإجابة أخيرًا في يوليو؟

هل كان الدور الذي ستؤديه هو إنقاذ "كيران" باستدراجها إلى القارب؟

امرأة، وطفل، ومختلس النظرات لهما. كم هي هادئة المواجهة، وكم هي قاتلة النظرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

"كيران"

قالت "فرحانة":

- تعالي معنا في القارب.

وَثَبتْ تجاهي من شواطئ بحيرة "سيف الملوك"، شاهدتها وهي تهبط التل وتتحرك نحونا لوهلة، في حين جلس "عرفان" مكانه وهو يرمش بعينيه في حيرة، فقد كان قد سقط في النوم ثانية. قلبت عينيها وهي تنادي علينا:

- يا رفاق! تعالَ يا "نادر"، "ويس" يقول إن القارب آمن.

غمغم "ويس"، وهو يلتقط البطاطس والكمثرى التي عثر عليها، قائلًا:

- آمن كأي قارب آخر يسرب مياهًا على أي حال.

دعك "عرفان" عينيه وتطلع نحو "فرحانة" قائلًا:

- لكنكِ لم تتناولي غداءكِ بعد.

أضفت:

- أبقينا لكما بعض الشطائر.

- لست جائعة.

كانت تنظر بعيدًا نحو البحيرة التي صارت تبدو كطبق من الضوء الكهرماني ملفوف بالسحب، أم إنها كانت موجات الماء فقط؟

قالت وهي مرتابة:

- "نادر" فعلها من قبل، أليس كذلك؟

قلت إنني فعلتها مرة في الماضي، لكن القارب يسرب بالفعل. شاهدت الحاجبين ينعقدان، واللسان ينزلق فوق صف الأسنان الموجود خلف شفتها السفلى، لكنها عرَّضت بالفعل، وعرفت أنها لن تسحب كلماتها لو لم تكن ترغب في الاستمرار، فهي تريد مني أن أمنع حدوث الأمر. رأيت الصراع نفسه يدور في الأسابيع التي سبقت مغادرتنا "سان فرانسيسكو"، كانت ترغب في حماية خوفها، وهي في الحقيقة ترغب في التحرر منه. كان "عرفان" لا يزال يحاول إزالة آثار النوم من عينيه، ومن وراء أصابعه، سمعت صوت تمتمته:

- حسنًا، ما دام السيد "ويس" يقول إنه آمن...

أضفت أنا:

- يمكننا أن نتمشى تمشية طويلة بدلًا من هذا ونبحث عن الكهف.

- أي كهف؟

سأل "ويس" وهو يقطع شريحة من الكمثرى بسكين الجيب الخاص به، قبل أن يقدم نصفها إلى "فرح"! تقبلت النصف منه شاكرة، فشعرت بأن ما حدث وقت الإفطار سيحدث ثانية! كررت سؤال "ويس" كأنها ببغاء، في حين سالت بعض السوائل من قطعة الكمثرى على ذقنها:

- أي كهف؟

أجبت:

- الكهف الذي اتخذت منه أميرة الجنيات مخبأ مع حبيبها "سيف الملوك"، أتذكرين القصة التي حكيتُها لكِ؟ عندما شعر الجني بالغيرة وحاول أن يغرقهما.

- رائع!

صاح "ويس":

- لكنه بعيد.

أجاب "عرفان"، التفتت "فرحانة" نحوي قائلة:

- لا، أريد أن أستقل القارب، معك، ومع الفتاة.

- الفتاة؟

أومأت برأسها إيجابًا مُكملة:

- لم تركب واحدًا من قبل.

ضحك "عرفان" وردَّ عليها:

- بالتأكيد، فالقوارب للسائحين.

ردت ببرود:

- ربما يفسر هذا لماذا فعلت ذلك.

حدق نحوها قائلًا:

- ربما هي لن تحب أن تفعلها!

- لا تقلق نفسك، إنها تريد هذا كثيرًا، فلم يسألها أحد أبدًا عما تريده.

- هل سألتِها؟

ازدادت نظرته نحوها قسوة. ضحك "ويس" قائلًا:

- يا للهول!

التفت "عرفان" نحوي قائلاً بصوت عالٍ هذه المرة:

- ما دام السيد "ويس" يقول إنه آمن.

كنت على وشك أن أستقل القارب، بمفردي!

بينما استمر كل من "عرفان" و"فرحانة" في التحديق إلى بعضهما بعضًا، تراجعت الطفلة إلى الخلف وراء "فرحانة"، ولأكون صادقًا، لم أنتبه لكونها تقف هناك قبل تلك اللحظة، الآن لاحظت أنها كانت ترمق الخيام المتراصة بطول شط البحيرة، وبمجرد أن لمحتها، ابتعدت، في حين أخذت أساورها تصدر صوتًا. نادتها "فرحانة":

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟

أجابها "عرفان":

- عائدة إلى منزلها.

سارت "فرحانة" مبتعدة، متجهة نحو الخيام. ناديتها:

- إلى أين تذهبين؟

- سأخبر عائلتها أنني سآخذها معنا.

التفت "عرفان" لي قائلًا:

- قُل لها شيئًا، ستضعهم في موقف غريب، بالتأكيد لن يرغبا في ذهاب ابنتهما مع مجموعة من الغرباء، ولن يرغبا في قول "لا" لـ"فرحانة" وهي ضيفة حلت عليهم، يجب أن تحترما كرم ضيافتهم.

وأشار نحو الأطباق الفارغة، قبل أن يستطرد:

- بدلًا من أن تستغلاه رغبة في المزيد.

- إنها تظن أنها تسدي الفتاة معروفًا.

لكن ما نطقتُ به على سبيل الدفاع عنها انتهى فيما يبدو كانتقاد لتصرفها، وافقني "عرفان" بقوله:

- هذه هي المشكلة بالضبط.

هز "ويس" كتفيه قائلًا:

- إنها مجرد نزهة بريئة بالقارب يا رفاق، أنتما تجعلان الموضوع يبدو وكأن "فرح" البائسة تحاول أن تختطفها.

"فرح" البائسة؟ وجدته يضيف بجنون:

- أعطوها فرصة!

لحقت بـ"فرحانة" التي سارت خلف الفتاة، وانطلق "عرفان" يتبعني. في حين انقض "ويس"، حرفيًا، على شطائر "فرح البائسة".

كان الأمر كما ظنه "عرفان". بدا أن الفتاة، التي عرفنا أن اسمها "كيران"، لم تكن متشوقة كثيرًا إلى الموضوع، في حين كانت عائلتها معارضة للفكرة من الأساس. توسلت لهم "فرحانة"، وفي النهاية، وافق والد "كيران"، على الأقل هذا هو ما فهمته من استجاباته الهادئة للغتها الأردية الضعيفة، ولاحقًا، بينما كان "عرفان" يسير معنا إلى البحيرة، كانت ترجمته لحوارهما السريع:

- الأمر أصعب عليهم أكثر حتى لرفض طلب من ضيفة أنثى.

تجاهلته "فرحانة"، في حين استطرد هو:

- يعتبر هذا قلة تهذيب في عُرفهم.

وقف كل من والد "كيران" وشقيقها، الصبي نفسه الذي أحضر لنا الطعام، خارج الخيمة يشاهدوننا في أثناء سيرنا مبتعدين. كان بوسعي سماع صوت امرأة من داخل الخيمة. فيما بعد، وبينما كنت أثبت القارب لـ"فرحانة" كي تركب، التفت إلى الخلف لأرى امرأتين تراقباننا كذلك، وقد حملت واحدة منهما طفلًا رضيعًا بين ذراعيها، وهي تتجادل بغضب مع والد "كيران"!

رأيت قميصها الأسود يتطاير مع النسيم، وأحاط بأساور أكمامها خيط وردي رفيع، كان بوسعي سماع صوت أساورها وأذرعها ترتفع في اعتراض، ربما كانت المرأة نفسها التي رأيتها عند النيران. تردد صوت أساور "كيران" وهي تتخذ مجلسها داخل القارب، وقد شبكت يديها على حجرها قبل أن تفكهما ثانية، كأنه صدى صوت لأساور المرأة، كان هناك توافق مثالي بين الصوتين لدرجة أنه لا بدَّ من أن يكون حوار خاص بين كلتيهما. ابتعدنا وأيقنت أن تلك المرأة هي أمها!

نظرت إلى الخلف في البداية لأرمق القوس الذي شق سطح البحيرة من ورائي، صانعًا مروحة مثلثة ضخمة الحجم من سطح المياه، وفي مكان ما فوق كتفي الأيسر، بالأفق البعيد، بالتأكيد ستلوح قمة "الجبل العاري" الحقيقية التي تألقت في ضوء المساء. كنت واثقًا؛ بوسعي تخيل السحب تحيط به كأنما هي وعود تكبله، صار فوق تلك الوعود الآن، وبأسفلنا، في مياه النهر الجليدي، غرقت قمم ووديان "ملكة الجبال" في عمق سقط فيه "نادر" هو الآخر.

كان القارب الثقيل مصممًا على شكل برميل، وبصرف النظر عن شكله غير العملي، فقد أخذ يتمايل من جانب إلى آخر. لم يكن كل ذلك الاهتزاز منطقيًّا، فلم يكن هناك نسيم تقريبًا. جدفت نحو عشرين قدمًا قبل أن أدير دفة القارب لأواجه "الجبل العاري". لم ينحسر المد، وإنما ظل على حاله الذي كان عليه عندما وصلنا إلى هنا قبلًا. المد نفسه الذي يتقدم به النهر بحماس من أجل عيني الملكة، فترد هي عليه بآخر، وكنا نحن الدخلاء، الذين زُجُّوا على الفور برش المياه عليهم من كل الجوانب. كلما جدفت مبتعدًا، تزايدت الأمواج المتلاطمة. تشاركت "كيران" مع "فرحانة" الجلوس على اللوح الخشبي الموجود بمؤخرة القارب، وكلما ارتطمت أمواج البحر بـ"كيران"، تحركت الفتاة في مكانها، لتتسبب في اهتزاز القارب أكثر. صحيح أنها خفيفة الوزن، لكن انزعاجها واضطرابها كانا ثقيلين بما فيه الكفاية.

على الرغم من أن الفتاة بدت ثرثارة مع "فرحانة" عندما سارتا على التلال معًا، لكنها الآن بدت على العكس تمامًا. سألت "فرحانة" أكان وجودي هو السبب، فقطبت مجيبة:

- ربما.

ثم سألت الفتاة باللغة الأردية:

- هل تستمتعين بوقتك؟

هزت الفتاة رأسها نفيًا، فعلقت:

- على الأقل هي صادقة ولم تجاملنا.

أحاطتها "فرحانة" بإحدى ذراعيها متسائلة:

- هل هذا لأنكِ تشعرين بالبرد؟

ترددت الفتاة وهلة، ثم أومأت برأسها، وأساورها لا تزال تصدر صوتًا، واستمرت حركة ضم وفك يديها فوق حجرها، لكن لم تصدر عنها إجابة. تجمعت بركة من المياه داخل القارب!

كان من الصعب تحديد أيها يأتي من الجوانب وأيها من التسريب، لكن الشيء الأكيد هو أن وزن القارب أخذ يتزايد، فصار التجديف ذلك اليوم أصعب من آخر مرة جدفت في هذه البحيرة. عرضت "فرحانة" أن تتولى التجديف، لكن رغم ساقيها القويتين، فإنها كانت تفتقد إلى القوة في ذراعيها، وعندما أخبرتها بملحوظتي هذه، ذكرتني بأن ذراعيَّ لا تختلفان عن ذراعيها كثيرًا. قالت بالإنجليزية حتى لا تفهمنا الفتاة:

- لكن لديك كتفين قويتين.

ثم قالت إننا لو كنا بمفردنا لكان بوسع كل واحد منا الاستراحة وهلة. جاريتها فقلت:

- بوسعي أن أريكِ ذلك الوريد بكتفي الذي يجعلك تشكين في كوني أخرج بالمساء لرفع الأثقال وليس لمجرد التمشية.

ابتسمت مجيبة:

- هذا الجو يبدو ملائمًا لك، تبدو وكأنك...

ثم ألقت نظرة على الفتاة مستطردة:

- لا تبدو سعيدة، ربما فعلت شيئًا خاطئًا؟

- أبدو وكأنني ماذا؟

مسحت على ظهر "كيران" بيدها هامسة:

- هل كان يجدر بنا أن نحضر معنا ماعزتك؟

ابتسمت "كيران"، مظهرة فجوتين في الصف الأمامي من أسنانها. كررت سؤالي:

- أبدو وكأنني ماذا؟

أجابتني في النهاية، وانعكاس كل منا يتلاقى على سطح البحيرة:

- تبدو وكأنك شيء أريد أن...

لم تكن هناك أي قوارب أخرى بالقرب، لو كنا بمفردنا...

تلوَّت مخابئ الملكة بجانب "فرحانة"، كانت أسفل مجدافي، تستحث إياي على الغوص بوجهي أولًا.

- عندما كنا في "كراتشي" قلتِ إن المضاجعة السريعة بلا فائدة.

- فعلناها سريعًا منذ وقتها، لكننا لم نفعلها ولا مرة على سطح المياه!

شعرت بنفسي مستثارًا وأحسست بالشكر لأنني أرتدي بنطال چينز واسعًا، ثم شعرت بالخجل، فبالقرب منا كانت تجلس "كيران" المرتجفة وقد شبكت ذراعيها. لا بدَّ من أن الأزواج ذوي الأطفال يواجهون تلك المشكلة طيلة الوقت، وهو الاضطرار إلى التعامل مع وجود فرد ثالث معهم. كيف يتمكنون من الحفاظ على اتزانهم؟ لكنها ليست طفلتنا حتى، ورغبت أن أظفر بتلك اللحظة مع "فرحانة"، لقد مارسنا الحب مرتين بالفعل خلال مدة أقل من أربع وعشرين ساعة. هل نلجأ إلى حيلة القبعة؟ الإثارة تكمن في تلك الأشياء، ومثلها التجديد، وهما الشيئان اللذان افتقدتهما أسابيعنا الطويلة قبل الرحيل إلى "سان فرانسيسكو". قلت بسرعة:

- فلنعد نعيد لهم الفتاة، ثم نخرج بالقارب ثانية.

- لا يمكننا فعل هذا، فقد أحضرناها معنا!

عادت لتتحدث عنا بصيغة الجمع ثانية.

صارت "كيران" تنظر إلى أسفل تجاه البحيرة، وارتسمت في عينيها نظرة استسلام. كانت ابنة لغجريين، وقد اتسخت قدماها العاريتان بطين الجبال، جلست بالقارب كما لو كانت محبوسة في قفص، كانت المياه حاجزًا صلبًا، كأنها طريق جبلي لا يمكنها اجتيازه.

لم تكن هناك أشجار صنوبر لتقود طريقها، ولا أجراس ماعز لتطاردها، العلامات الوحيدة موجودة بالأسفل داخل البحيرة، وهي علامات ستنزلق من بين أصابعها قبل أن تتمكن من النقر عليها حتى. بين إصبعي القدم الكبير والمجاور بقدمها اليمني، برزت شوكة من شجرة صنوبر، بسمك شعرها، وبلون أدكن من شعرها، اشتبكت في حلق كانت ترتديه حول إصبع قدمها، رفعت تلك القدم خارج بركة المياه التي ارتفعت فوق كاحليها، وأراحتها على ساق "فرحانة"، قرقعت أصابع قدميها، فصدر عنها صوت كرنين الأجراس. قالت "فرحانة":

- أخبري "نادر" باسم ماعزتك.

نظرت "كيران" نحوي، وهنا أدركت أنها كانت تتفادى النظر إليَّ حتى تلك اللحظة. تلك الفتاة تعرف أنني لا أريدها هنا، بدت عيناها الخضراوان الكبيرتان بلون العنب إذا تساقطت عليه أشعة الشمس. أجابتني:

- "كولا"!

لكن اللهجة التي نطقتها بها جعلتها تبدو وكأنها تتحداني في أن أبديٍ اهتمامًا بالموضوع، لكنني على أي حال حاولت رفع صوتي قليلًا بلهجة ودودة قائلًا:

- تُنطَق مثل مقوي الشعر "كالا قولا"، أم مثل المشروب الغازي "كوكا كولا"؟

التفتت الفتاة لـ"فرحانة"، وكأنها تستنكر مستوى الأسئلة الغبية التي أسألها. ضغطت "فرحانة" عليها بسؤالها:

- ماذا عن الآخرين، الذين لا تحتاجين إلى مطاردتهم؟

ردت عليها الفتاة وهي تحدق أمامها نحو الشاطئ:

- "بوري"! "ماخيري"!

- وما هو لونك المفضل؟

- الأزرق.

هكذا ردت وهي تحدق نحو السماء.

ضحكت "فرحانة"، وحاولت أنا الابتسام. خيمت علينا لحظة من الصمت غير المريح. على أي حال لقد ضاعت لحظتي مع "فرحانة" وسط المياه. عادت إلى الحديث بالإنجليزية قائلة:

- ليلة أمس...

انتظرت أن تكمل، وعندما استمرت في ترددها، شجعتها على إكمال قولها:

- توقيتك كان مثاليًّا.

- أعرف أنني لست صبورة بما فيه الكفاية معك أحيانًا.

- تصرفاتك مناسبة لي...

- ليلة أمس، هل أخبرتك كم أنت جيد؟

- ماذا؟

- حسنًا، أفضل من الكراميل المملح.

- يا للهول! أنتِ لم تخبريني بمثل هذه الأشياء أبدًا عندما نكون بمفردنا.

احتضنت "فرحانة" "كيران" بقوة، وهي تهمس:

- آسفة! لم يكن من المفترض أن نحضرها، حتى لو كانت تريد المجيء! يجب أن نعيدها إلى الشاطئ!

- ثم نعود ثانية؟

أومأت برأسها إيجابًا. أدرت القارب بسرعة متجهًا نحو موجة، فجاءت بعض مياهها على وجه "كيران" التي صرخت عندما لامست المياه الثلجية جسدها، بعد هذا وقفت الفتاة وتمايل القارب فصرخت ثانية. لم أكن منتبهًا صراحة أكانت قد أنزلت قدمها اليمنى، أم أنها كانت لا تزال مستندة على ساق "فرحانة"، لكن ما أنا متأكد منه هو أنني رأيت قدمها اليسرى تنزلق في بركة المياه التي تكونت في قاع القارب، بينما هي تفقد توازنها لتسقط إلى الخلف في جانب القارب الذي تقلب ذات اليمين وذات اليسار، ارتفع صراخ "فرحانة" وهي تمسك بنهاية القارب الأخرى بكلتا يديها:

- اِجلسي!

خطر لي فيما بعد أن "فرحانة" كانت تفكر بوضوح ذهن أكثر مني في تلك اللحظات، فسبب صراخها هو رغبتها في الحفاظ على توازن القارب، أما لو تحركت من مكانها واتجهت للفتاة، لانقلب القارب بنا بالتأكيد.

لا أتذكر شيئًا مما فعلته أنا وقتها، أول شيء أتذكره هو أني سمعت "كيران" تخبط شيئًا، فخذها ربما، ثم صارت داخل البحيرة! كم مر من وقت قبل أن أقفز خلفها؟ لا بدَّ من أنه لم تكد تمر ثانية حتى، لأنه لم يكن لديَّ وقت لأرمش بعينيَّ أو حتى آخذ نفسًا بعد أن سمعت صوت المياه واللطمة، والصراخ الذي بدأ كصوت صفارة حاد لكن انتهى كصوت خشخشة مكتومة سمعته مرة بعد الأخرى. كيف سأسمعه ما لم أكن داخل البحيرة أنا الآخر؟ أم إنه كان صادرًا عني؟ ثم سمعت نفسي أصرخ، وهذه المرة أنا متأكد أنه كان أنا...

- المياه باردة للغاية!

ثم شعرت بالزمن يتباطأ من حولي، ثم أحسست بقبضة تحيط بعمودي الفقري لتعتصره! كأنما ثعبان بحر بارد مبتل يسحق رئتيَّ وأطرافي. تقوس كتفاي وانطلقت عضلاتي بالصراخ، ثم تشنج جسدي برمته. شعرت بإحساسي نفسه ينزف مني، ويتزايد وزني لأغوص رغمًا عني نحو قاع البحيرة، وعندما عاد ألم ساقيَّ، كان يقتلني!

ثعبان الماء اللعين ذلك لا يتوقف عن إطلاق تيارات كهربائية بعمق داخل أوردتي. صرخت:

- حاولي العوم!

وفي تلك المرة اقتحمت مياه البحيرة فمي.

- اضربي سطح المياه!

أخيرًا، وجدت نفسي فوق سطح الماء. بصقت في الهواء، تحركت سريعًا دون التفكير إلى أين أنا ذاهب، كل ما كنت أفكر فيه هو أنني يجب أن أستمر بالحركة. عندما نظرت من حولي، وجدت القارب بعيدًا للغاية. لم يكن بوسعي رؤية ما بداخله، لم أستطع معرفة هل ظلت "فرحانة" داخل القارب أم قفزت، لم يكن بوسعي رؤية أي شخص في المياه. بدأت أضرب المياه متجهًا نحو القارب.

لا أحد! أغلقت عينيَّ وغطست، ثم فتحت عينيَّ ورأيت رواسب طينية تنهمر. كيف بدت المياه رائقة من أعلى إذًا؟ كيف تستطيع أن تعكس صورتنا بذلك الجمال بينما هي بتلك القذارة من الداخل؟ خرجت فوق سطح المياه، رمشت بعينيَّ، وغطست ثانية. رأيت من جديد رواسب طينية تتساقط بنعومة في كل مكان، قبل أن تظهر سمكة ضخمة للغاية. صعدت إلى السطح وصرخت:

- "فرحانة"!

غصت ثانية. كان بوسعي الآن لمس قاع القارب، دُرت حوله، رأيت المزيد من الأسماك البيضاء ذات عيون صفراء، ظلت تدور حولي وأنا أدور من حولها. التهمنا سمك السلمون المرقط كل ليلة منذ أن وصلنا إلى "كاجان"، لكن لا واحدة منها بدت هكذا؛ فضولية بلا احتراس. أشعل تعاملهم البارد بداخلي هلعًا من نوع مألوف، غير ذي صلة باحتمالية الغرق، وإنما كان هلعًا مصدره معرفة ما هو آتٍ غالبًا، الهلع الذي بدأ يزحف الآن تحت جلدي كان مصدره عدم المعرفة، هلع من النوع الذي ينتابني عندما أسير إلى المنزل وسط الظلام وقد حملت سترتي كعلم سلام ألوح به لأي شخص، من أي مكان.

لا بدَّ من أنني دُرت حول القارب أربع مرات قبل أن أسمع صوت صرخات من أعلى، ضغطت بكفي على الخشب وشعرت للحظة كأن القارب نفسه يبكي، بوسعي أن أخفف عنه بأن أضع يديَّ هنا ببساطة، بوسعي أن ألفَّ نفسي حوله، أو إن اتضح أن حجمه كبير للغاية، فبوسعي أن أستقبل احتواءه لي، وهذا هو ما فعلته، في حين انطلق نوع مختلف من الهلع يجتاحني، كان هذه المرة من النوع الذي يصاحب معرفة الإنسان لما يمكن أن يحدث، صارت الأرض هي ما تثير فزعي الآن.

غصت ثانية، ما سمعته يدل على وجود "فرحانة" داخل القارب، أين ذهبت الفتاة إذًا؟ اتخذت طريقي إلى مكان أعمق. لم أمارس الغوص قبلًا إلا في حمام سباحة في "كراتشي"، ذهبت إليه مع "عرفان" وزملاء آخرين من صفنا، كنا نلقي بعملات معدنية ونظن أن رؤيتها عسيرة وسط الكلور، بالكاد كنت أصل إلى قاع حمام السباحة، قبل أن يجبرني الضغط المتزايد على أذني على العودة إلى أعلى، لكنني الآن أبحث عن فتاة في بحيرة عميقة، لدرجة أن أحدًا لم يقس عمقها من قبل! كنت أغلق عينيَّ، أعد حتى عشرة، ثم أغوص ثانية.

عندما فتحت عينيَّ، وجدت "فرحانة" تنظر إلى أسفل نحوي من جانب القارب، ثم اختفى وجهها وصرت أرى ساقيها العضليتين متدليتين، كانتا عاريتين لأنها نزعت بنطالها، أم إن هاتين كانتا ساقي "كيران"؟

ظهر طرفًا نحيفًا، ثم ظهر وجه ثانية، لكنه لم يكن وجه "فرحانة" أو وجه الفتاة، وكان يحاول قول شيء ما لكن لم يكن بوسعي سماعه، سمعت طنينًا بأذني، وشعرت برأسي كأنه محشور داخل صندوق معدني بنصف حجمها. غصت ثانية، وجدت نفسي ثانية أغوص إلى جوار والد "فرحانة"، سمعته يقول:

- حتى فكرة الرؤية...

ثم وجدت نفسي أغوص إلى جانب والدي، سمعته يقول:

- اخرج من المياه يا جبان!

بعدها وجدت نفسي أغوص مع والدة "فرحانة" التي همست:

- نموت صغيرين بالسن دائمًا!

بعدها وجدت نفسي أغوص مع والدتي، فسمعتها تصيح:

- فليعنك الله يا بني.

غصت بعدها و"فرحانة" بجانبي.

ثم عدت لأجد نفسي أغوص بمفردي.

صرت أغوص بمفردي.

كان لدى والدة "كيران" عينان خضراوان باهتتان كابنتها، لكن أصغر حجمًا، وأقوى تأثيرًا، كما كان شعرها أدكن من لون شعر "كيران"، لكن ليس داكنًا كلون شوكة شجرة الصنوبر التي علقت بين أصابع قدم الفتاة المكتنزة التي لم تكن تكف عن التلوي. ضفرت الأم شعرها في ضفيرة محكمة مربوطة بدقة حول وجهها، فأحاطت به كريش البومة. كانت امرأة طويلة للغاية، تكاد تكون بطول زوجها، وأطول من "فرحانة" على الأقل، بذقن بيضاوي ناعم طويل على عنقها الجدير بملكة.

تقدمت بخطوات واسعة واثقة نحونا على الشاطئ، فتطاير قميصها الأسود من حولها كما كان يفعل منذ ساعة، وهي تشاهد ابنتها تُسحب بعيدًا عنها، لتُحمَل في قارب مع غريبين، لو كان لـ"ملكة الجبال" القدرة على أن تتخذ هيئة بشرية، لكانت اتخذت شكل والدة "كيران". سكنت حركة أساورها.

لقد سمعونا ونحن هناك وسط المياه، ورؤونا ونحن نغطس، وفهموا سبب الصرخات. خرج "عرفان" وشقيق "كيران" وراءنا في قارب آخر. بالكاد كنت أتذكر هذا، لا بدَّ من أنني عدت إلى قاربنا بطريقة ما، أمسكت "فرحانة"، وقلت شيئًا ما. بدا كأن رؤيتي والدة "كيران" وهي تنضم إلى زوجها، وهو يقف في انتظارنا هو ما أعادني إلى العالم من جديد، فقط ليذكرني أنني رغبت في تركه، وكنت لا أزال أرغب في ذلك! أردت الغوص ثانية وسط تلك الأسماك البيضاء الضخمة بعيونها الصفراء الباردة، رغبت في رؤيتها تطوف من حولي، لتذكرني

بالهلع الذي انتابني، فتمنع هروبي، رغبت في العيش داخل ذلك التهديد، سيحررني هذا على الأقل من عذاب الرجل والمرأة اللذين ينتظراننا على الشاطئ؛ شاطئهما.

تخيلتها وهي تلف العسل في قطعة القماش، ثم تغلق العقدة. لقد خبزت ذلك الخبز من أجلنا، كما ضحت ببعض ثمار الكمثرى والبطاطس لنا.

عندما خرجنا من المركب، بدأت "فرحانة" في البكاء من جديد، ثم تقدمت نحو والدة "كيران"، لكن الأم ابتعدت عنها، قبل أن تسقط الأم على ركبتيها صارخة وسط التراب، وعرفت أن هذه هي أول مرة تنهار فيها منكمشة على نفسها بتلك الطريقة أمام أحد، وكانت بسببنا! اهتز كتفاها فيما يشبه التشنجات وهي ترفع قبضتها المليئة بالرمال لترميها على شعرها، لتضرب بقبضتيها وأظافرها المكسورة محاولة أن تحفر داخل أحشاء العالم، في حين تدلى خيطان من اللعاب على ذقنها. وقف زوجها على مقربة يبكي في صمت في قطعة القماش المعلقة حول عنقه، صار رأسه عاريًا، فبدت خصلات شعره المجعدة سميكة وجميلة.

كان "ويس" قد نصب خيمة "عرفان"، وكنت شديد الشكر لهذا. وقف خارج الخيمة، فاتحًا بابها الأمامي لنا، لم يكن بوسعه رؤية الأجنحة الشفافة التي اقتربت منا من جهة "الجبل العاري" التي بدت كما لو كانت قد ولدت من السحب التي أحاطت بالجبل، محلقة عاليًا فوق الخيمة قبل أن تدور حول البحيرة. عرفت أنها ستنام معنا الليلة، في حين أن وجهها المشابه لشكل القلب يواجه وجهي، وتحديقتها الباردة السوداء لا تبعد إلا بضع بوصات عن حلقي. زحفت إلى الداخل، كما لو كنت سجينًا يلجأ إلى زنزانته راغبًا في تأجيل عقوبته قليلاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل الصلوات

دارت أحلامي حول أمي، ووالدة "فرحانة"، وأمهات أخريات لم أستطع تعرفهن، أو عرفت في يوم أطفالهن. كان وجهها عقدة من الريش، في حين امتد عنقها رفيعًا كالهواء.. كنت بالداخل؛ داخل الأجنحة، داخل الكهوف. كنت أغوص وسط رائحة جدتي، رائحة أم "فرحانة" التي عُلقت على الجدار فوق فراشها، ثم ظهر فراش في مكان آخر، وكنت أرقد عليه، في حين تنساب مئات من الروائح المختلفة من الطعام من حولي؛ "البوريتوس"، "الأنكيلادا"، الكزبرة، والليمون، وهي روائح أحببتها قديمًا، لكنها صارت الآن تجعلني أشعر بالحزن، ثم ظهرت أمي عند نافذة "فرحانة" التي تطل على الخليج في مقاطعة "ماشن"، وندمت على كوني بالكاد رأيتها في تلك الأيام القليلة في "كراتشي"، قبل أن نرحل لنأتي إلى تلك الجبال. سأتصل بوالدتي من تليفون "عرفان"، سأخبرها أنني راحل من الوادي.

كان أحدهم يفركني بأحجار، كان يفركها على جلدي، في ذقني، تحت إبطي، وبين فخذيَّ. كانوا مُغطين بالدماء وسوائل لزجة أخرى، بالكزبرة والليمون. الرائحة، الرائحة. كنت سأتصل بوالدتي لو تركتني "فرحانة" أفعلها، لكنها ظلت تحاول إيقاظي، طلبت مني أن أتوقف عن خدش الخيمة؛ كنت أمزقها وكان الجو باردًا، لكن لو الجو بارد فعلًا، لماذا تركت الباب الأمامي مفتوحًا إذًا؟ لماذا ظلت تحاول أن تريني الطريق إلى الخارج؟

ارتفع صراخها في وقت مبكر من الصباح، هل لا أبالي بموضوع الرائحة؟ فتحت عينيَّ، ورأيت لماذا كانت منزعجة، فبين كل حلم وآخر ظللت طيلة الليل أقيء مياهًا ثلجية؛ يبدو أنني ابتلعت الكثير منها أول أمس. أول أمس! أي يوم كان هذا؟ يوم لا يمكن أن يكون! أخبرتها أنني آسف بشأن الرائحة.

حاولت معاودة النوم مرة أخرى، لكنني استيقظت. رغبت بشدة في ألا أكون مستيقظًا، شعرت أنني أعاني الحمى، لكن درجة حرارتي لم ترتفع، بل انخفضت. عرفت أن "عرفان" قضى الليلة يدفئ بعض الأحجار بيديه، أنفاسه، وتحت إبطيه، قبل أن يضعها تحت إبطي وحتى بين فخذيَّ، تساءلت في ضعف أكان هو أو "ويس" فعلوا الشيء نفسه لـ"فرحانة" التي استلقت تحت العديد من الأغطية، من أين حصلت على كل تلك الأغطية؟ تساءلت: "عائلة "كيران"؟ مستحيل!"، وحتى السوائل الدافئة التي أجبرونا على شربها كانت من عندهم. أكد لي "عرفان" أن المشروب الذي قدموه لي كان يحتوي على أعشاب لتوقف المشكلتين اللتين عانيتهما؛ القيء وانخفاض درجة حرارة الجسد، كما لو لم أكن أشكو إلا من هذين الشيئين فقط. سألت:

- هل عُثِر على جسدها؟

قطب حاجبيه مُجيبًا بحدة:

- طبعًا لا!

بدا تقطيب حاجبيه عميقًا للغاية، لدرجة أن بإمكاني الاختباء بداخلها، وهو ما كنت أرغب في فعله، أن أختبئ من كل شيء، في حين بدا صوته أجش وهو بالكاد يمنع نفسه من الصراخ.

- حتى لو كنت أضعف من أن تستطيع السير، اضغط على نفسك؛ الحركة ستبقيك دافئًا.

تذمرت ثانية:

- اتركني أرتاح، هل سيُعثَر على جسدها؟

- اخرس وانهض!

- هل سيعثرون عليها؟

- أنت تعرف كم هي عميقة تلك البحيرة.

- في الواقع لا أعرف.

- هذا صحيح.

- لكن كان هناك مد وجذر، ولا يزال موجودًا، بوسعي الشعور به.

قالت "فرحانة" إنها لا تستطيع التحمل أكثر من هذا، فزحفت إلى الخارج بكل الأغطية التي فوقها. لم أسمع صوت سقوط أي أحجار مع نهوضها. سألته:

- ما معنى اسم "بوري"؟

- لماذا؟

- ما معناه؟

- بني.

- و"ماخيري"؟

حدق نحوي، وبالنهاية أجاب:

- شقية.

- كانت تلك أسماء ماعزتي "كيران".

سخن "عرفان" الأحجار مرة أخرى، كانت طويلة على شكل ثمار الكمثرى، وآخرين صغارًا مستديرين، كانوا مستديرين لدرجة أنني رغبت في الالتفاف حولها. تحركت من تحت إبطه لينتهي بها الأمر بين يديه، ويعتصرها، كما لو كانت عجينة يرغب في جعلها أطرى، بدا كساحر يؤدي حيلًا سحرية وقد ركز بالكامل فيها. بمجرد أن وصلت الوصلة السحرية إلى نهايتها وفقدت الأحجار لينها ضم قبضتيه، ضاغطًا بغضب لكي يكسب تلك القطع الصغيرة سخونة كافية من أجلي،

كان غاضبًا وعطوفًا! قلت بصوت مختنق، في حين زمجر "عرفان" وهو يحكم وضعها عند خصيتيَّ:

- أنت صديقي!

نمت بعمق تلك المرة، لو كنت قد حلمت ليلتها، فأنا لا أتذكر تلك الأحلام. عندما استيقظت وجدت نفسي راقدًا وسط حفرة من الأصوات التي بدأت من نوم آخر، من زمن يسبق زمني! أخذ الصوت يتعالى ويتماوج نحوي من خلال تلك الحفرة، حتى استطعت تمييز الصدى كصوت منفصل، وعرفت فيه صوت "فرحانة"، لكنه كان أكثر مداهنة وتملقًا من صوتها. لم تبدُ كأنها تتحدث بقدر ما بدت كأنها تتلو شيئًا مكتوبًا، من كلمات منقوشة على كنز، ربما أخرجه أحدهم من الحفرة. تخيلتها وهي تنفض الغبار، توجه ضوء كشاف هنا وهناك، ثم تغمغم بكلمات بلغة لا أفهمها تعبت من محاولة تمييز معناها، فغفوت من جديد.

تكرر الأمر. في وقت ما من منتصف الليل، أو اليوم، اليوم نفسه؟ لا أعلم. سمعت "فرحانة" بجواري، لم أستطع معرفة أكانت تعرف أنني سمعت، لم أستطع معرفة أكانت تبالي من الأصل، بدا صوتها هذه المرة موسيقيًّا على غير العادة، لكن بشكل ما، كان لا يزال متملقًا، شعرت كأنها تتحدث مع شخص ثالث في الخيمة، تناديه، وتدلو بشهادة ما أمامه عما كشفته باكرًا - باختصار تخيلتها تحمل مرسومًا نقش على صخرة "آسوكان" - كما لو كانت تتحدث إلى جهاز يسجِّل شهادتها في قسم الشرطة، هل كانت تحلم؟ أم تتحدث في أثناء نومها؟ فحصت ما حولي سريعًا؛ لا يوجد شخص آخر، ربما كانت هي نفسها الشخص الثالث. لم أنظر تجاهها، فلم أرغب أن أراها تنظر نحوي بعينين مفتوحتين، أو مغلقتين، استلقيت ساكنًا داخل خيمتنا.

كلما تحدثت، شعرت بدمائي تبرد ثانية - أين "عرفان" بأحجاره الجميلة الآن؟ - أكيد كان هذيانًا.

- وكلما شعرت بالخوف، حلمت بوالدتي.

حسنًا، وأنا كذلك؛ هكذا فكرت، لقد كنا نرى الأحلام نفسها!

- يمكنك القول إنها أقرب ما لدى تصوري عن الله، ترفرف صورتها فوقي في حين أحاول النوم، فقد تحررت من إطارها الموجود فوق فراشي، لترتفع في السماء كسحابة بيضاء منتفخة، تنفخ الهواء البارد إلى أسفل نحوي، صحيح أنني كنت صغيرة لكنني أتذكر أنها كانت تفعل هذا، تعلمته في الوقت الذي قضته هنا. أنت لا تدعو للشخص فقط، وإنما تدعو فوقه، فتنفخ دعواتك عبر مسامه حتى تصل إلى روحه، نفسًا مقابل نفس. هذه هي طريقة التعبير عن حبك للشخص، بتنفسك. قال أبي إنها لم تصبح مسلمة حقًّا إلا في الليالي التي تتمنى فيها شيئًا لي - يا رب، هب ابنتي أمًّا في سني! - ثم تنفخ دعوتها نحوي.

استيقظت مبكرًا، تلك المرة كنت متأكدًا أننا في الصباح من الطريقة التي تسلل بها الضوء عبر نسيج الخيمة الأزرق ليغلف حقائب نومنا بخطوط رفيعة صفراء،

ليجعلني قادرًا على تمييز تلك المرأة الموجودة بجانبي من جديد. شعرت بحلقي أكثر جفافًا من كل الصخور التي تراصت على جانبي، لكن كانت درجة حرارتي طبيعية. عرفت أنني الوحيد المستيقظ، كما عرفت أن البحيرة ترتاح، وربما كانت نائمة.. انعكس اتجاه المد والجذر.

أخذت حقيبتي واتجهت إلى الخارج. يستيقظ البدو مبكرًا جدًّا لأداء الصلاة، ربما كانوا مستيقظين بالفعل، منتظرين انكسار الشمس وراء "مليكا بربت". نظرت من فوق كتفي، لكنها كانت في كنف الظلام. رفرفت مجموعة من النجوم مكانها، وانتشرت مجموعة رفيعة من سحب السماء البنفسجية. اتخذت السحب العديد من الأشكال، فمنها ما بدى كمجموعة من العدائين، ومنها ما ظهر كلاعبي الأكروبات، منها ما يشبه جنيات تتعقب أمراء، في حين بدت مجموعة أخرى كجن يطارد الجنيات، أو كعشاق يتلاقون على الجليد.

سرت حتى حافة المياه عارفًا ما سأجده. سرت متمهلًا، وأقدامي الحافية بالكاد خارج البحيرة، حتى عندما داعبت المياه أصابع قدمي بخفة، تراجعت إلى الوراء مسرعًا. أخبرت نفسي أنني تفاديت التلاقي مع البحيرة التي تجمد العظام من منطلق تقديري لـ"عرفان"، فلو هبطت درجة حرارتي مرة أخرى، سيحطِّم رأسي قريبًا بالصخور التي أحضرها بدلًا من أن يدفنني بها، وهنا سيصبح قاتلًا!

بدت الربطة في وضع شبه جنيني، على الشاطئ الشمال الشرقي. لا بدَّ من أنها اغتسلت بينما أنا أقترب، فقد وصلنا في الوقت نفسه. استلقت بين الجبلين، عند أقدامهما. لم يكن بوسعي الوصول إليها دون المرور بالخيام، وهو ما فعلته بأقصى ما بوسعي من هدوء. هز كلبان جسديهما وهما يستيقظان، قبل أن يخطو أحدهما على أطراف أقدامه نحوي، من حسن الحظ أنه كان مربوطًا، بالرغم من أنه لم يكن هناك داعي للقلق، فهو لم ينبح حتى، في حين استلقى الآخر في مكانه ساكنًا، وقد انتصبت إحدى أذنيه. بدا الاهتمام على حصان ذي لون أحمر داكن وعينين شرستين، أظهر أسنانه نحوي وبدأ يصهل، في حين قفز حصان أصغر سنًا مندفعًا إلى الأمام، وهو يرفس ويركل الرمال من حوله، دار حولي وهو يرفس، في المرة الثالثة كاد يرفس قصبة ساقي. استمررت في سيري، كنت أقترب من وجهتي.

شعرت بعقلي صافيًا كالهواء، ومع ذلك الصفاء شعرت ببرودة، وقبل أن أجلس بجوارها لاحظت كون الشاطئ مبللًا، جمعت باقة من أشواك الصنوبر والصخور الصغيرة، وصنعت لنفسي وسادة منها، ستنير الشمس الشاطئ الغربي قبل أن تمس تلك البقعة. اغتسلت في أظلم ركن في البحيرة، فلن يصبح بوسعي رؤيتها إلا بعد الصلاة.

لهذا جلست بجوارها، مستمعًا للأذان وهو يأتي طافيًا نحونا من عند التلال، لا بدَّ من أنني كنت غير منتبه بشدة لدرجة عدم سماع صوت إقامة الصلاة حتى الآن. ترددت الإقامة بوضوح فوق البحيرة وعبر الوادي بالرغم من أنها كانت خافتة، وخلال لحظات، انضمت إقامة ثانية وثالثة إلى الإقامة الأولى، تتسابقان بجوار بعضهما بعضًا، وعائلة كاملة من البوم تُهرَع متسابقة عبر درجات تيارات الهواء.

ببطء، بدأ وجه "ملكة الجبال" يظهر في المياه، وهنا لاحظت ظهور أولى بوادر النشاط في الخيام، فسمعت أصوات أواني تصطك، ومياهًا تجري، رأيت كلابًا تحك نفسها، وسمعت أجراس المَعِيز والبقر ورنينها، خافتًا وروحانيًا كإقامة الأذان. سرعان ما جاوبته مجموعة من الأصوات الخافتة، وسرعان ما كان رنين الآذان الثاني يتردد عبر الوادي. ظلت الخيمة الموجودة على الشاطئ الجنوب الغربي - التي كنت نائمًا فيها - ساكنة، لم تكن لديَّ أي فكرة عن المكان الذي نام فيه كل من "عرفان" و"ويس". زحفت الشمس مبتعدة بطول البحيرة، وكان لا يزال بوسعي رؤية جنيات في السحب، ورؤية القمم والجحور كذلك.

لم أحدق إلى الجسد ثانية حتى تأكدت من كوني أراه، وقفت، وهززت قدميَّ، وسرت بطول الشاطئ مرة أخرى. قال "عرفان" سالفًا إن البحيرات العميقة والباردة مثلها قلما تتخلى عن ضحاياها دون وجود تيار مياه قوي، ربما يحتاج الأمر إلى أسابيع، أي إن التيار الذي كان لعنة علينا صار الآن نعمة.

سرت نحو الشرق مبتعدًا عن الجسد، أبعد مما كنت أتوقع. يبدو أن قدميَّ لا تزالان تهويان أخذي بعيدًا، ربما كان هذا هو ما نبه أم "كيران" لوجودي هنا، أو ربما كان بسبب ذلك الحصان اللعين وصغيره اللذين استمرا في الرفس والصهيل طوال اليوم.

عندما استدرت إلى الخلف رأيت ظلًّا يتقاطع مع ظلي الذي افترش الرمال، وتدريجيًا رأيت المرأة صاحبة الظل التي حملت طفلًا بين ذراعيها، تذكرت أنها كانت تحمل طفلًا في ذلك اليوم كذلك. ترددت، فقد أدركت أنها كانت تراقبني. لم أسمع أي خطوات، أو صوت حفيف ثياب، أو أساور، أو حتى صوت بكاء، حتى الطفل ظل ساكنًا. ربما كانا واقفين مكانهما منذ الأزل. "أيفترض بي أن أبتعد وأعود إلى خيمتي؟" سارت بالخطوات الواثقة نفسها التي سارتها دائمًا، وكانت ترتدي القميص الأسود نفسه. تملص الطفل خارجًا من بين ذراعيها وركض نحو الجسد، في حين لم يبدُ على المرأة تغيير، فلا هي توقفت، أو أسرعت من خطواتها. لماذا أحضرت الطفل؟ ما فائدة رؤية الرضيع أخته الميتة؟

كان شعر الفتاة الصغيرة مجعدًا كأخيها ووالدها. انحشرت ساقاها الممتلئتان في منامة صفراء مقطوعة عند أسفل الركبة، كان رداؤها ذا لون أخضر داكن مطرز بنقوش ذهبية براقة، مالت المرأة برأسها نحو "كيران"، فظهر جسدها كله في ضوء الشمس. بدا الوجه الميت بلون هو مزيج من الوردي الفاقع والرمادي، في حين بدا العنق بلون أغمق. غسلت المياه الثلجية الصبغات عن خديها، ولمعت عيناها كما لو كانت لا تزال حية. انثنت الفتاة الصغيرة حول ركبتيها، وقد انحشرت قدماها الصغيرتين أسفلها. امتدت يد بنية صغيرة الحجم نحو عنق أزرق بارد، ظلت اليد التي تحمل بريق الحياة مكانها، عند العنق المبتل، البني على الأزرق، دون أن تبكي الفتاة. ظلت الفتاة مكانها تحدق إلى الموت بحزن عميق متوغل سارٍ كالبحيرة نفسها. حزن أفصحت عيناها الواسعتان الداكنتان عن أنها يجب أن تَتعلم كيف تظهره، هذا ما أرادتني الأم أن أراه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

"ملكة الجبال".. أرق من الجلد

قبل أن تشهد اكتمال اثني عشر قمرًا، رأت "كيران" أول مرة إحدى مَعِيزها وقد خرجت أحشاؤها لترتمي حول جسدها! استلقت الماعز في مرعى توقفوا فيه لقضاء تلك الليلة فقط، لأنه امتلأ بخيام البدو القادمين من الغرب، فلم يكن مكانًا آمنًا. عندما استيقظوا صباح اليوم التالي وجدوا أحشاء الماعز متناثرة بين المساحات الخضراء، لتمتزج سوائلها مع سوائل الأرض المبللة، ومن فوقها حلقت ذبابات ممتلئة ثقيلة الحركة. ربما كان من فعلها ذئبًا، وربما كان رجلًا.

جلست "كيران" على ردفيها، وقد شردت بالكامل في تأمل الجسد الساكن. تقشر جلد الماعز إلى الوراء كأنه شال، في حين أنارت الشمس أسفلها. ربما كان هذا هو السبب في جعلها مذهولة صامتة؛ أن يصدر عن الشمس - التي يصلون ويغنون معها - كل هذا اللمعان أمام عينيها، أو ربما كان ذلك هو ضعف القدرة على إخفاء المشاعر. في السنوات التالية، أخذت الفتاة تسأل "مريم" أكان جلدها رفيعًا كجلد الماعز، ووقتها أخبرتها "مريم" بالحقيقة؛ كان أرفع، وهو ما يعني بالطبع أنه لو كان يمكن أن تُفرَغ الماعز من أحشائها بتلك السهولة، فمن ثَمَّ الشيء نفسه ينطبق على المرأة.

كانت تخبر "كيران"، وتخبر نفسها كذلك، بأنها ستضطر إلى إنماء طبقة جلد ثانية لتحمي الطبقة الرفيعة التي تُترك نهبًا للشمس والأرض، والريح والذباب. طبقة الجلد الثانية هذه يجب أن تستلقي أسفل الطبقة الواهنة، وليس أعلاها. يجب أن تظل مختبئة لتتمكن من العمل، لكنها ستخبر "كيران" بكل هذا لاحقًا. قاست في ذلك العام - أول عام يمر على حلول "كيران" بهذا العالم - المسافة التي تفصل بين الحياة والموت، بقياس المسافة التي بين أصابع "كيران" وأحشاء الماعزة التي لمعت في ضوء الشمس، ثم سحبت "كيران" وهي تهز كتفيها، قائلة لنفسها إن أطفال "الجورجار" معتادون فكرة الموت، وأن هذه الحادثة هي فقط الأولى في السلسلة التي ستمر بها "كيران" في حياتها.

كانت مُحقة طبعًا، صحيح أن أول مقابلة لـ"كيران" مع الموت أتت في الربيع في صورة تلك الماعز، إلا أنه قابلها مجددًا قبل أن يعودوا إلى السهول بحلول الخريف، لكنه تلك المرة أتى في عيني بقرة! وفي أثناء أشهر الشتاء الطويلة، خيم الموت بشكل أوضح على بيتهم، فاستولى على روح مهر ابنة عمها، وبعدها على روح جدتها. حيثما ذهبوا، تتبعهم الموت! كان الموت كالرياح؛ كالغجر.

بحلول عامها الثاني، شهدت "كيران" ألم الولادة والطريقة التي تبكي بها الفرس إذا ما ولد مهرها ميتًا. كانت أصغر من أن تستوعب مرارة العمر، لكن كبيرة كفاية لتدرك قدرة تلك المرارة على شل حركة ساقين كما بوسعها شل أربع سيقان. بعدما فقدت الفرس "ناماشا" مهرها بقليل، أنجبت مهرتها الثانية، وهي الوحيدة التي ظلت حية، لكن بعدما دفعت الثمن، فقد فقدت الحصان الذي أنجبتها منه! ذات صباح، أسقط الحصان روثه على سطح نهر جليدي، ثم ركض نازلًا، ليتجه مباشرة نحو

سور من الأسلاك الشائكة! وقبل أن يتمكنوا من سؤاله لماذا فعل هذا، كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة! ضغطت "مريم" على فتحة الجرح براحة يدها، بينما راقبتها "كيران"، وقد جفت عيناها وارتجفت، والدم يجري نازلًا على راحتي يديها. لمست الجرح دون أن تضغط عليه، كما لو كانت تعرف أن النزيف لن يتوقف أبدًا! لاحقًا، لم تعد "ناماشا" تقبل الطعام إلا من يديَّ "كيران"، ولو قدمته لها "مريم" تركل وترفس. احتاج الأمر إلى عامين كاملين قبل أن تسامحها الفرس، وبحلول هذا الوقت، أدركت "كيران" أن المغفرة أرق من الجلد.

ظهر الموت من جديد هذا العام، ففي أول صباح بعد انتقالهم، بعد أن أنزلوا حقائبهم عن الحيوانات، وبينما كانت باقي القافلة ينصبون الخيام، مط أكبر أصهار "مريم" ذراعيه وسقط بكل بساطة بين قطيعه عند قدميِّ "كيران"، انتظرت "كيران" مدة طويلة قبل أن تنقل الأنباء؛ لقد مات "بارو باي".

كان كل هذا جزءًا من الحياة؛ الهيام بلا نهاية، تحميل المتاع ثم إفراغه، الأجساد التي تنثني والأرواح التي تفر، عندما تسافر وسط قافلة بين مجموعة من العائلات التي ربطتهم حميمية السعادات والأحزان التي مروا بها. لم يكن صهرها الأكبر محبوبًا للغاية بين أفراد القبيلة، فقد كانت هناك اعتراضات بصدد السعر الذي يبيع به الزبد والحليب اللذين تنتجهما ماشيته عندما كانوا بالسهول، لكن بمجرد أن تركوا السهول تحولت تلك الاعتراضات إلى شفقة. كل عام في أثناء الهجرة تدور الأمور بتلك الطريقة؛ كلما تحركوا إلى أعلى أكثر اغتسلت الروح. يلعب الأطفال بالطبل في حين تنطلق النسوة بالغناء، يبدأ الرجال يقصون حكاياتهم، وتتمدد الأحصنة، حتى وفاة "بارو باي" صارت مناسبة للاحتفاء، بعدما دفنته مجموعة منهم، قضوا بقية مدة هجرتهم التي امتدت شهرًا في قص حكايات عن شبابه، اعتادوا الموت لدرجة أنهم صاروا يتعايشون معه. لم يكن الموت قادرًا على جعلهم يتوقفون عن الحياة، فالتوقف لم يكن خيارًا مطروحًا من الأساس، لهذا يتوجب على الإنسان أن يموت بالطريقة المناسبة وفي الوقت الملائم، يجب أن تكون قد تركت خلفك أعوامًا من الحياة يتذكرك الناس بها، وإلا يمكن أن يتوقف ذكرك، ووقتها ستكون قد مُتَّ حقًّا! لكن الطفلة لم يكن لديها تلك الأعوام بطبيعة الحال، ولا الأم كذلك لديها، ومن الهيئة التي بدا عليها القاتل، لم يبدُ أنه كان لديه هو الآخر.

شاهدته وهو يبتعد وهي لا تنفك تفكر فيما قالته لها أمها ذات مرة: "ليس من إنسان ملعون قدر من حكم عليه بالمشاهدة في صمت!" ليس هناك جحيم أشد من زوج من العينين تشاهدان دون القدرة على الحديث، وكانت تقول إن القلب المحطم لن يصبح باردًا أبدًا، هذا هو أكثر الحواجز قسوة، حتى على الرب! كانت لديها خبرة في هذا، عندما دعت له كثيرًا ليحمل عنها عبئها، لكنه كان دائمًا يرفض، لم يكن مستعدًا لحمل أي شيء، ولهذا قالت أمها: "صحيح أنه لا يمكنك منع قلب من التحطم، لكن يمكنك أن تُبقي القطع المحطمة دافئة عامرة بالحياة"، لكنها طبعًا لم تخبرها أبدًا كيف يمكنها فعل هذا.

والآن وجدت "مريم" أن قلبها لم يتحطم بالكامل، أو حتى صار باردًا، لقد توقف بكل بساطة، صار حملًا ثقيلًا لا ينفك وزنه عن الزيادة كلما اقتربت من "كيران"

التي رقدت هناك على الرمال بلا حراك، وبلا دماء تنزف منها، بلا آثار لأحشاء لامعة متدلية، ولا حتى ذبابة ثقيلة الحركة تحلق حولها، بدا كأن الموت تلك المرة لم يرغب في العثور على "كيران" من الأصل.

تشاجرت مع زوجها؛ كيف سمح لـ"كيران" بالذهاب في القارب مع الأغراب؟ لطالما خافت "كيران" من المياه، ألم ينتبه إلى الخوف الذي رسم علاماته على صفحة وجه ابنته؟ أجابها ببرود:

- ربما كنت أعرج، لكنني لست أعمى، تعرفين أننا لم نكن لنرفض لهم طلبًا، فهم ضيوفنا، تذكري من أين أتوا، لا يمكن رفض طلبهم، حتى لو كان طلبهم هذا هو ابنتنا.

صار صوته أرق وتابع:

- سيصطحبونها وقتًا قصيرًا فقط يا "مريم".

كان يشبه والدها في هذه النقطة، عندما يناديها باسمها كان دائمًا يفعلها بحنان. قالت بجرأة:

- وماذا عنهم؟ من أين أتوا؟ أهم من مكان تؤخذ فيه الطفلة من عائلتها للتسلية؟

بدا الضجر على صوته:

- لطالما كنتِ تعشقين المبالغة في المأساة. ستكون "كيران" بخير.

ماذا فعل زوجها طيلة الأربع ساعات التي قضتها "كيران" في القارب؟ لقد جلس مع رجال قبيلتهم يتناقشون حول مشكلات الوادي، فقد تغيرت الأمور بالأسفل حيث تقبع بيوتهم، هناك مواكب عسكرية تبحث عن قاتل، وهناك جواسيس، وهناك شركاء، لكن لم تكن هناك عيون، لم توجد هنا بالأعلى لتراقب طفلة خائفة، كما لم تكن هناك آذان، لم توجد هنا بالأعلى لتسمع صوت الأساور منادية!

"مريم" فقط مَن كان بوسعها سماعهم، في حين كانت تجلس بجوار المدفأة الفخارية المدعوة "كانجري" على شواطئ البحيرة، في حين أخذت رضيعتها "جومانة" تدق بأناملها على طرف المدفأة الفخارية - ربما سمعتهم هي الأخرى؟ - في دائرة من أطباق النحاس. كانوا ينادونها، لكن لم يكن بوسعها فعل شيء غير السماع.

لم يعد بوسعها رؤية القارب في النهاية، ولا سماع الأساور.

لم يكن بوسعها فعل أي شيء! ربما كان هذا هو الوقت الذي بدأ قلبها يتوقف فيه.

في الليلة التي عاد فيها القارب من دون "كيران"، تسللت خارجة من خيمة زوجها، كانت هناك خيمة زرقاء على مسافة، ليست متهالكة ولا مليئة بالثقوب مثل خيمتها، وبداخلها توجد الفتاة التي تسير كالماعز والرجل الذي لا يملك لسانًا؛ القاتلان! كان زوجها نائمًا، زحفت تحت القمر وفوق التلال، متجهة نحو كهفها.

فعلت الشيء نفسه في الليلة التالية. رأت خيمتهما، ثم جرت نحو كهفها. ربما كانت ستتمكن من البكاء بحرية هناك، لكنها فضلت أن تصرخ وتطلق لعناتها! لم يكن لديها ما هو أكثر من هذا لتقدمه لإلهة لم تقدم لها غير الشكوك والهواجس، لكن لا علامات في طريقها! ولو كانت قد أعطتها علامات فهي لم تتمكن من قراءتها. كم من مرة تشاجرت مع زوجها ليبقيا طقوسهما القديمة حية، حتى عندما كان الآخرون ينادونها بـ"الزوجة الوثنية"؟ كم من مخاطرة خاطرتها لتحمي وجود ذلك الضريح المقدس الموجود بالأسفل عند السهول، وهو ما لم يكن يقود إلى "طشقند"، ولا كان يحتويها كالرحم، ولا حتى حمل أحلام الأموات في الرسوم التي زينت الجدار، وإنما كان مظلمًا، وخاليًا من الحياة، وخبيثًا؟ أهذا هو المقابل الذي تستحقه مقابل إخلاصها؟ ركلت الأرز، وقدمته. بصقت على الريش - الذي يعني أنه قادم - وقبلته.. نادت والدتها باكية: "أين مواطئ أقدامك الآن، وأبوابك؟"، وأثنت عليها.

في الليلة الثانية، تبعتها طفلتها الرضيعة "جومانة" خارج خيمتهم. حملتها "مريم" إلى الكهف، أرتها الرسومات، وتمنت لها حظًّا حسنًا.

قبل حلول فجر ثالث يوم، كانت تتخذ طريقها عائدة إلى البحيرة، لتجد أمامها الرجل الذي لم يكن لديه لسان وهو يرتكب جريمة قتل ثانية! لم يسمح لها حتى بالتمتع بكرامة أن تكون أول مَن يرحب بعودة ابنتها! لم يمنع نفسه حتى من تدنيس الموقف بالنظر إلى "كيران" دون حب، ودون تاريخ يجمعهما.

كانت الرضيعة هي من تمكنت من التوصل إلى طريقة لعقابه، وضعت يدها الصغيرة على عنق "كيران" البارد. الطفلتان، كلتاهما ليستا مستعدتين للموت. حفظت "مريم" نظرة القاتل، الرجل الذي سلبهم شبابهم، تراجع إلى الوراء وقد ضم ذيله بين قدميه.

شاهدته وهو يخطو مبتعدًا، وتذكرت "مريم زماني" الأسطورية التي رفعت الصخرة، وفكرت في الرجل الذي شبهها ذات مرة بالأسطورة، وهو الشخص الذي لم يعتبر "مريم" شخصًا عاديًّا، والذي أتى لها في البداية كنبي. ملأ اللون الأزرق عينيها، أقرب درجاته من قلب "كيران". حاولت ذات مرة أن تعقص شعر "كيران" في صورة ضفيرة بخيط أزرق، كمجموعة من الضفائر التي جرت على ظهرها، ليجتمعوا كلهم باللون الأزرق، كادت تنجح في مرادها، كان الأزرق كلون الرقبة الساكنة التي ترقد على الشاطئ، أزرق كريش ذيل طائر "الرفراف"، تأكدت من أن "كيران" ستحلق الآن مع جدتها، ومع كل الأرواح القادمة من السهول، ومن تلك الجبال، ومن المنخفض الموجود وراء البحر الداكن، وهو المكان الذي أتوا منه، منذ ألفي عام أو ربما ثلاثة آلاف، وبينما اللون الأزرق يملأ عينيها، أخذت تخبر نفسها: "غافور في طريقه إلى هنا، وسيتمكن من إصلاح هذا!".

أبقت نظراتها على قدمي القاتل، وراقبت طريقة سيره وهو يتراجع نحو خيمته، ظلت تنظر نحوه مدة طويلة، لدرجة أن رضيعتها بدأت تتململ في مكانها، لكنها لم تبكِ. عندما تمكنت "مريم" أخيرًا من تحريك عينيها بعيدًا، انحنت فوق "كيران" وقبلت حاجبها، وداعبت خدها بأناملها. مرت بيدها على ملابسها المبتلة، تمزق شال

“كيران” - من السقطة أم من العضة؟ - لكن لم تكن هناك ولو قطرة دم، كما لم تكن هناك ولو ذبابة هزيلة كذلك. كانت الطفلة تخاف المياه أكثر مما تخاف الموت. نفخت بعض الصلوات على جسدها البارد قبل أن تلتقطها. كل الموتى يصيرون ثقال الوزن، حتى لو كان عمرهم لا يتعدى الستة أعوام، إذًا فهذا هو الوزن الذي سمح لنفسه بالاستقرار داخل صدرها. حسنًا، ستحمل الجسد على أي حال.. عدلت وضع جسد “كيران” بين ذراعيها حتى ضغط الذقن البارد الخاص بواحدة منهما على التجويف الدافئ الخاص بالأخرى، وارتطمت ركبتان محطمتان بقلب توقف عن الدق منذ بعض الوقت. تنفست في أذن “كيران”.

- الشمس الآن حارقة، سآخذك إلى المنزل.

اضطرت “جومانة” – التي لا ترتفع عن الأرض بأكثر من بضعة أقدام – إلى الركض بجانب “مريم”، لتتمكن من الحفاظ على المسافة بينهما، وعلى سبيل المساعدة، قبضت على ساق أختها المنتفخة. رأت ذات مرة رجلًا على دراجة يفعل الشيء نفسه، ظل ممسكًا بحافلة مسرعة يحمله مبتعدًا. صارت أمها مكان الحافلة، قدما “كيران” مكان يدا مقود الدراجة، وساقاها المكتنزتان صارتا مكان العجلتين. كانت تحتاج إلى يد ثالثة لتتمكن من إمساك أمها، لكن كان باستطاعتها التبديل بشكل أسرع. اندفع الهواء من حولهم، وسمعت والدتها تردد:

- سيصلح هذا.. سيصلح هذا.. سيصلح هذا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسم الثالث

الجبل العاري.. من منظور علوي

جلس في مقهى يقع شمال البحيرة بعدة أميال، في مدينة تدعى "جلجت". استغل وقته في تقييم الرجلين اللذين أتيا من مقاطعة "سنجان". كان رجل تجارة، ويعرف أنه لا يوجد شيء مجاني، لكن الاختيار الذي يواجهه الآن مختلف، فهذان الرجلان لم تكن لديهما أصابع في أيديهما أو أقدامهما، على الأقل ليس كلها. تفرس في أيديهما، ففهم مغزى كلماتهما.

وصفا له بالتفصيل الدقيق خطة الصين لمحو مدينة "قشغر" القديمة. أحضرا صورًا فوتوغرافية كدليل مادي على ما يعانونه، وما شاهده بالصور كان الأزقة الحجرية التي بدت كمتاهات، والتي اتصلت فيما بينها كطرق التجارة القديمة. هناك مساجد رائعة ستُمحى كذلك، وعلى حوائط أحد المساجد، عُلقت ملصقات لحظر ذهاب الحجاج المنفردين إلى "مكة". كان مع الرجال كذلك صور لمقاهي إنترنت مهجورة، بعدما جمدت الحكومة أنشطتها في العام الأخير، ليتأكدوا من كون قتالهم معزولًا بالكامل. تضمن التطهير الذي تعرض له المتظاهرون نوعًا مختلفًا من التجميد، فقد رُشّوا بخراطيم تطلق مياهًا جليدية عدة ساعات في المرة في أثناء الشتاء! أما القلة المحظوظة، مثل الرجلين الموجودين بجانبه، فقد أطلقوا سراحهما دون أصابع يد أو أصابع أقدام.

لا بدَّ من أن تنتهي عزلتهما. بوسعه المساعدة، أليس كذلك؟

أحضر الرجلان ما طلبه، وكان موجودًا داخل صندوق وُضع على طاولة في ذلك المقهى ذي الإضاءة الخافتة، قريبًا من أيديهم. داخل الصندوق توجد هدية للمرأة التي أرسل إليها ريشة زرقاء منذ بضعة أيام، اختيار مستحيل. هناك مثل شعبي متداول في الوادي بالأسفل حيث كان له بيت: "لا يجف تحت الشمس ولا يتبلل من المطر". كيف يمكنه أن يحرر نفسه من تلك المشكلة؟

كانت راحتا يد واحد من الرجال ناعمتين كأنها كؤوس من الجلد، ومثلها بدت مجعدة ومستهلكة، لكن يده اليمنى افتقدت الإبهام والإصبع الصغيرة، في حين لم تفتقد اليد اليسرى إلا الإصبع الوسطى. كان ذلك الرجل يسأل عن سبب عدم تماثل اليدين، هل كان يكور كل واحدة بشكل مختلف عندما يعذبونه؟ هل ترك إصبعًا واحدة معرضة أكثر من الباقيات؟ أراد أن يعرف أيضًا أكان التأقلم سيصبح أسهل بالنسبة إليه لو كانت اليدان قد لاقتا المصير نفسه، لأنه وجد أنه صار لا يستطيع استعمال اليد اليسرى على الإطلاق، بالرغم من أنها لا تزال تحتفظ بالإبهام.

- صارت اليد اليسرى تستخدم اليمنى كصورة لنفسها، وبالرغم من أنها لم تعد مماثلة لها، فإنها لا تستوعب هذا.

أجاب الرجل الآخر الذي فقد أصابع قدميه فقط:

- كان يمكن أن تكون الأمور أسوأ.

فعل خدعة ليجعل جميع أصابعه - باستثناء واحدة فقط منها - تختفي، ثم أبرز الإصبع الباقية، فأخذ الرجلان يضحكان. ظلَّا مرتديين أحذيتهما.

ظلَّ "غافور" يثني عليهما، في محاولة منه منذ أربعة فصول صيف أن يصطحبهما في واحدة من رحلاته إلى آسيا الوسطى.

توقف في "قشغر" بضعة أيام، حيث قايض الجلود مقابل الأحجار الكريمة، وبعض الأشياء الأخرى. توقف الجنود الصينيون في المقاطعة شهرًا كاملًا، لاستعراض أسلحة الجيش في قلب المدينة، ظلت الطائرات المقاتلة الآلية تدور في السماء، واحتشد على الأرض مائة ألف من الجنود، يجاورهم بضع مجموعات من الدبابات، وشاحنات الجنود المسلحة، وبعض الشاحنات المتخفية. لم يرَ تلك الكمية من الأردية الرسمية مجتمعة في المكان نفسه من قبل، كما لم يرَ تلك الكمية من الأسلحة، أو رأى كل تلك الأعداد من الطائرات قبلًا. كان رئيس هيئة الأركان العامة بجيش التحرير الشعبي موجودًا كذلك، بالإضافة إلى وجود كمية من الجنرالات تفوق أي كمية رآها حتى في استعراضات الجيش الباكستاني. احتاج الأمر إلى وقت أطول مما يستحقه ليصل إلى التاجر الذي يفترض أن يلتقيه، وعندما التقاه عرف سبب ذلك الاستعراض. سيُري ذلك الاستعراض أولئك "الأويغوريين" من "سنجان" أنه من المستحيل تحمل الانفصال العرقي تحت راية شرق "تركستان"، والحرية الدينية، واللغة التركية. هذه ليست شرق "تركستان"؛ وإنما الصين.

قضى "غافور" الأسبوع مستمعًا لتهديدات الجيش بأذن، وحسيس بازار المدينة الرئيسي بالأذن الأخرى. وُجِد الكثير من التجار الباكستانيين هنا، كلهم يشترون بناطيل رياضية للركض، وجوارب، وسترات رياضية ذات كتابة إنجليزية، والأوعية المفضلة لربة البيت الباكستانية: الدلاء البلاستيكية. قابل واحدًا من "الأويغوريين"، والذي بعدما تمكن من أن يظفر بصفقة من أربعة آلاف زوج من الجوارب، اضطر إلى إغلاق محله شهرين، في حين يعيل عائلة من اثني عشر فردًا.

كما أكل الكباب المشوي على أسياخ دوارة، ومازح الباعة الجائلين الذين أخبروه بمزحة ستصبح خلال الأعوام التالية قديمة معتادة ("ما هو أول شيء رآه "نيل أرمسترونج" عندما حط على القمر؟") شاهد تبادل عملات بين العديدين من ذوي الأصول المختلفة، أكثر مما شاهده بالأسفل في "جلجت".

بالرغم من أن "الأويغوريين" فخورون بإرثهم التركي، فإنه يجب الاهتمام بأماكن التجارة. عندما غُيِّرت العملة، تغيرت اللغة كذلك. أفضل العملاء كانوا "السوفييتيين" القادمين من آسيا الوسطى وروسيا الذين لو جرت معاملتهم بالشكل المناسب، كان بوسعهم مساعدة الإنسان في غلق محله ثلاثة أشهر. تعلم "غافور" القليل من اللغة الروسية، وهي المهارة التي أثبتت فائدتها في التعامل مع الكثير من التجار "الكازاخستانيين" المقيمين في "سنجان"، وهم الرجال الذين اصطحبوه في

رحلته إلى "غولجا" قرب الحدود، وهذا ما ساعد في إقامة صلات مباشرة مع الحرفيين الموجودين بالأعلى في السهوب الكازاخستانية.

لكن كل هذا سيحدث لاحقًا. منذ أربعة فصول صيف، بالرغم من الترحيب الذي لاقاه "غافور"، فإنه لم يشعر بالراحة بسبب الدبابات والشاحنات التي احتلت المدينة، وكذلك بسبب مهاجري "الهان"، وهم مجموعة إثنية أُحضِروا من خارج المقاطعة. رصفوا الطرق التي تقطع "قشغر" القديمة، وأجبروا سكان "قشغر" الأصليين على الرحيل. كان يعرف معنى أن يجبرك أحدهم على الرحيل، لتهيم على وجهك من حقل إلى آخر كما لو كنت قطعة من حجر العقيق في مؤخرة بقرة! كان هذا جزءًا مما دفعه إلى اختيار ترك الوادي الذي شهد ولادته، مفضلًا أن يختار الرحيل بإرادته على أن يُجبَر عليه، لكن في حالة سكان "قشغر" الأصليين، لم يكن في الموضوع اختيار، لم يكن اختيارهم أن يرحلوا، حتى عندما تحطمت الصخور الموجودة أسفل أقدامهم، وحتى عندما ظهرت عربات تبيع الخمور ولحم الخنزير لتزاحم العربات التي تجرها الحمير وتبيع وجبات الـ"بوليو" الشعبية والكباب، ومن ثَمَّ شاهد تاريخًا يتلاشى، فرأى الأزقة التي رددت قبلًا أجراس الجياد وهي تردد قعقعة الرافعات، في حين سُويِّت الساحات التي بنيت من الطوب اللبن بالأرض لتصير مستوية تمامًا كخبز "النان"، وظل تمثال ضخم يُمثل "ماو تسي تونج" بالقرب لم يمسه سوء. قال له شيخ أتت عائلته في العام السابق:

- هذه هي القدس الخاصة بنا.. لن أرحل أبدًا.

ثم أضاف مكملًا جملته:

- هل يمكنك أن تساعدنا؟

أجابه "غافور":

- بالطبع.

لكن عينيه اللتين امتلأتا حزنًا لا يرتسم إلا في عين مَن لا يستطيع المساعدة - فهو لم يستطع حتى مساعدة أهله، بالرغم من أن الله يشهد كم حاول أن يفعل - بدأت تلك العين المتشبعة تتجول هنا وهناك.

بحلول نهاية الأسبوع، صارت بحوزة "غافور" أكوام من العملات الكازاخستانية والصينية والأمريكية في حافظته، والعديد من الأخبار على عاتقه. بالكاد كان واعيًا لما يحدث من أخبار. قُبِض على منشق من "تركستان" الشرقية في باكستان، واعترف بكونه قائد حلقة وصل لمجموعة تخطط لهجمات على اثني عشر مشروعًا للطرق السريعة الجديدة بالصين، كل طريق منها يقطع "سنجان" ليصل الصين بكل من روسيا، وكازاخستان، وطاجيكستان، وباكستان، وفي النهاية بأوزباكستان، وإيران، وتركيا. وعند القبض عليه، بصق المنشق علنًا على التعويض السخي الذي سيتلقاه سكان "قشغر" مقابل إعادة توطينهم، وبصق كذلك على التعويض الذي سيحصل عليه الرعاة الذين ستُرصف مراعيهم القريبة التي يعتمدون عليها في إطعام ماشيتهم.

بحلول نهاية ذلك العام، كان "غافور" قد ابتعد عن دبابات "قشغر" والصين، وعربات مهاجري "الهان" التي تجرها الحمير، وعن الرجل الذي وعدُه بالمساعدة. كان لا يزال يحمل الأخبار على عاتقه، ولا يزال بالإمكان سماعها. أعدِم المنشق الشرق تركستاني.

جلس أخوه أمام "غافور"، دون أصابع قدمين، حاملًا صندوقًا. لم يستطع "غافور" تذكر الرجل أو تذكر اسمه، لكن ذلك الأخير كان يعرف اسم "غافور"! لم يكن في حاجة ليعرض على "غافور" صور تلك المساجد الجميلة التي ستُمحى قريبًا. كان "غافور" قد شاهدها قبلًا على الطبيعة، قبل الانتقال من "قشغر" إلى كازاخستان، رأى مسيرات عسكرية بضعف قوتها، بطائرات مقاتلة تطلق شريطًا من دخان أبيض نحو سماء لن تكتسي بلونها الطبيعي ثانية أسابيع قادمة، لكن عندما حدث هذا، لم يعد "غافور" يبالي. وفي وقت ما بين تناوله للكباب المشوي على الأسياخ الدوارة، وامتلاء جيوبه بعملة اليوان الصينية - أو ربما بين مرور الدبابات العسكرية وتحدي رجل عجوز - وقع في حب فتاة بيضاء، حامت حوله، بوجهها البيضاوي، وشفتيها الصغيرتين الورديتين، واللتين ارتسمت في طرفهما أصغر ابتسامة ممكنة. في واحدة من تلك الحواري التي تبدو كالمتاهات التي تظهر في الصورة التي حملتها الكف الجلدية الناعمة، تبعها فوق الحصى المتبقي، وعبر مدخل يعتلي درجات سُلم وراء مدرسة، حيث كان أبوها يعمل مدرسًا، وعبر مدخل آخر، ودرجات سُلم أخرى، وعبر نافذة منقوشة بقراميد خضراء ذهبت بأنفاسه، بجانب مزهرية لونها هو مزيج من الأبيض والأزرق، تنتصب على عمود من صنيعة الملائكة، وهناك سحبته إلى غرفة تعلو المآذن التي بدت وكأنها تشير نحو الطيارات الحربية، لتصدر لها لعناتها وهي تحاول تفاديها مرة أخرى.

التقيا هناك كل يوم، في غرفة بين أحضان السماء، حيث لم تعد الطيور تحلق منذ زمن بعيد. كانا يجلسان ببساطة، وحلقت طيور العندليب والحمام، والنسور حتى الوز ذو السيقان الرمادية، على حواف البيوت وقباب المساجد، في انتظار توقف الطائرات عن ضجيجها، وأن يكنسها النسيم الذي توقف كذلك، منتظرين، منتظرين.. منتظرين جيش التحرير الشعبي أن ينظر في مكان آخر لأن الوقت تأخر، وقريبًا سيضطر معظمهم إلى الهجرة نحو الجنوب، ومن بينهم مَن سيتجه إلى وادي "كاجان"، حيث كان الرجل الطويل ذو السوالف والحزام الواقع على الأرض قد حظي بمنزله، لكن في الوقت الحالي، في أثناء انتظارهم، كان لدى تلك الطيور على الأقل ميزة مشاهدة - من منظور عين الطائر - الحبيبين اللذين التقيا كل يوم بتلك الغرفة.

أرادته أن يبقى، لكن لم يكن هذا بوسعه. أخبرها أنه لديه بضاعة للمتاجرة فيها في السهوب، لكنه وعدها أن يعود. قال لها إن فخذها ناعمة كجناح اليمامة من الداخل، ناعم كالحرير وأبيض مثله، وبالخارج تململ اليمام وأصدر هديلًا. كان يخلع ملابسه في وقت أقل من الذي يحتاج إليه والدها الشيخ ليقطع ثلث طريقه على درجات السُلم، ومع قطع الشيخ الثلث الثاني، يكون عشيقها قد حظي بما يشتهيه، ومع الثلث الأخير، يكون الاثنان قد ارتديا ملابسهما ورحلا، ومع حلول الوقت الذي

ترتفع فيه إقامة صلاة العصر من كل المساجد - حتى النداء السماوي الذي يرتفع من مئات المآذن السحرية، لم يكن بوسعه منافسة ضجيج الطائرات المقاتلة، ليس بسبب عدم المحاولة، ولكن لأن العديد من المؤذنين فقدوا أصواتهم إلى الأبد ذلك الصيف - لم يعد بالإمكان رؤية الرجل ذي السوالف، ولا الفتاة ذات الفخذين الناعمتين كالريش، في أي مكان.

والآن، بعد مرور أربعة فصول صيف، أحضر له الرجلان "الأويغوريان" ما طلبه. فتح الصندوق الذي استلقت بداخله زهرتان لا تزالان نضرتين. لم يكن الاختيار الذي واجهه سهلًا، لكنه كان يستحق تفاديه. دفع لهما بسخاء، ووقف منتويًا الرحيل. ضحكا وهما يذكرانه أنه بالرغم من أنه يفضل لو انتهى عملهم معًا، فإنه لم ينتهِ بعد، فجلس مرة أخرى.

بعدما ترك الفتاة في "قشغر" ظل عالمه يتفتح، مارس التجارة في مدن "طشقند"، و"سمرقند"، و"بخارى"، و"مالطا"، مسافرًا صعودًا عبر نهر "أوكسوس"، ومخترقًا السهوب، صانعًا صداقة مميزة مع صانعي البضائع التي يبيعها في الأسواق. كان ذلك هو أكثر مكان تتحدث له الأرض فيه، في منطقة بأطراف شمال ما يسمى الآن كازاخستان، بالرغم من أنه بالنسبة إلى البدو الذين سيقضي معهم الثلاثة فصول صيف القادمة، كانت كل آسيا الوسطى أرضًا واحدة، لم تكن مقسمة إلى ولايات، وإنما مقسمة إلى جبل، وسهب، وصحراء، وواحة. جعله بدو السهوب يشعر كأنما انتقل بالزمن إلى الخلف ليرى نفسه بالماضي، وكان هذا أغرب شعور مر به. في اليوم الأول دعوه ليكسر الخبز معهم، فشعر بالجبل الجليدي المنتصب بداخله يذوب، ليتركه عاريًا مغسولًا، ويشعر أنه على طبيعته، لا يضطر إلى وضع قناع على وجهه أو جلد يغطي جلده ليظهر بمظهر آخر. طفى على السطح الجلد الذي عاش به في الوادي بشبابه، قبل أن يضطر إلى الرحيل (لم يكن الرحيل اختياره بالكامل، وإنما الأقرب إلى الدقة هو القول إنه أُرسِل بعيدًا، طُرِد، حتى لو كان يفضل أن يفكر في الأمر بطريقة أخرى)، قبل أن يضطر إلى ارتداء آلاف الجلود والأشكال المختلفة. في السهب لم يكن متنكرًا، فقد غفل عن وضع قناعه، ولم يلبث أن وجد نفسه غير راغب في وضعه.

وجد أن البدو الأتراك شاركوه محبة غير متوقعة لمجتمعه: حب الأحصنة، وكرم الضيافة مع الزوار، وأهم شيء، معرفة كبيرة بأهمية التنقل. كان لدى الرجال لحى غزيرة، وأحبوا أن تبدو أشجارهم مثلهم، فالأشجار التي لم تسقط هي التي أعطتهم الحياة، حتى بعض احتفالاتهم كانت مماثلة. استعدوا لـ"نيروز"، أول أيام الربيع، بتنظيف منازلهم عن طريق حرق فروع نبات "العرعر"، كرمز لحرق الرذائل والخطايا الباقية من العام السابق والتخلص منها، وهو طقس يُمارس الآن في السر في "كاجان"، على يد امرأة لعقت - عندما كانت لا تزال فتاة صغيرة - العسل عن أنامله ورقصت على أنغام "الفلوت" الخاص به (هذه الذكرى تجعله يبتسم دائمًا). أحب بدو السهب الموسيقى أيضًا، وكانوا يعزفون على آلات وترية ليرقصوا عليها. شعر بالسعادة لأن "الفلوت" بحوزته. اعتادوا الغناء بكثرة مثل صلواتهم، وكانوا يتحدثون ضعف هذا. كان لديهم كهنة الشامان الخاصون بهم، وهم الذين يستطيعون

مرافقة الروح حتى تعود إلى الجسد، ويستطيعون تحديد العقوبة الملائمة لأي جريمة. ولدوا بآذان طويلة وذاكرة قديمة قدم نهر "أوكسوس"، وهو كذلك. كل ما قيل أمامه كان يبقى داخل صدره حتى يصل إلى المخيم التالي، والمدينة التالية، والوادي التالي، لكنه يبقيه بداخله، فلم يكن ينبس ببنت شفة، بل يكتفي بالاستماع، ليكون مخلصًا لكل مَن أبدو لطفهم نحوه. صارت حكاياتهم هي حكايته، وأعداؤهم هم أعداؤه. ونساؤهم، حسنًا...

لم يكد يمر على "غافور" بضعة أسابيع بعد تركه الفتاة ذات الفخذين البيضاوين كالريش، حتى كان يشرب اللبن من يدي واحدة أخرى. بدا نظام طعامهم غريبًا هنا بالأعلى، وكان أصعب شيء بالنسبة إليه هو اضطراره إلى التأقلم معه. أسوأ شيء التهمه كان طبقًا امتلأ بخيوط سميكة مصنوعة من شيء له قوام مشابه للأرز، بالرغم من أن لحم البط الذي قدم معه - مع العلم أنه لم يكن معتادًا البط أيضًا - قد جعل ابتلاعه أسهل، ثم إن لبن الفرس الذي صاحبهما جعل الأمور أسهل كذلك. لم يحلب أي حيوان - حتى ولو بقرة! - من قبل، وهو ما يمثل علامة على أنه لم يكن راعي ماشية جيدًا أبدًا، حتى عندما كان يمتهن الموضوع. لكنه ذات يوم، رأى فتاة - لم تكن خفيفة الوزن، أو ذات وجه بيضاوي، لكنها امتلكت أجمل ذراعين مستديرتين رآهما في حياته - تهبط بيديها على ضرع الفرس بادية الحمل، وأرته كيف يفعلها.

- اِضغط هكذا.

وخلال الصيف، تتبعها خلال مراعي الجبال بالطريقة نفسها التي كان يتتبع بها امرأة أخرى منذ مدة ليست بالطويلة عبر المتاهات المرصوفة بالحصى.

غطس جمهور من النسور والصقور ودار في سماء خالية من الطائرات المقاتلة. نظرت إلى أعلى من مكانها بالأسفل وسط الحشائش، وذكرت له اسمًا للرب أقدم من اسم "الله"، وهو "Tengri".

ردد الكلمة، وهو يتشرب رائحتها:

- "Tengri"!

بدأ يتحسن في نقطة خلع ملابسه، فصار يفعلها أسرع مما يتخمر اللبن الدافئ على لحمها.

- "Tengri"!

أخذت تهمس بها ثانية في أذنه. كان ذلك اللفظ يعني نصف الكرة الذي يصنع السماء اللانهائية.

كانت هناك بعض الحركات التي لا تعتبرها المرأة الحرة حرية. هذه المرة، قبل أن يتمكن من الرحيل إلى مدن الأسواق، أخبر بأن يطلب يديها، وهو ما فعله. كسب يدها، لكن قبل أن يتمكن من الزواج منها، توجب عليه أن يؤدي مهمتين إضافيتين. أولاهما كانت تجميع منزلهما، ومنزل "اليورت" الذي يتخذه أولئك القوم منزلًا أكثر

فخامةٍ من خيام "الجورجار" ومقدسًا تمامًا. كان بيتًا خشبيًّا متنقلًا بهيكل تقليدي ومحاطًا بإطار من الخشب المقوس، بدا كنسخة عن السماء اللانهائية وفكرة تجميعه كانت بمنزلة نوع من الخلق، أرادت عروسه المنتظرة أن تتأكد أنه يستطيع الخلق. بعد العديد من المحاولات، نجح، أخبرته أن منزل "اليورت" فاخر من كل جوانبه، كل جزء فيه يمثل جزءًا من الجسد البشري! كانت الجدران هي الأفخاذ، وفتحة خروج الدخان هي العين، أما الإطار الشبكي الداخلي ذو الألواح المضلعة الذي كان ينظر نحوه كل ليلة وهو راقد أسفلها، فهو الرحم. المهمة الثانية لم تكن مقدسة، لكنه لم يكتشف هذا إلا فيما بعد، وهو ما أسعدها، عندما لم تصبح شرطًا واجب التنفيذ قبل زواجهما.

كانت مجرد لعبة ينتظر فيها على نتوء رملي ممتطيًا حصانًا حتى تصل هي إليه راكبة، وهنا يستطيع مطاردتها، لو تمكن من اللحاق بها يصبح بوسعه تقبيلها. أما لو فشل، فبوسعها أن تجلده بالسوط! كان اسم تلك اللعبة الغريبة هو "لعبة التقبيل". لم يفز بها أبدًا، حتى أخذتها به الشفقة وتزوجته.

كان يعود إلى منزلهما وإلى ألعابهما، مهما كان المكان الذي ذهب إليه، ومهما كانت المدة طويلة. كان بوسعها حياكة أفضل أنواع السجاد التي يمكن أن يراها الإنسان في حياته، وهي مهارة تجري في دمائها منذ أجيال أكثر مما بوسعه العد، وكان يستطيع بيع تلك السجاجيد بأسعار جيدة للغاية، لتبقى عائلتها في مستوى معيشة جيد. لم يعد في حاجة إلى العودة إلى باكستان كل مدة ليحضر الجلود أو البضائع الأخرى، ولم يعد يجد فائدة للأحجار الكريمة.

لكن مؤخرًا، كان هناك ما يسحبه، شيء لم يوجد منذ مدة. بدأت راحة منزل "اليورت" الخاص به توجعه، ولم يعد طعم البط لذيذًا، كما بدا طعم لبن الفرس لاذعًا بالمقارنة مع لبن البقر، والحقيقة أنه بالرغم من أن "لعبة التقبيل" كانت تمتعها هي، فإنها كانت ترهقه هو، فربما حان وقت زيارة الديار. لهذا أرسل الريشة الزرقاء إلى الفتاة من الوادي الذي قضى فيه شبابه، مبتسمًا لنفسه عندما تذكر اندهاشها في أول مرة ترك لها فيها علامة داخل الكهف؛ كهفهما، وأرسل رسائل إلى كل مَن صادفوه في طريقه كتاجر متجول، وهي شبكة طويلة للغاية من الشركاء القادمين من أوزبكستان، وطاجيكستان، وأفغانستان، و"الأويغور"؛ رجال ذوي آذان طويلة للغاية وذاكرة متسعة كنهر "إيلي" الذي يطفو من كازاخستان وحتى "سنجان". أخبرهم عن حاجته إلى شيء نادر للغاية، لكي يهديه إلى شخص من ماضيه، بشرط أن يكون شيئًا لم يفكر أحد في مهاداته إلى آخر من قبل، وأن يكون أفضل وأجمل مفاجأة يستطيعون التفكير فيها، وأقلها عمرًا، فهو لن يبقى طويلًا في باكستان، ويجب أن يكون عمر الهدية بعمر زيارته، لكنها يجب أن تتصف في الوقت نفسه بكونها متألقة، وناعمة كالحرير، وجميلة بشكل استثنائي. باختصار، يجب أن تكون شيئًا نادرًا.

رحل بعد هذا، وفي النهاية نزل من أرض المراعي المفتوحة في السهوب حتى وصل إلى مدينة "ألماتي"، أكبر مدن كازاخستان، ومن هناك اتجه إلى "بيشكك"، ثم توجه غربًا نحو مدينة "طشقند" - ذات مرة، أخبرها أن كهفهما يقود إلى الطريق

الذي يؤدي إلى "طشقند"، حيث ازدهرت تجارته - مكررًا ما طلبه من قبل، وكانت الإجابة دائمًا هي نفسها، لا، لم يعثروا على أي شيء نادر، لكنهم ظلوا يبحثون. كانوا في شهر يوليو، وهو الوقت الذي يترك فيه البدو في كل أنحاء آسيا بيوتهم الشتوية ليتجهوا إلى مراعيهم الصيفية، وعرف أن الشيء نفسه سيحدث مع "مريم" وعائلتها. "مريم"! لم ينطق اسمها منذ وقت طويل. كانت تحب ذلك الوقت من السنة، لأنها تبتعد عن مراعي السهول، بالأعلى في الأراضي الخضراء حول بحيرة "سيف الملوك". ربما كانت تفكر فيه في تلك اللحظة بالذات، وربما افتقدت أغنيته التي تتحدث عن الأمير، والأميرة، والجني الغيور!

انحدر نازلًا من "طشقند" نحو وادي "فرجانة"، وها هو قد اقترب الآن. كان يقترب من الممرات التي تقطع جبال "بامير" وسلسلة "قَراقُرم" الجبلية التي عرفها جيدًا للغاية، لدرجة أن بوسعه الرحيل في أثناء نومه، وربما فعلها فعلًا، لكن هناك حدث واحد توجب أن يكون متيقظًا للغاية في أثنائه.

وهو الحدث الذي حذر أولئك الرجال.

حدث ذلك في مدينة أوزباكستانية تدعى "أنديجان"، حيث توقف يومًا واحدًا فقط، وهي المدينة نفسها التي أحرقها "جنكيز خان" منذ مئات السنين، والتي أعاد حفيده فيما بعد بناءها، وهي المدينة التي شهدت ولادة أشهر سليل لـ"جنكيز خان"، وهو الإمبراطور "بابر"، مؤسس الدولة المغولية، المدينة التي يعيش فيها أغنى عملائه الآن.

رتب "غافور" مقابلة مع عميله في ميدان "بابر". تعرف الرجل في أثناء اقترابه من الميدان، لكن الرجل لم يكن بمفرده، بل بصحبته رجل من "الأويغور" من "سنجان"! منذ رحل "غافور" عن "قشغر" منذ أربعة فصول صيف، وفي غمرة تعجله، كان يتفادى المجتمع "الأويغوري" بقدر ما يستطيع، وهو ما لم يكن دائمًا خيارًا متاحًا نظرًا إلى طبيعة عمله. كانت الإستراتيجية التي اتبعها هي أن يتقرب من "القشغريين" تحديدًا، من جانب لم يحب أن يُعرَّف بصفته تاجرًا أجنبيًّا نقض عهده مع فتاة محلية، فعواقب هذا الموضوع، حسنًا، كيف يتصرفون في تلك المواقف في "كاجان"؟ لكن في ذلك اليوم، ربما كان حماسه لاقترابه من الممرات الجبلية المألوفة بالنسبة إليه، أو ربما كانت الطريقة التي تتساقط بها أشعة الشمس على تمثال حصان "بابر"، أيًّا كان السبب، عندما حيًّا الرجلان "غافور"، بدا عليهما ما يكفي من لطف، واسترخى هو.

فحص الأوزبكستاني السجاد الذي أحضره "غافور"، وهو يومئ برأسه راضيًا في أثناء إطلاق وعوده:

- بإذن الله سنعثر على بيعة مناسبة.

عندما دعاه الرجلان إلى تناول الغداء في مقهى مزدحم، قبِل دعوتهما، وهو الأمر الذي ندم عليه على الفور تقريبًا!

سأله الرجل "الأويغوري"، والذي اتضح أنه من "قشغر":

- كيف تبدو النساء هناك في السهوب؟

أجاب "غافور" وهو يغترف بأصابعه من طبق "البالوف" الموجود أمامه:

- حسنًا، النساء لا بأس بهن.

عند الطاولة المجاورة لهم، سمع رجل أوروبي يدعو طبق الأرز باسم "بيلاف"، وأطلق "القشغري" الجالس إلى طاولته عليه اسم "بولو"، في حين أنه في باكستان كان يسمعهم يدعونه "بيلاو". كان به الكثير من قطع اللحم، ومزينًا بالأعشاب أكثر من البهارات، وبالرغم من أنه اعتاد الاختلاف، فقد كان يأكل بلسانين، واحد منهما يؤدي كل العمل، والآخر يحلم بالنكهات التي لا يلمسها. استطرد الأول الذي فضَّل أن يكتفي باحتساء بعض الشاي دون سكر أو حليب ومن دون أن يطلب طعامًا:

- أأنت متزوج من مسلمة؟

- بلى.

تحرك في كرسيه، فقد كان يعرف أن المسلمين القادمين من المنخفض روحانيين للغاية في نظر مسلمي البلدة، في حين أن مسلمي البلدة متشددون للغاية في نظر السوفييت والصينيين.

سأل الرجل وهو يشعل الغليون الخاص به.

- كم زوجة؟

أجابه "غافور"، وهو يلعق ملعقة اغترف بها بعض الزبادي، ويفكر في أنهم يفضلون الزبادي لاذعًا بهذا المكان:

- واحدة.

خيَّم عليهم صمت متعمَّد، كشعلة غليونه التي احترقت ببطء. طلب الرجل الآخر زجاجة من "الفودكا"، وعندما وصلت، بدأ يتكلم. تحدث عن مذبحة "أنديجان" التي حدثت منذ شهرين، إذ أطلقت الشرطة النار على زحام من الرجال والسيدات والأطفال، كانوا مجتمعين في ميدان "بابر"، احتجاجًا على القبض على العديد من رجال الأعمال، الميدان نفسه الذي حارب فيه أسلافهم القوات الروسية. لم يكونوا مستعدين للرضوخ للرئيس الذي تصرف كقيصر من القرن الواحد والعشرين، خرج أكثر من 10000 شخص لمساندة السجناء، أغلق الجيش الأوزباكستاني كل الطرق التي تؤدي إلى ميدان "بابر"، بسيارات وشاحنات مسلحة.

قال الأوزباكستاني:

- أصيب الجميع بالهلع! سمعنا صليل النصال المعدنية فوق رؤوسنا، وفي اللحظة نفسها التي نظرت فيها إلى أعلى، بدأ إطلاق النار! كأننا عدنا إلى عام 1898 ثانية، لكنهم الآن صاروا يطلقون علينا النيران من السماء. وجدنا القبور فيما بعد؛ قبورًا حديثة؛ آلافًا منهم، حتى الأطفال!

استمع الرجل "الأويغوري"، وعندما انتهى الأوزباكستاني من حديثه، بدأ هو يتحدث، فحكى عن سكان "قشغر" الأصليين الذين أجبِروا على ترك مدينتهم في أثناء تخطيط الصين لجعل "قشغر" حصنًا منيعًا. وضعت الصين المزيد من المنظمات "الأويغورية" على قائمة الإرهاب، وحاولت إقناع المجتمع الدولي بفعل الشيء نفسه، بل إن الأمور وصلت إلى أن يكون بعض "الأويغوريين" في خليج "جوانتانامو"، بعدما سلمتهم باكستان لأمريكا. حكى الرجلان حكايات عديدة عن الظلم حتى بعدما انزلقت الشمس عن تمثال حصان "بابر" بكثير، وأخيرًا اختتم الأوزباكستاني الحديث قائلًا:

- كنا نظن أنفسنا أحرارًا، لكن الآن، حتى رئيسنا صار يعمل ضدنا، فيسجن الأقوياء، ويطلق النار على الضعفاء!

وعند هذه النقطة، التفت "الأويغوري" لـ"غافور" (وهو ما جعله يتساءل لاحقًا أكانت كل تفصيلة في تلك الأمسية جرى التدرب على أدائها من قبل).

- دولتك تصنع الشيء نفسه، وإلا لماذا تقيم صداقات مع دولة الصين؟ لماذا تسمح للصين ببناء الطرق السريعة والموانئ وسط أراضي شعبها؟ أتظن هذا سيجعل الرجال أمثالك أغنياء؟

توقف "غافور" عن التهام الطعام منذ بعض الوقت، وتناول "الفودكا" كاملة.

لم يعرف كيف يشرح أنه مرت عليه مدة طويلة للغاية منذ شعر بأن له وطنًا! ربما كانت آخر مرة كانت قبل أن تنبت ولو شعرة واحدة على خده. حاول أن يحارب من أجل ذلك البلد الذي لم يكن بلده، وكأنه لو حارب من أجله ربما يستحق أن ينتمي إليه، لكن هذا لم يتسبب إلا في جعل قومه يطلبون منه الرحيل. صار الآن ينتمي إلى السهوب، حتى لو كان لا يزال يحمل ماضيه على عاتقه.

قال "الأويغوري" وهو يطلب كوبًا جديدًا من الشاي:

- الرعاة أمثالنا مصيرهم مختلف، ربما كنا نرتدي ملابس أفضل من أولئك الذين يقضون حياتهم باحثين عن حقل يرحب بهم، لكننا لن نتوقف عن التجوال، أليس كذلك؟ حتى لو كان لدينا التزام يجبرنا على البقاء.

نفث الكلمات الأخيرة، وغليونه يتدلى من بين أسنانه، وعلى مسافة خارج المقهى، لم يعد "غافور" يستطيع رؤية تمثال "بابر" على حصانه إلا بصعوبة. كان مستعدًّا لفعل أي شيء مقابل أن يمتطي حصانًا في تلك اللحظة، أو يصبح مع زوجته، بوسعه أن يبتعد معها على الحصان، وبوسعهما لعب "لعبة التقبيل".

- لمَ لا تقول أي شيء يا صديقي؟ يجب أن تعرف أنه حيثما يذهب الرجال أمثالنا، نُعامَل بالطريقة نفسها. رجال الأعمال "الأويغوريين"، مربي الجِمال الكازاخستانيين، أو رعاة الماشية "الجورجاريين"؛ كلهم يعاملونا بالطريقة نفسها.

- ألا يتحدث قومك عن هذا؟ ألا يذكرون الرجال الذين يمرون عبر أراضيهم كما لو كانوا يملكونها؟ ويأخذون كل ما يرغبون فيه، دون دفع أي مقابل، حتى لو أخذوا

نساءهم!

ضحك الأوزباكستاني ثم قال:

- يكفي هذا! اليوم على وشك النهاية والنجوم بدأت تظهر!

التقط السجاد ورمى بضع وريقات مالية على الطاولة، ثم رحل. ربت "الأويغوري" على ظهر "غافور" قائلًا:

- ستساعدنا.

ولم يكن سؤالًا هذه المرة.

تلقى "غافور" رسالة في اليوم التالي. الشيء الذي كان يبحث عنه، والذي يجب أن يكون نادرًا للغاية، المفاجأة التي لم يفكر أحد قبله في إعطائها - كيف وصف لهم طلبه؟ نعم، أجمل شيء ممكن بشرط أن يكون عمره قصيرًا - سيكون بانتظاره في الأسبوع القادم في "جلجت"، بشمال باكستان.

قبل رحيله عن "أنديجان"، رأى شيئًا يلمع خلف شبح تمثال حصان "بابر"، بدا براقًا أكثر حتى من ضوء القمر نفسه، ولهذا توجب عليه أن يتتبعه، ليجده رداءً فضيًّا من القماش التف حول كتفي امرأة ترتدي تنورة ذات ألوان مبهجة، كانت المرأة ذات ردفين كبيرتين، جذباه لذلك الجزء من مسرح "بابر" الذي لا يزال راقدًا وقد احترق وسط أحداث الشغب التي حدثت منذ شهرين. أوقد أحدهم النار قبل أن يطلق الجيش النيران على المحتجين، دون أن يعرف أحد مَن، أو لماذا. بدا المسرح أسود متهاويًا، ولم يعد اليمام يتحرك، يبني أعشاشه، أو ينتظر هنا، أو حتى صارت الصقور ترسم حركاتها البهلوانية وسط السماء اللانهائية، فهنا لا توجد سماء، وإنما مجرد جدران محطمة وستائر مقطعة وأعقاب سجائر مستعملة. كانت المرأة أكبر سنًّا مما يظن، وتفتقد بعضًا من أسنانها، لماذا تبعها من الأصل؟ ربما لأنه تمنى أن يجد نفسه أسرع في خلع ملابسه عن سرعة تحول الرماد أسفلهم إلى تراب.

حمل الصندوق بيديه، زهرتان لا تزالان نضرتين، كذاكرة من أحضرهما.

- إنهما ما رغبت فيه. نادرتان، متألقتان، جميلتان. وستظلان حيتين بقدر ما تمكث أنت هنا فقط، قبل أن تذويا.

هذا ما قاله له الرجل الذي لا يملك أصابع أقدام لكن يملك كل أصابع يديه، كان شقيق الرجل الذي أعدِم منذ أربعة أعوام لأن باكستان سلمته، أما الرجل الذي لا يملك أصابع أقدام ولا يملك إلا بضع أصابع بيده فهو شقيق الفتاة التي غرر بها "غافور"!

تناسب حجم الصندوق مع يد "غافور"، من الرسغ حتى الإصبع الوسطى. كان مربوطًا برباط مزدوج، ومقسمًا بلوح خشبي سميك. استلقت الزهرتان على القمة، فوق وسادة بيضاء من الساتان، ومن تحت اللوح الخشبي، تسللت تيارات من مواد التغليف، لكنهم طلبوا منه ألا يتوغل ببصره أكثر من هذا ويكتفي بحمله. ستكون

هناك توصيلات أخرى - تبادل الرجلان النظرات - وبعدها يجب أن يعود هنا حاملًا بعض الأخبار لهما.

تسمر "غافور" في مكانه. لم يكونا بمفردهما في المقهى، صحيح أن معظم نسيج المجتمع الباكستاني ينتمي إلى المذهب الشيعي، لكن حتى أولئك الذين ينتمون إلى المذهب السني كانوا يجعلونه يتوتر؛ كلهم ينطقون كلمة "جورجاريين" بازدراء، كان هناك بعض "الكشميريين" هنا كذلك، بعضهم لديهم بعض الحكايات الكريهة عن السجون الهندية.

نادرًا ما أهانه "الكشميريون". بالخارج، انطلقت العربات العسكرية في دوريات على الطرق الطينية. فكر في أنه لو تسبب الرجلان الذين أحضرا الصندوق في المتاعب له، في بلد آخر ربما، فربما يكون بوسع الرجال الذين يرتدون الزي الرسمي المساعدة، ثم تذكر الاستعراض الحربي في "قشغر"، والمذبحة التي فعلها الجيش الأوزباكستاني ضد المدنيين في "أنديجان"، وتوصل إلى أنه ليس لديه مكان ليهرب إليه. استطاع أن يسمع مَن يتحدث باللغة التركمانستانية على بعد عدة طاولات، وتمكن من التقاط لفظ "سيهينيم"، ويعني "الجحيم"، أو "جهنم" باللغة الأردية. بماذا تدعى يا ترى باللغة الجويجرية؟ هل يهم هذا حقًّا؟ فهي لم تعد لغته بعد الآن. لن يتفق سوفييتي عملًا مستخدمًا لغة "غافور" الأم، لكن مع بعض التفكير، هل هناك من يمكن أن يفعلها؟

طلب الرجلان الطعام الذي وصل الآن، وكان إناء كبيرًا من لحم الخراف بالبهارات، بالطريقة التي كان مستعدًّا أن يضحي بعمره ليتناولها منذ أسبوع مثلًا، ومعها طبق "بيلاو" مع الفاصوليا - فاصوليا ذات حجم أصغر من تلك الموجودة بالسهوب، لكن مذاقها أفضل كثيرًا - ومعها كباب مشوي على أسياخ معدنية وليس على شوايات دوارة. كان الخط الذي كتبت به الأخبار في الجريدة التي التفت حول خبز "النان" مألوفًا بشكل غريب، بدا لعينيه مثل الكتابة "الكِريلية".

كان بوسع زوجته قراءتها وحاولت تعليمه كيف يفعلها هو الآخر، لكنه فشل فيها بمقدار ما فشل في "لعبة التقبيل". لم يتوقع رؤية الكتابة "الكِريلية" في باكستان. لكن لم يعد شيء قادرًا على إثارة دهشته الآن. ماذا قال ذلك "الأويغوري" في "أنديجان"؟ "الرعاة لهم مصير مختلف للغاية. ربما كنا نرتدي ملابس أفضل من أولئك الذين يقضون حيواتهم باحثين عن حقل يرحب بهم، لكننا لن نتوقف عن التجوال".

لماذا تكون كل بلدة جبلية هي أكثر الأماكن وحشة في العالم؟ كل الموجودين هنا مرعوبون. كل شخص يحارب، وبدوا جميعهم بمنزلة زهرة تعبر منطقة خطر.

مدح الرجلان الطعام، لكنهما أصرا على أن مذاق الكباب بوطنهم أفضل. حاولا أن يقولا مزحة:

- ماذا كان أول شيء رآه "نيل أرمسترونج" عندما حط على القمر؟

فكر "غافور": "لا، ليست هذه النكتة السخيفة مرة أخرى!".

- اثنان من "الأويغوريين" اللذين حاولا بيع بعض الكباب المشوي له!

لم تكن حتى مضحكة، فلماذا إذًا يرددون تلك المزحة بتلك الكثرة؟ في لحظة من التحدي دفع الصندوق نحوهما.

- يجب أن أعرف ماذا يوجد داخله قبل أن أوافق على حمله!

لكن الرجلان رفضا إخباره.

- أخشى إذًا أنني سأضطر إلى الرفض!

- نعرف أنك فعلت ما هو أسوأ، وأن على عاتقك أعمالًا غير منتهية!

هل كان على وشك مقايضة حياته مقابل زهرتين؟ أضافا:

- ويجب أن تعرف أننا أيضًا قادرون على فعل ما هو أسوأ!

هل هما جادان؟ دون أن يكون لديهما يدان أو قدمان؟ كان "غافور" على وشك أن يتسرع ويقول هذا، لكنه تسمر مكانه، فقد لاحظ أن الرجل الذي يفتقر إلى الإبهام والإصبع اليمنى يستطيع أن يغترف الطعام بين شفتيه بشكل جيد للغاية، دون أن تقطر ولو نقطة دهن واحدة على الكفين المصنوعين من الجلد البني الناعم. في حين أخذ "غافور" يرمق هاتين اليدين، زارته ذكرى لم تزره قبلًا، كيف عاشت تلك الذكرى داخله طيلة هذه المدة؟ كانت ذكرى عن شقيق "مريم" واسمه "عادل"، والذي كان أقرب أصدقائه في وقت ما. وقف الصبيان عند حافة بحيرة "سيف الملوك"، يتحدثان عن "مريم" دون أن يتحدثا عنها حقًّا. كان "غافور" مرعوبًا من أن يفقد صديقه لو اعترف أنه يطاردها عن طريق الموسيقى والعسل، لهذا تحدثا عن الموسيقى دون أن يتناولا العسل بحديثهما. كان شقيقها يدق الطبل، في حين يلعب "غافور" على آلة "الفلوت" الخاصة به، وبينما كان كلاهما لا يعطي انتباهه إلا لرفيقه، وصلت "مريم" وهي تسير في حذر، ووقفت في خجل خلف شجرة.

حلقت فراشة بين ثلاثتهم، فبدت كطائر أصفر رفيع يطلق جناحين متعرجين التمعت على حافتيهما الكثير من النقاط الأرجوانية اللامعة. تتبعتها "مريم" بعينيها طيلة الوقت الذي ظل فيه الصبيان يعزفان الموسيقى. عندما حطت الفراشة على كتفها، ضحكت، وهي تربت عليها بخفة بإبهامها. توقف شقيقها عن العزف وطلب منها الرحيل، ففعلت، فحلقت الفراشة مبتعدة. وضع "غافور" آلة "الفلوت" الخاصة به جانبًا وسار إلى أسفل نحو مجموعة الخيام التي ينتمي إليها، لم يرغب في أن يظهر هذا على محياه، لكنه لم يحب الطريقة التي صرفها بها "عادل". كان ينزل التل عندما لحق به الشقيق وهو يجري، وقد أغلق يديه على شيء ما، وقف الصبيان أمام بعضهما بعضًا لحظة، قبل أن يفتح "عادل" يديه فتحة صغيرة، في حين مال "غافور" إلى الأمام ليجد الفراشة وهي تنبض بالداخل، مد يديه بتلقائية، ثم بدأ يشعر بالجناحين وهما يخفقان بين أنامله.

وقف الصبيان مكانهما مدة طويلة، يدا الشقيق داخل يديَّ الصديق، وكأنما قد عُقدت بينهما اتفاقية صامتة: كأن الشقيق يمررها له، لكن ماذا فعل هو بالمقابل؟

كانت الزهرتان اللتان رقدتا داخل الصندوق تحملان درجة لون الفراشة الأصفر نفسها، بامتداد الجناح نفسه ولمعانه نفسه. أغلق الرجل ذا الكفين الجلديين قِفل الصندوق، وأغلق نصف قبضته حوله. مد راحتيه نحو "غافور" الذي احتواهما بين راحتيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

القسم الرابع
حقائق رَحِبة

بدأت أشعر بتحسن طفيف.

وجدت نفسي أرمق الخيام كثيرًا، في حين كنا نستعد للرحيل. لاحظت كم هي رثة بالية، وقد غطت كل واحدة منها شراشف رفيعة سوداء مثبتة مكانها ببعض العصي. رفرفت الشراشف مع النسيم، وكان واضحًا أنها خفيفة لدرجة تسريب المياه لو حدث وتساقطت الأمطار.

بالرغم من أنني رغبت في إلقاء نظرة على والدة الفتاة، فإنني خشيت فعلها؛ كانت صغيرة السن، أصغر مني، وربما أصغر من "فرحانة" كذلك، لا بدَّ من أنها أنجبت طفلها الأول - الصبي ذو الشعر المموج الذي جلب لنا العسل - في بداية مراهقتها، بدا وجهها شديد الشراسة والكبرياء. أردت أن أتحدث معها، دون أن أعرف ما الذي أريد قوله على وجه التحديد، لكنني شعرت بضعف داخلي لفعل أي شيء عدا استرجاع النظرة الغاضبة التي وجهتها نحوي مرتين، أول مرة حينما توجهنا صوب البحيرة مع ابنتها "كيران"، والثانية حينما عثرت على الجسد أولًا، كانت بالضبط الطريقة التي رغبت في أن ينظروا بها إليَّ؛ كأنها تقول: "عليك اللعنة!" رغبت في سماعها تقال بصوتها، ثم أردتها أن تحب وجودي.

في وقت مبكر من هذا اليوم، بعد عودتي من المكان حيث كان الجسد إلى خيمتي، بحثت عن "عرفان"، حتى وجدته نائمًا عند قاعدة التل حيث اتكأنا معًا لنلتهم ثمار الكمثرى التي غمسناها في العسل. على الأرجح لم ينم كثيرًا، وكان الوقت لا يزال مبكرًا، لكنني أيقظته على أي حال. أخبرته أنه يجب أن يذهب إلى العائلة ليقول لهم إنني أعبر عن أسفي لهم؛ دفعني بخشونة كأنه يلكمني.

- مسامحتك هي آخر ما يمكن أن يخطر على بالهم يا أبله.

وهو الوصف الذي أردت أن أُنادى به. لم أستطع تحمل النظر إلى "فرحانة"، ولا هي استطاعت أن تنظر نحوي. بدأنا نستقر على الإيقاع المحتمل لتفادي بعضنا بعضًا. بدأنا جمع متاعنا، فأخيرًا، وبعد أيام من الصدمة التي لا يمكن وصفها، صار لدينا ما نفعله. شغلنا أنفسنا بطي خيمة "عرفان".

- دعني أفعلها!

قالتها وهي تختطفها من أمامي، وتنظر بعيدًا، فسحبتُ حقيبتي النوم الخاصين بـ"عرفان" وأغلقتُ سحَّابهما قائلًا:

- إذًا دعيني أنا أفعل هذا!

ثم تأكدنا من أن مكان المخيم كان نظيفًا (تحرك كلانا، فأخذنا نجمع قشور الفاكهة والقمامة الوهمية). انشغلنا بهذا العمل، متظاهرين بالنشاط، مستمرين في التحرك هنا وهناك استعدادًا للابتعاد، لكن إلى أي وجهة؟ علمت أننا سنضطر إلى الاتجاه

إلى النهر الجليدي لنعود إلى كوخنا، لنكمل جمع متاعنا من هناك والاستمرار في طريقنا، إلى الشمال أم إلى الجنوب؟ كان السؤال ما ينفك يزداد وطئًا. ظلت العديد من الأسئلة تزداد ثقلًا. انتظرنا أن يتخذ أحدنا القرار، أي قرار، وكل منا يرمي الآخر بنظرات مختلسة عندما يظن كل واحد منا أن الآخر لا ينظر نحوه.

كان هناك شيء واحد واضح؛ شواطئ البحيرة قد أمست صغيرة للغاية. تأخُّرنا جعل الجبال تنسحب مقتربة، فظهرت بالأفق تحذرنا من أنه أينما سنذهب، بوسعها أن تتبعنا. أما القبائل فكانت هي الأخرى تحتقرنا لكن بشكل أقل سرية؛ طبعًا يريدوننا أن نرحل، لكنهم لن يصرحوا بهذا، على الأقل ليس لنا، على الرغم من أنني عرفت فيما بعد أنهم قالوها لـ"عرفان"، وهذا ما اضطره إلى أن يطلب منهم، بكثير من الاشمئزاز من جانبه، أن يمنحونا بعض الوقت لأسترد عافيتي.

- كما لو لم تكن أنت و"فرحانة" قد استغللتما كرم ضيافتهم بما فيه الكفاية.

بينما كنا نجمع متاعنا في آخر يوم، اكتشفنا أنه لم يتبقَّ شيء لجمعه، لكننا استمررنا في التحرك بأرجاء المكان. شعرنا كأن تلك الحركة مفتاح لسلامتنا النفسي. التقى "عرفان" بوالد "كيران"، وتحدثا معًا بنبرات خفيضة سريعة، لم يكن بوسعي تخيل أي كلمات سيتمكن "عرفان" من قولها. عيون خضراء! كان هذا هو كل ما يجول بخاطري؛ عيون تبدو كحبات عنب ضخمة، وقميص الأم الذي تطاير مع النسيم، ونظرتها الغاضبة، وشعرها المجدول! كانت صغيرة للغاية! يد الرضيع البنية على العنق الأزرق البارد. عرفت "كيران" أنني لم أرغب في وجودها هناك، بالقارب.

- "كولا"!

قالتها وهي تتحداني أن أبدي اهتمامًا، لتعرفني أنني أجعلها تشعر بأنها دخيلة. بشكل ما، تمكنت من استجماع شجاعتي لأنضم إلى "عرفان".

مال والد "كيران" برأسه التي التفت حولها عمامة بيضاء، وقد ضم يديه خلف ظهره عندما رآني. كان ذا عينين بنيتين صغيرتين، وسلوكه لطيفًا، لم يبدُ عليه الغضب أو القسوة، لكن بدا عليه أنه مستنزف بالكامل، فقومهم كذلك راحلون عن المكان لدفن "كيران" في السهول بالأسفل. كانوا قد هاجروا إلى وادي "كاجان" الشمالي مع ماشيتهم في أبريل، منتوين البقاء طيلة الصيف قبل العودة إلى الأراضي المنخفضة، حيث يعيش أولئك الذين اختاروا حياة أكثر استقرارًا تعتمد على جمع الذرة، والبطاطس، والفول. هذه هي الطريقة التي سارت بها الأمور لقرون، تحتاج ماشيتهم لترعى في هذه التلال قبل العودة إلى السهول لتتحمل شتاءً طويلًا غير رحيم. لكنهم اضطروا إلى قطع نظامهم هذا لإعادة "كيران" إلى بيتها الأقل استقرارًا بالقرب من "بالاكوت"، حيث وُلدت، غالبًا مثل والدها "سليمان"، ووالدتها "مريم"، وشقيقيها الاثنين، وهذا ما يعني أن الماشية ستتضور جوعًا في أثناء الشتاء، أو - وهو شيء لا يقل سوءًا - أنهم سيضطرون إلى قضاء المدة المتبقية من الصيف في العبور إلى الحقول التي بلا أسوار، وهذا ما سيجعل العائلة معرضة لدفع غرامات مكلفة، وربما يصل الأمر بدفع غرامات إلى السلطات نفسها! لكن "كيران" يجب أن تظفر بالراحة.

تضمنت التمتمات السريعة المتبادلة بين "عرفان" و"سليمان" الحديث عن النقود. لم أفهم تمتمات "سليمان"، لكن بضعًا من تمتمات "عرفان" لاقت صدى بأذني، فقد التقطت كلمات بلغة "الأوردو" مختلطة بكلمات هي مزيج من "الهندوكو" و"الجويجري" اللتين كان يستخدمهما بنجاح منذ وصلنا، بل وسمعت كذلك بعض الكلمات الإنجليزية في لحظة ما، مثل كلمات "محصول"، و"بما فيه الكفاية". هنا شعرت بمعدتي تتقلص! هل فهمت "كيران" الكلمات التي تبادلتها مع "فرحانة" بالإنجليزية على القارب؟ لقد قضت ستة مواسم صيف هنا، قرب زوار للبحيرة الذين يتحدثون الإنجليزية مثلنا، فماذا سمعت؟ لا، لقد كنا نتحدث بشفرة خاصة بنا، فلا يمكن أن تكون قد فهمتنا، حتى لو كنا نتحدث بلغتها الأم.

قال "عرفان" شيئًا بخصوص عدم القدرة على التعويض بما فيه الكفاية. كان مسلمًا، وكان يعرف جيدًا أن النقود لا يمكنها أن تعوض خسارتهم. الله يرى كل شيء، وبالتأكيد يعرف أنهم قريبًا سيجوعون لو نفذوا اقتراحًا آخر، فالحقيقة هي أن العائلة ستعاني بشكل أسوأ في الأعوام القادمة لو ماتت ماشيتهم أو لو استولت عليهم الحكومة، ثم إن الزوجين لا يزال لديهما طفلان لإطعامهما!

فهمت ما يكفي من رد "سليمان" لأدرك أنه يصر على أن الله سيهديهم إلى الطريق الأصلح، وأنه لو ساءت الأمور فالقبائل المجاورة ستساعدهم، وهو التعليق الذي رد عليه "عرفان" بأن المجتمع مصدر كبير للقوى، بإذن الله، لكن لا يوجد ضرر من تقبل المساعدة منه، فـ"عرفان" لم يعد غريبًا عن تلك الأراضي. فخلال السنين العدَّة التي قضاها "عرفان" هنا، لطالما احترم الوادي وأحبه هو والمقيمون به، وهذا ما عرفه "سليمان". تهدج صوت "عرفان"، وهو ما رد عليه "سليمان" ببصقة، فجعل "عرفان" يلتفت إليَّ وقد احمرَّ وجهه من الغضب.

- ألا تخجل من نفسك؟ اتركنا!

تساءلت وهلة قصيرة لماذا لم يتسلل أحدهم إلى خيمتنا منذ الليلة الأولى ليقتلني، أو يقتل "فرحانة"، أو يقتل كلينا!

عزف شقيقها على "الفلوت"، وحفرت شقيقتها بين التراب بعصا وهي تؤرجح رأسها من جهة إلى أخرى، انضم إليهما صبي من خيمة أخرى، متابعًا النغمات بدقاته على الطبلة، لم يكن معه إلا طبلة اليد اليسرى التي تستخدم كخلفية للنغمات، أما طبلة اليد اليمنى التي تخص الفتاة - والتي تفرض النغمات - فكانت مفقودة.

قاع طبلته اليسرى كان مصنوعًا من جلد الماعز، فصدرت عنها دقات عميقة ومجوفة، كصوت ابتلاع أو كصوت غرق، أو كعودة إلى أعماق المياه. نفخ الأخ في "الفلوت" المصنوعة من أعواد البامبو كما لو كان يصلي. مالت الأخت، كانت أغنية شديدة الجمال عامرة بالأمل والوداع الأبدي، لدرجة أنني حنيت رأسي وبكيت. عاد السائحون إلى المكان، منهم بيض البشرة ومنهم ذوو البشرة الداكنة، وأخذوا يصورون هنا وهناك، وكنا سائرين فوق النهر الجليدي، عائدين إلى كوخنا، احتد "عرفان" قائلًا:

- لو أن هذا حدث بأمريكا، لكنت دخلت السجن. لو أن هذا حدث لطفل واحد من الأثرياء لحاوطك الخطر، كما ستحاصرك الديون!

لهذا إذًا أبقوا على حياتنا، لأن الرعاة غير محبوبين في هذا الوادي، فقد كانوا يعتبرونهم غرباء، والآن صرنا مثلهم غير محبوبين!

بصعوبة لاحظت "ويس" و"فرحانة" وهما يسيران معًا، أو سيارات "الچيب" وهي تمر بجانبنا، أو لو كانوا أزالوا الحافلة التي سقطت في النهر في اليوم السابق لصعودنا. لاحظت زجاجات "كوكا كولا" مكسورة، وأغلفة علب بسكويت، وأغطية زجاجات بلاستيكية.

لم أسأل "عرفان" كيف انتهت المحادثة بينه وبين "سليمان"، ولا سألت أكانت النقود التي عرضها قد قُبلت، ولا استفسرت عن بصقة "سليمان"، وهل كان يقصد البصق عليَّ، أم البصق في الاتجاه الآخر، ولم أسأل عن مدى الدمار الذي تسببت فيه تلك الحادثة في علاقة "عرفان" مع الوادي والمجتمعات التي قضى الكثير من الوقت فيها يحضر المياه النظيفة إلى قراهم.

يا للأسف، أجيب عن السؤال الذي قضى معظم حياته العملية يسأله - هل يحتاجونه فعلًا؟ - بشكل لم يتوقعه. كنت أعرف "عرفان" جيدًا، وأعرف أنه ولا بدَّ يلوم نفسه، فلم أجرؤ على التحدث معه. لكم من سنين قضاها في المفاوضات الدقيقة ليبني جدارًا صلبًا من الثقة، لكنه تحطم بسهولة. شعرت بالغضب يعتمل داخل صدري.

لم يتوقف خاطر معين عن مراودتي، ولم يكن بوسعي الاعتراف بهذا إلا الآن! في أثناء سيري عبر الوحل الرمادي، بينما علامات أقدامنا القبيحة ترتسم على ثلج الصباح، وجدت أنني لا أتمتع بمزاج مناسب لتخيل صورة القواقع كما فعلت عندما كنت في طريقي إلى أعلى قبلًا. شعرت بداخلي بغضب لا يحتمل، غضب أثقل وأكثر سوادًا من أي قواقع! ظل ذلك الخاطر يراودني، بالرغم من محاولاتي المستمرة لإزالته - كما لو كان بقعة متسخة - بأن أخبر نفسي أنها مجرد حركة الجليد أسفل أقدامي، ثم يمسي سمكة ذات عيون صفراء، جلست عليها مخبرًا إياها أن تنزل إلى قاع البحيرة فلا تنظر إلى أعلى ثانية نحو الشمس، ولا تصعد مرة أخرى إلى السطح، ولا حتى لتظفر بشذرة من الهواء، لكنها ظهرت ثانية وقد أمست ثعلبًا صغيرًا خبيثًا، يجري بين كثبان الرمال السميكة التي لا تكف عن الحركة، فطلبت منه ألا يزعج تلك الرمال، ولا يرتطم بسحب الغيوم الناعمة، ولا يسقط شعرًا من ذيله السميك المليء بالفراء، لكن تعليماتي ذهبت أدارج الرياح!

وهذه المرة تحول الثعلب إلى نورس، يحلق فوق قشرة من المحيط الشاسع، ليصير ودودًا، وسعيدًا.

- اتبعني!

هكذا قال، بخفقة من أجنحته.

تكرر هذا أكثر من مرة، حتى لم يعد أمامي مكان للاختباء. كان الخاطر الذي راودني هو: هل قفزت "فرحانة" يومها؟

كانت موجودة بالقارب عندما سحبني "عرفان" إلى أعلى، فهل سحبها هي الأخرى قبل أن يسحبني؟ لم تتح لي الفرصة للسؤال، كما لم تكن أعصابي بالقوة الكافية لأسأل. ربما يجيبني بالنفي، وأنها كانت على متن القارب من البداية. هذا لا يعني شيئًا. ربما تمكنت من رفع نفسها دون مساعدة أحد، فهي تملك القوة الكافية لهذا، ثم إنها كانت تشعر بالبرد وترتجف يومها، لكن إلى أي درجة شعرت بالبرد؟ وإلى أي درجة ارتجفت؟ هل كانت مبتلة مثلي؟ لم أستطع التذكر. ومع معرفتي بـ"عرفان" فلا بدَّ من أنه لم يلحظ هو الآخر. "ويس"؟ لا، لم يكن ليلاحظ. تذكرت رؤيته يسير على الشاطئ، وهو يتمتم بشيء في توتر، أي أننا كلنا لم نكن نفكر بوضوح.

ربما يقول "عرفان" أيضًا إنها كانت امرأة، فلا تحتاج إلِى القفز إلى الماء، ولم تكن تحتاج إلى مشاركتها في قرار القدوم إلى "كاجان" - فُعِلَ الأمر من أجل خاطرها، وهذا هو المهم - فهي لا تحتاج إلى أن تخاطر بحياتها، ولو كانت قد حاولت لما أحدث هذا فارقًا، لكنها كانت سباحة أفضل مني، وكان الموضوع فكرتها من الأساس، وكذلك عودتها اللعينة إلى الوطن! حُذِّرْتُ من ترك الفتاة بمفردها، لكنها عوضًا عن هذا تسببت في إغراقنا جميعًا.

لكن ماذا لو كانت هي سباحة أفضل؟ ربما لم تكن تشعر أنها قوية كفاية في ذلك اليوم، ربما كانت حماقة مني أن أغوص، فربما كنت قد لقيت حتفي، ولا أحد يرغب في أن يلقى حتفه!

وقعت خلف "عرفان" على النهر الجليدي، لكنني تمكنت من اللحاق به. سألته بصوت مرتجف:

- لديك فكرة عن مدى عمق تلك البحيرة، أليس كذلك؟

نظر نحوي كما لو كنت قد دخلت الجامع مرتديًا خفيَّ. أجابني:

- عميقة كبحيرة "بايكال".

قبل أن يضيف:

- موجودة في روسيا.

- وكم يبلغ عمقها؟

- أكثر من ميل!

انتظرت، آملًا أن يضيف عبارة "كان من المستحيل أن تعثر عليها"، لكنه لم يفعل، وإنما التقط تليفونه المحمول اللعين، وهي طريقته لكي يبعدني. لماذا لم أرَ "كيران" عندما غطست؟ هل انتظرت مدة أطول من اللازم؟ صوت الغرغرة الرهيب ذاك الذي سمعته في المياه، كيف استطعت سماعه في المياه؟ أين كنت فعلًا وقتها؟ وأين كانت "فرحانة"؟

قلت لـ"عرفان" وأنا أحاول اللحاق بخطواته ثانية:

- في الأسابيع التي سبقت قدومنا إلى هنا، كانت "فرحانة" قد بدأت تغير رأيها. صحيح أن الموضوع كان فكرتها، لكنها بدأت تزداد خوفًا، بسبب كل تلك التفجيرات والاختطافات التي تحدث. كنت قد بدأت أخبرك بهذا قبل أن يحدث ما حدث.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم استطردت:

- لكن عندما حدث هذا، كنت أنا الذي صرت مستعدًّا، أرادتني أن ألغي رحلة القارب، لكنني لم أرغب في هذا، كانت قد عرضت رحلة القارب بنفسها لهذا لم ترغب في إلغائها بنفسها. بالطريقة نفسها التي كانت تراودها بها الشكوك قبل أن تركب القارب. أتذكر؟ كانت فكرتها، لكن الخوف راودها. هل لاحظت هذا؟

غطست التقطيبية التي بين حاجبيه كما لو كانت تقع في هوة سحيقة، وهو يفتح فمه للإجابة، قبل أن يغير رأيه فيطبق فمه. عندما اختفت الهوة من على جبينه سألني:

- هل لاحظت شكل البحيرة هذا الصباح؟

- نعم.

- ماذا رأيت؟

- سطحًا هادئًا، وسماءً رائقة. لاحظت كذلك أن قمتي "مليكا بربت" التوأمتين بدتا كما لو كانتا محفورتين داخل المياه. كما حدث في ذلك اليوم.

أومأ برأسه مجيبًا:

- تبدو كبحيرة رائقة براقة على السطح، لكنها شنيعة كالجحيم بالأسفل. شهورًا بعد وفاة "زليخة" (أو مقتلها، أجفلت لسماع الكلمة!) صارت تلك البحيرة انعكاسًا لعالمي نفسه، ثم بدأ صوت يخبرني أن أبحث عن حقيقة أكثر رحابة، فليس كل شيء مؤذيًا كما لا يظهر منه، لو كنت أؤمن بالله، لقلت إنه صوته! أظنه صوت البحيرة.

عندما عدنا إلى الكوخ، سار كل منا بمفرده، سرنا متخفين في ظلال من اللون الأخضر، نتشرب روائح الغابة. في المساء، كنت ألتمس وجود كاميرتي. بدا منظر نهر "كنهار" هادئًا، كما لو كنت أنا الشخص الثالث في خيمتنا.

عيون خضراء كأوراق شجر الجوز الذي تساقط لتوه في النهر، قبل أن يتحول إلى اللون الأسود، أخضر كالأساور التي ارتدتها، وصليلها الدائم بلا توقف.

لم أتصل بأمي من تليفون "عرفان" المحمول أبدًا! لكنني حاولت اتباع نصيحته؛ وهبت نفسي لقضاء حوائجنا أنا و"فرحانة"، لاحظت أنها تبدو كما لو كانت تحاول فعل الشيء نفسه. في المساء، كنا نلامس شفتي بعضنا بعضًا بسرعة قبل أن نغلق الأنوار.

عندما التقينا في ضوء النهار، كانت تلمسني على فخذي أو على ظهري بإيماءة شديدة التعمد، كما لو كانت تحاول إعادة خلق عشيق يمكنها لمسه، وكنت أفعل

الشيء نفسه من جانبي، شعرت بالشكر عندما تبعت "ويس"، وكانتْ شاكرة عندما تبعت أنا "عرفان". صنعنا أشباح خصوم؛ البحيرة، والجن، والسائحون، وأشباح أصدقاء؛ كلانا، و"ويس"، و"عرفان"، لكن في المجمل، صنعنا أشباهًا منا! ولهؤلاء الأشباه أو كلنا بعض التصرفات، وربما بعض الأدوار.

غطست أكثر من مرة بحثًا عن "كيران"، ومثلي فعلت "فرحانة".

لم أيأس، ومثلي لم تيأس "فرحانة".

خاطرت بحياتي، ومثلي خاطرت "فرحانة".

وطيلة ذلك الوقت، أخذ "عرفان" يسقيني الأنباء، كان ذلك هو الوقت الوحيد الذي يتحدث فيه طوعًا معي، يبدو أن بيننا عملاء مزدوجين حقيقيين، يصطادون أعداء حقيقيين. لم أكن أبالي. بدأت أفكر فيه - ذلك القاتل الغامض ونسخته، أو شريكه (شريكه بأي شيء بالضبط - جريمة قتل في كراتشي؟ جريمة حدثت منذ وقت طويل للغاية وفي مكان بعيد للغاية!) - كما لو كان حيوان فهد وظله.

زحف نازلًا منحدرات "كشمير"، مصطدمًا بشذرات من الثلج الناعم، كأنه يلعب كرة قدم بكتلة ساكنة من المخمل، تقفز عبر شقوق الأنهار الجليدية التي كانت تنمو أو تنحسر، فهذه هي باكستان بعد كل شيء، وبالنسبة إلى فهد، فكل شيء متماثل، أو ربما كان فهدًا جليديًا من أوزباكستان يتربص بالمئوية الجديدة التي لن تكون حقبة ازدهار سوفييتية أو روسية، لكن لازدهار آسيا المركزية، باحثًا عن جلد يغطي به البقع التي تغطي جسده، أو ربما كان مخلوق "يتي" الخرافي من طاجيكستان، ينزلق نحو باكستان من الغرب، متجهًا إلى أسفل حتى "شيترال" على ذيل طويل للغاية، قبل أن ينحرف شرقًا عبر "سوات" نحو "كاجان"، أو ربما كنت أنظر في الاتجاه الخطأ بالكامل، ربما أتى من الجنوب، من خلال أراضي الصحراء التي تخفي حقول الهواء أيامًا، كثعبان شوهته قنبلة عنقودية، أو كطائر "الذيال" الذي أسقطه صقر.

ماذا قال "عرفان" في أول يوم أخبرني فيه عنه؟ ذلك اليوم. نعم، صلة القاتل بهذا الوادي البعيد المسالم كانت مجرد خطأ جغرافي، والأخطاء يمكن أن تحدث في أي مكان. كنت أشاهد "كيران" في ردائها القرمزي الذي يتكون من قميص واسع فوق بنطال واسع هو الآخر، وهي ترتقي التل لتعثر على معزتها "كولا"، وقد أمسكت "فرحانة" بيدها.

أخذت كاميرتي إلى أقرب بلدة، وهي بلدة "ناران". عرفت أنهم يطلقون على القاتل هنا اسم "فاريبي"، أي "المزور"، أو "الذي يغير شكله". قالوا عنه إنه يختبئ هنا ليتفادى إثارة الشكوك، لما كانت كل العيون متجهة نحو الحدود الشرقية مع أفغانستان، لكن المخابرات تتبعه، أم إنه هو مَن كان يتتبعهم؟

منذ خمسة أيام فقط، في المتجر الذي اشتريت منه الشال الكشميري لـ"فرحانة"، فرد صاحب المحل مجموعة من الشالات، في حين سرد أحد الزبائن مثلًا شعبيًّا عن أن "الطبيعة ترشد كل كائن لتغيير شكله عند الشعور بالخطر". كل شال كان يتمتع

بنقش مزدوج، فلا يظهر له وجه أو ظهر يمكن تمييزه عن الآخر. الشال الذي انتقيته لـ"فرحانة" كان هو الآخر ذا وجهين. رفض الزبون كلا الشالين، لكنه أدلى بدلوه بخصوص تفجيرات "كراتشي"؛ موت سبعة باكستانيين ورجل صيني كان انتقامًا من الضربات التفجيرية التي حدثت قرب قرية القاتل.

أرهفت سمعي! بالرغم من كون "مغير شكله" هذا قد ظفر بالتعاطف في "بيشاور" و"كراتشي"، لكن لا أحد هنا رغب في وجوده، ولا حتى أولئك الذين ثار غضبهم بسبب الهجمات التفجيرية، ما دخل سكان الوادي بالموضوع؟ لا، لم يكن فقط يتتبع المخابرات، لكنه يتتبعهم – السكان المحليون وطريقة حياتهم – فهد الجليد ذاك، جِن فهد الجليد ذلك. أما الأثر المزيف الذي تركه، فقد كان تشتيتًا مقصودًا من بعض الانهيارات الثلجية الكبيرة التي اقتربت من الاصطدام بأولئك الذين لا ينظرون. كان الجنود، والمخابرات، وكل مَن زحف بطول الوادي حمقى لسيرهم مباشرة نحو الفخ، وإلا كانوا يعملون معًا لاصطياد الجميع.

تجمعت مجموعة من الرجال في المتجر الآن، كلهم يتناقشون بخصوص مَن يحاول اصطياد مَن، ولم يرد أحدهم تحيتي، استمررت في سيري.

- السلام عليكم.

قلتها في كل مكان ذهبت إليه، لكن دون أن يجيبني أحد. ربما كان خطأ جغرافيًّا، لكن لا أحد في باكستان يتجاهل تحية بالخطأ. لم أكن أصم، لا للصمت أو الهمسات التي ارتفعت "إنه هو!" بالتأكيد سمعوا عن موت "كيران"، وطبعًا حملت عيونهم ما يكفي من اتهامات، حتى لو كانت كلماتهم لا تتخطى الهمس، لكنني لم أعتد هذا أبدًا. "إنه هو!" مجرد كلمتين لكنهما كانتا كافيتين لجعل وجهي يشتعل خجلًا! مجرد كلمتين جعلتاني أنظر من فوق كتفي مرة بعد الأخرى، باحثًا عن ذلك المزور الذي يغير شكله. مجرد كلمتين جعلتاني شاكرًا أن الرعاة لديهم القليل من الأصدقاء، وإلا لحكم عليَّ بالموت!

التمست الراحة عن طريق غمس نفسي في العديد من الأساطير الغامضة المنتشرة بالوادي، والأسطورة التي احتلت وجداني أكثر من غيرها هي أسطورة "كاجان" التي ظلت سابقتها محاطة بالسرية.

حتى لو رُبِطت "كاجان" بقبيلة "كيلاش" الوثنية من وادي "شيترال" في الغرب، فقد وُجِد وادي "كاجان" في الواقع منذ مدة طويلة قبل مولد هذه القبيلة. قبل وصولها، كان الوادي جزءًا من "هزارة"، التي يتكون تاريخها من سلسلة لا تتوقف من الغارات. تحكي القصة أنه بمرور الزمن، التقطت "هزارة" الكثير من الأسماء، أكثر مما تجتذب فتاة جذابة انتباه الخُطاب في طريق عودتها إلى البيت من البئر. في حقبة الحكم الإيراني، سُمِّيت "هزارة" باسم "آروسة"، في حين نهبها "الإسكندر المقدوني" بضراوة بالمشاركة مع "راجا آمبهي" الذي أعاد تسميتها لتصبح "آبهيسارا" التي سرعان ما وقعت في يد مؤسس الدولة "الماورية" والمدعو "تشاندراغبت موريا"، قبل أن تنتقل إلى حفيده "آسوكا"، وبعد تحوله للبوذية، غير "آسوكا" اسم الوادي ليصبح "تختي - هزارة"، أو "عرش هزارة"، ولا بدَّ من أن

هذا كان اسمه عندما وصلت "كاجان" - من "شيترال" أو سهل "كاسبيان" أو ربما عالم خرافي آخر - لتثير ذهول الناس بجمالها وثيابها السوداء. ربما كان "آسوكا" هو من شرف الوادي باسمها. لم تعد التفاصيل معروفة، ما تبقى هو مجموعة من الصخور المقدسة من أيام "آسوكا"، بالرغم من أنه ربما لم تكن تلك هي القصة كاملة.

فحسب ما قاله "عرفان"، انتصب مكان مقدس آخر، سري، بجوار صخرة "آسوكا" هذه. كان مكانًا تمارس فيه جماعة صغيرة من الأتباع عقيدتهم، وهم يظنون أن "كاجان" تنتمي إلى عالم آخر يتكون من الحيوانات والأرواح، الطريقة الوحيدة للوصول إليها هي من خلال ممارسة الطقوس الشامانية القديمة. قدموا لها قرابين فاخرة وطلبوا منها المساعدة في إبقاء الجن الغيورين بعيدًا عن بيوتهم وحبيباتهم.

بالرغم من أنه لم يكن ممكنًا السؤال عن المكان بشكل واضح، فبوسعي البحث عنه. استقللت حافلة نزولًا إلى مستوطنة "مانسيرا" قرب مكان الصخور، غير واثق من كيفية البدء. كيف يبدو شكل الضريح الوثني السري؟ اضطرت الحافلة إلى المرور بجانب بلدة "بالاكوت" التي تقع قرب المكان الذي يفترض بـ"كيران" أن تكون مدفونة فيه الآن، وبالقرب منها تنتعاها عائلتها. عندما توقفنا عند "بالاكوت"، غطست في مقعدي، من حسن الحظ أن العديدين ترجلوا من الحافلة لكن لم يركب أي شخص جديد.

حُفِرت فرمانات "آسوكا" على ثلاث صخور ضخمة. قضيت ذلك العصر في تصويرها، في حين كان هناك بستان من شجر الصنوبر الأزرق وشجر الأرز على المنحدرات الصخرية القريبة. داخل ذلك البستان، حفرت هنا وهناك سرًّا، باحثًا عن دليل على عبادة إلهة وثنية، كآثار بخور محترقة، أو تمثال صغير لها، أو حتى بتلات زهور، لكنني لم أجد شيئًا!

سرت عائدًا نحو الصخور لإلقاء نظرة أخيرة على الفرمانات المنقوشة قبل العودة إلى "ناران". هنا لاحظت الصبية الذين تنافسوا في تسلق التل صاعدين نحوي! ترددت، استمررت في تصوير الصخور، وتعالى ضحك الأطفال الموجودين بالمكان، وهم يقفون بجوار الصخور لكي يظهروا في الصورة كذلك، في حين بدا الأطفال الأكبر سنًّا أكثر تعقلًا. همس أحدهم، وكان ذا رأس حليق - ويضع على رأسه قبعة مهترئة عليها رسم لجمجمة بيضاء - لآخر باللغة الأردية، كي يتأكد من أنني فهمت، بالرغم من أنني الآن واثق من أنني كنت لأفهمها بأي لغة: "إنه هو!". تعجبت من كونهم سمعوا عن الموضوع بمكان بعيد عن جهة الجنوب هكذا مثل "مانسيرا" التي تقع خارج الوادي، همس له الصبي الآخر:

- أتعني "المزور"؟

فأجابه الأول:

- لا، أعني القاتل!

صاروا يعتبرونني أسوأ من مفجر الفندق! استدرت عائدًا نحو محطة الحافلات، وتبعني صف طويل من الصبية، وضع أكبرهم أيديهم خلف ظهورهم، في حين أصغرهم سنًّا يتقدمون المسيرة وهم يلوحون بعصيهم، وقد علت ضحكاتهم، وتحولت السماء إلى لون أحمر كالدماء!

كانت الحافلة تستعد للرحيل، فعدوت تجاهها، لكي أشعر بخزيي يتزايد. ركض الصبيان ورائي، رأيت السائق وهو يدير طرف قلم رصاص ممضوغة داخل شريط كاسيت ليعيد الشريط الأسود داخله، فانشغل بما يفعله عن النظر إلى الزحام المقترب. خطوات داخل الحافلة، فرأيت بطرف عيني اليسرى شبحًا يسير بجواري، فتسمرت مكاني، وقد وضعت قدمي اليمنى على درجة سلم الحافلة، وقدمي اليسرى معلقة في الهواء. خرج الشبح من بين الصبية، مرتديًا بنطالًا أخضر من الستان، يعلوه رأسه شعر أشقر داكن، وبينما التفتت رأسه لتواجهني، كنت أندفع داخل الحافلة.

ظللت باليوم التالي في الوادي، دون إخبار أحد بما رأيته في اليوم السابق، وأنا أهرع نحو الباص. كانت هي، أو واحدة تشبهها، وترتدي البنطال الأخضر نفسه. لم يكن هناك شيء مميز بخصوص ذلك البنطال، والعديد من الفتيات لهن لون الشعر نفسه، وربما كنت أتخيل الأمر، لو كنت قد فكرت في تصويرها - أو تصويره - فالأشباح ليس لها جنس كما اتفقنا من قبل - فلا بدَّ من أن الشاشة كانت ستظهر بيضاء. بالضبط كما حدث في تلك الليلة التي سبقت مجيئنا إلى البحيرة، لكن تلك الرؤية كانت حقيقية. لم تكن لديَّ أي فكرة أين ستقودني خواطري، ولم أبالِ صراحة بمطاردتهم. هل يدرك الإنسان متى يبدأ تفكيره في الانهيار؟

سرت جنوبًا صوب القرية التالية، وهي قرية "كاجان"، القرية التي يسود الاعتقاد بأن "كاجان" قد ماتت فيها. لماذا أهتم؟ لا أعرف. كانت مسيرة طويلة. يجب أن أرى المقابر الموجودة على جانبي الطريق بين "ناران" و"كاجان"، يجب أن أذهب إلى هناك، لم أعرف لماذا، لو كان يتوجب عليَّ أن أجد تفسيرًا، فربما أقول إنه نداء؛ هذا هو ما شعرت به في الليلة التي سبقت الذهاب إلى البحيرة، عندما عدوت بجوار نهر "كنهار"، وظهرت تلك البومة البائسة ذات وجه أنثوي وهي تطلق صوتها المميز. لم أرغب في الإجابة، لكنني استمررت في السير على أي حال.

يقال إن التواريخ المدونة على تلك القبور تُظهر أنها شُيدت بعد دخول الإسلام بوقت قصير، عندما اعتنقه الناس طواعية أو بالقوة؛ اعتمادًا على مَن تسأله. كان هناك وقت يقول فيه البعض إن الأمر تم بالقوة، لكن ليس الآن، ثم إنهم لن يخاطروا بأن يعترفوا بالمكان الوثني. شعرت بخوفهم عندما اقتربت من القبور، عندما وصلت إليهم، رأيت على الفور أن الشواهد شكلها مختلف عن شواهد قبور المسلمين التي رأيتها قبلًا. لمحت أولًا طائرين يربطهما إكليل زهور. تشابه النقش مع علامة السلام، باستثناء أن الحمامتين بدتا أقرب إلى البط، بمنقاريهما المسطحين الواسعين. كان هناك تاريخ، لكن مكتوب بخط باهت فلم أتمكن من قراءته. مررت بمجموعة من الشواهد المشابهة، وقد بدت رسوماتها كذلك في حالة أفضل من التاريخ والاسم. كانت هناك شواهد كذلك تعلوها رسوم أحصنة - وهي تقفز نحو السماء برشاقة -

تجر من ورائها عربات ذات عجلات مرسومة بدقة، ثم ظهرت مجموعة من الشواهد التي نُقشت عليها رسوم تمثل الكثير من البوم، مجموعات منه بوجهها المشابه للقلب، بعضها بأجنحة دقيقة التفاصيل، وبعضها بوجوه منقوشة بدقة شديدة، وقد ارتسم الغضب في عيونها الواسعة.

التقطت العديد من الصور للقبور، لو اختفت مجموعة البوم هذه من على شاشتي سأدرك أنني في طريقي إلى الجنون! سيساعدني "عرفان" وقتها، لو لم يكن عن طريق الأحجار الدافئة، فسيكون عن طريق وسيلة سحرية أخرى؛ الصراخ ربما، أو لكمة قوية من لكماته. عثر الأطفال عليَّ هنا أيضًا، وما حدث كان تقريبًا إعادة لما حدث أمس. انطلقت ضحكات الصغار، وهم يتتبعونني حول شواهد القبور، وهم يسيرون نحو الشواهد التي اعتلتها رسوم البوم. يبدو أنهم استوعبوا سريعًا أن هذا هو أكثر ما جذب انتباهي، لكن الصبيان الأكبر سنًّا، هذه المرة أيضًا، وقفوا بعيدًا. هذه المرة كان صبيًّا واحدًا دون قبعة وشعره قصير لا يتخطى عمره يومين هو مَن هتف قائلًا: "إنه هو!".

وجدت أنه ينتابني شعور طفيف بأنني فتاة، وعندما سألت نفسي عن معنى هذا، قررت أن هذا يعني الهستيرية. يتجمع هلع متنام بداخل معدتي ويجعلني راغبًا في الاعتراض ملوحًا بيدي، وهز رأسي. كنت أفضِّل لو أن حجمي هو بحجم أولئك الأطفال الخبيثين نفسه، كنت أفضل لو أنني صغير الحجم، كنت أفضل لو رقدت على ظهري في أحد تلك القبور وأركل بقدميَّ وأصرخ، لكنني لم أفعل أيًّا من تلك الأشياء! تبعني الأطفال طول الطريق نزولًا حتى النقطة التي وقف كوخي خلفها مختبئًا بين بستان من أشجار الجوز الكثيفة.

لم يكن آباؤهم ذوي فائدة. تبعتني العيون مدة طويلة في البازار، والمطعم، والحافلة، وحتى في الطريق اللعين، حتى بعدما نظرت إليهم مباشرة! بدأت أتعلم مدى تأثير تلك العيون. في لحظة تكون نظراتهم ثقيلة كالسحب، وفي اللحظة التالية أشعر بها تسري داخلي كالدخان. بوسعها سحقي وعصفي بعيدًا. بدو كأنهم مجموعة من المحلفين المنغلقين على أنفسهم، ومستعدين لتعليقي بسعادة فوق عمود تليفون، لو كان تنفيذًا للانتقام بالنيابة عن راعي غنم يستحق بذل جهد. لكن هذا كان معي أنا فقط، في حين عاملوا كلًّا من "ويس"، و"فرحانة"، و"عرفان" بطريقة مختلفة. عندما يتتبع الأطفال "ويس"، فلم يكن هذا لكي يلقبونه بالقاتل، ولا لإبعاده عن المكان، فالرجل الأبيض مهما كان شاحب اللون، لا يكون إلا ما يظهر منه؛ مجرد شخص. بالطبع، فهو على الأقل لم يصعد إلى القارب يومها معنا، لكنه معنا؛ واحد منا، لكن ليس بالنسبة إليهم. اعتاد "ويس" أن يوزِّع قطع حلوى الطوفي باللبن ورقائق البطاطس المحمرة الرطبة على الصغار، فيجعلهم يهرعون نحوه صارخين، كأنه رجل خير أتى لبناء مدارس.

لو كان "ويس" ضيفًا - منقذًا، فـ"عرفان" لا يزال صديقًا، كنت شاكرًا له - لكن، لماذا أنا فقط من يعاملونه هكذا؟ ماذا عن "فرحانة"؟ ظلت معظم الوقت في الكوخ، أو تتجول هنا وهناك مع "ويس" التي كانت تُرى وهي بجواره ضيفة، وربما زوجة

ضيف. ضيف مضاعف إذا! لو لم يكن هذا هو الحال لكانت قد تكلمت، كانت ستخبرنا لو أن الناس يتهامسون عنها قائلين: "إنها هي!".

في حين أنني على الجانب الآخر لست ضيفًا ولا منقذًا ولا صديقًا ولا زوجًا! كنت قاتلًا يحوم هنا وهناك حول منطقتهم!

ذات يوم، دخلت متجرًا لبيع الزجاج والجواهر لشراء بعض الحلي لآخذها معي لأختي بـ"كراتشي"، عندما سمعت عميلًا يسأل البائع:

- كيف تتعامل "مريم" مع الموضوع؟

وبشكل غامض، وجدت كل من حولي صاروا يتحدثون باللغة الأردية. لم أحتج إلى الكثير من الوقت لأدرك أنهم يقصدون "مريم" التي هي أم "كيران". أجاب بائع:

- إنها مريضة.

أجابه العميل:

- لا تقلق، فواحدة باسمها ستعرف كيف تعتني بنفسها.

قررت اتخاذ إستراتيجية مختلفة، فبدلًا من الانسحاب، قررت المشاركة. أجبت بطريقة تمنيت أن تبدو عادية وواثقة:

- ماذا تعني بـ"واحدة باسمها ستعرف كيف تعتني بنفسها"؟

بدأ الرجل الجالس وراء الخزينة يمسح التراب عن مزهرية زجاجية بقطعة قماش قديمة. انتظرت، لكنه أدار ظهره لي، ليضع المزهرية على الرف بحذر. تزاحمت المنتجات على الرف، فخدش كأسين زجاجيين بعضهما بعضًا، فأثار صوت احتكاكهما معًا قشعريرة بداخلي. بدأ البائع والمشتري يتحدثان بلغة لم يعد بوسعي فهمها.

رفعت قطعة من الياقوت الوردي وأنا أتنحنح، واستمر الاثنان في عدم الإقرار بوجودي بطريقة مختلفة عن التجاهل. سألت عن ثمن القطعة التي أحملها، فأجابني أربع مرات بأن الثمن مكتوب على بطاقة السعر، لكنني شعرت به وهو يتحدث كأنه يحدث قطعة القماش القديمة التي كان يمسح بها. عرفت بشكل ما أنه لا فائدة من المجادلة بخصوص السعر، فتركت المبلغ على الخزينة.

عدت إلى الكوخ حيث وجدت "عرفان" في انتظاري ومعه بعض الطعام. افترضت أن "فرحانة" مع "ويس" بالمطعم. من حسن الحظ أن معاملة "عرفان" لي لم تتغير كثيرًا، ربما لأن تعامل الناس هنا معه لم يتغير بشدة.

- تناول طعامك!

شاهدني أرمق مكعبات الدجاج المخلي في طبقي، وهو ما لم يمنعني من تأملها. سألني للمرة المليون:

- هل استعددت للرحيل؟

هززت رأسي. أصر في سؤاله:

- أين سنذهب؟ عندما تكون مستعدًا، أتفضل العودة لـ"كراتشي"؟

- ليس الآن يا "عرفان".

- يجب أن نقرر.. فلدينا حجز للشمال سيتوجب علينا إلغا...

- أنا دائمًا أهرب بعيدًا، لكن ليس هذه المرة! لا أتفادى الموضوع.

- وما هو الموضوع؟

- هذه المرة، أنا لا أهرب.

تنهد مجيبًا:

- ربما يتوجب أن تهرب هذه المرة.

في اليوم التالي، في أثناء اجتماعنا حول طبق آخر من الطعام البارد، تحدث بانفعال كما لم أسمعه من قبل. معظم ما قاله بدأ كنداء بعيد من مكان طيني وبارد، كانت الإجراءات الأمنية المشددة بالوادي أسوأ من حالها قبل رحيلنا إلى البحيرة، كيف لم ألحظ هذا؟

لم أجد ردًّا مناسبًا، فاستمر هو بالحديث. تحدث عن تفجير الكثير من الاضطرابات بين الشيعة والسُنة في مقاطعة "جلجت" بالشمال - حيث كنا متجهين - وفي مقاطعة "مانسيرا" بالجنوب، بالقرب من المكان الذي كنت أستقل منه الحافلة كل يوم وكل مساء كرجل مجنون.

من جديد انتظر ردي، ومن جديد لم أستطع التفكير في رد مناسب. كانت الأمور سيئة بالذات بالقرب من بلدة "بالاكوت"، وهنا قاطعته:

- أليس هذا هو المكان الذي أتت منه عائلة "كيران"؟

- ليس لهم وطن أتوا منه، فهم بدو، لكن يمكنك أن تقول هذا، نعم، يتخذون بيتهم الشتوي قرب بلدة "بالاكوت"، قرب ضريح المصلح الهندي الكبير "أحمد بن محمد عرفان"، حيث يعج أنصاره معسكرات التدريب، والرجال الذين يخرجون من تلك المعسكرات يزعجون القرويين، لأنهم يحاولون تجنيد أبنائهم...

توقف وهلة عن الحديث، ثم أكمل:

- لم يعد مكانًا آمنًا.

رفع يديه، وبالنسبة إلى "عرفان"، فهذه الحركة توازي تحطيم كرسي في نوبة غضب!

- مفجر "كراتشي" وشريكه مجرد ستار للجهتين، الثوار والحكومة.

توقف عن الحديث ثانية، ثم قال:

- ألا تفهم؟ نحن نحمل مسؤولية كبيرة بسفرنا معهم.

وجه ذقنه نحو الجدار الذي يفصل بين كوخنا وكوخهم.

قلت بشكل قاطع:

- هي تريد العودة.

في حين حدق هو فيَّ غير مصدق، قبل أن يقول بالنهاية:

- سنحتاج إلى حراسة مسلحة.

استهجنت قوله، فقلت:

- لم يكن هذا هو ما خططنا له.

- أعرف.

- لو أصابهم شيء، ستحدث كارثة دولية.

- أعرف.

- أما لو حدث لنا نحن شيء، فمن سيهتم؟

- أعرف.

زفرت من بين أسناني غيظًا.

سرت بمفردي في الوادي، مدركًا وجود ظلي، مستوعبًا ما يمر بي من همسات قبل أن تُنطَق، وأتملص من النظرات قبل أن تقع عليَّ. تعثرت مرتين عندما لمحت ملابس خضراء تمر بجوار جدار، ومرة رأيت أصابع قدميها المكتنزتين، وهناك شوكة بنية محشورة أسفل الخاتم الذي ترتديه بإحدى أصابع قدميها، كما سمعت صوت رنين أجراس الماعز كذلك؛ ضغطت على كاميرتي، لا شيء ظهر فيها! على الأقل، ظهر البوم المنقوش على شواهد القبور في عدسة الكاميرا، كإثبات، لكن إثبات على أي شيء بالضبط؟ ربما كإثبات على شيء واحد فقط؛ هو أنهم وُجِدوا فعلًا، من ثَمَّ مستحيل أن أكون قد جننت! أو كانوا موجودين، الزي الأخضر وخاتم إصبع القدم موجودين في الماضي، ومن ثَمَّ ها أنا أفقد عقلي!

حينما حل المساء، وضعت وسادة على رأسي، ورقدت معظم الليلة مستيقظًا. افترضت أن "فرحانة" فعلت الشيء نفسه، استمر "عرفان" في الإصرار على وجوب التوصل لقرار، كما انضم "ويس" لهذه الجلسة:

هل سنستمر في رحلتنا إلى المناطق الشمالية، أم سنلغيها؟

كان قرارًا يتوجب عليَّ أنا و"فرحانة" أن نتخذه معًا، لكن المشكلة أننا لم يعد بوسعنا البقاء معًا، فحتى النظر إليها صار يتسبب في شعوري بالألم. انفجرنا غضبًا في وجه بعضنا بعضًا مرة أو مرتين - قلت إنني لم أكن جائعًا! قلت إنني لا أعرف أكنت أرغب في البقاء أم الرحيل! - قبل أن ينسحب كل واحد منَّا إلى كآبته

المنفصلة. كانت تلك هي الطريقة الوحيدة لإزالة الألم؛ الزمجرة أولًا، ثم الانسحاب ثانيًا! صحيح أن هذا أراحنا وقتها، لكننا سرعان ما اكتشفنا ثورة بركان من القسوة داخلنا، كأنه طفح جلدي يتفجر، يتبعه المزيد من الألم، ورغبة خبيثة في حك الجلد.

سألت نفسي كثيرًا عن ماهية الألم، ألم فقد الصبية، فقد وجه، أو فقد "فرحانة"؟

ثم ذات ليلة لم ننسحب.

عدت إلى الكوخ بعدما استقللت الحافلة إلى "بالاكوت" لرؤية "مريم". عرفت من "عرفان" أن الرعاة يأخذون ماشيتهم إلى الغابة القريبة ليظفروا ببعض الطعام. لم تكن لديَّ أي خطط باستثناء السير عبر الغابة للعثور عليها، لكنني في النهاية استقللت الحافلة ذهابًا وإيابًا دون النزول منها طيلة الوقت! كنت مرعوبًا من رؤيتها، ففعلتها ثانية! فاستقللت الحافلة ذهابًا وإيابًا من جديد، لأن ساقيَّ رفضتا التحرك. شعرت بالبرد والجوع. عندما عدت أخيرًا إلى الكوخ وأنا أترنح، حاولت أن أستعيد القصيدة التي أثارها الظلام بداخلي في الليلة التي سبقت ذهابنا إلى البحيرة. عدت إلى النهر باحثًا عن القمر، وعن أي طائر لعين! لكن بدلًا من هذا، كادت مجموعة من الكلاب تهاجمني. أخذت ألقي الحجارة على الكلاب لأبعدها طيلة طريق عودتي إلى الكوخ. شعرت بإحدى أصابع قدمي ترتطم بشيء، جثة، أم بندقية! فتحت الباب لأجد "فرحانة" متمددة على الفراش، ونصفها السفلي عارٍ تمامًا، ووجهها متجه عكس الباب، ولم تكن تتنفس! هل انتحرت! هرعت نحوها، فرأيتها ترفع قدمها اليسرى لتحك بها مكان قرصة ناموسة على باطن قدمها اليمنى. أثارت تلك الحركة غضبي! ظننتها ماتت، في حين أن كل ما فعلته هو أنها ترتاح! وماذا لو كان شخص آخر هو من دخل الكوخ بدلًا مني؟ لم يكن الباب مغلقًا حتى!

هكذا بدأ الأمر، جبل من الغضب الذي تراكم ليعلو فيصبح بطول "الهيمالايا"، في حين أن أجسادنا منهكة بسبب كظم كل هذا الغضب الذي بدا كتحمل خبطة حجر. لا أتذكر كيف بدأ الموضوع، ولا مَن قال ماذا، أو بأي ترتيب دار الحديث، لكنني أتذكر رؤيتها ترقد هناك، أتذكر ساقيها وكيف أثارت داخلي - وسط الغضب الجنوني الذي اعتمل فيَّ - ذكرى؛ ذكرى سعيدة للغاية، منذ متى والغضب يأتي مغلفًا بطبقة من العسل؟ كل ما أتذكره هو أنني لحظتها قلت:

- أتريدينني حقًّا أن أقول هذا؟ أتريدينني حقًّا أن أقولها؟ أنتِ من أتيتِ لي!

- إذًا فأنا لا يفترض بي أن أتحدث، وأنت تهذي كلما راودك المزاج لهذا؟

- متى هذيت في كلامي معك؟

- نعم!

قفزت من فوق الفراش هاتفة:

- على الأقل كنتُ لطيفة معها، في حين أنك لم تكلف نفسك حتى عناء التحدث معها حتى! تصرفت كما لو لم تكن الفتاة معنا من الأصل!

- لطيف معها؟ وإجبارها على المجيء لرحلة القارب اللعينة كان لطفًا؟

- كانت ترغب في الرحلة!

- هل أنتِ عمياء؟ ألم تلاحظي الطريقة التي كانت تجلس بها داخل القارب؟ لم تكن تطيق الوجود هناك من الأصل! وقالت هذا بلسانها حتى! ولم تلاحظي حضرتك الأم البائسة؟ هل تعرفين اسمها حتى؟

- ما علاقة هذا بالموضوع؟

- كل شيء! له علاقة مباشرة بالموضوع! لقد أجبرتِ والدتها "مريم"، هذا هو اسمها! لقد أجبرتِها!

- إذًا فاسمها هو "مريم"، شكرًا لك.

- وأجبرتِ كذلك ابنتها!

- اسمها "كيران"!

- كنت أنا من قال إننا يجب أن نعود لإنزالها عند الشاطئ.

- إنزالها! تمامًا! لأنك ظننتَ أن وجودها عبء عليكَ! أنتَ تجعل الجميع يشعرون بأنهم عبء!

- لا تبدئي في هذا!

- حقًّا؟ ولمَ لا؟

- لأن هذا لا يخصك يا "فرحانة"! الموضوع متعلق بشخص آخر؛ شخص ميت!

- لم يكن المجيء إلى هنا فكرتي حتى! كانت فكرتك، وكذلك فكرة صديقك!

- إذًا فأنتِ لم ترغبي في المجيء لهذا الوادي، لكن الفتاة رغبت في الصعود إلى القارب؟

- بالضبط!

- حسنًا، أظن أن العودة إلى بلدك كانت فكرتك، هل حظيتِ برحلة "عودة إلى الوطن" جيدة؟

رمت كل الوسائد عن الفراش، خرجت بعد ذلك من الغرفة.

قالت فجأة بعد منتصف الليل وأنا أتظاهر بعدم سماعها:

- الأمر لا يخصك أنت الآخر!

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما نهضنا كلانا من الفراش وأنا أقول:

- ليست مسألة براعة. براعة! لا يمكن للإنسان أن يقتحم مكانًا ما ظانًّا أنه يستطيع إصلاح كل شيء. مَن أنتِ أصلًا؟ ما الذي يجعلك تظنين أنك تستطيعين فعل هذا؟

كانت قد بدأت في البكاء، وهي لا تزال ترتدي القميص نفسه، وكان لا يزال بوسعي رؤية شعر عانتها.

- لم أقتحم المكان محاولة إصلاح أي شيء! وللمرة المائة، كان قرار المجيء إلى هنا بسبب "عرفان"، ولم يتكرم أيكم بإخباري حتى!

- اتخذ "عرفان" القرار اللعين من أجلك! لكنكِ اتخذتِ القرار بالنيابة عن الفتاة. مَن أعطاكِ الحق في هذا؟

- على الأقل أنا سألتها! سألت عائلتها قبل أن نفعل!

- لم يكن بوسعهم الرفض! أتظنين هذا سؤالًا؟

- الفتاة رغبت في المجيء.. لكنها كانت شديدة الخجل لتظهر هذا!

- ستحاولين قول أي شيء لتغطية جرمك!

- جرمي؟

- الجميع يلومني. في السوق، وحتى خارج الوادي بالكامل في "مانسيرا". يدعونني بالقاتل!

- على الأرجح، يفعلون الشيء نفسه معي.

- على الأرجح؟!

زفرتْ ضجرًا قبل أن تتمتم:

- كل شيء كان سيسير جيدًا لو لم تدر بالقارب بتلك السرعة.

- صحيح، أما أنتِ فلم تخطئي في أي شيء!

- يجب أن نتوقف عن هذا.

لكن لم يعد بوسعي التوقف، ليس مع الانهيار الجليدي الموشك على السقوط داخلي!

- هل قفزتِ حتى في المياه يومها؟

- يا إلهي! لقد جننت!

- أريد أن أعرف؛ أنتِ السباح الأفضل بيننا، أما أنا فتعلمت السباحة في حمام سباحة في "كراتشي" بحق السماء! أنتِ تعلمتِ السباحة في البحر.. هل قفزتِ إذًا يومها؟

- نعم!

- متى؟ لكم من الوقت انتظرتِ بعدما قفزت أنا؟

انهارت على حافة الفراش وقد أعطت ظهرها لي، وبدأت في البكاء من جديد، وقالت:

- أمسكتها بين ذراعيَّ.

ثلاث كلمات جعلت أطراف الطاولة التي تناولنا نحن الأربعة عليها إفطارنا في صباح الحادث، تترنح. لقد كان حادثًا. عندما نظرتْ إلى أعلى، قلتُ لها:

- ماذا تعنين بأنكِ كنتِ تمسكينها بين ذراعيكِ؟

- أعني ما قلته. لقد قفزت، فتشبثت بي. كانت المياه باردة للغاية يا "نادر"، وكانت الفتاة ثقيلة الوزن. ربما بدت ضئيلة، لكنها لم تكن خفيفة. إرادة الحياة بداخلها لم تكن ضئيلة، وإنما كانت ضخمة تكاد تزن طنًّا! كانت تسحبني إلى أسفل معها. هل كنت تفضل لو لم أتركها لحظتها؟

لم أستطع فهم ما قالته، حتى لو كانت قد قفزت، فلا بدَّ أنها فعلتها بعدي، وما دمت أنا لم أرَ "كيران" على الإطلاق، كيف تمكنت "فرحانة" إذًا من الإمساك بها؟

- كيف تمكنتِ من الإمساك بها من الأساس؟

- أنت قلتها بنفسك، أنا سباحة أفضل منك.

- أنا قفزت قبلك، ولم أعثر عليها، كيف تمكنتِ من العثور عليها؟

- لأنكَ كنت تسبح مبتعدًا عنًّا يا "نادر"!

- أتذكر رؤية سمكة، وأتذكر كم بدت مبهمة الملامح، لكنني لا أتذكر رؤية الفتاة!

- ألم تسمع ما قلته للتو؟ لقد كنتَ تسبح مبتعدًا عنًّا!

كانت الذكرى التي انطلقت مع رؤيتها أول مرة وهي ممددة على الفراش، بساقيها المكتنزتين العضليتين العاريتين أمامي ذكرى سعيدة بشكل استثنائي. ذكرى تعود إلى وقت شهر العسل التي تبعت حادثة الطعن التي تعرضت لها. كانت ذكرى لساقيها المستديرين، وكعبيها الرقيقين اللذين مالا إلى أعلى تجاه ساقيها القويتين. جعل هذا قلبي يتوقف، تلك المرة الأولى، عندما كان الميل ناتجًا عن تلاقي ضفيرة شعرها مع ظهرها، وقد حدث الشيء نفسه في ذلك العصر الذي التقطت فيه مجموعة الصور الأبيض والأسود، وقد التمعت عضلاتها البارزة على خلفية من شراشفنا السوداء، ونحن نصنع نسختنا من الأشكال الذكورية والأنثوية في أثناء حركتهما. بعدها بشهور، رقدت على فراش داخل كوخ في "كاجان"، لكن هذه المرة الشراشف هي التي برزت، وبدت ساقاها مسطحتين، غارقتين في الظلال.

رأيت قبلًا الميداليات التي تغطي الرفوف الموجودة في بيتها الأرجواني بـ"ماشن". كانت تجيد التزلج، والسباحة، والغطس، وحتى الركض تجيده أفضل مني!

كان هذا - الطريقة التي تراجعت فيها ساقاها الآن لتلتحف بالظلام، لتصير باهتة، فاترة، ولا مثيرة - هو ما جعلني أشعر بقسوة كل إهانة لفظية قلناها، كما لو كان كل واحد فينا يحاول فرك الآخر بصابونة مطهرة شديدة القوة، لكن اليد الغاضبة التي تمسك بذلك الصابون هشمتها، تاركة إيانا أكثر دموية، وأكثر انكشافًا! خطوت داخل ظلها، وخطت هي داخل ظلي. لكن في نقطة ما في أثناء الطريق، صارت هذه الحرب مع الفزع أبدية.

لم يزعجنا "ويس" أو "عرفان" في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي. كان من المفترض أن يرجع كل من "ويس" و"فرحانة" إلى رئيسهما بشأن مدى تقدم

المهمة، إما عن طريق التليفون وإما الفاكس، متى صار هذا متاحًا بالنسبة إليهما؟ اكتشفت فيما بعد أنه عندما اتصل "ويس" برئيسه من "ناران"، كان هذا ليخبره بأنه سيحدث تأخير. تفسيره؟ أخبره أن قنبلة انفجرت بالمكان!

- ماذا تعنين باتهامي أنني كنت أسبح مبتعدًا؟

- لقد اكتفيت! سأنتقل إلى الحجرة الأخرى مع "ويس"، بوسع "عرفان" أن يبقى معك!

كانت ذكية.

- كالعادة لم تجيبي عن السؤال.

- وكالعادة تتجنب السؤال الحقيقي، هل تحب أن أخبرك عما يجب أن تسأله؟ لماذا لا تسأل نفسك لماذا صعدت إلى القارب من الأساس؟

- أنتِ مَن طلبتِ هذا!

- لا، السبب كان ما قاله "عرفان"، ألا تتذكر قولك وقتها؟ "ما دام السيد "ويس" يعتقد أنه آمن".

- أنا اقترحت وقتها الذهاب بتمشية طويلة!

- لماذا لم نفعل إذًا؟

- لأنكِ قلتِ إنكِ ترغبين في ركوب القارب اللعين! لم يكن لـ"ويس" علاقة بالموضوع!

- لا تحاول إنكار أنك أردت إثبات شيء ما له!

- كنت أريد إثبات شيء فعلًا، لكن لكِ...

- إنكَ تشعر بالغيرة منه منذ وصلنا إلى هنا! وحتى من قبل وصولنا إلى هنا! منذ ذلك اليوم الذي أنقذ فيه حياتك فعليًّا!

- ماذا؟

- هل ستحاول إنكار هذا أيضًا؟

- الجرح كان سطحيًّا يا "فرحانة"، بالكاد اخترق... أيًّا كان اسمه!

- التجويف البريتوني.

تقلبت على الفراش لتستدير وتواجهني، وتسلل الضوء عبر النافذة - واضح أن الشمس قد أشرقت بالفعل في الخارج - وقد عقدت ساقيها ويديها. أرجحت ساقيها وقد بدا عليها الاستمتاع فجأة، قلت:

- قلتها قبلًا، ويبدو أنكِ تريدينني أن أقولها ثانية، سأفعل... كان بوسعك الاتصال بسيارة الإسعاف بسهولة عوضًا عن هذا، كانوا سينقذونني كذلك!

بدأت تضحك.

- في الحقيقة، "عرفان" هو مَن أنقذني، مرتين! مرة عندما أرسل إليَّ ما أحتاج إليه من نقود، والمرة الثانية عندما سحبني من البحيرة، وربما ثلاث مرات لو حسبنا قيامه بتدفئة جسدي بتلك الأحجار!

سقطت إلى الوراء على الفراش ضاحكة بصوتٍ عالٍ.. ارتفع قميصها حتى خصرها، فداعب ضوء الشمس المتسلل عانتها. قالت:

- حسنًا، يمكنه أن يأتي ليبقى معك هنا ويدفئك أكثر!

بدت سعيدة بنفسها، وأضافت:

- لكن قبل أن تضاجعه، ربما يجدر بك أن تضاجعني أولًا!

وجهت ضربتي أسفل الحزام، فأجبت:

- ومَن يرغب في مضاجعتك؟!

نهضت من على الفراش وأنزلت قميصها إلى أسفل، وشرعت في إعداد متاعها في صمت، ثم ذهبت لترتدي ملابسها بعيدًا عن عينيَّ، داخل دورة المياه، وقد أغلقت الباب عليها (نادرًا ما نغلق الباب علينا، حتى في أثناء التبول) تبعتها بالخارج حتى الكوخ المجاور دون أن أعرف السبب. كان "عرفان" بالخارج، و"ويس" هناك عاري الصدر، وقد جلس يقرأ رواية "فلاش في اللعبة العظمى"، ولو كان قد لمحني واقفًا خلفها، فهو لم يظهر هذا. أحاط كتفيها بذراعه مواسيًا قبل أن يتمتم وهو يغلق الباب من خلفهما:

- هل أنتِ بخير؟

عدت إلى كوخنا، لا يزال كوخنا، لكن في هوائه تردد أقسى اتهامين وجَّهناهما إلى بعضنا بعضًا!

"مَن سيرغب في مضاجعتك؟" ثم "أنت كنت تسبح مبتعدًا عنا يا "نادر"!".

أو "أنتَ كنت تسبح مبتعدًا عنا يا "نادر"!" ثم، "مَن سيرغب في مضاجعتك؟".

جلست صامتًا مدة طويلة، أيهما هو الاتهام الأسوأ حقًّا؟

قبل سفرنا بشهرين - في يوم كئيب غائم من شهر مايو، حتى في مقاطعة "ماشن" - سمعتها وهي تتحدث عبر التليفون. بدا كأنني وصلت مع نهاية المكالمة.

- ... الأمر ينتهي بواحد منا في الحالة المزاجية المناسبة، في حين أن الآخر لا؟

مرت لحظة من الصمت، افترضت فيها أن المتحدث على الطرف الآخر يقول بعض الكلمات، تبعتها هزة رأس نفيًا من "فرحانة" وهي تستطرد:

- لا أقصد الجنس، الجنس مجرد مثال.

توقعت منها أن تتوسع في شرحها، لكنها صمتت. خيم الصمت مدة طويلة، قبل أن تتنهد قائلة:

- نعم، هذا هو ما أعنيه، نعم.

ماذا كانت تعني؟

- أعني، في ذلك اليوم على الشاطئ.

الآن صرت خائفًا من تخمين مقصدها. لم يكن الأمر يحدث كثيرًا، لكنه حدث بما فيه الكفاية، حسنًا، أحيانًا كانت تريد الموضوع ولا أريده أنا. لم يحدث الأمر بالعكس، حدث بالشكل الآخر معظم حياتي. كنت أقف بسعادة مع أقل تلميح بالتشجيع كجرو متسامح، حتى وقت قريب. قالت:

- أعرف، لا يوجد ما هو أسوأ من أن تترك شريكك، فتتحطم حياتك، لكن ربما كان أسوأ لو تركته هو ليحدد ما يثيره!

خيم الصمت ثانية.

- بالتأكيد فعلت هذا أكثر من مرة.

صمت..

- نعم.

صمت.

- لا، لا يفعلها.

لا أفعل ماذا؟ ثم شعرت بالذعر؛ هل تقصدني أنا؟

- "ويس"؟ بالتأكيد، فهذا يزعجه كثيرًا.

ماذا؟!

أغلقت الباب بعنف! الباب الذي يقود إلى البيت الذي يحتوي على نافذة الخليج ذات الخمسة جوانب، حيث صارت تقضي وقتًا أكثر بصحبة "اللاب توب" الخاص بها، باحثة عن عناوين أخبار مرعبة لترسلها إليَّ. كان الباب في ركن الأعمدة الذهبية التي بدت أعضاء صناعية مقحمة على المكان كأسنان من الذهب في فم رجل فقير من طاجيكستان.

لماذا لم تعد "فرحانة" تثيرني مؤخرًا؟

سفرنا لا يزال بعد أسابيع. "سفرنا" وليس سفري أنا فقط. كانت معنا تذاكرنا، وخرائطنا، وحلفاؤنا المتفرقون، "ويس" و"عرفان". لو طلبت مني أن ألغي الرحلة، فليست هناك إمكانية لهذا الآن. كنت متحمسًا بشدة بخصوص ما سأفعله في شمال باكستان، بها أو من دونها، وهو ما أعاد تفكيري إلى عملي. ثم إنها لم تكن لتوافق على مشاهدتي أسافر من دونها، لم تكن هناك إمكانية لهذا، مهما كان عدد

القنابل التي ألقِيت، ومهما كان عدد المفجرين الذين استشهدوا، ليس بعد الجهد المبذول عامًا كاملًا لنحافظ على علاقتنا. نحن ذاهبان! كلانا عرفنا هذا. رأينا هذا بوضوح في الظل المرتسم على فراشنا.

اشتريت كاميرا رقمية جديدة ماركة "نيكون" بعدسة 300 مم، وأسطوانة تقريب 20 مم. صورت سمكة صغيرة، قوس قزح منعكس على أجنحة فراشة، وزهرة خشخاش من كاليفورنيا، وحَلمة "فرحانة". أفترض أن صورة الحَلمة المكبرة وملامح صدرها الغائمة شغلت تفكيري أكثر من فعلتها، لكن بحلول هذا الوقت، كانت هي مشغولة البال بالفعل، وتتحدث دائمًا عبر التليفون، تتحدث عنه، وعن عملها، وعودتها، وقلقها من عودتها، وثدييها اللذين كانت تحبني أن أصوِّرهما، فبدءا يثيرانني فقط وهما داخل الكادر. على الأقل لا تثيرني صور سيدات أخريات.

ذلك اليوم على الشاطئ، لقد أعجبها أن ترى نفسها مكبرة، وفي صور منتقاة بالألوان. أن ترى تحضيرات الصورة الأولى، فلا تشتتها التأثيرات التي تخضع الصورة لها، لتعزيز تشابه الصورة مع الواقع إلى أقصى حد، لجعل غير الممكن ممكن. استلقت على بطنها، فنثرت بعض حبيبات الرمال على مؤخرتها، لتتدحرج على منحنياتها، خفيفة كالريش، متماشية مع درجة بشرتها. عندما شاهدنا الصور معًا، تسبب منظر حبيبات الرمال على لحمها في جعلها تبدو مبللة. كان المكان الذي احتضننا واقعًا بين مجموعة الصخور نفسها حيث عثرت عليها في أول مرة، في الجانب البعيد من غابة أشجار السرو. كان هناك آخرون حولنا، لكنهم لم يكونوا متوافقين مثلنا، أو هذا ما حسبناه. تقلبت لترقد على بطنها ثانية، ورفعت ردفها إلى أعلى ليصبح في مستوى أعلى فخذي، فاحتكت الرمال بقضيبي المنتصب، سمعت الجسد الراقد خلفي يتنفس، شعرت بأنفاسه على رقبتي، افترضت أنها ظنت بالخطأ أنه صوت تنفسي أنا وإلا كانت ستتوقف، فلم يكن بإمكانها رؤية ظله وقد أعطته ظهرها.

فيما بعد، رقد كلانا على بطنه مدة طويلة، وعندما قمنا أخيرًا لنرتدي ثيابنا، لم نتبادل الحديث. لقد أتيت في الوقت نفسه لوصول ذلك الرجل، فلم يكن بإمكانها ملاحظته.

نظرت عبر عدسة كاميرتي التي احتفظت بصورنا - منذ المدة التي سبقت سفرنا - عليها، ومن ضمنها صور ذلك الصباح على شاطئ "بيكر". الكثير من الصور كانت لها، بخلفيات ساكنة، وحلمات مكبرة. لم أحتج إلى رؤية تلك الصور منذ وصلت إلى ذلك البلد، إذ يبدو أن السرية هي المسيطرة.

في أثناء تناول الغداء، سمعت "فرحانة" تترك الكوخ المجاور بصحبة "ويس". غالبًا قاصدين المطعم. ظللت داخل كوخي، فلم أنم منذ مدة طويلة. كنا نتجادل يومين كاملين دون توقف تقريبًا. أغلقت عينيَّ.

"كنت تسبح مبتعدًا عنا يا "نادر"!".

لم أتوقف عن رؤيتها، منذ تلك المرة عند موقف الحافلات. أحيانًا كانت تتكمش لتصير صورة صغيرة بعيدة بحجم الطابع، كما لو كنت أنظر من خلال تلك الفجوة الموجودة في صف أسنانها الأمامي؛ فتاة ضئيلة ترتدي الزي الشعبي الباكستاني ذا اللون الأخضر، وتحمل عصاة بيدها، وهي تتسلق تلًّا لتطارد معزة سوداء، لكنها دائمًا تهبط بسرعة مختلفة عما حدث بالمشهد الأصلي، حركتها تكون أسرع وأكثر خرقًا، فتبدو كأنها محبوسة داخل فيلم صامت! أيًّا كان مَن صور الفيلم فقد غيَّر سرعته بشكل جسيم. كانت الماعز تقفز كأنها مصابة بالصرع، وتتحرك "كيران" وهي ترتعد أمامًا وخلفًا على التل داخل الكادر الذي صنعته الفجوة بين أسنانها. بهذه الطريقة، صارت "كيران" تمثل الماضي الخاص بي.

في مرات أخرى، كنت أراها من أعلى، من خلال كاميرا في طائرة آلية، فتظهر "كيران" وسط دفقة من الصور الخشنة غير الواضحة. تركب القارب، تعتدل في مجلسها قبل أن تشبك يديها بعصبية على حجرها، وأساورها الثقيلة تنحدر نازلة على رسغيها. صارت حركاتها أبطأ الآن، واستطال جسدها؛ بتلك الطريقة صارت "كيران" تمثل حاضري. أو أجد نفسي أنظر نحوها من خلال سلسلة من الفجوات التي أخذت كلها شكل الأسطوانات، لكنها لم تتكمش بقدر ما تضاءلتُ أنا لأصير بحجم فأر يتلصص على جهاز "زوتروب" عملاق لتحريك الرسوم أشبه بصندوق الدنيا. أخذت أمها تدور بالقرب، وتخللت أكمامَها السوداء شرائطُ رفيعة من اللون الزهري، في حين انزلقت أساورها على ذراعها التي ارتفعت معترضة. تعترض، فترفع الذراع، ثم تخفضها! عندما دارت الأسطوانة، تحركت أساور "كيران" وهي تتململ داخل القارب، ومثلها تحركت أساور "مريم" وهي تشير في غضب، وكلتا الحركتين كانتا متزامنتين تمامًا. بهذه الطريقة، ستصير "كيران" هي مستقبلي!

لم أنسَ كيف عبر ظل والدتها من خلالي على الرمال بجانب جثة "كيران". أحيانًا، في أثناء نومي، كانت "مريم" تظهر في غرفتي، ترمي صورتها على صورتي. أحيانًا، تصير "كيران"، فأشعر بأنفاس وجهها الخالي من اللون على وسادتي، وبعض شعرها المبلل يداعب خدي، ثم تلمس رقبتي الباردة كما لامست أختها الرضيعة رقبتها قبلًا، بني على أزرق.

صرت أراهما باستمرار، لكنني لم أتمكن أبدًا من رؤية اللحظة التي أغطس فيها من القارب. لم أستطع رؤية نفسي في أثناء قفزي. في لحظة أكون داخل القارب، وفي التالية أكون داخل البحيرة، ثم يصير القارب بعيدًا للغاية. كيف أتمكن من العثور على الفجوة التي تفصل بين كل تلك المشاهد؟ حاولت إعادة خلق المشهد بسرعات مختلفة: بينما "كيران" تنزلق بقدمها اليسرى وتقع إلى الخلف، أو وهي ترتطم بجانب القارب المتأرجح، أو و"فرحانة" تصرخ: "اِجلسي مكانك!". "فرحانة" لا تستطيع الوصول إلى الفتاة. أو وهي تحاول إعادة توازن القارب بدلًا من الصراخ في الفتاة. بينما كنت أنا... ماذا كنت أفعل؟ أين كنت من الأصل؟ أو و"كيران" تنزلق إلى الوراء لترتطم بالقارب، بينما "فرحانة" تصرخ، قبل أن تنحني نحو القارب ونحوي... نحوي؟ إذًا فأين كنتُ أنا لحظتها؟

صرتُ مجرد شذرة في ذاكرتي. شذرة لم يعد بوسعي رؤية شيء من خلالها.

رأيت "كيران" تخبط فخذها و"فرحانة" تدير دفة القارب إلى الخلف، و"كيران" تنثر بعض المياه نحو "نادر" الذي لا يساوي شيئًا! لكن ماذا عن صوت الحشرجة؟ أين كنت عندما سمعته؟ ومَن كان مصدره؟ هل هي "فرحانة"؟ هل غطست هي أولًا وكنت أنا آمنًا داخل القارب؟ هل كانت أطيب وأرحم بي من أن تخبرني بهذا؟ أكان مصدر صوت الحشرجة هو صوت ابتلاعها طمي النهر وهي تخاطر بأن تُدفَن حية والفتاة تسحبها إلى أسفل؟

ثم أرى نفسي أنطلق كمقذوفة إلى أسفل نحو قاع البحيرة. هناك ألم مجنون يشع داخل ساقي، والمياه الباردة تغلفها، ثم ذلك الشعور بأن ثعبان البحر يلف نفسه حول ظهري. ضربت بيدي هنا وهناك محاولًا شق طريقي إلى أعلى، لكن عندما صعدت إلى أعلى، صار القارب بعيدًا عن مستوى نظري. غطست ثانية، نحو بحيرة من الرمال، بلا "فرحانة" ولا "كيران". لم يكن هناك إلا مجرد سمكة! سمكة ضخمة للغاية، ماذا تفعل هذه السمكة؟! رأيتها وهي تسبح مبتعدة عني، كظل ضخم، طيني، غريب الشكل، كأنها مسخ مشوه وسط انهيار جليدي تحت سطح الماء، ثم وجدت نفسي ألمس قاع القارب وأنا أدور من حوله كما تدور السمكة من حولي. مجموعة من الأسماك، ليست مجرد أشكال مشوهة. عيونهم الصفراء تتفرس فيَّ.. لكم بدت عيونًا ثقيلة، كأن سربًا من العيون يحيط بي كما صارت العيون تحيط بي الآن على الأرض. راودني شعور بأنني لو ظللت بالمكان أكثر من اللازم، ستزداد نظرتهم خبثًا. الخوف من عدم معرفة متى ولا أيهم هي مَن ستصبح ذات نظرات خبيثة، السمكة الكبيرة البيضاء ذات الحواجب الرمادية أم السمكة صغيرة الحجم ذات الأسنان الرمادية؟

كنت لا أزال أدور حول القارب، مستمعًا للصراخ القادم من أعلى، وأنا أرى تلك العيون تحيط بي عندما ارتطمت موجة من المياه الباردة بي. ضغطت على هيكل القارب بكفي، واستمعت. ذلك الشكل المشوه الذي طفا بجواري في المياه ثوانٍ معدودة لم يكن سمكة، ماذا كانت هويته؟ "كيران"؟ على بعد ذراع مني، ذراعي؟

هبت موجة ثانية من المياه وارتطمت بي، كان مصدرها "عرفان"، انطلق داخل كوخي، وهو يلقي ببعض المياه المثلجة على وجهي وهو يقول شيئًا ما، لكنني لم أستطع سماعه. لم أكن مستعدًّا للعودة إلى القارب. اعتصرت عينيَّ، وظللت أحك لحمي بهيكل القارب.

ألقى كوبًا ثالثًا من المياه على وجهي.

بدأ القارب يتراجع. عوضًا عن السباحة نحوه، كنت أسبح مبتعدًا عن "عرفان" داخل الحمام. كان يملأ كوبًا جديدًا ويهرع ليلقيه نحوي، ابتعدت عنه في اللحظة الأخيرة.

- أحتاج إلى العودة هناك، يجب أن أعرف. ماذا لو كانت تلك السمكة الضخمة هي "كيران"؟

رمش بعينيه في ضيق، ثم صفعني على وجهي، لو لم أكن قد سبحت مبتعدًا، لو كنت ساعدت "فرحانة" في الإمساك بها، لو كانت هي أمسكتها جيدًا.

صرخ "عرفان":

- هل سنتجه نحو الشمال أم سنعود ثانية؟ لقد مللت من الانتظار، لو لم تكن مستعدًّا لتقرر، سأقرر أنا نيابة عنك!

سحبني إلى الخارج، دافعًا كلينا نحو الكوخ المجاور دون أن يطرق الباب، وكرر ما كان يريد قوله هناك.

جلس كل من "فرحانة" و"ويس" حول طاولة يلعبان لعبة "سكرابل". لم تنظر إلى أعلى، واضح أنها منكبة بكل تركيزها على اللعبة. كنت مدركًا جيدًا اضطراري إلى مقاومة رغبة ثارت داخلي لرفع لوحة اللعبة. أحرز "ويس" بعض التقدم في اللعبة. بدأ "عرفان" يتحدث؛ أراد أن يلغي الرحلة:

- ليس مناسبًا أن نستمر فيها.

- ولمَ لا؟

سألت "فرحانة" دون أن تكلف نفسها عناء النظر إلى أعلى. قطع اللعب الخاصة بها كانت سيئة.

- لأن معنى استمرارنا هو أننا نستهين بما حدث!

أجابها، مخاطرًا بأن تجيبه "وأي سوء آخر يمكن أن يحدث؟" وهو ما سيضطره إلى الاعتذار.

قامت "فرحانة" بتحريك الفيش الخاصة بها قبل أن تجيب:

- يبدو لي أنك قررت بالفعل.

نظر "عرفان" نحو "ويس"، الذي أجابه:

- لقد قطعنا مسافة طويلة، فالأفضل أن نستمر.

لم أستطع منع نفسي من تذكر أنه رغب في العودة إلى "سان فرانسيسكو" عندما كنا في "كراتشي". نظر "عرفان" نحوي. قلت فجأة وقد شعرت أنني واثق مما أريد قوله:

- أنا متفق مع "ويس"، أنا أريد الاستمرار.

تحركت مبتعدًا عن الطاولة. سأستمر في الرحلة بمفردي لو تطلب الأمر هذا.

هز "عرفان" رأسه، ثم سحبني خارج الكوخ بقوة أكثر من التي سحبني بها لدخولها، صافقًا الباب من خلفه.

- احترس، فالأكواخ قديمة.

لم يصفعني ثانية.

- ألم تسمعني في ذلك اليوم؟ لن يكون الأمر آمنًا!

- سمعتك!

حدقنا في بعضنا بعضًا، كأنما كل واحد يتحدى الآخر أن يجرؤ على الحديث. ربما كنت سأستسلم أولًا في الماضي، أما الآن فلم أعد أبالي. قال في النهاية:

- أحتاج إلى العودة إلى "كراتشي" وعدم الذهاب إلى "جلجت" و"هونزا"، لأن هذا هو الشيء الصحيح لفعله، والشيء الآمن لفعله، و...

لم يعد قادرًا على النظر إلى عينيَّ الآن.

- هناك بعض الأسباب الشخصية.

ربما كان عليَّ أن أنظر أكثر الآن، لكنني اكتفيت بهز كتفيَّ.

- حسنًا.

بدت عليه الدهشة.

- حسنًا؟ تقصد أنك ستساندني عندما أخبرهما بالخطة؟

- نعم.

مسحت بعض الغبار، واتجه هو نحو الباب ليفتحه.

قالت "فرحانة" دون أن تلتفت برأسها هذه المرة أيضًا:

- يمكنك أن تجرب طرق الباب!

قال "عرفان":

- "نادر" لديه ما يقوله.

تمتمت أنا:

- نحن عائدان!

لوح "عرفان" برقبته كأنها خنجر. لم يكن هذا ما اتفقنا عليه، لكنني لم ألوِ عنقي تجاهه ردًّا عليه. كنت أكسر وعدي معه، لكنني لم أبالِ! سمعت صوت حشرجة "عرفان". أشعر به وهو يجاهد ليعثر على الكلمات المناسبة، واللهجة المناسبة لقولها.

- ليس بمقدوري الاعتناء بكم بعد الآن.

قالها لكل مَن في الغرفة، فسألته "فرحانة" وهي تعيد ترتيب قطعها:

- ومَن طلب منك تولي زمام الأمور من الأصل؟

وقف "عرفان" غاضبًا وراء ظهرها.

شرحت لكل من "ويس" و"فرحانة" كل ما يعتبر "عرفان" نفسه مسؤولًا عنه: موت "كيران"، والهدنة التي أقيمت مع عائلتها (ما زلت لا أفهم كيف)، وسلامتنا. استمرت "فرحانة" في اللعب بالقطع الخاصة بها، واستطردت أنا:

- أيًّا ما كان، فأنا لا أزال أعتقد أنه من الخطأ أن نتراجع الآن، لكن يجب أن نضع في أذهاننا أن "عرفان" لن يتقدم للدفاع عن أيٍّ منَّا بدءًا من هذه اللحظة.

ارتفعت أنامل "فرحانة" وهي تمررها على قطع اللعبة الخاصة بها، قبل أن تصرخ:

- عظيم! تمكنت أخيرًا من كسب بعض النقاط، كنت أعرف أن حظي سيتغير!

قال "ويس":

- "فرح"، ربما يجدر بنا التفكير بشأن موقفنا.

أجابته دون أن تنظر نحوه:

- دورك لتلعب.

فقال "عرفان":

- هناك مصاعب أكثر ستقابلنا في الوادي، الموضوع جعل الناس هنا متوترين، وفاة الفتاة لم تساعد في تحسين سمعتنا، حتى لو هي مجرد فتاة من "الجورجاريين"، أقصد كانت، لا ينبغي لنا الاستمرار في المكان أو التقدم أكثر، علينا العودة!

أزاح "ويس" قطع لعبه وهو يسأل:

- أي مصاعب تقصد؟

أخبره "عرفان" عن مخيمات التدريب الموجودة بالقرب من "بالاكوت". أكان هذا تخيلًا داخليًّا، أم إن شعورًا ضئيلًا بالانتصار قد راود "عرفان" لأنه نجح في توصيل آخر قطعة من أخباره الكئيبة؟ عندما انتهى، تجهم "ويس" وسأله:

- من هو "أحمد بن محمد عرفان"؟

- شهيد، دعا مرة للجهاد ضد الإنجليز، والآن يستخدم مناصريه ذكراه للمطالبة بجهادٍ آخر.

أصبح الجو ثقيلًا وخانقًا فجأة، أكان هذا شعوري بخوف "ويس"؟ حسنًا! استطرد "عرفان" مسرعًا:

- هناك حافلة تنطلق في الثامنة صباحًا ستذهب إلى "آبوت آباد"، ومن هناك يمكننا استقلال وسيلة مواصلات أخرى إلى "إسلام آباد"، هناك رحلة طيران إلى "كراتشي" في الليلة التالية. الطريق نفسه الذي أتينا منه.

أجابت "فرحانة":

- من جديد أنت مَن يقرر عنَّا.

أجابها "عرفان" محتدًّا:

- ألم تقولي هذا من قبل؟

دفع "ويس" قطع اللعبة الخاصة به بعيدًا، وقال:

- يجب أن نرحل! هذا تهور.

أجابتني "فرحانة" أخيرًا:

- سنستمر.

أدار "ويس" لوحة "السكرابل" نحوي:

- لقد جننتم جميعًا!

ثم نظر نحو "عرفان" قائلًا:

- ماذا لو عدنا أنا وأنت، وتركنا هذين المخبولين يستمران في رحلتهما؟

نظرت "فرحانة" نحو "ويس" قائلة:

- لقد عقدنا اتفاقًا!

- أي اتفاق؟

ونحن أيضًا كان لدينا اتفاق، نظر "عرفان" نحوي. قلت:

- إذًا فقد اتفقنا.

اتجهت نحو الباب قبل أن تغير "فرحانة" رأيها، وقبل أن يعقدا المزيد من الاتفاقات معًا. في كوخنا، كوخي أنا و"فرحانة"، بدا "عرفان" متجهمًا وهو يفك أزرار قميصه، وقال:

- يمكنك أنت و"فرحانة" استكمال شجاركما في أمريكا.

- ليس واجبًا عليك أن تأتي معنا.

بدا كأنني أحاول التخلص منه، وكنت في الواقع متأكدًا من مدى حاجتنا إليه، وهو كذلك عرف هذا، فلم يكلف نفسه عناء إجابتي. على الرغم من أن أحدًا لم يقلها، بدا أن بعضنا على الأقل تمسك بمعتقد أنه إما أن نعود كلنا وإما أن نستمر كلنا. توقفنا منذ زمن عن أن نكون مجرد أصدقاء؛ صرنا شركاء.

رأيته وهو يعلق قميصه على الشماعة، ثم يلقي ببنطاله الجينز على الكرسي، قبل أن يخرج زوجًا جديدًا من الجوارب، وسروالًا داخليًّا جديدًا، وزوجًا من الأحذية الجلدية. كان يستخدم البناطيل الرياضية في الركض فقط. لطالما كان أكثر رجل أنيق عرفته، لا يسبقه في تلك المنزلة إلا والدي الذي كان يلمع أحذيته كل ليلة بحركات بطيئة تكاد تكون مسترخية. آخر مرة كنت فيها مع زوجة "عرفان"، لم يكن هناك كهرباء في أي فندق بـ"ناران". لإثارة إعجاب "زليخة"، أخذ كل ملابسنا

إلى المغسلة الوحيدة بالبلدة، حيث تحتفظ بمكواة تعمل بالفحم، وبينما كان صاحب المكان يقوم بملء المكواة بقطع الفحم المشتعلة وينتظرها لتسخن، قبل أن يفرد قمصاننا بعناية، وشالات "زليخة"، وقمصانها الواسعة، وبناطيلها الواسعة، لا سيما وشاح "دوباتا"، وقفت مع "عرفان" في صبر، حتى عرض أحدنا على الآخر أن يحضر له بيضة مسلوقة عليها بعض الملح والفلفل.

صار معه مكواته المحمولة الآن. كان الرجل الوحيد بين ثلاثتهم الذي يحلق يوميًا ويحافظ على تشذيب ذقنه كذلك. لا بدَّ من أن في مكان ما من حقيبته ملمِّعًا للأحذية، لكن يبدو أنه حتى تنظيمه هذا له حدوده. صعد "عرفان" على فراشه مرتديًا ملابسه الداخلية فقط، ودون أن ينظِّف أسنانه، لكنني شممت رائحة صابون عليه. لا أستطيع تذكر متى كانت آخر مرة استحممت فيها.

تفقد تليفونه المحمول، ثم أطفأ المصباح المجاور للفراش. قال مكررًا كلامه، فتركته يفعلها:

- يجدر بنا تفادي "كوهيستان" والاتجاه صوب الشمال الشرقي بصحبة حرس مسلحين. يُفتِّش الجميع، ولست متأكدًا حتى مما يبحثون عنه. كنتَ مشغولًا بما فيه الكفاية بمعركتك الخاصة لدرجة أنني لست متأكدًا مما لو كنت لاحظت مدى عصبية الناس هنا.

سمعته يستطرد:

- لا يعرفون هوية كل شخص موجود، جاسوس، أو ميليشيات. ولا مَن يعمل لحساب مَن؛ أمريكا، أم باكستان، أم الهند، أم طرف آخر تمامًا ممَن لا نتوقعهم من الأصل!

أجبته:

- تبدو أكثرنا توترًا؛ جواسيس أو ميليشيات، قتلة أو عشاق، ما الفارق؟

قال "عرفان":

- أتعرف أن "ويس" اتصل برئيسه ليخبره أن عمله تأخر بسبب تفجير حدث بالمكان؟ كان محقًّا. أنت و"فرحانة" كنتما مصدر دخان كافيًا كقنبلة فعلًا.

ضحكت من كلامه، وسكت برهة ثم قلت:

- أريد أن أسألك عن شيء ما.

- أسمعك.

- عندما أتيت مع شقيق الفتاة لإحضارنا، هل كانت "فرحانة" داخل القارب؟

- طبعًا.

- هل كانت مبللة؟ أقصد، مبللة كما لو كانت قفزت داخل المياه؟

كان بوسعي الشعور به يستدير نحوي وسط الظلام.

- كانت ترتجف، نعم، لم أنظر نحوها بدقة، فقد كانت في حاجة إلى أن تَلَف بالشراشف بسرعة، لكن لا أظنها سقطت في البحيرة، فدرجة حرارتها لم تهبط مثلك، لماذا؟

- أتظنها غطست؟

- للعثور على الفتاة؟ أي فائدة كانت ستعود من هذا؟ لم تكن لتستطيع إنقاذها أبدًا، أدركت هذا وأنا في قاربكم.

قررت ألا أجادله. مد يده وسط الظلام وحك رأسي.

- نَمْ!

كان يتقبل خيانتي له بشكل جيد، سألته:

- أخبرني أكثر عنها.

- مَن؟

- الفتاة، وعائلتها.

سمعته يتحرك ثانية.

- لا أحد يعرف من أين أتوا، وحتى جماعتهم مثلهم. الأشياء الثلاثة التي يجتمعون عليها هي أنهم جميعًا متجولون، جميعهم في وقت ما كانوا فرسانًا، وجميعهم لا يزالون يعتبرهم الكل دخلاء متطفلين.

استمعت لكلام "عرفان" وسط الظلام، شاكرًا تشتيته انتباهي بموضوع آخر.

تحدث مدة طويلة دون مقاطعة، وبعد أن غفا، ارتديت بنطالي الجينز، وربطت حذائي.

- اِبتعد عن البوم!

سمعته يتمتم وقد دفن رأسه في وسادته وأنا أغلق الباب من خلفي. سرت مكررًا كلماته داخل رأسي.

في النهاية، فقدت بعض القبائل أحصنتها، وطريقة حياتهم المعتادة المتعلقة بالترحال، في حين تمكن آخرون من الحفاظ على كليهما. كان "الجورجاريون" يضطرون إلى ترك الأراضي الرعوية، سواء سائرين على أقدامهم أم ممتطين أحصنتهم، بسبب مَن يأتون بعدهم أو قبلهم، لكنهم تمكنوا من الحفاظ على مراعيهم بذلك الوادي، وفي بعض مناطق "كشمير" - وبشكل ما وعبر المسافات - تمكنوا من الحفاظ على صلات حميمية مع بعضهم بعضًا. عرفت إلى أين تحملني قدماي.

هذه هي ليلتي الأخيرة في "كاجان"، غالبًا إلى الأبد. أعتقد أنني مستعد لأي أشباح سأجدها. كان عقلي صافيًا، وشعرت بالهدوء، كما أشعر في المعتاد في أثناء تمشياتي الليلية، وهو ما لم يراودني منذ الحادث. لا! لقد توقفت عن إطلاق لقب "حادث" عليه؛ صرت أدعوه "جريمة قتل"!

اتجهت صوب المدافن، فوجدتهم واقفين كما هم في أماكنهم، وعلى الشواهد نقوش البوم، والبط، والأحصنة. وجهت ضوء مصباحي اليدوي نحو شاهد القبر الذي جذب انتباهي من قبل، والذي كان عليه نقش لثلاثة أحصنة تجر عربة وراءها، وقد وجهت أعناقها نحو السماء. لاحظت الآن وجود آخرين يجرون عربات بعجل؛ العجلات غالبًا علامة على الاستمرارية، فترمز إلى القبائل التي استقرت جزئيًّا، وربما يرمز ذلك البط الذي يحمل أكاليل الزهور إلى التناغم بين القبائل المختلفة، سواء تلك التي ظلت بدوية أم الأخرى التي استقرت. لم يخبرني أحد بهذا، كنت أخمن فقط، لكنني من داخلي عرفت أن كلا النوعين يحتاجون إلى بعضهم بعضًا، النوع الذي رحل والنوع الذي ظل؛ صنعوا نظامًا سياسيًّا من الشراكة بين القبائل، فيحددون معًا حدود مراعيهم ويصنعون طرقًا للحراسة ضد القبائل المغيرة، مثل قبيلة "الساواتي" الأفغانية التي تتمتع بعلاقات متوترة مع "الجورجاريين" من هذا الوادي. المجموعة المستقرة هي الحامية، في حين أن المجموعة البدوية هي المنتجة. صنع الاثنان تحالفًا من خلال التزاوج فيما بينهما؛ مثل زواج "مريم" على سبيل المثال. اعتقد "عرفان" أن عائلة "مريم" من المجموعة الحامية؛ صاروا عمالًا، وتجارًا، وجنودًا، وقد هاجر بعضهم إلى الجنوب إلى المدن، في حين ذهب بعضهم إلى مدينة "ناران"، ربما مثل بائع الجواهر الذي جعلني أدفع مبلغًا فادحًا مقابل قطعة الياقوت. على عكسهم، كانت عائلة زوجها "سليمان" من المنتجين. استمروا في الطواف في وادي "كاجان" كرعاة، مع القليل للغاية من الاحتكاك مع عالم التجارة والدفاع، وهكذا كانت عائلته تطعم عائلتها، وعائلتها تبقيهم أحياءً. كان "عرفان" قد قال:

- لديهم نظام عدالة خاص بهم ليس له علاقة بنظام الولاية، والولاية لا تبالي بهم على أي حال.

بعد ثوانٍ من الصمت، أكمل:

- ليست لديهم أرض أو بلد، لو كنتَ قتلت طفلًا من ذلك البلد، فأنت تعرف ما يمكن أن يحدث لك.

استمعتُ وسط الظلام، وهواء الكوخ يختفي من حولي في بطء.

- عائلة "مريم"، التي تعتبر في مكانة أعلى من عائلة الزوج، هم مَن طلبوا تعويضًا عن وفاة "كيران"، أما عائلة الزوج الذين لا يزيدون عن كونهم رعاة بسطاء، فلم يطلبوا شيئًا.

لم أسأل عن ماهية هذا التعويض؛ بلا شك سيحتوي على جزء مادي، وهذا ما سيزيد من دَيْني لـ"عرفان"، في حين أنني لم أسدد له مبلغ الإيجار بعد!

وجهت انتباهي من جديد إلى شاهد القبر ذي الثلاثة أحصنة، أدركت وجود من يقف خلفي، فقد سمعت صوت خطوات وهمسات. لم أكن أتخيل، لم أوجه ضوء مصباحي إلى الخلف، وإنما ظللت موجهًا إياه إلى الأمام نحو القبر ذي الثلاثة أحصنة، فقد أسرني انحناء رقابها، التي بدت كثلاثة أهلة منحوتة على الصخور،

وقد اصطفت بحرفية، عارضة معًا أكثر أجزائها ضعفًا للعالم، تستدعي إصدار حكم عليها؛ لا، بل تطلبه!

بدا لي في الظلام، وقد جلست القرفصاء مرتعش اليد، وضوء المصباح يبهت (لماذا لم أغير البطارية؟)، أن البوم المصطف على شواهد القبور هو جماعة من المحلفين، في حين أن البط المنقوش في وضع جانبي (بعكس البوم الذي ظهر من زاوية أمامية وهو يحدق إلينا) وأجنحته تخفق في ضجر يؤدي دور المتفرجين المحايدين. لم يكن اختلافهم قاسيًا. ربما لا تمثل تلك النقوش أكثر من ضربات عشوائية لعقل متلاعب ويد فنان قد نُسيَ. أما لو كانت تلك النقوش مقصودة، بكل خفقات الأجنحة تلك، والطيور التي تحدق إلى أسفل نحو تلك الأعناق المرتفعة، والأنيقة، والمكشوفة، فبالتأكيد المقصود بها أن تكون تذكرة لطيفة لطلب الرحمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ملكة الجبال.. سلسلة من الهمسات

كانت "مريم" مولية ظهرها نحوه.

وصل أخيرًا، ذلك الذي ترك لها الريشة الزرقاء في محرابها بالجبل؛ صاحب النفس ذي رائحة الثوم، وحامل العسل؛ ذلك الذي أخبرها عن الأرض التي تقع خارج الأرض، وخارج الجبال حتى. عاد أخيرًا إلى بيتها بالسهول، حاملًا حكاياته كما كان حاله عندما كانت طفلة.

كان صوته منخفضًا ناعمًا:

- أتتذكرين كيف كنتِ تسألينني من أين أتى الجليد؟ ومن أين ينبع النهر؟ كنتِ ترغبين في معرفة أطول نهر جليدي، كأنك تريدين رؤية الجنة!

كان ينتظر رد فعلها، لكنها ظلت تعطيه ظهرها. أحيانًا ما تحتاج أن تبني جبلًا بينك وبين شخص آخر. استمر في حديثه:

- حسنًا، أنا رأيت الجنة في السهوب، حيث يعيش البدو أمثالنا بأسماء مثلنا، لكن بأصوات مضافة، وعلى عكسنا يعيشون بحريتهم.

- أي أصوات؟

- الأصوات التي كنتِ تظنينها بالسابق طريفة.

لم تستطع أن تدير وجهها نحوه، لكنها كانت لا تزال متذكرة كل تلك الصفات الغريبة فيه، بدءًا من العلامات، والأحجار - الأحجار البيضاء لم تجلب الهدوء، يجب أن تخبره بهذا الآن - وحتى آلة الفلوت، ومحاولاته العديدة لتغيير اسمه، لجعل اسمه يبدو روسيًّا. على سبيل المثال، صار "رحمن" يدعى "رخمون" أو "رحمينوف" أو "رخمانوف". أجابته:

- لكنك لا تدعى "رحمن".

فأجاب:

- لكن كان يمكنني أن أكون، والآن صرت أدعى "رخمانوف".

وفي مرة أخرى، كان يدعو نفسه "يوسف"، فيتغير اسمه ليصبح "يوسوبوف". ضحكت مكررة الاسم:

- "يوسوبوف"!

كرر:

- "يوسوبوف"! مشتقة من "يوسف".

قال إنهم بالأعلى، في منطقة السهوب، وهو المكان الذي أتى منه "الجورجاريون" ذات مرة، دينهم الإسلام، لكنهم لا يعرفون حرف "الحاء"، وهكذا لا ينطقون اسم

"محمد".

سألته:

- كيف ينطقونه إذًا؟

- "ماميدوف"، أو ربما حتى "ماما".

ارتبكت وشعرت بالغضب منه لاستخدامه اسم الرسول في مزحة.

- لكن هذه هي الحقيقة!

إذًا، فقد صار يقضي معظم الوقت بالأعلى هنا، وسط أناس لا يعرفون حرف "الحاء"، ومن هناك أتى إليها حاملًا قصصًا لطرد حلمها وإعادتها إلى هذه الأرض. قال إنه ذهب كذلك إلى مكان يدعى "لينين آباد"، ومكان يدعى "تشينستان"، حيث تعرف إلى أصدقاء أعطوه أحجارًا مقابل الجلود؛ أحجار ذات جودة أعلى من التي تلقاها في الماضي، باستثناء ذات مرة..

تنحنح، وشعرت بعينيه تخترقان ظهرها محاولًا العثور على الحجر المعلق في رقبتها. لم تقل شيئًا. بدأ يتحدث من جديد. شرب الصديقان الجديدان من لبن الفرس وتناولا بعضًا من لحم الخيول. كان بوسعه شرب اللبن، لكنه لم يستطع حتى أن يتذوق طعم تلك الحيوانات التي أحبتها قبيلتهما. التزم بتناول لحم الخراف والبط.

لم تكن "مريم" تعرف عن البط إلا ما شاهدته على النقوش التي تعلو شواهد القبور الموجودة بجوار الطريق الذي يفصل بين "بالاكوت" و"ناران". لم ترغب في التفكير في القبور. أخبرها عن الزهور، فاستمعت بتركيز.

- لديهم قطعة قماش نادرة، مطرزة بالزهور، جزء معين من الزهور؛ انظري.

انحنى فوق جسدها المستلقي، وأسقط في كفها نصف المفتوح زهرة صفراء، أكبر من يدها، أشار نحو منتصف الوردة بيده التي لعقت منها سابقًا بعض العسل الذي تخلله مذاق الثوم المتسلل من عرقه. بدت يده أدكن لونًا مما تتذكرها، وتألق منتصف الوردة بلون مشابه للنيران، ومن وسط تلك النيران، خرجت مجموعات من الخيوط الحريرية، اعتلى كل واحد منها برعم أخضر باهت. عندما لامست بأناملها البراعم، لامست أناملها كف يده. سقطت آلاف حبوب اللقاح على لحمهما. ستأتي نحلة لتغطس في قلب الوردة، هي تعرف هذا، فقد شاهدته يحدث عدَّة مرات، لكنها لم تشاهده يحدث لوردة مثلها، ستحمل النحلة الحبوب على جسدها، ومن تلك الحبوب سيخرج العسل، ومن العسل سيأتي النعيم.

أخبرها - دون أن تتلامس أيديهما - أن "الأغوريين" حاكوا ذات مرة تلك الخيوط اللامعة - التي ظهرت في قلب الوردة - في منسوجاتهم القطنية.

أرادت أن تتذوق طعم حبوب اللقاح الموجودة على جلدها، لكنها لم تتمكن من فعلها وهو يراقبها. كان قد توقف عن الحديث، لكنها استطاعت سماع صوت تنفسه، ثم همس بصوت خفيف لا يزيد عن وزن حبوب اللقاح الذهبية ذاتها:

- لدى البدو الكازاخستانيين قول مأثور؛ إن كل الأشياء الحية تتحرك، وكل الأشياء التي تتحرك حية؛ الرياح والمياه، الزهور والنحل.

تسمَّر وهلة من جديد، ثم أكمل:

- يجب أن تتعلمي كيف تمضين قدمًا يا "مريم"، فـ"كيران" مضت قدمًا في طريقها بالفعل.

عندما رحل، عضت على طرف سبابتها.

في الصباح، قدمت قربانًا من الأرز للتمثال في ضريحها السري الموجود بالأراضي المنخفضة؛ الضريح الذي لم يحتوها كالمكان الموجود بالجبال، ولا يحمل أي رسوم من التي كانت تطلق مخيلتها، لكن في بعض الأوقات الجيدة، اعتادت أمها أن تزينه بقرون الخراف وذيول "الياك". جثمت داخل الضريح الذي بالكاد يكفي للجلوس، تذكرت كيف كانت تغطيه في عجالة في شهر أبريل، لأنها كانت متعجلة للرحيل إلى الجبال.

لم تُزِلْ الغطاء إلا الآن، لم يكن يفترض بها أن تزيله إلا في شهر سبتمبر، عندما يعودَ قومها. وقد تأخر الوقت كثيرًا لتنظف منزلها كما كان يفترض أن تكون قد نظفته في الربيع. لم يُشعل أحد فروع "العرعر" في الأركان المقدسة في يوليو، لهذا توقفت وهي تفكر، هنا في السهول كانت في حاجة إلى القوة، تحتاج إلى سلاح ضد الناس المقيمة بهذا الوادي، ومن ضمنهم أولئك الذين حضروا شعائر جنازة "كيران"، فقط ليروا هل هي إسلامية أم لا. ليتهم كانوا لا يزالون يتحركون نحو أراضي الجبال الزراعية، حيث صار الاحتكاك بين المقيمين والمرتحلين قليلًا للغاية كمقدار ما يأكله الدجاج، لكنهم اضطروا إلى قطع رحلتهم الصيفية قبل أن تكتمل، وسط توترات أمنية بعلو الجبال. كان بوسع "مريم" سماع إهاناتهم. البدو غير مقيدين، كان بوسعها كذلك سماع صوت روح والدتها وهي تجيب: "حسنًا، الأفضل أن يكونوا أحرارًا عن أن يكونوا مقيدين بالمكان نفسه"، وهو التعليق الذي كان يعجز المقيمون عن الرد عليه. تنطلق نساء المرتحلين بعيدًا للغاية، ولم يكنَّ يرتدينَ الحجاب، ويعملنَ جنبًا إلى جنب مع الرجال، يرعينَ الماشية، ويجمعنَ الحطب. كنَّ يزرفنَ العرق كالأحصنة، وروائحتهنَّ أسوأ منها، في حين كانت نساء المقيمين أسمن من الأبقار، لهذا يعتبر شيئًا جيدًا أنهن يقمنَ بإخفاء كل هذا اللحم الذي له ملمس العجين المبتل، والذي لا يستطيع أي رجل أن يصعد فوقه، ومن خلف ذقونهم المزدوجة ظلوا يكررون: "لن يدخل أي بدوي الجنة". "وأين ستذهبون لو استمررتم في الجلوس؟"، مع ذلك استمروا، كان البدو فرسانًا بطبيعتهم. ربما يعرف الرجال كيف يلعبون لعبة "البولو"، وربما عرفت النساء كيف يتلاعبنَ بالرجال، لكن هل يعرف أيهم كيف يؤدون دور ملاك الأراضي؟ أو مفتشي الغابات؟ لا! كانوا فقط يعرفون كيف يتسكعون ويركضون. على الأقل يمكننا الركض.

داعبت "مريم" الحجر المعلق حول رقبتها بأناملها، لا فائدة من لعبة الإهانات هذه التي تدور داخل رأسها، فهذا لا يؤدي إلا لأن تظل على قيد الحياة ويجعلها تشغل

مساحة أكبر في بالها. كانت في حاجة إلى القوة، ومعنى هذا أن تبتلع الكلمات التي تتسبب في ألمها. في الواقع، كان الوادي يشعر بالغيرة من البدو. كان بوسعهم ترويض أشرس أنواع الأحصنة، ولا تستطيع الجماعة المقيمة، دون حتى الوقوف على قدمين، أن يقودوا فرخًا!

عندما كانت "كيران" رضيعة، اعتادت "مريم" حملها على ظهرها في مهد مصنوع من ألياف "القنب الهندي". كانت ساكنة، وأصابع قدميها تلامس ضلوع "مريم"، وكفها على فمها، تلعق مكعبًا من الحلوى الصلبة، وقد تناثر شعرها الثائر حول رأسها، فحتى وقتها لم تكن تطيق تضفير شعرها. حكت "مريم" على مسامع "كيران" عن الخراف الأسترالية السمينة التي باعتها الحكومة لهم لتحل محل النوع الرفيع "ديشي". في البداية، شعروا بالسعادة بالخراف، بالرغم من التكلفة، فالخراف المحلية كانت تعطي عشرين كيلوجرامًا من اللحم وكيلوجرامين من الصوف، في حين أن الخراف الأجنبية تعطي أربعين كيلوجرامًا من اللحم وثمانية من الصوف، لكنهم اكتشفوا في وقت متأخر للغاية أن الخراف الأجنبية لم تكن بقوة تحمل خراف "الديشي"، فلم تتمكن من تحمل الرياح الجليدية والانهيارات الثلجية المفاجئة في وادي "كاجان"، كما كانت متقلبة المزاج للغاية في انتقاء ما تأكله، وشديدة البطء في التحرك، فلم تتمكن من التأقلم مع الحياة البدوية وتشتكي كثيرًا. قالت "مريم":

- على عكسك.

ركلت "كيران" ظهر "مريم"، والأخيرة تستطرد:

- لو لم تكن تعيش نصف ما تعيشه خرافنا، فأي فائدة تعود علينا من كل فرائها ولحمها؟

لوحت "كيران" بذراعها، فارتفع صليل أساورها ضئيلة الحجم التي أهدتها إليها جدتها، وكلما كبر حجم ذراعها، قل انزلاقها عليها. يجب أن تنزعها "مريم" قريبًا، لتضع مكانها أساور جديدة أكبر حجمًا. أكملت حديثها:

- ثم إن صوفها كان طويلًا للغاية، لدرجة أنه يتشابك في قرونها ونحن نرتحل بحثًا عن مكان أفضل لإطعامها. لا، بالنسبة إلى تلك الخراف الأجنبية، الأفضل أن تبقى في مكان واحد منبسط جاف.

ثم أطلقت شكواها الأخيرة بقولها:

- تلك الخراف كانت معتادة الثبات في مرعى واحد.

وبعد وهلة أضافت:

- لو لم تتركيني أضفِّر شعرك سرعان ما سيتشابك كفراء الخراف! وبعدها ستجدين نفسك صلعاء قبل أن تدركي ما يحدث!

وفي الأعوام التالية، كانت ستخبر ابنتها المزيد عن كيف تسببت الخراف الأسترالية بسبب نظامها الغذائي اللعين على إجبارهم للذهاب إلى المراعي الممنوعة عليهم، وهذا ما اضطرهم إلى دفع الكثير من الغرامات الضخمة. ذات عام، قضم خروف

سمين عنقين من نبات زنجبيل ذي اثني عشر عنقًا، صحيح أن النبات يستطيع أن يتحمل فقدان هذين العنقين، لكنهم أجبِروا وقتها على دفع مائة روبية مقابل كل عنق. كانت الحكومة تحكم قبضتها فتمنعهم من التجول في الأراضي كما كان يحدث قديمًا عندما كانت "مريم" في عمر "كيران"، وهذا كان من ضمن أسباب نفوق الخراف التي أرغموهم على شرائها! حتى ماعزهم القديمة تطفلت الحكومة عليها، فأجبروهم على استبدالها بالماعز "الكاجانية" القوية والماعز "الكيلانية" العصبية نوعًا آخر ينتج المزيد من اللحم، لكنه في الوقت نفسه يقضي على كل الطعام الموجود في المكان، فتترك الماعز الأصلية تتضور جوعًا.

فهمت "كيران" تلك الأشياء عندما ارتحلوا إلى بحيرة "سيف الملوك" في شهر أبريل، والتي توجد من حولها التلال التي سمحوا لهم برعي الماشية فيها. تسلقت "كيران" الفرس المدعوة "ناماشا"، وقد عُلِّق حَمَل أسترالي على ظهرها، ظل الحمل ينتحب طيلة الطريق بطريقة مثيرة للشفقة، متجاهلًا تحذيرات "كيران" المتكررة، وبمجرد وصولهم إلى البحيرة، تخلت عن الحَمَل! قالت: "اِذهب إلى والدتك!" وانطلقت تطارد ماعزها عوضًا عن هذا، "كولا"، و"بهوري"، و"ماخيري" اللاتي أطلقت عليهم أسماءهم، كانوا الماعز الوحيدة الباقية من ماعزهم الأصلية. ضحكت "مريم"؛ فابنتها ستكون أمًّا لا تتوقف عن الحركة، مثلها بالضبط، مفضلة الطفل الذي يلعب بمفرده. شاهدت "كيران" ترتقي التل وتعود لتجهيز الموقد، فتجمع الأحجار في كومة لإشعال النيران لطهو خبز الذرة للضيوف.

كان "غافور" يشاهدها عند الضريح. سببه الوحيد للمجيء هنا إلى الأرض التي سبق وأن طردته هو أن يرى "مريم"، وبعدما رآها، وجد أنه لم يعد بوسعه الرحيل!

لقد قتلت "كيران" التي عزف على الفلوت الخاص به لدى مولدها! ليس بوسعه الرحيل الآن. رفع إلى شفتيه كوبًا معدنيًّا طويلًا به المشروب الهندي التقليدي "لاسي". ما كان يشك فيه منذ زمن صار مؤكدًا، فلبن المهرة لا يمكن مقارنته بلبن البقر.

كان بوسعها الشعور به وراء ظهرها، بالضبط كما شعرت به داخل الكوخ بالأمس عندما رقدت على جانبها. فكرت في أطراف النباتات الحريرية، والبراعم الخضراء الباهتة وكيف يمكن أن تذبل بسهولة. لم يتحدثا، تمنت ألا يقترب منها أكثر من اللازم. ستترك حجم حزنها يسحبها إلى الأرض. سيضطر إلى رؤية رغبته الوحيدة لها - ألا تكبر أبدًا أو يصيبها العجز - وهي تصفعه على وجهه في تحدٍّ. كيف يمكنها أن تبقي أجزاء قلبها دافئة؟ لم تنفك تسأل نفسها ذلك السؤال منذ موت "كيران". ما فائدة رتق قطع قلبها وروحها المحطمين دون أن تظفر بالانتقام؟ أرادت العدالة، رغبت فيها أكثر مما رغبت في الدفء. أخذ خطوتين نحوها وقال:

- "مريم".

هزت رأسها. في الأعوام التالية لزواجها، حاولت التفكير في زوجها باعتباره المرعى الموجود داخل منطقتهم من الجبال، حاولت التوقف عن التفكير في

"غافور" بصفته نافذتها على العالم. أثارت الريشة الزرقاء اللامعة التي تركها بالكهف حماسها وقلقها، بالإضافة إلى ألم فقد "كيران"، كان كل هذا أقوى مما بوسعها تحمله. قالت:

- اتركني!

انتظر أن تغير رأيها، لكنها كانت تعرف أنه يعرفها أفضل من هذا. تركها مؤقتًا، لكنه سيعود خلال بضع ساعات. ماذا يفعل بكل هذا التجوال هنا وهناك حاملًا مشكلات الجميع، وهو لم يستطع أن يساعد قومه حتى؟ قبل أن يبتعد، فتح الصندوق وأخرج منه الزهرة الثانية التي لا تزال نضرة. "ستبقيان نضرتين بقدر ما تبقى أنتَ"، هذا ما قاله الرجال، لكن كم يبلغ هذا من وقت؟ فعل كما طلبوا منه ولم ينظر أسفلها.

خلعت الأساور عن ذراعيَّ "كيران" قبل دفنها، ونزعت القلادة الثقيلة كذلك. أما خواتم أصابع القدم، فاضطروا إلى قطعها، فلم تنفع محاولة تزييت أصابع القدمين في نزعها، فقد كانت منتفخة للغاية. ضفَّرت شعرها بالطريقتين؛ في البداية كعقدة ضخمة تبدأ من قمة جبهتها وتستدير حول وجهها كله الذي بدا جميلًا للغاية باستدارته البيضاوية والضفيرة الجذابة التي أحاطت به كما أحاطت يدها به، لكن أصابع "مريم" لم تلبث أن فكت العقدة وتحركت بنعومة لتصنع سلسلة من الضفائر الرفيعة تبدأ من قمة جبهة ابنتها الميتة، ثم تتجمع خلف رأسها كضفيرة واحدة. حدقت وقتًا طويلًا في تلك الضفيرة الوحيدة التي بدت بلون الذرة، وسميكة كالحبال التي خدشت مؤخرة عنق ابنتها الذي صار لونه شيطانيًّا، كما لم تستطع تعرف ملمسها، فقد شعرت ببرودة هادئة تلامس أناملها. بحركة بطيئة متعمدة، فكت الضفيرة. لا بدَّ من أن "كيران" سترغب في أن يكون شعرها حرًّا في أثناء موتها كما رغبت في تركه حرًّا في أثناء حياتها. أخفت الأساور وظلت الجواهر التي كانت ترتديها في صندوق وضعته في أحد أركان الضريح، ومعها وضعت سنتي "كيران" الأماميتين، التي كادت أولاهما تكلف "كيران" حياتها بالماضي، فبعدما سقطت، مرت "كيران" بالسنة على الأرض، وعلى ذراعها، وعلى كفيها، وعلى كل ركن وفتحة بوسعها العثور عليها، ثم أتت إلى "مريم" مبتسمة وقالت:

- خمني أين وضعتها؟

لم يكن بوسع "مريم" التخمين، فدقت "كيران" على أنفها. سألتها "مريم":

- ما معنى هذا؟

- خمني.

لكن عندما وجدت الطفلة أنها لا تستطيع التخمين، أعلنت بالنهاية أنها ألصقتها داخل أنفها، أرادت معرفة ما مدى المسافة التي يمكن أن تقطعها بالداخل، فاندهشت من أن الطريق بالداخل "مفتوح"، على حد قولها! استمرت تلك السِنة في الدخول، إلى أعلى! بلا توقف! لا بدَّ من أنها كانت ستدفعها حتى تصل إلى مخها لو كانت إصبعها طويلة كفاية!

أمرتها "مريم":

- لا تتنفسي! اِعطسي!

وعندما لم ينجح هذا، ضربت بيدها على مؤخرة رأس "كيران" بخفة وهي تسألها:

- في أي فتحة أنف أدخلتِها؟

لم تجبها "كيران" التي بدأت تشعر بالفزع!

ثم في الوقت المناسب، وبوحي من غريزتها الداخلية، أغلقت "كيران" فتحة الأنف اليمني، وهي تنفخ من الفتحة اليسرى، وظلت تفعل هذا حتى انطلقت كتلة بيضاء صغيرة منها، وكانت كبيرة لدرجة أن كلًّا من الأم والابنة أخذتا تحدقان إليها برعب!

مرت على السنة بأصابعها (كانت أكبر قليلًا من السنة الثانية، وأكثر نعومة كذلك)، فتذكرت "مريم" أسطورة "مريم زماني" التي استطاعت بإرادتها إزالة صخرة تسد طريقها. لامست الأساور بأناملها، فارتفع صليلها الذي تسمعه كل يوم وكل ليلة، حتى في أثناء نومها، كانوا علامة - لا تدعيني أذهب في القارب! - لكن "مريم" لم تسمع.

عندما زحفت "مريم" في النهاية خارج الضريح، وجدت زهرة صفراء ثانية تنتظرها بين التراب، قرب الفتحة التي كانت تؤدي دور المدخل. ذكرتها الزهرة بالفراشة التي حطت على كتفها ذات مرة عندما كانت طفلة. لم تلمح درجة لونها الأصفر ثانية منذ لحظتها، حتى الآن! لكنها لم تستطع أن تفهم تلك العلامة كذلك. لفَّت عنق الزهرة حتى وصلت إلى قلبها الذي بدا كشعلة من النيران عند نهايات البتلات ونهاية عالمها نفسه! كان يومًا مشرقًا، فرغبت في التراجع إلى كهف الجبل، الظلام الذي لا تنيره إلا النقوش القديمة. رغبت في حمل تلك الشعلة المتألقة إلى ضريحها البارد الموجود بالجبال، داخل أعماق رحم "قراقرم"، وقد امتزج وزن الحذر بوزن الحزن. في الشهور التي فصلت بين رحيلهم إلى البحيرة وعودتهم إلى الأراضي المنخفضة، بدا العالم كأنه يهتز في غير ثبات. لم يكن عدم استقرار يمكن التنبؤ به، من النوع الذي يقود من المراعي إلى السهول، حسب تغير الفصول. لم تكن حركة ذات إيقاع متجانس، وإنما كانت لرجال يركبون دبابات، وجواسيس في ملابس عادية، كلهم يظهرون عند بابك طالبين السكر الذي كنت تدخره لأطفالك، أو لضيوفك، أو لرجل يترك لك علامة في كهف.

هؤلاء الرجال مختلفون، فلم يكونوا من النوع الذي يطلق النيران على كلاب الحراسة التي تحذر الرعاة من سرقة ماعزهم أو خروفهم. لم يكونوا من النوع الذي يترك للكلاب لحمًا مسمومًا، ولا كانوا من مفتشي الغابات كذلك، كانوا الرجال الذين يطوقون الغابات ثم يؤجرونها. رجال لديهم قائمة غرامات بطول عرف الحصان، وقائمة أشجار ساقطة تسعة أضعاف هذا. لم يكونوا من رجال الشرطة الذين يعيشونِ على حساب مؤسسة تفتيش الغابات، ليتقاضوا المزيد من المكافآت في كل مرة تُقذَف فيها الجذوع المتساقطة في آبار المياه على ضفاف نهر "كنهار"، ولا

كانوا حتى من المسؤولين عن الإيرادات، التي تطلب الضرائب على كل بقرة جديدة تأتي باكية إلى هذا العالم. لا، كانوا - في البداية على الأقل - غرباء بالنسبة إليها كما كانت الخراف الأسترالية، ومن مظهرهم، بدوا لها أغبياء مثلها. قالوا إن في واديهم رجلًا يختبئ؛ قاتل، ويجب أن يُقبَض عليه، فلو حموه، سيُلقى القبض عليهم هم! اتهموا الكل بحمايته. لكنها أرادت أن تعرف، فلو كان أولئك الرجال يعرفون مَن يحمي القاتل، كيف لم يتمكنوا من معرفة هويته بعد؟ اقتحموا بيوتهم، راكلين الأواني، والأطباق، والماعز، والأطفال، ثم طلبوا أن يصيبهم شيئًا من الطعام. على مدار الأيام القليلة الماضية، بينما كانت تشاهدهم وهم يأكلون، راودها تساؤل أكان أولئك الرجال مختلفين إلى ذلك الحد. ربما كانوا كلهم شركاء، أولئك الذين قطعوا الأشجار القديمة، وأولئك الذين سمموا كلاب "الجورجاريين"، وأحاطوا الأرض بسور، وكلفوهم غرامة على عنقين من الزنجبيل، وادعوا أن هناك قاتلًا يختبئ بينهم. ربما كانوا كلهم متماثلين! "كل شيء حي يتحرك وكل شيء يتحرك حي". لكن أولئك الرجال لا يتغيرون، لم يكونوا أحياءً. كانوا يستمرون في إطلاق الأسئلة وهم يأكلون. أين ابنها؟ لم يكن مع الماشية، أين هو إذًا؟ لم تكن هناك فائدة من إخبارهم أنه يؤدي بعض المهام في السوق أو يستذكر بالمسجد لأنهم سيبحثون عنه هناك، ثم سيعثرون عليه، قبل أن يأخذوه بعيدًا! لا! كانت تُبقي ابنها بعيدًا عن متناول أيدي أولئك الرجال، فعرضت عليهم المزيد من السكر، والمزيد من الزبادي، والمزيد من الخبز.

منذ عادت من البحيرة، يبدو أنها لم يكن لديها ما يكفي من الوقت للتراجع في كنف الظلام لتنفرد بحزنها. كان حزنها يتحول إلى خوف على أطفالها الباقين، وأرضها الباقية، وكذلك على الخفقات التي تتصاعد داخل صدرها، لتحذرها من حبها الباقي لـ"غافور".

لم تكن للزهرة التي حملتها بيدها أي رائحة، وشعرت بالحجر المحيط بعنقها ساخنًا.

لم يكن الحصول على ذلك الحجر بقليل، فقد وقع "غافور" في بعض المشكلات. علاقته المضطربة بمسؤولي الغابات كانت تقترب من الأساطير، بالرغم من أنها لم تكن من نوعية الأساطير التي سمعتها. في الواقع، لم تسمع عنها أبدًا. كانت أسطورة راقبتها بعينيها وهي تتشكل معظم مدة شبابها، لكنها لم تتوقف عن التكرار، لا في المحلات ولا في فم الكهف، ولا على ظهر حصان في الطريق للمراعي، ولا كانت من نوعية الأساطير التي تدعو لها في ضريح سري، ولا من النوعية التي تسمي طفلك تيمنًا بها. لم يُحتفَ بتلك الأسطورة ولم تتغير، ولم تعزف موسيقى الفلوت إلى جانبها. لم تكن من النوعية التي تُدعى يومًا لحفل عرس أو ولادة أو جنازة. تُركت وحدها تمامًا، لتنمو بمرارة كالحقيقة!

بالرغم من أن "مريم" شاهدت الأسطورة وهي تتخذ شكلها، فإنها أحيانًا ما كانت تفقد بدايتها الحقيقية، وهل بدأت في المرة التي غُرِّموا فيها مائتي روبية مقابل عنقين من الزنجبيل، أو في المرة التي حطمت فيها كمية من الجذوع المقطعة البئر الثلاثون، أو المرة التي مزقت فيها الأمطار مخبأ سريًّا آخر، وألقته من فوق تيار مائي نحو كوبري، ليستحيل الكوبري إلى أشلاء سرعان ما فقدت وسط الأمواج، أو

ربما كانت المرة التي اقتحم فيها الحصان السور الشائك الذي يحيط بالغابة في خبث وخفاء، لدرجة أن البوم لم يكن يستطيع رؤيته، أو المرة التي قتل فيها أحد أصدقائه بعد الإدلاء بشهادته ضد مافيا الأخشاب (لم يطلق على الذين قتلوه لقب قتلة أبدًا، هكذا فكرت "مريم"، وهي لا تزال تداعب الحجر المعلق حول رقبتها بأناملها)؟ كانت هناك الكثير من البدايات المحتمَلة لجعل "غافور" تلك الأسطورة، بالرغم من أن بابها لم يكن مفتوحًا للنقاش، فقد أُخبِر بالرحيل عن الوادي، فوجوده صار تهديدًا للمجتمع برمته، بل أسوأ من تهديد، فقد تسبب بالفعل في العديد من الوفيات!

لهذا رحل.

وقبل هروبه، ترك لها ريشة غراب، ثم قطعة قماش حمراء. تعلمت قراءة هذه العلامات.

كيف كان يفعلها؟ سألته ذات مرة في واحدة من المرات النادرة التي عاد فيها، متسببًا في مخاطرة كبيرة لنفسه ولهم جميعًا، عن كيف يتمكن من ترك علامته لها، مهما كان المكان الذي يذهب إليه. أحيانًا، كانت تحتاج إليه للغاية، وأحيانًا قبل حتى أن تعلم أنها تحتاج إليه، كان يجيبها بحكايات؛ حكايات عن "طريق الحرير" الذي كان لقرون عديدة ينقل الكثير من الأشياء، ليس البضائع فقط، وإنما كذلك الأصوات. هل سمعت باسم "جنكيز خان" ملك العالم؟ مؤسس أعظم إمبراطورية بدوية عرفتها البشرية؟ هزت رأسها. قال كلمتي "طريق الحرير" بالإنجليزية، لتكون أول كلمات تتلقاها بتلك اللغة التي ستسمع المزيد منها في السنوات التالية في لامبالاة، لكن في تلك المرة، لم تكن اللامبالاة معروفة لها بعد. استحضرت الكلمات صورًا لطريق مصنوع من ضباب فضي، تخلف عن ذيل جنية تطوف بالمكان، فتساقطت شذرات من الفضة عن ذيلها طيلة الطريق، لتغطي الجبال المكسوة بالجليد بالأعلى، حتى وصل إلى السهول المغطاة بالغابات بالأسفل، وكما لو كان حلمًا، لم يكن شيئًا يمكنك - أو يُسمح لك - أن تلمسه.

لكن "غافور" تمكن من وصف الطريق بشكل مختلف، فبينما كانت ترى التماعًا بالسحب، رأى هو علامات أقدام "جنكيز خان" على التراب، وحاول أن يجعلها تراه بتلك الطريقة. تحرك "جنكيز خان" نحو "بخارى"، وهي ما صارت تدعى اليوم طاجيكستان على حد قوله - الأسماء تتغير دائمًا يا "مريم"، لو استمعتِ جيدًا - على الرغم من أنها لم تهتم بالأسماء، وإنما كانت تهتم بلونها، وكانت تهتم بفكرة أكان طعمها حلوًا كالعسل. ومن جديد، حرك أصابعه سريعًا، "هل تسمعين؟" ستحاول أن تنظر كما لو كانت تسمع ما يقصده، فأكمل كلامه. بعدما تقدم "جنكيز خان" العظيم نحو "بخارى" وحرق عشرة آلاف قرية وذبح ثلاثين ألفًا من القرويين، اهتم بتشييد الصروح والمباني كرجل مجنون، فبنى آلاف الخانات للمسافرين، كما نظَّم وأعدَّ "طريق الحرير" - رأت يدين سمينتين ترتب أكوامًا من الضباب اللامع - وشيَّد طريقًا سريعًا آمنًا، بلا عصابات مثله، وأيضًا بنى شيئًا آخر، طلب منها أن تخمنه، لكنها لم تتمكن. أجاب "غافور" متباهيًا: "أول خدمة بريد في العالم!". مهما كان المكان الذي سيذهب إليه "رحمن" أو "رخمانوف"، "يوسف" أو "يوسوبوف"، "كريم" أو "كريموف"، "عمر" أو "عمروف"، إذا احتاجت إليه،

ستَرسَل رسالة. عندما أخبرها بهذا، ابتسمت، بالرغم من أسلوبه المتفاخر (أو ربما بسببه). تذكرت الأسماء التي أطلقتها أمها على كل جبل يحيط بهم. "اِبحثي عن النوافذ، ولا تسيري عبر الجدران". من الواضح أن "جنكيز خان" فكر في الشيء نفسه، فمرَّ عبر كل من جبال "الهندو كوش" و"البامير"، و"الهيمالايا" و"القراقرم"، كما لو كان يمر عبر الضباب، تاركًا خلفه سلسلة من الهامسين والعدَّائين.

قطعة القماش الحمراء تعني أنه سيذهب بعيدًا، وكانت هذه هي آخر علامة تلقتها منه قبل مولد "كيران"، العلامة قبل الأخيرة كانت ريشة غراب، وكانت تعني أنه واقع في ورطة. لم تحتج أن تتساءل عن نوع الورطة التي وقع فيها، بحلول هذا الوقت، صار أسطورة من النوع المجهول. كانت الريشة الزرقاء اللامعة التي تركها قبل موت "كيران" هي أول علامة تركها منذ سنين، لكن لم يعد هناك سكر لتقدمه له ترحيبًا به، والفضل يرجع إلى الرجال الذين أرادوا معرفة أكان هناك أي أعداء للولاية يختبئون تحت سقف بيتها. احتفظت "مريم" بقطعة القماش الحمراء، وربطت الصندوق الذي احتفظت فيه بمتعلقات "كيران"، لأن "كيران" رحلت بعيدًا. دفنت الصندوق وقطعة القماش في الضريح، ثم تلت صلاتها.

"فلتمتلئ سماواتك بجلد لا يتمزق، وأحصنة لا تنزف، فلتعيشي حياتك إلى الأبد من دون جراح!" سارت بعد هذا عبر المسافة التي تفصل ضريحها عن الكوخ، وهي تخفي عينيها عن بريق اليوم الساطع، أغمضت عينيها قليلًا من شدة الشمس. أكانت نبوءة بموت "كيران" هي ما أعاده، أم شيئًا آخر؟

ماذا لو كان القاتل هنا فعلًا؟ ماذا لو كان موجودًا فعلًا؟ ماذا فعل ذلك الرجل أسوأ مما فعله بالفعل أولئك الرجال الذين مزقوا بيوتهم وغاباتهم؟

كانوا يلقبونه في الوادي باسم "فاريبي"، أو "مغير شكله"، ولم تعتبر هذا تصرفًا حكيمًا، فعندما يعطي الإنسان شكلًا ما اسمًا، فهو يبعثه للحياة. قالوا إنه نزل عبر سهوب "البامير" بنعومة كالقطط، وتسلل إلى داخل أكواخهم في أثناء نومهم، وبحلول الوقت الذي تمكنوا فيه من اقتفاء آثار أقدامه لأحد الأكواخ، صار شيئًا آخر، محيط من الدخان، كجن من الأراضي المنخفضة. لم تعد السهول إلى طبيعتها إلا بعدما رحل، حتى لو تسبب هذا في المزيد من قتل الكلاب والمزيد من الخراف الغبية والمزيد من الزوجات من القبائل المقيمة.

كان داخل كوخها، استطاعت الشعور به هناك. كان زوجها بالغابة مع الماشية، وابنها كذلك ليس بالمنزل. كانت تلك هي ثاني مرة منذ عودة "غافور" يصيران بمفردهما فيها، وقد خافت هذا، لم يكن بوسعها التخلي عنه. صحيح أنه لا يوجد لديها سكر لتقدمه، لكن على الأقل لديها بعض الشاي المتبقي. كادت تبتسم وهي تتخيل فمه وهو ينفرج عن ابتسامة مع تذوق الشاي؛ ذلك الرجل الذي شرب من لبن الفرس وارتدى كل يوم زيًّا مختلفًا عن اليوم السابق. ابتعدت عن الكوخ متجهة نحو زوجها بالغابة، أحيانًا تحتاج أن تنشئ جبلًا بينك وبين شخص آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

تغيير شكل

كان آخر صباح لنا في الوادي. لا يمكنني القول إنني ارتحت كما يجب أن أكون، بسبب تلك العيون الخرزية المرسومة على القبور بالليلة الماضية، أو ربما بسبب معرفة أنني سأمسي شخصًا لا يرتاح مع نقوش القبور، أو ربما ذلك الشعور، حتى وأنا أستعد للرحيل، أنني لا أزال عائدًا من القبور. لم يكن تشاؤمًا بلا سبب، فبينما ننهي إجراءات الرحيل عن الفندق، سمعنا الأخبار. أطلق الجيش صاروخًا جويًّا في "وزيرستان" أمس، ومنذ أقل من ساعة، سُلِّم صندوق من التمر المقدس - الذي أتى من نخلة بالقرب من الكعبة المشرفة بمدينة "مكة" - لشرطي في مركز شرطة في "مانسيرا".. كان زناد الإطلاق مثبتًا في غطاء الصندوق، وعندما نُزِع الغطاء، حدث الانفجار الذي أحاله هو وثلاثة آخرين لأشلاء! كان جهازًا بدائيًّا سوفيتي الطابع. وخلال دقائق، سُلِّم صندوق آخر في مركز للشرطة في "بالاكوت"، جنوب المقابر. لم يسأل أحد أكان هذا قد حدث اعتراضًا على إطلاق الصاروخ أم لا. الكآبة التي تثاقلت من حولنا توالدت من خبر مشؤوم؛ نجح المفجرون في مسعاهم حتى إن الوادي ازدحم بالمواكب العسكرية. سيعطي هذا المخابرات أسبابًا لزيادة وجودها هنا، وستتزايد قوة الميليشيات، في حين ستضمحل قوة الناس المقيمين في الوادي. لم يكن هناك قاتل مختبئ هنا من قبل، لكن بدءًا من الآن سيصبح هناك واحد ولن يحتاج حتى إلى الاختباء. لقد أطلقوا "فاريبي"، أو "مغير شكله"، بما فعلوه.

بينما كنا نكدس حقائبنا في السيارة "الچيب"، تناقشت مع "عرفان" عن الإشاعة الأخرى ليتزايد يأسنا. لم تطلق باكستان القذيفة، وإنما أطلقتها طائرات أمريكية آلية سُلِّحت بصواريخ متوسطة المدى وبعيدة التأثير، بموافقة باكستان، من واحدة من حقول الهواء الخاصة بها، حيث اعتاد الأثرياء العرب من وقت غير طويل على إطلاق نسورهم لاصطياد طائر "الحبارى" المعرض للانقراض. تضمن الثلاثون مدنيًا الذين قتلوا ثلاثة أطفال.

وبالرغم من هذا، وما أثار الدهشة، لم يبدُ على بعض الناس السعادة لرحيلنا، أو على الأقل لرؤيتنا راحلين، فقد باركوا "فرحانة" واحتضنوا "ويس" الذي كانوا ينادونه بالسيد "ويستلي"، والذي اندمج في غمار تلك اللحظات بكل صدق ممكن، لدرجة أن عناقه الحميمي مع كل شخص يأتيه جعل الناس تصطف أمامه من أجل المزيد. في النهاية، استقر على الكرسي الأمامي، في حين جلست "فرحانة" بزاوية بجانب "عرفان" على الكنبة الخلفية، ومن ثَمَّ تحرك "عرفان" مقتربًا مني.

انطلقنا في الطريق الصاعد إلى "بابوسار" عند الحدود الواقعة بين مقاطعة القلعة الشمالية الغربية والمناطق الشمالية. لم يتحدث أحدنا، تمنيت لو أننا كنا قد حلقنا فوق ذلك الجزء من الرحلة، فتفاديناه بالكامل، وطبعًا تفادي الأسبوع الماضي سيكون أفضل. منذ سبع سنوات ارتحلت مع "عرفان" من هنا لرؤية تزاوج الأنهار الجليدية، كانت "زليخة" معنا، في حين ظل أخوها - الذي مات معها فيما بعد - في الفندق يؤدي دور الحراسة دون توفيق. ملأ غيابهما الوادي من حولنا.

بجواري، حاول "عرفان" الاختباء وهو يُقرب نفسه مني، فالتقت نظراتنا. بالرغم من أنه لم يعترف بهذا، فقد عرفت أن سبب اقتراحه لسلوك ذلك الطريق في "كراتشي" هو رغبته في الظفر بلمحة من تلك الأنهار الجليدية. لم يعد بالإمكان تفادي هذا الآن، مهما توترت الأوضاع داخل السيارة "الچيب"، ومهما بدت الحياة صعبة على أولئك الذين سيرحلون.

كان بوسعي رؤية "فرحانة" وهي ترجع إلى الوراء في كرسيها، في مكانها على الناحية الأخرى من "عرفان". بدا أننا مدركون لوجود بعضنا بعضًا بحدة، أو ربما كان هذا شعوري أنا فقط. كنت متأكدًا من كونها تعرف جيدًا أي نهر جليدي سنتوقف بجواره قريبًا.

أجمل لحظة مرت بي هي تلك التي تشاركتها معها جانب النافذة التي تطل على الخليج ببيتها الأرجواني. كم تغيرتْ عن تلك المرأة التي كنت أستلقي جانبها ونحن نلعب معًا! كم تغير عالمنا من وقتها! فعلى سبيل المثال، وقتها لم يكن يطلق عليَّ لقب "قاتل"!

أدرت رأسي قليلًا تجاهها محاولًا أن ألتقط المزيد من منظر جانب وجهها. ترى هل تتذكر تفاصيل التقليد كما حكيتها لها، ونحن مستلقيان معًا عند نافذتها؟

عندما وصلنا إلى مكان يمكننا إلقاء نظرة منه على الوادي، طلب "عرفان" من السائق التوقف. سرنا حتى حافة الطريق، فيما وراء الهوة، كان بوسعي رؤية النهر الجليدي الذي زحف نازلًا المنحدر طيلة السبع سنوات السابقة. تذكرت وجود سجادة من قشور الجوز واضحة للغاية، لدرجة أنه كان بإمكاني شمها، ورأيت ظهور أولئك الحمالين وهم يسيرون ببطء، كأنها طقس من الرهبة الصامتة يمتد بطول الطريق لفراش الزوجية، وبقدر متساوٍ، كان بوسعي سماع قبلة "زليخة" على وجنة "عرفان"، وكان بوسعي سماع حزنه، وهو يقف بجانبي الآن وحيدًا، أكثر وحدة مما يمكنني أن أشعر حتى، حزن أكبر من ذكرياتنا مجتمعة. صديقان، أحدهما له زوجة صارت أشلاءً باردة تحت سطح الأرض، والآخر له عشيقة صارت روحًا باردة فوقها تناثرت في المنحدرات الموجودة تحت النهر الجليدي بعض الخراف والماعز. في مكان أقرب، كانت هناك بعض أشجار "العرعر" التي لا تزال أوراقها تُحرق على أيدي الكهنة في بعض المناسبات الخاصة. سقطت أشعة شمس العصر بالضبط عند شفتي النهر الجليدي.

سألت "فرحانة" وهي تقف بجواري:

- هذا هو، أليس كذلك؟

كانت تلك هي أول كلمات توجهها إليَّ منذ رحيلها عن كوخنا في "كاجان" لتنتقل للإقامة مع "ويس". أجبتها:

- نعم.

- أخبرني ثانية.

دُهشت من جملتها، هل تريد دليلًا على مدى ما أصابنا من تغيير؟ لم أستفسر منها عن سبب طلبها وإنما انطلقت أحكي لها من جديد، ومع كل كلمة أحكيها، عرفت أن القصة قد فقدت رونقها، وأن كل كلمة ساعدت في محو الرونق من خلال تعرية خسارتنا لبعضنا.

كررت الحكاية، أولًا يحدد عجائز البلدة الأنهار الجليدية التي ستتلاقى، يُلتقَط النهر الجليدي الذي يؤدي دور الأنثى من قرية يتصف نساؤها بالجمال، ويأتي الذكر من قرية يتصف رجالها بالقوة. لا يُسمح لنا بمشاهدة ذلك الطقس إلا بعد قَسَم الصمت، لأن الكلمات تخل بالتوازن الموجود بين العشيقين في أثناء نقلهما. قيل لنا إنه نذير سيئ لو شاهدت العيون الغريبة ذلك الطقس.

- لم تخبرني بذلك الجزء من قبل!

لا، لم أخبرها به. خيم علينا الصمت بعض الوقت، ثم وصل "ويس" الذي سألنا:

- إلام تنظران؟

لم أقل شيئًا، ومثلي فعلت هي. سأل:

- أهذا هو النهر الذي يتناسل؟

أجابته "فرحانة":

- نعم.

استطرد "ويس":

- يبدو صغيرًا، يجب أن يكون سمكه ستين قدمًا على الأقل لكي يطلق عليه اسم "نهر جليدي".

قلت:

- عمره سبعة أعوام.

فكرر ورائي غير مصدق:

- سبعة؟ هل أنت متأكد؟

قال "عرفان"، متخذًا جانبي مرة أخرى:

- لقد كانوا يفعلون هذا من دون العلوم!

أخرجت كاميرتي، وبينما أصور النهر الجليدي، فكرت في واحدة من أول الأشياء التي تعلمتها عن النظر من خلال العدسة؛ أن أجعل المشهد خاضعًا للقواعد، وهذا ما يعني إظهار المساحة المناسبة التي تتجه العين البشرية تلقائيًّا نحوها، وهو ما كان في هذه اللحظة الضوء الفضي اللامع عند حافة العلامة البيضاء.

شرعت "فرحانة" تشرح لـ"ويس" ما شرحته لها قبلًا. طقس تزويج الأنهار الجليدية القديم كان يعود إلى الحياة كوسيلة تعويضية لنقص إمداداتهم من المياه

الناتجة عن الذوبان.

- درجة حرارة الشتاء ترتفع، ودرجة حرارة الصيف تنخفض. المزيد من الانهيارات الجليدية، لكن لا يذوب منها شيء.

استنتجت وهي تشير عبر النهر:

- لهذا بعد سبع سنوات، ربما يصير هذا ذا سُمك يبلغ ستين قدمًا.

قال وهو يداعب شعرها:

- شكرًا على المعلومة. كم من الأنهار الجليدية درستها؟

- آسفة.

سأل "ويس" "عرفان":

- كم نبعد عن "جلجت"؟

أجابه وهو يسحبه بعيدًا:

- ليست بعيدة.

صرنا بمفردنا من جديد أنا و"فرحانة"، أنزلت كاميرتي. خلفنا، تسابق صف من الشاحنات العسكرية على الطريق السريع، وقد تباطؤوا في سيرهم ليتفحصوا مجموعتنا. سمعتهم ينادون "عرفان" ولمحتهم وهم يلوحون ببنادقهم في الهواء بطريقة تلقائية كأنها سجائر، تركت "عرفان" يتعامل معهم.

عبر الوادي، وقف مزارع يسقي حقله بالمياه التي ساعد على الأرجح في صنعها. زحفت الشمس عن شفتي النهر الجليدي، متجهة نحو الأرض المظلمة المرصوفة بالحصى. توقف ليستمتع بالضوء مثلما فعلنا نحن، ووقفت ماعز ترعى عند قدميه وقد ارتفع صليل أجراسها. دفعت خواطر راودتني عن ماعز "كيران" وأجراسها نحو الهاوية الموجودة على بعد، ودفعت مكانها في ذاكرتي بصورة لنا تعود إلى العام الماضي.

كنا نقف كحراس نحدق إلى المحيط الهادئ، حيث صوبت المراكب المسلحة أسلحتها قديمًا لحقول الألغام الواقعة خارج "البوابة الذهبية". "أعدني! أعدني إلى الأماكن التي تحبها!".

تدريجيًّا، بدأت الأرض السوداء الموجودة أمامنا تشتعل، كما لو كانت الشمس قد اختارت تلك النقطة بالذات لتريح عليها أصابعها الموقدة، لتبتلع الرجل وماعزته. بقينا في مكاننا نحدق إلى ذلك الوهج في انتظار الشمس أن تطلق سراح رهائنها، وبطرف عيني، لاحظت شيئًا يدور كسحابة مطيرة، وبينما ينزلق النهر الجليدي في الظلال، ارتفع صوت صليل أجراس ماعز "كيران" ليصم آذاننا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ملكة الجبال.. عن العدالة!

لا بدَّ من وجود مَن هو مستعد للتوصيل، لكنه لم يبحث بما يكفي، كان تحت سيطرة الرجال الذين تحطمت مدينتهم! أو هذا ما قالوه على الأقل. لم يستطع تمييزهم في ذلك اليوم في المقهى في "جلجت"، عندما ناوله الرجل ذو الكف الجلدي الناعم الصندوق. كان متأكدًا من أنه لم يرهم في "قشغر" منذ أربعة مواسم صيف. قدم كل واحد منهم نفسه باسم وهوية معينة، ربما كانت حقيقية بقدر حقيقة "غافور"؛ "رحمن" أو "رحمنوف"، "عمر" أو "عمروف". ماذا صار اسمه الآن؟ أخبر "مريم" ذات مرة أن الأسماء تتغير طيلة الوقت. لهذا لم تكن ثمة طريقة يعرف بها هوية هذين الرجلين في "جلجت"، أو لمعرفة حقيقة الرجل الذي لا بدَّ سرب لهما المعلومات في "أنديجان". هذا هو أكثر ما يثيره ويرهقه في تجارته. تمر دائمًا من هنا إلى هناك، ودائمًا ما تغير من هويتك كجلد الثعبان. لكن على الرغم من هذا، فقد كان عاريًا بالكامل أمام هذين الرجلين "الأويغوريين" من "قشغر"، أو هذا ما قالوه على الأقل. عرفوا عنه أكثر من مجرد علاقته بتلك الفتاة في الغرفة التي تعلو بعض درجات السُّلم، تلك الفتاة ذات الفخذين الناعمتين كالريش. "نعرف أنك فعلت ما هو أسوأ، وأن لديك بعض الأعمال غير المنتهية!" كيف عرفوا؟ ولو عرفوا، كيف لم يعرفوا أنه لم تكن لديه أي نية لإنهاء أعماله؟ لأنه ليس لديه وطن ينهيها فيه. لم تكن له مدينة، أو حقل، أو حتى بقرة أو صديق!

كل ما يملكه هو بعض الملابس الجميلة وزوجة بوسعها هزيمته في كل شيء.

وقف خارج فيلا مفتش الغابة الجديدة، فالقديمة احترقت منذ سنوات. عندما أُخبِر "غافور" بوجوب رحيله، لم يقف في مكان مكشوف، وإنما خلف شجرة. لم يسمح مفتش الغابة لمافيا الأشجار بأن تسقط الأشجار الموجودة قرب بيته، وإنما سمح لهم فقط بقطع الأشجار البعيدة.

وقفت قافلة من الشاحنات العسكرية في ممشى السيارات الطويل المتعرج الذي امتد أمام بيته، ووقف الجنود يدخنون سجائرهم ويحتسون بعض الشاي في ملل. منذ وصل "غافور" وهو يشاهدهم يوميًّا وهم يحيطون بواديه؛ "واديه"! لماذا يوجدون هنا؟ للإمساك بالمليشيات؟ لو كان هذا صحيحًا، فلماذا تزداد قوة معسكرات التدريب بينما يتوغل أولئك الرجال أكثر فأكثر؟ كانت الإجابة بسيطة؛ كل واحد منهم يتفق مع الآخرين، المافيا مع الحكومة، الميليشيات مع المافيا، والحكومة مع الميليشيات. إذًا ماذا سيفعلون بعد هذا، ملؤوا سماء واديه بطائراتهم؟ "واديه". ماذا كان هذا؟ "قشغر" أم كشمير؟ "أنديجان" أم أفغانستان؟ بدا ما يفعلونه من قطع للغابات منذ كان "غافور" لا يزال طفلًا يتعلم المشي سيئًا بما فيه الكفاية، لكنهم صاروا الآن يقتحمون بيوت الناس، بما فيهم "مريم".

لو كان هناك شيء واحد تعلمه في السنوات التي قضاها بعيدًا، فهو أن البدو في كل مكان يُعاملون بالطريقة نفسها، ما يمثله "الأويغوريون" للصينيين هو نفسه ما يمثله رعاة الماشية الكازاخستانيين لكازاخستان، وما كانوا يمثلونه بالماضي للاتحاد

السوفيتي، وكذلك الحال بالنسبة لرعاة الماشية الأوزباكستانيين في أفغانستان. صحيح أن مسافة كبيرة تفصل بينهما، لكنَّ كليهما كان تحت سيطرة روسيا وجماعة "طالبان"، وعلى كل حال، فإن حالهم لا يثير الشفقة أكثر من حال رعاة الخراف في كل أنحاء باكستان. فعلى سبيل المثال لو نظرت إلى ما يحدث في الجنوب، في "بلوشستان"، حيث تبيع باكستان ساحلها للصين، وتطرد الناس من أراضيهم، أو تعطيها لأمريكا، ولو نظرت إلى الشمال، ستجد أن الصين تبني طريقًا مستقيمًا يمر عبر قلب سلسلة "قراقرم"، ليصل إلى الساحل الذي سرقته بالفعل!

لكنه طفح به الكيل من تحمل أخطاء الآخرين. حان الوقت الذي يطالب فيه بحقه. لم يحتج إليه أحد قدر ما احتاج إليه أولئك الذين طلبوا منه الرحيل، كما لا يحتاج إليه أحد هنا قدر ما تحتاج إليه "مريم". ابتعد عن فيلا مفتش الغابة، متجهًا نحو كوخها. لو لم يتمكن من الانتقام للمعاناة التي يعانيها قومه، فعلى الأقل يمكنه الانتقام للمعاناة التي حلت بتلك المرأة، حتى لو لم تكن امرأته.

تحدثت "مريم" بنعومة مع الحصانين خارج كوخها. أتى "غافور" ثانية هذا الصباح منتظرًا أن يتحدث معها؛ بوسعه الاستمرار في الانتظار.

كان هذان هما الحصانان الوحيدان الباقيان؛ فرسة ومهرتها، كلاهما من سلالة "كالياني". عندما كان والدها حيًّا، كانت هناك المزيد من السلالات، مثل سلالة "نوقرا"، "بارسي"، وحتى "يرقندي" التي قيل إنها نزلت من وادي "فرجانة" منذ وقت طويل، ربما مع قومها بالطريقة نفسها التي يفعلها "غافور" بمفرده، لكن كل تلك السلالات انتهت الآن إلى الأبد، وربما بحلول الوقت الذي ستصير فيه "كيران" بعمرها نفسه، ستنقرض سلالة "كالياني" كذلك!

دفنت رأسها في بطن الفرسة وتنفست بعمق. "لن تكبر "كيران" لتصير بعمري أبدًا!" جعلها هذا الخاطر تشعر بالغثيان. دفعت شعور الغثيان بداخلها ودفنته بأعماقها لتتنفس بشكل أعمق ساحبة بطنها إلى فوق حتى كادت تصل إلى صدرها. ارتجف بطن الفرسة، ثم ابتعدت عنها بمقدار خطوتين مجبرة "مريم" على الوقوف.

أطلقت "كيران" على الفرسة اسم "ناماشا"، وهو ما يعني "بعد الغسق"، بسبب جلدها الداكن اللامع، لكن جلدها بدأ يفقد لمعانه منذ عودتهم من الأراضي الجبلية. عندما قادت "مريم" "ناماشا" إلى المياه، لم تشرب تلك الأخيرة، لكن مهرتها أخذت تشفط من المياه ببطء، وكانت تشاهدها. تساءلت "مريم" أكان ينبغي لها أن تربطها ثانية، أم تأخذها إلى الغابة لتأكل. كل شيء حدث بشكل خاطئ في ذلك العام. من المفترض أن ترعى تلك الحيوانات في المراعي الصيفية بالأعلى، وليس بالسهول هنا بالأسفل، ومعنى هذا أن غابات الأراضي المنخفضة ستنتهي، دون أن تجد فرصة لتنمو ثانية في أثناء المواسم الممطرة، وكانوا يشعرون أن الأمطار على وشك الهطول.

سرعان ما ارتفع صهيل "ناماشا" عندما ملَّت من طعام الأراضي المنخفضة. شعرت "مريم" أنها تفتقد هواء الجبال المنعش، والطريقة التي يداعب بها الأعشاب، وترغب في الشعور بتحطم قطع الثلج على لسانها. لماذا إذًا كانت تنتظر

الصيف كل عام؟ لماذا أبقت نفسها جميلة، حتى وهي في سنها هذا؟ بالتأكيد ليس من أجل تلك الحرارة الخانقة! ليس للذباب الذي يحوم حول عينيها!

تلقت المهرة "لوي تارا" إيماءة من أمها، فهزت عُرفها بخيلاء، ثم تشممت بأنفها عنق "مريم" التي سألتها وهي تربت على المهرة أولًا، ثم الأم ثانية:

- ماذا تريدين مني؟

سرت رعدة في جانب "ناماشا" بصوتٍ عالٍ كصوت البرق هذه المرة!

- كان يجب أن ننزل مبكرًا لدفن "كيران".

حدقت إليها "ناماشا" نظرة اتهام، في حين أقحمت المهرة "لوي تارا" أنفها في راحة يد "مريم". كانت "كيران" هي من سمَّت المهرة كذلك، ومعنى اسمها هو "نجمة الصباح".

وقفت "مريم" بين الأم والابنة، الصباح والمساء، وعندما أدركت "نجمة الصباح" أن كفها خالٍ، سمحت لنفسها باستكشاف أصابع "مريم" التي مدت أناملها تداعب شعرها الناعم، قبل أن تتحسس بأناملها حدود أنفها الجذاب. خطر لـ"مريم" أن أصغر أبنائها، "جومانة"، لم تكد تعثر بعد على كلمات لتسمية العالم من حولها، لكن عندما تفعل، هل ستعرف "مريم" بهذا؟ كانت الابنة مع والدها داخل الغابة، كما يفعلان كل يوم منذ عودتهم، لأن "مريم" وجدت أنه من المستحيل أن تعتني بها. يحتضن الزوج "جومانة" بين ذراعيه كل صباح والشمس تتمطى مستيقظة، وهي الساعة التي تكون فيها "نجمة الصباح" فوق الممر الذي يقيمون فيه، وكذا نجوم "الجيرجيتي"؛ فيتألقون معًا كأنهم عشيرة.

تتكون "الجيرجيتي" من ستة نجوم؛ كانت "مريم" تنطلق لتبحث عنها كل صباح منذ مدة طويلة وحتى الآن، وقد صارت في الوقت الحالي تجد صعوبة في إخراج نفسها من الفراش حتى. الآن صارت تحمل حجرًا حول رقبتها، حجرًا لا تستطيع حتى "مريم زماني" الأسطورية أن تنزعه، لهذا لم يوقظها زوجها، فهذا سيعني إيقاظها من نومها الثقيل. أخذ "جومانة" معه دون صوت، في حين يقود الحيوانات نحو الغابة، قبل أن يعود بها في وقت متأخر من النهار، وهنا أخبرها أن بوسعها أن تأخذها ثانية للغابة وقت الظهيرة، لوجبتها الثانية، إذا شعرت أنها قادرة على هذا.

شعرت بالحجر ينحشر في حلقها، لم يهم كم مرة حاولت ابتلاعه، فقد ظل حجمه يتزايد، ومعه تزداد أشواكه ولونه الأخضر، كأنما هو إحساس بالذنب.

همست وهي تبادل "ناماشا" النظرات:

- تركها تذهب في القارب!

فجأة شعرت بنفسها غاضبة من الفرسة، لأنها تسببت في إثارة الغضب الذي كانت تكظمه داخلها وتسببت في إخراجه من أعماقها، والآن صار يهدد بالانتشار عبر أوردتها أسرع من عضة ثعبان، في حين عانت "مريم" لإجبار نفسها على الالتزام

بروتين الحياة اليومي لعلها تنسى، بأن أجبرت نفسها على أخذ الجياد إلى الغابة من أجل وجبتها الثانية!

سمعت صوتها يحاول الشرح للفرسة:

- أتظنين أنه كان من الممكن أن أمنعه من فعلها؟ حاولت! أتسمعينني؟ لقد حاولت!

خبطت بقدمها على الأرض، فتراجعت المهرة إلى الوراء. وقفت الفرسة بجوارها، بينما تستطرد:

- مَن سيسمع كلام زوجة ويرفض تنفيذ طلب الأغراب الأغبياء؟ أجابني أنه لا يستطيع رفض طلبهم. قال إنهم ضيوف! لكنهم ليسوا ضيوفًا وإنما هم لصوص! لصوص!

ومع ذلك ظلت "ناماشا" الشريرة ترمقها بنظرة أنها مذنبة.

- ماذا كنتِ تفعلين لو كنتِ مكاني؟

التفتت الفرسة إلى الوراء، قبل أن تخطو في سخط نحو الغابة. صرخت "مريم" فيها:

- الأفضل لكِ أن تبقي في مكانكِ! فلن ندفع المزيد من الغرامات على حيوان عجوز متعجرف مثلك!

تبعت المهرة أمها وهي تهز ذيلها البني السميك كأنما تسخر من كلامها. رمقتهما "مريم" وقتًا طويلًا وهما تسيران، قبل أن تتجه بنظرها ثانية إلى الكوخ. من حسن الحظ أن "غافور" بالداخل، حتى لو لم تكن مستعدة لرؤيته.

في وقت مبكر ذلك الصباح، اقتحم شرطيان كوخهم، وكانت وقتها راقدة تستمع لزوجها وهو يتحرك على ساق واحدة، و"جومانة" تحاول اللحاق به على قدميها القصيرتين. قال إنه سيأخذها إلى الغابة ذلك اليوم، تمتمت بكلمات شاكرة، بالرغم من أنه بدا غريبًا أن تشعر بالشكر نحو الرجل الذي تسبب في فقدانها ابنتها الكبرى. احتاج الأمر منها أن تستجمع كل قوة بالكون لكي تستطيع أن تعتدل جالسة في الفراش. جلست من أجل ابنها، وليس زوجها. سيحتاج "يونس" إلى تناول إفطاره قبل ذهابه إلى المحل. وقف "يونس" أمام الستارة المفتوحة، كما اعتادت "كيران" أن تفعل كل صباح، لترمق السماء التي تسلل منها ضوء بنفسجي أخذ يتحول في بطء إلى لون الذهب. لا بدَّ من أن "لوي تارا" ستكون هناك، بالأغلب فوق كتفيه العريضين، وربما معها الستة نجوم "جيرجيتي" أيضًا، وفي هذه الحالة ستلتمع ثاني نجمة من أسفل أكثر من الباقين، ودائمًا ما تكون هي آخر مَن ترحل من السماء في الصباح. بعدها، اندفع رجال الشرطة داخل كوخهم ليحشروا "يونس" بالداخل، وينزلون الستارة إلى أسفل. هناك مَن فجَّر نفسه في قسم شرطة "بالاكوت"، وعلى حد قولهم، تسبب في مقتل أربعة شرطيين، ووضع أربعة آخرين في المستشفى، وأثار غضب الباقين. لم تجد "مريم" أي فائدة من إضافة تلك المعلومة الأخيرة. ركلوا الموقد والفراش الذي كانت لا تزال تجلس عليه، وشعرها لا يزال أشعث، فلم

تتمكن من تضفيره بعد، كما جعلوا "جومانة" تبكي. كسروا فناجين الشاي وهم يعلنون:

- سنعثر عليه!

قبل أن يسحبوا "يونس" من أذنه في غلظة وصرخوا فيه:

- لا بد من أنه صديقك، أليس كذلك؟ أين هو؟

شاهدت ابنها يبكي مرة ثانية ذلك العام، أول مرة كانت عند دفن "كيران"، وهذه هي الثانية، وهو يرتجف في قبضة أولئك الرجال!

قرر الرجال تركه وهم يضحكون، فقط عندما ظهرت قطرات من البول على بنطاله من الرعب، ثم جلسوا لتناول بعض الشاي، ثم طلبوا بعض الفناجين، ثم بعض البيض. لم تكن "مريم" مستعدة لترك "يونس" يخرج من البيت بمفرده، فطلبت من "سليمان" أن يذهب ليحضر بعض البيض ويقترض بعض فناجين الشاي، في حين ظل الرجال في كوخهم يرمقونها. لم يكن بوسعها ترتيب شعرها وهم يراقبونها هكذا، فألقت يديها بجانبها، وقد شبكت أصابعها معًا. كان شالها بعيدًا للغاية.

سألوها العديد من الأسئلة التي لا علاقة لها بموضوع التفجير.

أسئلة من طراز؛ ماذا تفعل امرأة من عائلة مثلها، حتى إن كانت مجرد عائلة من "الجورجاريين"، مع رجل مثله لا يستطيع المشي حتى؟ هل هناك المزيد من الأشياء التي لا يستطيع فعلها؟ كيف تمكن من جعلها تحمل في ثلاثة أطفال؟ وأين الطفل الثالث بالمناسبة؟ نعم، لقد سمعوا بالموضوع، وشعروا بالأسف الشديد، لكن ليس بمقدار أسفهم للعثور عليها مع رجل مثله. لقد كانت الفقيدة فتاة بعد كل شيء، ومن حسن الحظ أن "مريم" لا يزال لديها ابنها، وهو صبي جيد للغاية، فمن الواضح أنه يعتني بها، لكن لماذا لم ينجبا إلا ابنًا واحدًا فقط؟ كانت لا تزال شابة، أم أن زوجها لم يلحظ هذا وفي حاجة إلى مساعدتهم ليدرك المعلومة؟ وجهوا تهديداتهم إلى صدرها وعنقها ثم من جديد إلى صدرها وهم يبتسمون بخبث، في حين اشتعل "يونس" غضبًا، وصرخت "جومانة"!

نامت "مريم" الليلة السابقة وهي ترتدي ثوب "كاميز" خفيفًا للغاية، لأن الجو كان شديد الحرارة، ولم تمطر كما كان من المفترض. عاد "سليمان"، فشرعت في إعداد الإفطار، وبينما يأكلون، أخذت الأبقار تتلوى من الألم، وضروعها تنتفخ كشعور "مريم" بالعار، لكنها لم تجرؤ على الخروج لتهدئتها. جلست العائلة المكونة من أربع أفراد في خط مستقيم على الأرضية المتسخة - "يونس"، و"جومانة"، و"مريم"، و"سليمان" - يشاهدون رجال الشرطة وهم يجلسون متربعي السيقان على الفراش وهم لا يزالون يرتدون أحذيتهم الثقيلة التي أقحموها داخل أعماق الفراش، وداخل نسيجه، وعندما انتهت الوجبة، أخيرًا وقف الرجال، قبل أن يتبولوا عند الستارة المغلقة!

- تذكروا، سنعثر عليه مهما فعلتم!

ثم حطموا فناجين الشاي التي استعارتها العائلة للتو!

بعد ذلك رحلوا.

نظفت "مريم" بعد هذا كل خيط من الستارة وكل قطعة من نسيج الفراش، حتى بدأت أصابعها تنزف، وعندما رفعتها إلى شفتيها، شعرت بالمذاق الملحي يهدئها. لم ترغب في أن يزعجها أحد؛ لا أحد على الإطلاق!

والآن، وهي تراقب اختفاء الحصانين داخل الغابة، كانت شاكرة لأن "غافور" ينتظرها بالداخل. لم يكن ليقف دون حراك ورجال الشرطة يحطمون بيتها.

كانت المرة التي رحل فيها بعيدًا، عندما ترك لها قطعة القماش الحمراء، بعد احتراق فيلا رئيس مفتشي الغابات ببضعة أيام. ربما يكون هذا هو الوقت الذي بدأت تتشكل فيه أسطورة "غافور"، وربما بدأت أيضًا تأخذ شكلها منذ وقت طويل، منذ أول لحظة رأته فيها، لكنها لم تلحظ هذا، لأنها كانت مشغولة للغاية بمشاهدة أنامله وهي تعزف على الفلوت وعلى براعم التذوق الخاصة بها.

غرمهم المفتش بمبلغ كبير لأن ماشيتهم دخلت أراضي ممنوعة عليهم، ولم تكن المشكلة تلك المرة هي مجرد خروف التهم عنقين من نبات الزنجبيل، وإنما انطلاق القطيع بالكامل ينهش الحقل برمته، لكنها كانت كذبة! كان الحقل متعفنًا، ولم تكن ماشيتهم بقربه من الأساس. (كان الحقل عفنًا لأن مياه الفيضان الذي أتى العام الماضي دمرت الأرض بسهولة لعدم وجود أشجار، وسبب عدم وجود أشجار هو كون المفتش يتلقى رشوة في كل مرة تُقطع فيها المزيد من الأشجار! كانت هناك بداية لكلِ شيء، لكن من الصعب ملاحظتها في بعض الأحيان)، وعلى سبيل العقاب، أُجبِر الرعاة على دفع أربعة آلاف روبية، بالإضافة إلى تقديم كمية أسبوعية من الحليب، واللبن الرائب، والزبد، والسمن، لأجل غير مسمى، وتقديم السكر عند الطلب.

هناك دائمًا طرق للتعبير عن سخطهم. في الليلة التي احترقت فيها الفيلا، كان المفتش داخل المطبخ الموجود بمقدمة البيت يشرب الويسكي، وقد بدأ الحريق من مؤخرة البيت، من غرفة نومه! كانت الجدران مصنوعة من خشب الجوز، وكانت زوجته بغرفة النوم وقتها، وأطفالها في الغرفة المجاورة لها، وبحلول الوقت الذي وصلت فيه النيران للمطبخ، كان المفتش يختنق بالفعل، لكن ليس لدرجة نسيان نفسه، ترنح خارجًا من نافذة المطبخ وهو لا يزال ثملًا، ولم يتذكر عائلته إلا بعد هذا. صرخ في الخدم الذين لم يكونوا في أماكنهم - وهي نقطة ستثار فيما بعد - أن يعودوا إلى البيت لينقذوهم. تمكن الخدم من إنقاذ الأطفال، لكن زوجته صارت طعامًا للنيران التي كانت أشد من نيران جهنم، لدرجة أنهم فضلوا مواجهة المصير المظلم الذي ينتظرهم على أيدي المفتش، على أن يخاطروا بدخول غرفة النوم هذه.

ريشة غراب، ثم قطعة قماش.

لم يجرؤ أي من الخدم، بالرغم مما تلقوه من ضرب، أو خبطات على الرأس، أو غرامات فادحة، على الوشاية بـ"غافور"، كانوا يخشون ما قد يفعله بمن يفشي

سره، ما سيفعله سيكون أسوأ من أي شيء يعانونه الآن. لم تكن فخورة بما فعله، فقد أُرسِل أطفال المفتش إلى مستشفى المدينة بسبب حروقهم الشديدة، خصوصًا الفتاة، فمن سيرغب في أن يتزوجها الآن؟

كما أنها فقدت والدتها المسكينة التي لم يكن لها أي دخل بالنيران، سواء التي سلطها زوجها على الرعاة، أم التي سلطها زوجها عليها، في كل مرة تفتح فيها ساقيها لذلك الرجل الذي بدا مذاق الويسكي الذي يحضره كمذاق عرق مَن سرقهم.

أخبرت نفسها أنه ربما لم يكن "غافور" من فعلها، وتجاهلت الإشاعات التي انتشرت في الوادي بسرعة فاقت السرعة التي التهمت بها النيران زوجة المفتش، وربما أسرع حتى مما حرق "جنكيز خان" العشرة آلاف قرية. ذكرت نفسها أنه من رماد الأموات، أهدى ملك الكون العالم أول خدمة بريد! دون تلك الهدية، ربما لم تكن لتنجو بزواجها.

كان سعيدًا من أجلها عندما تزوجت، غنى لها ليلة زفافها الأغنية نفسها التي تحكي عن الأمير "سيف الملوك" والأميرة "بدر جمال"، وهي الأغنية التي غناها لها من قبل؛ خارج ضريح الجبال الخاص بها. راوده الشك حول أنها لم تحاول الاستماع للأغنية، كانت غاضبة لأنه لم يتقدم للزواج منها، أتى العديد من الرجال ليقدموا أفضل ما لديهم من ماشية، لكن هو لم يفعل. بالرغم من أن نجاحه كتاجر استمر، فقد أُعطِيت "سليمان" بدلًا منه. أهدت عائلة "سليمان" عائلتها بمعظم ماشيتهم، وعندما قبلت هديتهم، أعطى باقي أفراد القبيلة بعضًا من ماشيتهم عائلة "سليمان". وبهذه الطريقة، دُفِع مهر "مريم" جزئيًا.

أحضر لها "غافور" هدية زفاف، لكن في أثناء انتظاره داخل الكوخ، وجد أن الهدية لم تعد موجودة بالمكان. كانت الهدية سجادتين صنعتهما أنامل سيدتين من "طشقند"، وكان يظن أنها ستعلقهما على الجدران. ألم يكن ذلك المكان الفارغ مناسبًا لتعليقهما؟ نظر من قرب فوق الفراش، وهو المكان الذي يكون في الأغلب غير مرتب، لكنه لم يجد عليه أي سجاد.

لم يكن الكوخ نظيفًا أو مريحًا، في حين يكون البيت المدعو "يورت" فخمًا ومضاءً جيدًا. كان الرعاة الكازاخستانيون أفضل كثيرًا من "الجورجاريين" الموجودين بوادي "كاجان"، وندم جزء صغير بداخله على المجيء هنا من الأساس. كان "اليورت" مقدسًا، وبعد أن عاش ثلاثة مواسم صيف بواحد منها، قرر "غافور" أن هذا هو ما يجب أن يبدو عليه شكل البيت، يجب أن يكون نسخة من السماء اللانهائية. يجب ألا يسمح للأحذية بدخول المنزل، يجب ألا تترك أكواب الشاي المحطمة على الأرض، يجب ألا تستلقي الأوعية الفخارية فارغة. لماذا ليست هناك أي مياه للشرب هنا؟ هذه الجدران ليست أفخاذًا، وفتحة الدخان بدت عينًا شريرة، كما لم يكن هناك إطار شبكي، ولا رحم.

بدأت نقاط التشابه التي رآها سابقًا بين بدو "الترك" من السهول وقبيلته تتلاشى. صحيح أن كل قبيلة منهما تعيش حسب دورة الطبيعة، حاملين بضائعهم على ظهورهم، ويتشاركون مواردهم، ويرحبون بضيوفهم، ويرعون ماشيتهم من مرعى

إلى آخر، حتى لا يُلتهَم كل ما في الحقل بالكامل، فلا يتمكن من النمو ثانية، لكن لو كان ما رآه في السهوب هو رخاء بالرغم من المشاق التي يمرون بها، فإن ما رآه هنا كان دمارًا بسببها. هل ما زالت "مريم" تنظِّف بيتها بفرع شجر "العرعر"، أم أنها توقفت عن إبقاء ذلك الطقس حيًّا؟ لم يستطع تخيل أن الاحتفالات لا تزال تقام هنا. شعر فجأة بالشكر تجاه المرأة التي يستطيع النوم أسفلها في كل ليلة، المرأة ذات الذراعين البيضاوين الممتلئتين التي كانت تنتظره هناك بالأعلى عند نهر "أوكسوس" وبالأسفل في أعماق السهوب.

احتاج إلى أن يذكِّر نفسه أنه شعر بالسعادة عندما تزوجت "مريم" أكثر مما شعر عندما تزوج هو نفسه، احتاج إلى أن يذكِّر نفسه أنه هنا الآن، وسط كل ذلك البؤس والتعاسة لسبب. يحتاج إلى خطة، وقد شعر في داخله أنه اقترب من معرفتها.

شعرت بالسعادة من أجله، عندما أصبح ثريًّا. لم يتقدم لطلب يدها، بالرغم من أنه كان بمقدوره فعلها من الناحية المادية. عوضًا عن هذا، قدمت عائلة "سليمان" أعلى مهر، وقد ناسبت الزيجة كلتا العائلتين. في الأعوام الأخيرة، استسلمت عائلتها للضغط الواقع عليها لتستقر أكثر، وتتحرك أقل، وعلى الرغم من أن الولاية تستطيع مراقبتهم عن قرب الآن، فإنهم تركوا لهم القليل من الخيارات. لم يكن بمقدورهم الاستمرار في تفادي المراقبة، صارت المعيشة اعتمادًا على الماشية فقط لعنة، مع وضع نفوق كل السلالات المحلية في الاعتبار، بالإضافة إلى القيود المفروضة عليهم لرعاية ماشيتهم في غابة يتقلص حجمها كل يوم، لهذا اشتروا قطعًا صغيرة من الأراضي وحاولوا أن يصبحوا مزارعين.

عارضت والدتها - عندما كانت على قيد الحياة - هذا التغيير بشدة، من منطلق أن "يمكن تسخير الأحصنة، ولكن ليس "الجورجاريين"!"، فرمقت شقيق "مريم" بغضب وهو يزرع أول نباتاته بدلًا من رعاية أغنامه، ثم ركلت قطعة أرضه المغطاة بالجليد التي سرعان ما تخلى عنها للعمل في منجم.

وعندما أعطاه المقاول نقوده، استغلها في الشراب. في حين نجح آخرون من عائلتهم؛ صاروا تجارًا وبائعين، أو انضموا إلى الجيش، لدرجة أن بعضهم - مثل صديق شقيقها المدعو "غافور" مثلًا - ارتحلوا عبر العالم وعادوا إلى الديار أغنياء، فصارت المتاجر الكبيرة بالمدن الكبرى ترحب بهم، وصاروا يرتدون ملابس فاخرة، ويمتلكون بنادق جيدة، وبين الحين والآخر- بالرغم من أنه يحدث بشكل نادر - إذا تمادى أحدهم كثيرًا، فإنهم يطلبون منه الرحيل، وإذا عاد، فإن الآخرين ينظرون بعيدًا عنه بقدر ما يستطيعون، دون ذكر الجريمة، أو الأسطورة.

على الجانب الآخر، رفضت عائلة زوجها التغيير، وهي النقطة التي أكسبتهم الكثير من النقاط على الفور في نظر أمها، كانوا رعاة ولطالما سيكونون كذلك! لا تأتي الكرامة والكبرياء إلا مع العادات، ولا يأتي السلام إلا مع المواسم والنجوم، والحيوانات القوية، وعشب الربيع المنعش. لم يملكوا ملابس جيدة وكانوا يتفادون البنادق السيئة، لكن ليس معنى هذا عدم استطاعتهم أن يستفيدوا من حماية أشخاص - مثل أقارب "مريم" الأكثر دهاءً - الذين يستطيعون الطرق على الباب الأمامي

لمنزل مفتش الغابة الجديد، مرتدين ملابس بيضاء، ويحملون معالق فضية من أجل زوجته الجديدة التي ارتبط بها للتو.

تذكرت الحصان الذي امتطته لكوخ زوجها في ليلة زفافها، وتذكرت كمية السمن والزبد التي وزعتها عائلتها في الاحتفال. مات الحصان بعد وقت قصير، ولم تعرف السبب! لكنها بكت من أجله. تذكرت كذلك صف العربات التي تجرها الحمير التي وصلت إلى زفافها مع الضيوف الذين أجبروا على الجلوس على مجموعة من جذوع الأشجار. كانت تلك واحدة من الطريقتين اللتين يفضلهما المهربون لنقل بضاعتهم، إما أن يرسلوها نزولًا عبر نهر "كنهار" حتى تصل إلى البحيرات الكبيرة مثل "مانجلا" و"تربيلا"، حيث ينتظر مسؤولو الغابات، وإما أن ينخرطوا في الاحتفالات العامة، وقد غطوا أرضيات العربات والشاحنات بقطع الأخشاب، ويجبرون أفراد العائلة على الجلوس عليها. كانت جميعها واجهة، لأن أي شرطي يوقفهم سيكون شريكًا في الجريمة، ولما كان أولئك الذين جلسوا على الجذوع شركاء لهم كذلك، فلم يجرؤ أحد على الشكوى. بحلول الوقت الذي وصل فيه ضيوف "مريم"، كانت ملابسهم ممزقة ومتسخة بالطين، وهي الملابس التي ادخر بعضهم شهورًا ليتمكنوا من شرائها، وحاك آخرون ملابسهم على ماكينة خياطة "سينجر" يتشاركون استعمالهما منذ عمر طويل، يفوق أعمار جميع أبنائهم، وأعمار بعض زوجاتهم، لكن عندما بدأ "غافور" يغني عن "سيف الملوك" وحبه "بدر جمال"، انطلق الجميع بالرقص، لدرجة أن بعضهم رقصوا رقصة دائرية، يصفون فيها رحلتهم عبر قطع الأشجار.

لم ترقص؛ كان بوسعها أن تلاحظ أنه على الرغم من فرحته، فإن حرب "غافور" مع المسؤولين لن تنتهي قريبًا! لم تهتم، فهو لم يتقدم لطلب يدها.

في ليلة عرسهما، فك زوجها ساقه الخشبية، فوجدت تفكيرها يتجه نحو الأشجار المبتورة المخفية في آبار المياه. كانت هي - "مريم" - بئر المياه الخاصة به. في الليالي التالية، تعلمت كيف تساعده في نزعها، وتعلمت كيف تفك الشرائط الرمادية والصفراء المحيطة بالأسطوانة البنية، كانت ناعمة للغاية، حتى رائحتها بدت ناعمة. لم تخفها كما خشي زوجها أن تفعل. سألت:

- كيف حدث هذا؟

رصاصتان، من قبيلة "ساواتي" الأفغانية المنافسة بالغرب. لو لم يكن عدوك من مفتشي الغابات أو ملاك الأراضي أو رجال الشرطة، فإنه يكون من الرعاة الآخرين. قالوا وقتها إن ماشيته تلتهم من أرضهم، على الرغم من أنهم لم يملكوا تلك الأرض من الأساس، وإنما الأرض هي من امتلكتهم! ضمد الجرح بنفسه، كما ضمد جراح أحصنته كثيرًا من قبل، لكنه كان أرقَّ في تعامله مع أحصنته. حاول أن يتجاهله، لكن الجرح سرعان ما بدأ ينزف، نظفه بخشونة لدرجة أنه دفع البكتيريا والرصاص - الرصاصة الثانية لم يُعثَر عليها أبدًا - إلى داخل جسده أكثر فأكثر! ثم رأى ذات صباح لونًا داكنًا يتسلل من تحت الضمادة التي تكونت قشرة من الدماء

عند حافتها على شكل كدمة مروعة، كأنها جلد بقرة. حنى رأسه واستنشق، فصدمته رائحة كريهة جعلته يبكي.

- هذه الساق أجمل كثيرًا.

قالها وهو يجري بأنامله حول أناملها التي أحاطت بالساق الخشبية. اعتادت أن تربت بأصابعها نهاية الطرف المبتورة كذلك، والتي بدت كعقدة جلدية لا يوجد بها عظام. كانت تفكر في زوجها على أنه مصنوع من الغضاريف، مرن، لكنه في الوقت نفسه شديد الصلابة.

كان يقول عن نفسه إنه زوج جيد، "من حسن حظك أنني لست كالآخرين". كان محقًّا. لم يتدخل في الطقوس التي تؤديها عند الضريح، حتى في الأعوام الأخيرة، في حين كان يتزايد الضغط عليه لإجبارها على الالتزام بشعائر الإسلام الذي ينتشر في المكان، كما تركها تظل على التقويم القديم عوضًا عن وضع التقويم الإسلامي. يدعونه شهر "محرم"، لكنه كان لا يزال بوسعها أن تطلق عليه اسم "شايتار"، يدعونه "رامزان"، أي "رمضان" لكن لا يزال بوسعها أن تدعوه "مانجيرو"، أما شهر "صفر" عندهم فاسمه عندها "بايساخ". ولا يزال بوسعها أن تضع علامة على تاريخ رحيلهم للأراضي الجبلية في "ناروز"، وعودتهم إلى الأراضي الواطئة في "هيت".

"مواسم وثنية، لزوجة وثنية!"، هذا ما يقوله الآخرون، لكنه تجاهلهم بطريقته الهادئة الكريمة؛ هدوء وكرم خلق قويان كساقه. المرة الوحيدة التي تدخل فيها كانت بالعام الماضي، عندما رغبت في الاحتفال بـ"ديوالي" مع أطفالها، كما كانت تحتفل به أمها معها. حذرها بهدوء أن هذا سيترك علامة واضحة للغاية؛ أوضح حتى من كل الكواكب التي كانت تدعوها بأسمائها الخاصة. هكذا توقفت بالعام السابق، ودون أن يقول هو كلمة عن الاحتفال كذلك بكل من "لوهري" و"فيساكي". ابتهجت لمرور البرد القارس داخل قلبها فقط، ورحبت بالربيع في سرها فقط كذلك.

بعد مولد "كيران"، بدأ "غافور" يترك لها علامات مرة أخرى، أخذت الإلهام من سلوك زوجها الذي لا يشتكي، تأقلمت مع إشعار نفسها بالسعادة عندما ترى قطعة قماش أو حجر، وتخفف من اشتياقها إلى المزيد. ستسحب المزيد من القوة مما تتعرض له من قمع، حتى لو كانت تعثرت بين الحين والآخر. ذات يوم، رأى الغضب لامعًا في عينيها - لماذا لم تحاول التقدم لي - فقال بضعف، أكثر حتى من ضعف زوجها في أثناء سيره، "كنت سأصبح زوجًا سيئًا، أنا أفضل كصديق!" ضحكت في وجهه، لكنها لم تفعل ما هو أكثر. استمرت في الاستمتاع بحكاياته، واستمرت في تجاهل ما يشيع بالوادي من إشاعات منذ التهمت النيران فيلا المفتش؛ نما "غافور" ليصبح شديد المراس مثل الصحبة التي ظل فيها، صحبة الرجال القادمين من الشمال، والذين اتصفوا بالخشونة، وليس المرونة.

ها هو الآن لا يزال داخل كوخها، ذلك الرجل الذي لم يستطع الوقوف بشكل عادي بجانبها، ورجال الشرطة يقلبون بيتها رأسًا على عقب، يتحرشون بابنها، ويسخرون

من شرفها. وبكل هدوء، فتحت "مريم" الستائر وقد صارت مستعدة للتحدث. قال مبتسمًا:

- أخيرًا.

سألته في حدة:

- لماذا أتيت إلى هنا؟

- كيف حال "سليمان"؟ "سليمانوف"؟

لم تضحك على مزحته، فسألها:

- أين هو؟

كررت سؤالها:

- لماذا أتيت إلى هنا؟

- ألا تريدين معرفة ريشة مَن هذه؟

لم تشعر بالسعادة عندما أحست بغضبها يتبدد. سألها وهو يضغط على كلماته:

- أتريدين سماع حكاية؟

كانت الطريقة التي يتحدث بها معها تشبه الطريقة التي كانت تتحدث بها "مريم" مع "كيران" عندما كانت تعلقها على ظهرها، فتستمع لها "كيران"، كما تستمع "مريم" دائمًا لـ"غافور"، وقد اتسعت عيناها متحمستين.

بينما يتحدث، تحركت عيناها - التي لم تتسع هذه المرة في حماس - نحو المكان الذي اعتادت أن تعلق فيه بالسابق هدية زفافه لها كل خريف عندما يعودان من السهول.

تذكرت اليوم الذي أحضر الهدية فيه؛ سجادتين من الشمال، صنعتهما أنامل امرأتين من الغجر تستخدمانهما لعزل جدران بيوتهما. كانت تختلف عن السجاد الكشميري الذي يباع في "كاجان". سألها: "كيف؟" وهو يفردهما على الأرضية. لم تكن خبيرة بالسجاد، وتفضل النظر بعينيها واللمس بأناملها قبل أن تصدر حكمًا. كان الصوف الكشميري ناعمًا للغاية ولامعًا، وتلك الخيوط خشنة كالخرز. أما بالنسبة إلى ألوانها، فقد بدا اللون الأحمر شديد اللمعان لدرجة أنه بدا كأنما سينزف على أطراف أناملها، ليذكرها أنها لمست نفسها في ذلك المكان في ليلة زفافها، بعدما استغرق زوجها في النوم. لمع اللون الأحمر بمنتصف السجادة، وأحبت كيف تحركت عيناها من الأطراف إلى مركز السجادة اللامع، ثم إلى الأطراف من جديد. لم تنزف السجادة الثانية، وإنما كان فيها نقش متعرج ثابت، كل خط فيه واثق من نفسه وينساب سريعًا في مكانه، أحمر، ثم برتقالي، يتبعه الأصفر، ثم الأخضر. كل ظل كان حادًّا وواضحًا.

بدت على "غافور" الصحة، وربما السعادة، ومشط شعره ذا اللون البني الفاتح إلى الجانب، وحلق لحيته، في حين بدت سوالفه ثقيلة كفاية لجعلها تصلح لتصنع ضفائر. ربت السجادتين بفخر (كما لو كان هو من صنعهما، هكذا فكرتْ)، وقال شيئًا عن كون النساء يرتدين ملابس كالرجال، مثل البناطيل المصنوعة من جلود الحيوانات، والأحزمة التي تنتهي بمشابك مربوطة بخصورهن.

كان القميص الذي ترتديه "مريم" واسعًا، لكن بطنها مشدودة. مرت بيدها خلسة على بطنها وهو يتحدث، وهي تتساءل عن الكيفية التي تتمكن بها النساء من الحياكة ببطون تطوقها الأحزمة؟

عندما رحل، علقت السجادتين خلف الفراش الذي تتشاركه مع زوجها، وعندما وُلد ابنها، علقت السجادتين وراء مهده، وعندما ولدت "كيران"، انتقل المهد ليصبح لها، وحركت السجادة الثانية كذلك.

لم يتساءل زوجها عن مدى غلو تلك الهدية، لأن "غافور" صديق شقيقها، كان هذا يكفي لاعتباره من عائلتها، لكنه مع مرور الوقت، صرح أن تلك الهدية تجتذب الكثير من الانتباه، ليس فقط بسبب مَن قدمها، وإنما لأنها تجعلهما يبدوان من الأثرياء؛ شديدي الثراء بالنسبة إلى اثنين من البدو، لهذا اضطرت إلى نزعهما من على الجدار، متمنية أنه عندما تنام "كيران"، ستملأ أحلامها الجدار بألوانها الخاصة.

ظلت تحدق إلى الجدار، وعقلها يدور هنا وهناك. تمنت لو يعثر زوجها على "ناماشا" في الغابة. يجب أن تعد الغداء، لا بدَّ من أن "جومانة" تلعب مع الماعز كما كانت "كيران" تفعل من قبلها، في حين أن "يونس" في السوق يبحث عن حياة أفضل، أراد أن يكون مثل "غافور"، وليس مثل والده. كانت قافلات الجيش في كل مكان، مر أسبوع على موت "كيران"، لكنها لم تعرف بمرور الأسبوع إلا عن طريق عدد الوجبات التي أعدتها لعائلتها لتتناولها.

قال "غافور":

- لم تعجبك الحكاية.

حركت عينيها من على الجدار وركزتها على عينيه ذات اللون البني الفاتح اللتين ماثلتا لون شعره، وكانتا مراوغتين، كعادته دائمًا. فرحت لكونه حلق سوالفه. في كل مرة تراه فيها، يكون قد غيَّر من شكله بطريقة ما، وبالتأكيد يغير اسمه في كل مرة. كان يرتدي بنطالًا، وليس بنطالًا باكستانيًّا واسعًا، وقد وضع حزامًا حول وسطه، بمشبك فضي ضخم ذي نقش كانت لترغب في تأمله عن قرب. حركت عينيها من على الحزام إلى أعلى. أجابته:

- لم تُحِكْها بشكل جيد.

ابتسم بمكر وقال:

- إذا دعيني أجرب حكاية أخرى. لقد ذهبت إلى وادي "فرجانة" وامتطيت أحصنته الشهيرة. كانت أحصنة جميلة، لكن لا واحد منها له شخصية "ناماشا".

توقف عن الكلام وهو لا يزال يبتسم، إذن فقد شاهد شجارها مع العجوز الشمطاء...

- يجب أن أبحث عنها في الغابة.

- إنها بخير.

لم تتحرك "مريم".

- أتعرفين أين يقع وادي "فرجانة" هذا؟

- أنت تعرف أنني لا أعرف مكانه!

- أخذه الصينيون قبل أن يتمكن الروس من هذا، وأطلقوا العديد من الأسماء على الأحصنة؛ "أحصنة النعيم"، "الأحصنة التي تعرق ذهبًا"، وحتى "الأحصنة التي تعرق دمًا"، لكنهم لم يتمكنوا من ترويض ولو حصان واحد منها.

أخذت "مريم" نفسًا عميقًا، وهي سعيدة لأن الغضب الذي حبسته داخلها بصعوبة لم يتبدد ثانية. شعرت أن كلمات "غافور" اليوم ينقصها بعض العسل.

-.. ثم أتى العرب الذين حاربوا الصينيين وانتصروا، وسرعان ما انتشر الإسلام عبر كل منطقة آسيا الوسطى، ومثله انتشرت الأحصنة التي تعرق ذهبًا ودمًا. باعها العرب للصينيين الذين هزموهم.

- لماذا تخبرني بكل هذا؟

عبس وجهه وهو ينظر نحوها دون أدنى أثر لابتسامة. تذكرت الشائعة. كان يحافظ على صحبة الرجال الصارمين، وربما النساء الأكثر صرامة. أرادت أن تسمع المزيد عنهم، وليس عن الأحصنة، فهي تعرف بالفعل الكثير عن الأحصنة.

ظل ناظرًا نحوها بتعبير المرارة ذاك وهو يستطرد:

- لقد أتيت لرؤيتك مخاطرًا بنفسي بشدة.

هل من المفترض أن تشعر بالشكر لهذا؟

فكرت في "سليمان" ثانية، وفي الشعور بالشكر الذي ينتابها نحوه لأنه يعتني بـ"جومانة"، لكن لماذا لم يهتم بـ"كيران" كذلك؟ لماذا يتوقع الرجال دائمًا الشعور بالشكر مقابل أقل الإيماءات، في حين تكون أخطاؤهم الكبرى كارثية لا رجعة فيها؟ لماذا تتحمل النساء هذا دائمًا؟

استمر في حديثه متأثرًا:

- "بخارى"، و"طشقند"، و"سمرقند"، و"فرجانة"؛ الناس هناك فخورون بأنفسهم يا "مريم"، هم بدو مثلنا، مرت عليهم قرون من القوة، هزموا الصينيين، وبنوا

الإمبراطورية المغولية التي هزمت الهند، وهزموا الروس ولم يسمحوا بأن يُكبّلوا بالغرامات، أو بالجنود!

أرادت أن تسأل، "بالخسارة؟ هل سمحوا لأنفسهم أن يصبحوا مكبلين بالخسارة؟" استمر في حديثه:

- لماذا قوافل الجيش هنا؟ للعثور على قاتل؟ لا يوجد قاتل! إنهم يريدوننا نحن! طريقتنا في الحياة؛ أحصنتنا، وأطفالنا، وحريتنا، يريدون تملكنا، هذا يحدث في الشرق، في كشمير وتركستان، وفي الجنوب في "وزيرستان"، وفي الغرب في أفغانستان. لو لم تكن بسبب الروس، فستكون بسبب الصينيين، ولو لم تكن بسبب الصينيين، ستكون بسبب الهنود، ولو لم تكن بسببهم، ستكون بسبب الأمريكيين أو الباكستانيين الخونة الذين يرسلون الناس إلى سجونهم! ولو لم يرسلونا إلى هناك، فانظري إلى ما يفعلونه بنا هنا، يقتلون خرافنا، يقيمون أسوارًا حول الأراضي، وينهبون غاباتنا، ويهينون نساءنا. لا يعرفون شيئًا عنا، لا يعرفون كيف نعمل بالأرض، ولا يعرفون ما تفعلينه أنتِ يا "مريم". لا يمكنهم رؤية يديكِ، انظري إلى يديكِ!

تقدم فجأة نحوها وقبل أن تتمكن من منعه، جذب يدها مستطردًا:

-.. انظري كم هما مجروحتان ومليئتان بالكدمات! لن يتركونا في سلام!

سحبت "مريم" يدها سريعًا وأخذت خطوتين إلى الخلف، نحو الجدار. لم تره من قبل على هذا الحال، كان يحب دائمًا أن يلقي الكلمات نحوها، كلمات صادقة، وطويلة، وغريبة، يتباهى فيها برحلاته، وعالمه، لكنه كان يفعل هذا للإبهار. الآن لم تعد متأكدة من الغرض منه. من قبل، حتى وهو يفتخر بنفسه، كانت لديه وقفة مختلفة عن زوجها. نبعت وقفة "سليمان" من سنوات من تحمل الألم والإهانة، أما وقفة "غافور" فنبعت من رفض الألم والإهانات، لكن الآن لم تعد متأكدة ما هو الشيء الذي يرفضه أو يتحمله.

حدق إليها كما لو يريد أن يحدد هل يستمر أم لا، لو كان بوسعها التخمين، لقالت إن وقفته امتلأت بالخوف. ظل يحدق إليها. نعم، كان خائفًا؛ مثلها. شيئًا مما قاله جعل جفن عينها اليمنى يرتعش. جعلها ترغب في أن تقول بازدراء غلف المسرحية التي شهدتها لقاءاتهما السابقة "أنت تبالي أكثر بالجواهر والنقود. لم تعد تعمل في الأرض، فلماذا ستبالي؟" لكنها احتفظت بهدوئها، ودفنت الفكرة داخل صدرها، حيث حبست الكثير من الآمال الأخرى من قبلها، ومن ضمنها تلك الفكرة التي ربما كانت لتشاركها بالماضي: كانت تفضل حكاياته عن نساء الغجر بخصورهن المربوطة، وحكاياته عن قطع القماش النادرة المصنوعة من قلوب الزهور، وحتى حكايات الفتوحات والاحتلالات والسجون. ربما تستطيع أن تعيده إلى تلك الحكايات من جديد، لكن يجب عليها تهدئته أولًا. تنحنحت قائلة:

- هل ستبقى للغداء؟

عبس مجيبًا:

- سأرحل قريبًا!

- لكنك وصلت للتو!

- كنت أنتظر إلى ما يقرب من الأسبوع لأتمكن من الحديث معك.

أومأت برأسها وقد شعرت ببعض الخجل يعتريها، وهو يستطرد:

- هناك شيء يجب أن أعرفه قبل أن أرحل.

نظرت إلى أعلى وهي تتلقى سؤاله:

- مَن منهم قتلها؟

أرسل السؤال رعدة بجسدها. أخذت خطوة أخرى إلى الوراء، لكن لم يكن هناك مكان آخر لتذهب إليه.

- أيهم يا "مريم"؟

- كلهم فعلوها!

شعرت بإحساس الغثيان يتعالى من جديد بداخلها. كان مثل "ناماشا"، يسحبها إلى أسفل نحو دوامة حزنها، وهي كانت تتمنى أن ينقذها منها.

- هل ستفعل شيئًا؟ أم إنك ستكون مثل البقية، سترفع يديك إلى أعلى لله قائلًا إنها مشيئته؟

- ماذا تريدين مني فعله؟

سكت وهلة، ثم استطرد:

- عندما ترينهم، ماذا تريدين أن تفعلي؟

همست:

- لم أعد أراهم!

لكنها كانت كاذبة، فقد رأت الرجل منذ مدة ليست بعيدة للغاية عند المقابر، صديق "عرفان" ذلك، الذي كان ينظر دائمًا إلى جانب الطريق. لاحظت وجوده على الطريق عندما ذهبت إلى السوق لتبحث عن ابنها، ورغبت وقتها في فعل شيء، أي شيء لتخلص نفسها من الغضب الذي زرعه داخل صدرها.

انتظر "غافور". الآن صار أكثر هدوءًا منها، وعلى غير المتوقع، فقد هدأته بحزنها. قالت في النهاية:

- لم يكن كلهم واحدًا منهم فقط. أصغرهم تحدث معنا، لطيف، والآخر أمريكي.

- لا يمكننا لمسه.

- والأخرى امرأة.

- لا يمكننا لمسها.

ها هو ذلك الشعور يبدأ من جديد، بوسعها الشعور به وهو ينهض بداخلها كأنه كان تنينًا غافيًا استيقظ للتو، مذاق كريه للغاية لدرجة أنها اضطرت إلى البصق للتخلص منه، فوقعت بصقتها على أرضية كوخها.

- كانت فكرتها!

بدأت الدموع تتدافع من عينيها، ساخنة، غاضبة.

- ماذا عن الرابع؟

- هل سمعت ما قلته؟ كانت فكرتها!

هز رأسه.

- لا يمكننا لمسها، فهي مع الأمريكي.

- لماذا سألتني إذًا ما دمت تعرف قصتهم؟ ظننتك أتيت من أجلي!

- وقد أتيت من أجلك فعلًا، ماذا بشأن رابعهم؟

كانت على وشك أن تقول "الرابع هو الذي تتبعني"، لكنها ترددت. هو الذي حدق إلى "كيران" عندما أعادتها البحيرة، الرابع هو من قتل وجدف، ماذا كان يفعل عند القبور؟ سمعت أنه يحوم حول ضريح سري؛ ضريحها! هل يرغب في الغوص أكثر فأكثر داخل الجحيم؟ حسنًا، لن يكون أعمق من جحيمها، وعلى أي حال، لن يعثر عليه أبدًا! انتهى بها الأمر تتبعه بين القبور، فقد كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاعت التفكير فيه، وبينما تقف هناك تشاهده، شعرت بشيء غريب في الطريقة التي انحنى بها على شواهد القبور، والطريقة التي حدق بها إلى نقوش الأحصنة والبط، شيء في طريقته كان مألوفًا للغاية؛ لقد رأته من قبل، من قبل مجيئه إلى البحيرة، لكن كيف؟ مؤخرة رأسه وعرض كتفيه، وطوله، وحتى قميصه، لقد رأته من قبل! لم تستطع أن تحدد الوقت، لكن بينما كانت واقفة مكانها تحدق إليه، بدا لها أنه محبوس وعرفت أنه سيكون هكذا دائمًا، كما بدا خائفًا للغاية، جميع مَن حولها خائفون.

حرك "غافور" أصابعه بحدة كما كان يفعل عندما كانت أصغر سنًّا، محاولًا استعادة انتباهها. كرر للمرة الثالثة:

- ماذا بشأن رابعهم؟

حاولت تشكيل أفكارها ببطء لكلمات فقالت:

- لا أعرف، إنه.. غريب!

- غريب، كيف؟

- الفتاة هي مَن لم تشعر بتأنيب الضمير.

- الصغير، كان على تواصل مع زوجك.

أومأت برأسها وقالت:

- أراد أن يدفع لنا تعويضًا، لكن زوجي لم يرغب في هذا.

- لكن رأي شقيقك مختلف.

- وكذلك هو.

أومأ برأسه، وقال:

- عقدوا صفقة.. الله رحيم، ولسوف يهدينا الطريق القويم الذي يتوجب علينا أن نسلكه.

نظر بعيدًا عنها في تلك اللحظة.

- ماذا ستفعل؟

- هم متجهون إلى الشمال.

- لا أبالي أين سيذهبون، لا أبالي لو سقطوا من فوق هوة العالم.

بمجرد أن نطقت تلك الكلمات، ظهرت أمام "مريم" صورة شديدة الوضوح، كأنما هي نافذة فُتِحت أمامها لتظهر لها بحيرة. بالرغم من أن "مريم" لم يكن بوسعها رؤيته، فإنها استطاعت رؤية القمة التي رقد عليها محبوسًا. ذلك الرجل الذي تتبعها وتتبعته، ذلك الرجل الذي رأته من قبل. لم تستطع رؤيته، لكنها عرفت أنه هو، لم تكن تحيط به شواهد قبور صغيرة في مقبرة، وإنما أحاطت به أحجار كبيرة ذات حواف مدببة على شفا هاوية لم ترها من قبل. كانت تلك الهاوية على شكل ناب لامع، في مكان يتوالد فيه الجليد ولا يذوب فيه الثلج أبدًا. كان محبوسًا، وخائفًا للغاية.

أخيرًا، ابتسم "غافور"، وظهر العسل في عينيه.

- أخيرًا رأيت "مريم" التي أعرفها!

نظرت إلى أسفل، واختفت صورة الرجل الموجود على الجبل.

والآن صار صوت "غافور" خافتًا وناعمًا، كما كان حاله في الصباح الذي أحضر لها فيه الزهرة الصفراء.

- ارتقي إلى مستوى الاسم الذي تحملينه يا "مريم زماني"، لا تحاولي الالتفاف حول تلك الصخرة أو السير عبرها، فهذا سيؤلمك أكثر، إنها عائق يجب أن تزيليه.

نظرت إلى أعلى.

- لا تقلقي.

بينما يكمل كلامه، فكرت في أن "كلماته تسري كخيط حريري؛ خيط له لون النيران نفسه، وتلك النيران ستدفئ القطع المحطمة بداخلي، لكن يجب أن أتذكر؛ الأهم من الدفء أن أحصل على العدالة". استمر في حديثه:

- هناك مَن يسيرون نحو الجدار! كل ما علينا فعله هو أن نستمر في دفعهم إلى الأمام، كل ما علينا فعله هو مصاحبتهم، أما أنتِ يا "مريم" فكل ما تحتاجين إلى فعله هو الرغبة في هذا، لم تكن والدتك ستفعل أكثر من هذا لو وجدت نفسها مكانك، وأنتِ ابنتها كما "كيران" هي ابنتك، صحيح أنني أمثل الأذرع، لكنكِ أنتِ الإرادة التي تحركها.

باستثناء إصبعه، لم تلمسه "مريم" أبدًا، ولا سحبت اللحم الذي يحيط بمفاصله بلسانها وأسنانها، بحثًا عن لمسة الثوم التي تختلط بالعسل منذ زواجها، ولا كانت تنوي أن تفعل.

سارت بجواره حتى الستارة.

وبينما هو يخطو إلى الخارج، التفت إلى الوراء ليواجهها، ورأت أن كلًّا من الرعب والعسل اختفيا.

- إنهم يركبون تحت السماوات المفتوحة يا "مريم"، أولئك الرجال والنساء من السهوب، كما نفعل نحن، وهم مثلنا، ليسوا أغبياء لدرجة الإشارة نحو الشمس أو القمر أو النجوم، لا يشيرون نحو ما يعطيهم الحياة، وإنما يشيرون فقط نحو ما يأخذها.

حفظت نظرته، لو جذب يدها الآن فلن تسحبها.

- يا "مريم"، هذا الصباح نظرت نحو "لوي تارا" بعينيكِ كما نظرت نحو "جيرجيتي". أخبرني زوجك أنكِ لا تستيقظين مبكرًا، أعرف أنكِ تشعرين بألم رهيب، لهذا نظرت نحو الستة نجوم الموجودة في مكانك ومكان "كيران"، ستةً نجوم مقابل الستة سنين التي تمثل عمرها، ماذا أراد منها أولئك الناس الذين لا يعلمون شيئًا عن النجوم؟

عندما رحل، أغلقت "مريم" الستار، ثم تهاوت على ركبتيها.

تركت ذلك العواء الحيواني الذي اندفع خارجًا من حلقها الذي حمل ألمًا أشد من ألم حصان يرتطم بسور، كان هناك ثقب في صدرها، ومهما ضغطت بكفها - أو ضربت - فلن يجعل هذا النزيف يتوقف. بدا كأن فكرة واحدة هي ما يمكن أن تكون بداية راحتها وتملأ ذلك الثقب الذي لا ينفك يتسع داخلها، الفكرة كانت أن الجزء الذي فقدته من نفسها - وتستمر في فقدانه في كل ساعة من كل يوم، لأن فقدانه لم يتوقف أبدًا، وإنما أخذ الثقب يتزايد، بالرغم من مدى السرعة التي حاولت بها ملأه بفكرة رغبتها - هذا الجزء منها يريد من "غافور" أن يفعل أسوأ شيء علَّمه له أصدقاؤه من الشمال. ضربت الأرضية الترابية برسغها، كان هذا مريحًا! الطريقة التي تألم بها كفها أراحتها! فعلتها من جديد! ثانية! ستذهب إلى الضريح هذا المساء،

فلتكن الإلهة معها! فلتصفق قرون ثيرانها اعتراضًا! ستضحي بعدس ورسغها، ثانية! ثانية! ستصلي من أجل الأسوأ، الأسوأ، الأسوأ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

طوبى للغرباء

بدأت أفكر أكان ما فعلناه خطأ، ربما كان "عرفان" محقًّا، وكان يجب أن نتجه من "كاجان" إلى الجنوب وليس للشمال. بدأ شكي يتزايد بعد سلسلة من الأحداث التي حدثت بعد توقفنا عند النهر الجليدي، وكل حدث منها يسبب مزيدًا من التأخير.

في البداية، بعد عبورنا "بابوسار" تعطلت سيارة "الچيب" الخاصة بنا، وانتهى بنا الأمر منتظرين في فندق، ومن جديد تشاركت الغرفة مع "عرفان". نمت بصعوبة، وفي كل مرة أستيقظ فيها، كنت أرى "فرحانة" راقدة بجواري بدلًا من "عرفان". في الصباح، بلغنا "ويس" أن "فرحانة" لم تكن بحالة جيدة. من المعروف أن ضغط الغاز في هذه المرتفعات قليل للغاية لسلق العدس، لكنها طلبته في الليلة الماضية، وطبعًا قضت الليلة تهرع نحو دورة المياه، وحسب أقوال "عرفان"، التأجيل مهم لسبب ثالث، شيء له علاقة بالتعويض الذي اتُّفِق عليه مع عائلة "مريم".

عندما طلبت منه معرفة المزيد، قال:

- نحن ننتظر شخصًا.

ثم عاد إلى تليفونه.

وهكذا انتظرنا. أظهرت البلدة التي حُبِسنا فيها لمحة من "الجبل العاري" الحقيقي، والذي شاهدنا شبيهه الشبحي عند البحيرة. ظهر بالأفق متلألئًا، على ارتفاع 8126 مترًا، وقد بدا كشيطان ماكر أصلع، يُطلق عليه اسم آخر هو "الجبل القاتل"، فقد قتل واحدًا وثلاثين متسلقًا، قبل أن يسمح لرجل واحد فقط أن يتسلق قمته. تساءلت في داخلي عن ذوبان الملكة بالأسفل، وتساءلت حول كيف ستبدو البحيرة اليوم.

رحلنا في الصباح التالي، في سيارة "چيب" أخرى، بسائق آخر، وجلس "عرفان" بجانبي متوترًا، في حين تراجعت "فرحانة" في مجلسها على كرسيها الموجود بجانبه، وبدت شاحبة ومغطاة بالعرق، وبالرغم من الضعف البادي عليها، تخيلت وهلة أنني رأيت ابتسامة ما تتلاعب على شفتيها. بدا كأنها الوحيدة التي تشعر بأننا نتقدم إلى الأمام.

"ترك كل ما حدث خلفنا"، هذا هو أساس أي معاهدة سلام يمكن أن تحدث بيننا، وبدا أننا جميعًا نستوعب هذا، حتى لو لم نوافق كلنا عليه. وبينما صعدنا متسلقين الجبال، ونستدير حول الحدود الدائرية التي انتصبت خلفنا، بدا كأنما نحن من نقف ثابتين وحافة العالم هي من تمر بنا. كنا فوق طريق "قراقرم" السريع، وهو طريق يمتد عبر أعلى القمم صانعًا ممرات داخل الممرات، يلتف ليجتمع مع نهر "السند"، في حين أن عجلاتنا تترك آثارًا عميقة حيث تمر. حاولت أن أبتسم. نعم، نستطيع أن نسمو فوق غلطاتنا! أشك أن تتمكن تلك الابتسامة المرتسمة على شفتيها من أن تقنع أي شخص ولو ماعز حتى.

كبداية، ربما نتشارك غرفة أنا وهي.

لكن لن أتطرق إلى هذا الآن.

كان الجبل يتتبعنا، لو اختفى عند منعطف، فسرعان ما يظهر عند المنعطف التالي. بدا "الجبل العاري" كأنه شعلة متقدة من "ملكة الجبال"، الجبل الذي لعننا عند البحيرة، الجبل الذي تحرك لتوديعه كما لو كنا نحتاج إلى مباركته للاستمرار. تركنا "الچيب" من جديد بعد بضعة كيلومترات، بالرغم من أننا كنا قد ركبنا للتو. في الأسفل، اندفع تيار "السند" الغاضب، والداكن، والطيني، في حين تألق في الأعلى عقد رفيع يتكون من مجموعة من السحب ذات لون هو مزيج من الرمادي والقرمزي. كان هناك هدير على بعد، في حين نتتبع "عرفان" و"نور شاه"، سائقنا الجديد، نحو مجموعة من الصخور.

كانت الصخور منقوشة برسوم أحصنة، مثل تلك التي نقشت على شواهد القبور في "كاجان"، ومعها مجموعة من الأشكال المجنحة، ربما تكون جنيات؟ لكن "نور شاه" قال إنها كهنة. تداخلت بصمات أصابعه مع البصمات التي تركها الذين أتوا من قبله، فك شفرة المشهد المنقوش لمعركة تركها المحاربون من السهوب على أواني بخور نقشت على يد رهبان بوذيين، وعلى بعد عدة أقدام، كانت هناك نقوش قديمة، يقال إن في الصخور آلافًا من الرموز المختبئة، ربما موجهة إلى أولئك الذين يعبرون الجبال، أو يخوضون نهر "السند" الذي خاضه قوم "كيلاس" في قوارب بحثًا عن الذهب، ثم أنهى "نور شاه" حكايته قائلًا: "لم يعد هناك ذهب".

التفت مبتعدًا عن تلك النقوش ليرى وجه "نانكا بربت" الغربي، وهو يخترق ويبدد تاج السحب المتكون فوقه. ربما كان الارتفاع هو السبب، لكنني شعرت فجأة أنني غير قادر على تحديد المكان الذي وقفت فيه بالنسبة إليه؛ إلى الأمام أو إلى الخلف، إلى الشرق أو إلى الغرب؟ هززت رأسي لأستعيد وضوح تفكيري. سأل "ويس"، ملتفتًا نحو النقوش:

- ماذا حدث هنا؟

وفي حالتي غير المتزنة هذه، بدت النقوش كعلامة ترحيب. بدأ شعوري بالدوار يهدأ، وأدركت أن الشكل المنقوش على الحجر أمامي لم يكن له وجه.

انحنى وجه "نور شاه" إلى الأسفل وهو يهز رأسه، وقال:

- هناك من يعتقدون أنك لو رسمت بعض الخطوط الجديدة على القديمة، فبوسعك إعادة صنع الماضي.

قال "عرفان":

- سنفقد المزيد من تلك النقوش بسبب مشروعات التطور الصينية أكثر مما سنفقدها بسبب المجانين الذين يصرخون مطالبين بالجهاد!

وسرعان ما اندمج ثلاثتهم في حديث حول خطة تمديد هذا الطريق وتوصيله بميناء البحر العميق في "جوادر" في ساحل باكستان الجنوبي، وهو المشروع الذي تموله الصين بتمويل معظمه، وافتتح الرئيس الصيني الميناء ذلك الربيع. سيحمي هذا

الطريق الممتد طرق الصين التجارية من آسيا الوسطى وحتى "جوادر" بالجنوب، ثم إلى باقي العالم.

قال "نور شاه" مستاءً:

- يعتقد البعض أنه سيقدم لنا فرص عمل، لكن ماذا عندما ينتهي العمل فيه؟ ماذا سيحدث لنا من دون بيوتنا؟ وماضينا؟

صارت السحب الآن عند خصر "الجبل العاري" كأنها حزام. نظرت "فرحانة" إلى أعلى في حين يتبدد الحزام. قالت:

- هيا نذهب.

أجابها "عرفان":

- ليس بعد.

- ما الذي تنتظره؟

- أنتظره هو.

تباطأت دراجة بخارية بالقرب من "الچيب" خاصتنا، وترجل عنها شخص يرتدي حقيبة على كتفيه.

سألناه:

- من هذا؟

- حارسنا المسلح.

ضحكت قائلًا:

- هذا؟

- لو كنت مكانك لما ضحكت، فهو قريب "مريم"، وهو من "كاجان"، وسيأتي معنا. والآن صرنا مستعدين.

أنا متأكد من أنني استقللت "الچيب" مفتوح الفم. تكدسنا داخلها من جديد، وقد صرنا ستة أشخاص، وقد جلس الحارس في صندوق السيارة.

عندما نظرت إلى الخلف إلى صديقه الذي ابتعد بدراجته البخارية، رأيت "الجبل العاري" وقد حلق جذعه المدبب فوق كتفي متتبعًا انحناء الطريق.

دخلنا المنطقة المتنازع عليها، فاضطر "ويس" و"فرحانة" إلى التسجيل في كل نقطة تفتيش، كان تكرارًا للتفتيشات التي حدثت في الطريق إلى "كاجان"، باستثناء أنهم هذه المرة كانوا أكثر، لكننا على الأقل هذه المرة كنا داخل سيارة خاصة بنا ولن نتسبب في إزعاج حافلة كاملة بكل تلك التوقفات، لكن في المرة السابقة، كانت "فرحانة" عصبية، في حين أن "ويس" هادئًا، أما هذه المرة فقد كان العكس تمامًا، ربما جعلته ينام على الأرض.

بعد أول مرة توقفنا فيها، التفت "ويس" من مجلسه على المقعد الأمامي سائلًا:

- هل نحن في "كشمير"؟

أجابه "عرفان":

- نعم.

- هل تركنا باكستان؟

- نوعًا ما.

- ولماذا لم يحتج أحدكم إلى تأشيرة؟ نحن الاثنان فقط مَن نُسجَّل بواسطة الجنود الباكستانيين.

أجابه "عرفان":

- من أجل سلامتكما.

- نعم، لقد قلت هذا من قبل.

بعد وهلة أضاف:

- هل سيصير هذا الجزء تابعًا لباكستان؟

- نتمنى هذا، لكن ليس قبل أن تجري الهند استفتاء شعبيًّا في "كشمير".

- لن يحدث هذا. بلدك تضيع نفسها في حرب خسرتها منذ زمن طويل.

- لا نراها هكذا.

- الهند لديها الكثير من الأصدقاء.

- لديها أهم صديق.

أضاف "عرفان" بعد صمت ثوانٍ:

- بالرغم من أننا نحن مَن نخوض حربهم.

كانت أول مرة يترك "عرفان" فيها أحدًا يغيظه، على الأقل في وجودي. استمروا في الجدال، فقال "ويس":

- هذه هي الديمقراطية!

في حين أصر "عرفان":

- الديكتاتوريون العسكريون الذين يحكمون العالم الثالث مشهورون بالديمقراطية.

كان "نور شاه" صامتًا منذ توقفنا عند النقوش القديمة، لكنه الآن وجه انتباهه نحوي وسألني:

- أول مرة؟

- لا، لقد أتيت هنا من قبل.

قالت "فرحانة":

- لكنها أول مرة بالنسبة إليَّ.

فأجابها بالإنجليزية:

- مرحبًا بكِ.

لم يكن هذا شيئًا سمعناه في وادي "كاجان".

عاد إلى اللغة الأردية وهو يسأل:

- أين ستذهبون بعد "جلجت"؟

وبخليط من الأردية والإنجليزية، أجابته "فرحانة" أنها أتت لدراسة الأنهار الجليدية. لم تبدُ عليه الدهشة. قال:

- الناس تأتي هنا لكل الأسباب الممكنة.

ثم سألها لو كانت تعرف أن خمسة وعشرين بالمائة من "قراقرم" كانت تختبئ تحت الجليد. ضحكت وقالت:

- طبعًا أعرف.

قال:

- هناك آلاف الأنهار الجليدية.

- حسنًا، مئات.

- يمكنني أن آخذك لها.

- شكرًا لك.

- لكن لن آخذك لنهر "سياشين".

ضحكت من جديد، لا أستطيع أن أتذكر آخر مرة رأيتها فيها بذلك المرح.

لم يكن "نور شاه" يعرف معلومات عن الأنهار الجليدية فقط، وإنما يعرف حكايات أيضًا، وكان يعرف كيف يحكيها ليبدد التوتر السائد على ركاب السيارة "الچيب". هو من "هونزا" بالأساس، ثم انتقل إلى "جلجت" بعد بناء طريق "قراقرم" السريع بوقت قصير، وأضاف أنه كان أفضل أصدقاء حفيد حاكم "هونزا"، عندما كان طفلًا. اشترك هذا الحاكم في الصراع الذي أدى إلى تأسيس باكستان، وحسب كلام "نور شاه"، فطريقة الحاكم المميزة في تدريب رجاله هي التي جعلتنا ننجح في الاستقلال عن "هندوستان". وكانت طريقة الحاكم فعلاً مميزة؛ كان يجبر موظفي قوات "الإسكيمو" على إدخال أيديهم في نهر "هونزا" الجليدي لساعات والخوض عبر المساحات الجليدية دون أحذية، حكى:

- كان لديهم جلد بسمك النهر الجليدي.

ثم نظر إلى "فرحانة". ربما في كل مرة ينجح في جعلها تضحك يتوقع أن يتلقى المزيد من الروبيات على سبيل المكافأة. استطرد:

- كانت تقنية قديمة قبل قتال التحرير، كان يزيد خشونة الرجال من أجل ركوب القوافل التي تذهب من "كشمير" إلى "يرقند". أتعرفونها؟ إنها في "تركستان" الصينية، على "طريق الحرير"؟

ابتسمت "فرحانة".

- كان "الهونزاكوستانيين" يسيرون على الجليد ليصلوا إلى أعلى قمم جبال، ثم ينقضون على الأعداء بالأسفل على "طريق الحرير" ويستولون على طعامهم وأسلحتهم. فيما بعد، استخدموا التقنية نفسها في هجومهم على الجنود في "كرجيل".

كتمت "فرحانة" موجة تثاؤب هاجمتها، واستمر السائق في حديثه:

- في "كرجيل"، انضمت قوات "الإسكيمو" إلى قوات "إيبيكس"، أتعرفين قوات "إيبيكس"؟

أجابته "فرحانة":

- لا.

- ماذا عن قوات النمر؟

- لا.

نظر إليَّ وسألني:

- هل تعرف قوات النمر يا صديقي؟

أجبته:

- لا!

- كانوا يتقدمون وهم يزمجرون كالذئاب ليبعدوا القوات الهندية.

بدأت "فرحانة" تضحك. قال "نور شاه" بنعومة:

- ليس زحف ملايين الرجال شيئًا تضحكين عليه يا سيدتي.

تنحنحت مستفسرة:

- وماذا فعلت قوات "إيبيكس"؟

- قفزت.

قبل أن تضحك من جديد، أشار "عرفان" إليها بالتوقف. همس لها أن إهانة تلك الإستراتيجية الموثقة تاريخيًّا سيكون تصرفًا شديد الفظاظة، فهي مصدر فخرهم. همست مجيبة إياه:

- هل صرنا نحتاج إلى موافقتك الآن قبل أن نضحك؟

همس "نور شاه":

- لا يعرف الكثير من الباكستانيين تاريخهم.

سمعنا صوت سعال يأتي من صندوق السيارة "الچيب"!

إنه رجلنا من "كاجان"، قريب "مريم"! لقد ظل ذلك الرجل ساكنًا منذ انضم إلينا حتى كدت أنسى وجوده. همس "عرفان" بجانبي بالإنجليزية أن هذا هو الامتياز الذي اتفق عليه مع عائلة "مريم"، بالإضافة إلى ما سيُدفَع، لكي يدعونا نمضي في رحلتنا في أمان بعد موت "كيران". أضاف:

- ليس لديك فكرة عن مدى الوقت الذي تستغرقه المفاوضات المادية هنا. موافقتهم على أن يصاحبنا هذا الرجل كانت الجزء السهل من الموضوع.

يجب أن أستفسر منه عن المزيد من التفاصيل لاحقًا.

وبينما استمر "نور شاه" في حكي المزيد من القصص التي تمجد في "الهونزاكوستانيين"، تمتم الحارس بصوت خفيض، ما بدا لأذني كأنه يقول: "فليأمر أحدكم ابن البومة هذا أن يخرس!" جلس منحنيًا على سلاح آلي، ليرتطم رأسه بسقف السيارة في كل مرة نمر فيها بمطب، وهو الأمر الذي حدث كثيرًا. ربت "عرفان" على كتفه، فزأر الرجل بخفوت كأنه نمر يكتم زمجرته، لو زمجر مليون رجل مثله، فلا بدَّ من أن هذا كافٍ لدفع الجيش الآخر للتراجع.

كانت الأمطار تتساقط عندما وصلنا إلى "جلجت"، أكبر مدينة ذهبنا إليها منذ رحلنا عن "إسلام آباد" منذ أسبوع. كانت مزدحمة، وقد انتشرت قوات الجيش في كل مكان فيها جزئيًّا، لاحتواء الاشتباكات كثيرة الحدوث بين السنة والشيعة، والتي انفجرت هنا.

داخل غرفة الفندق الخاصة بنا، أخبرني "عرفان" أن مزاج حارسنا المتعكر يعود جزئيًّا إلى كرهه للشيعة الموجودين بـ"جلجت"، بالرغم من أن الخلافات قد تعدت مرحلة الطوائف. مهما كان مدى استقرارهم اليوم، فإن "الجورجاريين" الذين نزلوا من سهوب "آسيا الوسطى" منذ آلاف السنين سيُعتبَرون دائمًا رعاة ماشية.

- لماذا أتى إذًا؟

- بسبب العمل.

- أي عمل؟

- التجارة، هل هناك شيء آخر يفعله الناس هنا؟

استحممنا بالدور (وكان حمامًا ساخنًا من حسن الحظ) قبل أن ننضم إلى "ويس" في المطعم، في حين خرجت "فرحانة" للسير مع السائق وسط المطر.

طلب "ويس" الطعام بالفعل. تساقط شعره المبلل ليغطي جبهته، في حين تمدد خط من البلل نازلًا على صدغه. جففت أنا و"عرفان" شعرنا بقوة بالمناشف، قبل أن نخطو نحو جو الأمسية البارد. كان ذلك اختلافًا أشرت به إلى "فرحانة" ذات مرة، بعد تعارفنا بقليل. يتفادى الباكستانيون الخروج في الهواء البارد بشعر مبلول، معتقدين أن هذا سيؤدي إلى المرض، في حين أن الأمريكيين لا يفعلون هذا؛ "فرحانة" كذلك لا تفعلها.

وسواء كان قد التقط دور برد أم لا، فإن حواس "ويس" انتعشت مع وصول وجبة السبانخ واللحم و"البيلاو"، فقال:

- وجبة بسيطة ورائعة!

هكذا أعلن للنُدل الثلاثة الذين وقفوا بجانبه لإعادة ملء كوب الماء الخاص به بعد كل رشفة يأخذها منه، وليستبدلوا برغيف "النان" الموجود أمامه آخر طازجًا قبل أن يبرد الرغيف الموجود في طبقه، وليعتذروا إليه لو وقعت منشفته من على حجره.

كانوا يأتون بخبز "النان" ملفوفًا في ورق جريدة مكتوب بلغة ليست الإنجليزية ولا الأردية. سألت واحدًا من النُدل عن ماهية تلك اللغة فأجاب:

- "القازاقية".

- وهل تستطيع قراءتها؟

هز رأسه وضحك، قبل أن يضيف:

- لكنني أستطيع تمييز نطقها.

نظر "عرفان" من فوق كتفه إلى الطاولة المجاورة لنا، وقد لاحظتهم أنا الآخر؛ كان حارسنا يتحدث مع رجلين ظلَّا ينظران نحونا، أحدهما ذو عينان داكنتان، والآخر بعينين زرقاوين. بدا على النُدل عدم الاهتمام بذلك الثلاثي.

سأل "عرفان" الندل أكان أولئك الرجال يتحدثون بلغتهم المدعوة "شينا"، لكنهم هزوا رؤوسهم.

- "القازاقية" إذن؟

قال النادل الأول:

- ربما.

ثم أرهف سمعه لهم أكثر واستطرد:

- هؤلاء الرجال يتحدثون بإحدى اللغات التركية، ربما تكون أي واحدة فيهم، "القازاقية"، الأوزباكستانية، لا، لا أظنها أوزباكستانية، ربما يكونون من "الأويغوريين" من الصين. كلهم يأتون هنا من أجل العمل ويتحدثون بلغات بعضهم بعضًا.

بعد صمت طويل، أضاف ببعض الازدراء:

- لقد رأينا ذلك الرجل من قبل؛ الرجل الذي أتى معكم!

سأله "عرفان":

- لا تحبونه، أليس كذلك؟

أجاب، وهو ينظر بعيدًا:

- هو لا يحبنا.

أشار حارسنا بأصابعه واضطر أصغر نادل من الموجودين إلى تلبية طلبه. بدا لي كأنما كلهم يحاولون الابتعاد عن تلك الطاولة لكي يتفادوا خدمتهم. بعد وهلة، أكمل أكبر النُدل سنًّا:

- لدى البدو طريقة في العثور على بعضهم بعضًا. الأمر غريب، الصلات التي بينهم..

انتظرته ليكمل..

- و؟

حكَّ الشيخ لحيته واستطرد:

- الرجلان الموجودان هناك.

رفع ذقنه.

- أنا متأكد الآن من أن واحد منهما تاجر "أويغوري".

حاولت النظر سرًّا لكن الرجل تحرك، فحجب حارسنا منظر الرجل المقصود.

- أما الآخر فراعي ماشية.

أومأ "عرفان" موافقًا:

- رجل حر.

- كيف هذا؟

- كازاخستاني تعني رجلًا حرًّا.

مضغ طعامه بخشونة.

- إنهم رعاة الماشية المتجولون الذين أطلقوا لمخيلة "دوستويفسكي" العنان. أتذكر كيف نفى "راسكولينكوف" في رواية "الجريمة والعقاب"؟

- لا أتذكر.

كانت هذه إجابة أفضل مما لو قلت الحقيقة، وهي أنني لم أنهِ قراءة تلك الرواية أبدًا!

- أرسله إلى كازاخستان.

- ألم يقضِ بعض الوقت هناك بعد خروجه من المعتقل؟

- نعم، بعد إعدامه المزيف. تخيل أن تظل تفكر في أنه سيجري إعدامك، ثم فجأة يُفرَج عنك!

- لا أستطيع تخيل هذا!

كنا لا نزال نتعافى من الشعور بالحرية لانبعاث ذكرى "دوستويفسكي" من حولنا، عندما لاحظ "عرفان" دخول "فرحانة" المطعم، وقبل أن تصل إلى طاولتنا، طلب من النادل الأكبر سنًّا إحضار بعض الطعام لها. كان شعرها لا يزال مبللًا، وبدا جلدها لامعًا. رمقت أطباقنا في جوع، فأخبرها "عرفان":

- سيحضرون طعامك سريعًا.

أجابته وهي تتخذ مجلسها بيننا:

- شكرًا.

بدونا منسجمين بشكل جيد. سألها "ويس":

- كيف حالك الآن؟ هل بوسعك تناول الطعام؟

- فقط راقبني.

وعندما وصل الطعام راقبنا "فرحانة" وهي تغمس أصابعها داخل الأطباق، وتلعق السبانخ الساخنة عن إبهامها. على الأرجح ليست السبانخ هي أنسب شيء تأكله الآن، لكن لن يكون أنا مَن يوصل تلك المعلومة. تحدثتْ عن سيرها مع "نور شاه" بطول نهر "جلجت"، مضيفة:

- "نادر"..

قالتها بطريقة تلقائية دون أن تنظر إلى أعلى.

-.. بدأت أفهم سر حبك للتمشيات الليلية بطول الأنهار.

أجبتها:

- أنا أذهب وحيدًا.

ضحكت في بساطة قبل أن يخيم الصمت على الطاولة، ونحن نراقبها وهي تأكل. قال "ويس":

- إذًا، هل نذهب إلى نهر "التار" الجليدي غدًا؟ ونهر "باتورا" بعد غدٍ؟

أجابه "عرفان":

- إن كان الطقس مناسب سنرحل إلى "هونزا" باكرًا، "باتورا" موجود في شمال "باسو"، لكن الطريق ليس جيدًا، ولا سيما وقت الأمطار، ومن المفترض أن يستمر

تساقط الأمطار، حتى لو وصلنا إلى هناك، سيكون الطريق زلقًا.

قالت "فرحانة":

- "التار" أقرب لنا.

- لكنه أكثر انحدارًا.

هكذا أجابها "عرفان"، لكنها أصرت أننا يجب أن نجرب، وساندها "ويس"، فبعد كل شيء، لقد تسلق الأنهار الجليدية في خليج ألاسكا، وكندا، وأماكن أخرى كثيرة، كما رمى نفسه في "الأنديز" و"كليمنجارو" و"باتاجونيا". هل ذكرت أنه سقط من فوق أخدود في "أنتاركتيكا"؟ وهناك صارع دببة قطبية، الوحيدة الموجودة على وجه الكرة الأرضية الجنوبي، قبل أن يشق طريقه متسلقًا القمة من جديد، بأنامل دامية، فقط ليواجه المزيد من الدببة القطبية، وأنامله لم تزل تتعافى.

ألقت "فرحانة" برأسها إلى الوراء عند بعض الحلقات التي واجهاها معًا في أثناء أخذ عينات من الجليد في جبل "شاستا".

ذكَّرت نفسي، "اترك كل شيء خلفك". نحن هنا لنمضي قدمًا حتى إن لم نستطع أن نتوافق معًا. استأذنتهم وخرجت. قبل خروجي من المطعم، خُيِّل لي أنني رأيت واحدًا من الرجلين الجالسين إلى طاولة حارسنا يلقي الطعام في فمه بيد لا توجد بها أصابع، لم يبدُ لي مشهدًا أحب أن أتأكد منه بالنظر ثانية.

لدى الكشميريون أسماء للسجون الهندية؛ "بابا 2"، "كوت بالوال"، و"جوجولاند"، الطريقة التي سمعت أن الحكومة الهندية تخفي بها رجال "كشمير" لم تكن مختلفة عن الطريقة التي تخفي بها الحكومة الباكستانية رجال باكستان، لكن الاختلاف بينهما هو أنه لا أحد يتشارك أسماء السجون الباكستانية، على الأقل، لا يتشاركون أسماء السجون التي أسمع عنها الآن، وأنا أسير في الممرات الموحلة إلى السوق الرئيسي.

تحدث الاختفاءات بالطريقة نفسها غالبًا، صبي يخرج من بيته ليشتري بعضًا من أكلة "البان" الهندية الموجودة في المتجر عند ناصية الشارع، أو ليلعب "الكريكت" في الحقل المجاور، ولا يعود أبدًا!

لم أرد تناول وجبة "البان"؛ لم أعرف ما أريده، لكنني وجدت نفسي أحدق إلى الجدار، لمزيد من الدقة، كنت أحدق إلى ملصق معلق على الجدار يمثل "سيلفستر ستالوني" وقد خربش أحدهم بجانبه عبارة "إن شاء الله"، وجدت نفسي أفكر في الدببة القطبية وواصلت سيري.

تخطى الوقت التاسعة، لكن السوق كان لا يزال مزدحمًا، وسمعت المزيد من اللغات يُتحدَّث بها هنا أكثر مما سمعتها في المطار الدولي. علمت أن بعض الناس الذين يدورون هنا أتوا من أماكن بعيدة كـ"أنديجان" و"قشغر"، إما بـ"بالات" من القماش، وإما من دون أي ملابس على الإطلاق باستثناء تلك التي يرتدونها. ازدهر العمل في المنسوجات منذ نهاية الاتحاد السوفيتي، ومثله أعمال الحرب.

على أحد الأبواب، كانت هناك لافتة تقول: "منسوجات روعة من آسيا الوسطى"؛ تضمنت منسوجات سُمِّيت بأسماء أبطال وأشرار، "بوتين"، "أسامة بن لادن"، "دموع شاروخان"، "عيون آشواريا"، لا بدَّ من أن لعاب شقيقتي كان سيسيل وهي تتوقع ما تهمس به النساء في حقد في حفل زفاف تحضره، "هل رأيتها وهي ترتدي ثوب "أسامة"؟".

تحركت إلى الأمام. هنا، كما في وادي "كاجان"، كانت حكاية الاحتلال هي حكاية أسماء، لهذا كانت "جلجت" تعتبر "تبتية" إلى حد ما، أما مقاطعة "سنجان"، فكانت تركستانية، وتقريبًا كل مَن ليس من هنا، ممَن يدورون حولي، كانوا فارين من احتلال من نوع ما.

خارج متجر مختلف، لاحظت مجموعة من الرجال يتحدثون لغة لم أستطع معرفتها، وكان أحدهم بالتأكيد يفتقد كل أصابع يده اليمنى. بعد رحيل المجموعة، ظل اثنان منهم يعرجان هنا وهناك. قلت للبائع:

- لا يبدوان كمشترين.

أجابني:

- لأنهما ليسا كذلك. يجب أن تنظر إلى أصابع أقدامهما.

قال إنهما لاجئان "أويغوريان" هربا من الاضطهاد الشديد الذي يواجهانه في الصين، حيث تُصوَّب خراطيم المياه المثلجة على أيديهم وأرجلهم. ذكرتني بحكاية سائقنا عن قوات "الإسكيمو"، حيث أُجبِر الجنود على وضع أيديهم في نهر "هونزا" المتجمد ساعات، ثم يسيرون عبر مساحات ثلجية دون أحذية، كان أول هدف من هذا هو تعذيبهم، والهدف الثاني هو المجد.

كان الرجال بالمطعم مجرد إنذار يحذرني من "جلجت" التي خطوت فيها الليلة؛ حيث تشارك مجموعة من الرجال الحكايات عن الكشميريين الذين يُعذَّبون على أيدي القوات الهندية، وحكايات أخرى عن القوات الأوزباكستانية التي تطلق النار على المواطنين الأوزباكستانيين. لعبت تلك الجبال دور الجدران، فاحتوتنا في هذا المكان، حيث الفقر مترادف مع التنوع، ومتضاد مع الحفاوة. كان هناك أكثر من "أويغوري" من الصين ذوي عيون داكنة، يشربون الشاي مع الكازاخستانيين ذوي عيون زرقاء من روسيا، إما في مطعم، وإما في مجموعة من الفناجين الصينية الرخيصة، على مجموعة من الخيول الهزيلة، أو وسط مجموعة من الملصقات التي تمثل "سيلفستر ستالوني".

وفي الوقت نفسه، انتقلت الإشاعات عن الرجل وشبيهه المسمى "فاريبي" - الذي يُغيِّر شكله – عند هذه المرتفعات منذ زمن. كان يهرب من خلايا تعذيب باكستانية، أو هذا هو ما قيل. خلايا بلا اسم، حيث سينتهي به الأمر بين أيدي الأمريكان، لكن الإشاعات استمرت بشكل شديد وفي كل مكان؛ إنه ليس هنا في هذا المركز الذي يضم اللاجئين والمخبرين، والتجار، والبائعين.

على جدار متجر آخر، قرأت شخبطة تحكي قصة، من تستحق ساتان "بيبيلنشتاين" أو "حرير أسامة"؟

لم تكن الاضطهادات هي الشيء الوحيد الذي جلب الرجال إلى هذا المكان، كانت هناك زيوت أيضًا، وبين شاي أخضر حلو وشاي زهري مالح، كانت هناك الكثير من الأفكار حول الاتفاقية التي جرت بين كازاخستان والصين، والتي ستمتد فيها خطوط أنابيب بطول ثلاثة آلاف كيلومتر لتمر عبر مقاطعة "سنجان"، وستبدأ في ضخ البترول في بداية العام القادم. كانت بمنزلة ارتداد عن الروابط التي فرضها "طريق الحرير" القديم، ولكن بتحريف بسيط، بالرغم من مليارات الدولارات التي أُستثمِرت، فإن الكازاخستانيين والأويغوريين لا يزالون يعيشون تحت خط الفقر، محرومين من منازل أجدادهم. أولئك الرجال كانوا لاجئين، كما هم هاربون. لم يكونوا كلهم يعرجون، والعديد منهم يحملون أسلحة.

كم واحدًا منهم يمكن اعتباره "راسكولينكوف" القرن الحادي والعشرين يسعى لنفي نفسه؟ ربما كان "دوستويفسكي" هو الوحيد الذي يعلم الإجابة.

تأخر الوقت، ولم أحب أن أتوغل أكثر من هذا وسط ظلام الليل، ليس في بلدة لا أزال في بداية معرفتي بها على الأقل. تركت الأزقة المليئة بالطين، واتخذت طريقي عائدًا نحو نهر "جلجت" الذي بدا كذراع سميكة حمراء كالطوب لنهر "السند" الذي يصب أسفل وادي "جلجت" مثل قطار متهور، وبينما تتسارع خطواتي، بدأ هطول الأمطار من جديد، بنعومة، لكن حتى تلك النعومة بدت كأنما هي تزيد من سرعة جريان النهر، فتضرب، وتدفع.

قبل أن أترك المتجر بمن فيه من اللاجئين "الأويغوريين" العاجزين، قال البائع - الذي كان يُلمِّع فنجان شاي من الداخل ببصقته - شيئًا أخذ يتردد في عقلي الآن، "صحيح أن وادينا ضيق، لكن ليس معنى هذا أنه لا يمكن عبوره، إن كنت تعرف طريقك. صحيح أن موضوع وصول كل واحد منا إلى هذا المكان من مختلف بقاع العالم يبدو لغزًا، لكنه ليس كذلك، فقد عثر كل منا على طريقه. لماذا؟ صحيح أن التجارة جزء كبير من الموضوع، لكن الأهم منها هو الحرية، ونحن نعرف أن الإنسان يحتاج إلى ثلاثة أشياء لكي يكون حرًّا؛ الجبال من أجل الأمان، والأنهار العادية والجليدية من أجل الشرب والري، والأراضي الزراعية من أجل الطعام والنقود، وهنا لدينا الثلاثة أشياء، لهذا لا تتركنا الحكومة في حالنا". أبعد الكوب مستطردًا: "ولهذا نساعد بعضنا بعضًا". ثم ذكر حديثًا للرسول "محمد" (صلى الله عليه وسلم) "كان الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا، فطوبى للغرباء". قلت إنني لم أسمع بهذا الحديث من قبل، لكنني شاكر للتعلم منه. أضاف البائع: "لهذا كان الرسول يعطي البُشرى السارة للغرباء، فكان يقول دائمًا "طوبى للغرباء"، عليه الصلاة والسلام".

لست متأكدًا، لكن راودني شعور ما، وأنا أهرول بطول النهر المتعجل في جريانه، أن هناك مَن يراقبني. كنت أفضل أن يكون لديَّ ما يكفي من شجاعة للدوران إلى اليسار عند الجامع، ويسارًا ثانية عند نهاية الطريق، حيث رأيت - وأنا متأكد من

هذا - رفيقنا المسلح الذي اختفى وسط الظلال بمجرد مغادرتي المتجر. كنت أفضل أن أحدق إلى مَن كان يراقبني، أيًّا كانت شخصيته، لكنني واصلت التقدم، وفي النهاية خطوت إلى اليمين حيث يوجد الفندق.

في الصباح التالي، لم أفاجأ عندما واجهنا المزيد من التأجيلات.

أولًا، هناك تلك الغارة، ومن ضمن الأشياء التي تُحفِّظ عليها كانت سيارتين، وخمسة وثلاثين ألف كيلوجرام من المتفجرات، وخمسين جهاز كمبيوتر، ومئات من البنادق، وبعض الأجهزة الإلكترونية (أجهزة فيديو، محمص خبز، وخلاطات)، وبعض الأثاث المسروق من المدارس والبنوك، وبعض العربات التي تستخدم لنقل راكب أو راكبين ويجرها رجل. أُوقِفت تلك العربات خمسة عشر يومًا، والبضائع التي "عُثِر عليها" عُرِضت في مؤتمر صحفي.

أُلقِي القبض على رجلين، أحدهما أعمى والآخر مشلول، يجب أن يُدعَم جسده من عند الفخذين. كان هذان - على الرغم من سوء حالتهما - هما أفضل نموذج يمكن عرضه. لم يكونا من "جلجت"، وإنما من "خارج الجبال"، ومع الوضع في الاعتبار كم الناس الذين يبحثون عن ملجأ من مكان آخر - وقد أدركت من البداية أنني من ضمنهم، أنا و"فرحانة" - كان من الصعب معرفة مَن أتى من خارج الجبال.

ثانيًا، لم تكن هناك حافلات متجهة إلى "هونزا" في ذلك الصباح، ورفض "نور شاه" أن يصطحبنا إلى هناك بالسيارة "الچيب" الخاصة به، وهذا ما يعني أننا سنضطر إلى الانتظار، فكرة رحلتنا الرئيسية التي تسيطر عليها منذ بدايتها!

وبحلول العصر، كانت الإشاعة قد انتشرت، سبب الاعتقالات الحقيقي هو توصيل رسالة واضحة لمَن على حرب مع الدولة، بوسع الولاية فعل ما تشاء بأراضي المراعي والمسطحات المائية، يمكنها لو أرادت أن تعطيها كلها للصين، فباكستان والصين لديهما تاريخ مشترك من الصداقة، وأولئك الذين يحاولون تخريب تلك الصداقة سيُلقى القبض عليهم بتهمة الإرهاب، وسيُدانون لو توافرت الأدلة. كان الدليل أمام عيوننا، الممتلكات التي تُحفِّظ عليها، والأعمى، والمشلول، أولئك الذين في حالة حرب مع أي حكومة صديقة لحكومة باكستان - سواء كانت في أمريكا الشمالية أم آسيا الوسطى - سيُقبَض عليهم كذلك.

التحفت "جلجت" بسحب رمادية ذلك اليوم، أكثر كثافة من أي من تلك التي كست الجبال حولنا. قال الناس: "الكل يريدون أرضنا! الكل يريدون أنهارنا، وبحرنا".

جادل البعض قائلين إن هذا سيمر أيضًا، فهذه الأرض شهدت الكثير من الصراعات والاختلافات، لكن كان هناك شيء ما يجمع الناس دائمًا، كـ"طريق الحرير" هذا، ودائمًا سيجدون ما يجمعهم. في حين أنه على الناحية الأخرى، الحكومات تأتي وتذهب؛ كما تفعل الموسيقى. عندما حلَّ المساء، ارتفعت أصوات أجهزة الراديو من كل متجر؛ بعضها أذاع الأنباء، والبعض الآخر أذاع أغاني من "بوليوود".

صار أربعتنا فجأة جزءًا ضئيلاً من العالم المجتمع في هذا المكان الصغير، سواء أكان اجتماعهم للتجارة أم بحثًا عن الحرية. تقبلت حالتنا المتضاربة هذه بارتياح، لم يكن التركيز منصبًّا عليَّ، وإنما على لعبة أكبر تدور من حولي. بقيت في غرفتي بالفندق تلك الليلة، في حين ظل "عرفان" في الخارج حتى وقت متأخر، وعندما عاد، لم يخبرني أين ذهب. لم يبقَ في غرفتنا في الليلة السابقة أيضًا، عندما عدت من تمشيتي قرب نهر "جلجت" تحت المطر، لكنني لم أعطِ الموضوع كثيرًا من التفكير. بالرغم من أن هذا ربما يبدو غريبًا، فإنني أغامر بالقول إنني عندما سمعت "عرفان" أخيرًا يدخل الفراش، بعد فتح وغلق سريع للمصباح الموضوع ناحيته من الفراش، شعرت بالجبال تحتوينا بشكل لا يمكن اختراقه، حتى وهو يقول وسط الظلام:

- في أوقات القلق والاضطرابات، الكل متورط!

لطالما كان هو المتفائل بيننا.

فلنستمر في طريقنا، فلنترك كل هذا خلفنا، الكل متورط، اختلط شعارنا السحري في جملة واحدة.

راودتني صورة سخيفة لي مع "فرحانة"، ونحن نركض تجاه بعضنا في حين يفجر الناس أنفسهم من حولنا، وحلق طائر بطريقة دائرية في السماء من فوقنا، ليشاهد ظلالنا الغائمة وهي تتقاطع في أثناء اهتزازها. لم يكن بوسعنا تحديد هل الدماء التي تغطي كل شجرة وكل صخرة كان سببها تلك العيون الغبية في السماء، أم المفجر الغبي على الأرض، وفي الخلفية، تصاعدت موسيقى مرحة، وتراقص الناس، ولكن وراء تلك الخلفية كان هناك بنطال أخضر واسع وقميص أرجواني.

لكنها كانت مجرد صورة في خيالي؛ نحن في أمان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ملكة الجبال.. مرحبًا بالجميع!

صاروا أكثر هزالًا، لا سيما الأبقار، لدرجة أنه كان يمكن رؤية العظام الموجودة في كل فخذ. أجبِر "سليمان" على شراء غذاء إضافي، لكن بمجرد انتهاء ذلك المخزون لن يصبح بوسعه شراء المزيد، الطريقة التي تحركت بها الحيوانات دلت "مريم" على أنهم يتساءلون مثلها كم منهم سيتمكنون من اجتياز الشتاء.

لا يزال رسغها يؤلمها.

في اليوم الذي كسرته فيه، عاد "سليمان" إلى المنزل بالأحصنة التي تركتها تتجول بالحقل دون رقابة. بادرها قائلًا:

- تعرفين كم هما قيمان، لو فقدناهما كيف سنتمكن من تسلق المنحدرات للحقول في الصيف التالي؟

تمتمت "مريم":

- على أقدامنا.

فأجابها:

- لن تتمكن قدماكِ من حملك ولا حمل ابنتك!

ارتفع أنين "جومانة" بين ذراعيه.

- بالرغم من أنها تحملك جيدًا إلى الضريح الخاص بكِ!

انتظرت، لكنها لم تعرض عليه حمل "جومانة" عنه، فهي لا تستطيع حملها برسغها المكسور. أبقت ذراعها مختبئة خلف ظهرها، لم تخبره أن الحيوانات لا تحتاج إلى رعايتها، وإنما يكونون في حال أفضل بمفردهم، وربما يكون هو كذلك أفضل بمفرده!

أثار صمته موجة كثيفة من الإحباط تمنت لو استطاع جسدها اختراقها، مَن يظن نفسه ليصدر حكمه عليها بعد كل ما فعله؟ كان مثل الفرس "ناماشا"، واضحًا وخبيثًا. حسنًا، بوسعها أن تتغلب عليهما معًا! عرج "سليمان" في النهاية مبتعدًا، وهو لا يزال يحمل الطفلة.

لاحظ ذلك بعد ساعات؛ بعد العودة مع الحيوانات وإدخالها الحظيرة التي ستقضي بها ليلتها. دخل كوخهم ووجدها تبكي، كانت تبكي هذه المرة بسبب ألمها الجسدي، شعرت بتيار كهربي يمزق ذراعها اليمنى، وبالرغم من أن يدها اليمنى حاولت اعتصار الألم لتخرجه، فإن التيار كان أقوى! حاربها كأنه أفعى أنشبت أنيابها داخل دمائها، في حين لاحظت عينها، بوعي منفصل عن بقية جسدها، الطريقة التي تورم بها رسغها وتغير لونه. انحنى "سليمان"، وهو ما لم يكن وضعًا سهلًا بالنسبة إليه. همس لها:

- أي خير في هذا؟ أنا بساق محطمة وأنت بذراع مكسورة.

شعرت أن هذا طريفًا، وبينما أخذت ألوان جلدها تصير داكنة أكثر فأكثر، كتمت ضحكة بداخلها، فتسبب ذلك التقلص في جعل التيار الكهربي الذي سرى بداخلها ينطلق كرصاصة عبر ذراعها بقوة بالغة، وهذا ما جعلها تصرُّ على أسنانها ألمًا، وهي الحركة التي ستجعلها بالتأكيد تبدو كالفرس "ناماشا"، وهو الخاطر الذي جعلها تضحك، تختنق، ثم تقطب من جديد.

التقط أناملها بين أنامله في رفق هامسًا: "كل ما حدث كان خطئي!" تدافعت دموعه على رموشه الطويلة. بالرغم من أنه لم يقل بالضبط ما يقصده بلفظ "كل"، فإنه لا يحتاج إلى هذا. في تلك اللحظة، شعرت بالشكر لكلا الرجلين اللذين أحبتهما، الرجل الذي يبكي، والرجل الذي حارب.

في اليوم التالي، شعرت برسغها لزجًا من البلسم الذي أعطاها إياه "سليمان" لتدهنه على عظامها المكسورة، قبل أن تدسها داخل قطعة قماش كأنها طفل. ظهر "غافور" مرة أخرى، ولكنه تلك المرة انتظرها خارج الكوخ قرب بركة المياه. لو كان قد سمع بإصابتها، فلم يكن هذا هو سبب وجوده هنا. دافعه للقدوم كان لإخبارها أنه إما سيرسل واحدًا من رجاله ليصطحب أولئك الغرباء إلى الشمال، وإما سيفعلها بنفسه. سيدعها تعرف النتيجة. نتيجة ماذا؟ تساءلت في داخلها، لكنها في النهاية نطقت السؤال الذي تعرف إجابته سالفًا:

- كيف سأعرف؟

- عبر الهامسين والمهربين يا "مريم"، كما كنا نفعل دائمًا.

ومن بين طيات ملابسه الفاخرة، أخرج زجاجة من سائل شفاف، فك غطاءها، ثم أخذ منها رشفة. نظر إليها من فوق الزجاجة. سألها:

- هل يتحدث ابنك "يونس" معهم؟

- مع مَن؟

- الشرطة، لا يبدو عليهم نية الرحيل.

- فيم سيتحدث معهم؟

- أيًّا كان ما يريدون منه قوله.

- لا يوجد لديه ما يقوله لهم.

شرب من زجاجته ذات العلامة الحمراء والتي فرغ نصفها. قال:

- بوسعه أن يأتي معي يا "مريم"، بعد نهاية عملي هنا، يمكنني العثور على عمل له؛ مهرب أحجار، أو مهرب نوع مختلف من الحرير.

- سيبقى معي!

- يمكنه كسب النقود، وسيكون في أمان، أكثر أمانًا من هنا.

كررت بصوت قاطع كالمعدن:

- سيبقى معي!

قال وهو يمد الزجاجة نحوها بعينين لامعتين مثل زجاجها:

- كان مجرد اقتراح. ستخفف الفودكا من الألم الذي تشعرين به يا "مريم".

إذًا، فقد صار يعرض عليها المشروبات الكحولية بدلًا من العسل. هل يختلف طعمها عن "البراندي" المصنوع من "العرعر"؟ العديد من الرجال يحبون شرب "البراندي" في أقداحهم بدلًا من الشاي، والعديد من النساء أيضًا. ذات مرة عندما كانت طفلة، التقطت سرًّا فنجانًا تبقى من والدتها، عندما رفعته "مريم" إلى أنفها، فوجئت بلسانها ينطلق دون تحذير ليلعق قاع الفنجان، ومعه شعرت بموجة من حلاوة دافئة حمضية تقتحم دماءها. فيما بعد، عندما عرفت أن أنف والدتها قوي لدرجة ستجعلها تدرك ما فعلته، فركت لثتها باللبن لتخفي آثار فعلتها.

لكن هناك شيء في الطريقة التي مال بها "غافور" بالزجاجة نحوها جعل الأمر يبدو كخطيئة أسوأ من تجربتها السرية. لم ينظر نحوها بتلك الطريقة مرة من المرات التي أتى فيها لها عندما كانت طفلة. دفعت يده بعيدًا.

بدأ يخبرها بالمزيد من الحكايات عن الناس المقيمين في السهوب، وشرابهم، وطعامهم. بعد سلق رأس الشاه، يقسمونها بين العائلة، يأخذ الأطفال الأذنين، وتذهب العيون إلى مَن لا يستطيعون الرؤية، ويصبح اللسان من نصيب مَن لا يستطيعون التحدث. سألها:

- خمني أي جزء سيصبح من نصيبك؟

لاحظت "مريم" اللمعان الفضي الذي تلألأ في عينيه، والذي جعلها تفكر في الرؤوس المسلوقة. استمر في حكايته قاذفًا الكثير من الكلمات الكبيرة في وجهها عن العالم الذي نزل منه، وعادت هي إلى صمتها.

- هم أقوياء؛ أقوى منا! ماذا تظنينهم يفعلون يا "مريم" عندما تتحول أراضي المراعي إلى مزارع تابعة للولاية؟ هل سيصبحون عبيدًا؟

تحول لون عينيه من الفضي إلى الأحمر.

- أبدًا! ذات زمن كنا أحرارًا لنرعى ماشيتنا في التلال التي تحيط ببحيرة "سيف الملوك"، لكن حتى في هذا المكان لم نعد في أمان، فبوسع أي شخص سرقة ماشيتنا، وحتى أطفالنا! ليست لدينا الرغبة في القتال بداخلنا! ليست لدينا قيادة! وليست لدينا كرامة!

فرغت الزجاجة بكاملها درجة الجفاف، في حين بدت عيناه نديتين. أخذ يترنح قرب بركة المياه. شعرت فجأة بالغضب، وأرادت أن تقول: "استمر في الخطة! استمر في خطتك، أيًّا كانت. فكلامك بلا معنى!".

- الناس هنا لا يستمعون لي يا "مريم". لقد خاطرت بنفسي بشدة عندما عدت إلى هنا.

ومن جديد انتظر شعور بالشكر من جانبها، ومن جديد امتنعت عن إبدائه. أدخل قبضته في بركة المياه، مفسدًا نقاءها. بدا عليه أنه يحتاج إلى الاحتضان أكثر مما يحتاج إليه رسغها المكسور الذي ضمته إلى صدرها، الرسغ الذي لم يلحظ كسره حتى!

- لقد أجبروني على الابتعاد، لكنني عدت! وسأثبت ما يمكنني فعله!

همست:

- أثبته إذًا!

واستدارت بكعبيها مبتعدة، ودون أن تدير رأسها نحوه أضافت:

- حربك مع رجال السلطة ذوي الملابس الرسمية يجب أن تتركنا أقوياء، وليس ضعفاء!

وبعد وهلة من الصمت، سمعت رده:

- أولئك الذين يرتدون الملابس العادية أسوأ منهم!

لم تلتفت لتنظر نحوه، وبعد يومين لاحظت أن الزهرتين اللتين تركهما قد استلقتا ذابلتين في الضريح.

لو استدارت ونظرت، لكانت رأت "غافور" وهو ينسلُّ مبتعدًا، بعيدًا، ليسير إلى الوادي المتعرج من وقت صباه.

أولًا، على بعد أميال قليلة شمال "كاواي"، حيث صعد الطريق إلى أعلى بشكل حاد، وشعر شعورًا جيدًا إزاء الطريقة التي تقلصت بها فخذاه استعدادًا لما كان يعرف أنه سيكون صعودًا أكثر حدة. لو نظر إلى يساره، سيرى "مُصلى موسى"، أو "سجادة صلاة موسى". لم يعرف مَن يمكنه تفسير سبب تسمية الجبل بهذا الاسم، فهو لم يبدُ كسجادة صلاة على الإطلاق، ما كان متأكدًا منه هو أنه على الأرجح لن يراه ثانية، لهذا انحنى أمامه منتقلًا من سجادة صلاة لأخرى.

فكر في أخذ الطريق الموجود على يمينه، المتجه إلى "شوجران"، أو "غابات السماء"، لكنه لم يحب فكرة مقابلة ناس المدينة الذين يقضون أوقات الصيف هناك. استدار وعاد إلى أسفل، نحو "بالاكوت"، منتويًا أن يقطع الطريق الذي يقود إلى الجنوب نحو "مانسيرا".

التقى العديدَ من الناس في الطريق، وقد التقت عيون البعض بعينيه، والبعض الآخر لا. تحرك نهر "كنهار" بجانبه طيلة الطريق تقريبًا، رفيعًا أحيانًا كابتسامة، وواسعًا في أحيان أخرى كضحكة؛ ضحكة يمكنها أن تتحول إلى ضحكة إغراء في موسم الأمطار، ولم يستطع نسيان فيضان عام 1991، عندما كان لا يزال صبيًّا ساذجًا يأمل في أن يرى العالم ذات يوم. بالرغم من أن مجرى النهر كان شديد الانحدار،

فإنها تسلقته ذلك العام حتى حافته، لينطلق العنان إلى أسوأ ما بداخلها تجاه بلدة "بالاكوت".

كانت بلدة شديدة الهشاشة، فلو حلَّ بها فيضان آخر أو زلزال فلن تنجُ على الإطلاق! كانت بالكاد تنجح في البقاء طافية. بعد عامين من فيضانات 1991، بدأ مولانا الصوفي في تشريع القوانين الإسلامية في المنطقة، والآن، بعد مرور عدة مواسم صيف، انتشرت معسكرات أتباعه داخل الغابة كالعفن.

كان بوسع "مريم" أن تعطيه ظهرها بكل سرور، لكنَّ كل راعي ماشية يعرف أنه لا توجد وكالة تريد تفكيك المخيمات في الواقع، فلماذا سيريدون هذا؟ بفضلهم يمكنهم إبقاء القتال بين "كشمير" وأفغانستان دائرًا، والأهم، سيظل القتال دائرًا في الغابة التي كانت ذات يوم تتطلع إليهم من عليائها بمساحتها التي تتعدى مائتي قدم، لكنها صارت الآن تقف منكمشة في خجل، الجميع يعرف هذا، لكن ولا واحد لديه خطة.

بدأت الشمس تغرب، مع اقتراب "غافور" من "بالاكوت"، وهو لا يزال مستغرقًا في أفكاره. كان اللاجئون القادمون من آسيا الوسطى يجدون إخوتهم في تلك المخيمات. لم يستطع أن يحدد ماهيته، أهو أخ لأصدقائه أم لأعدائه؟ هل يمكن اعتبار الرجلين اللذين أعطياه الزهرتين الصفراوين النادرتين في "جلجت" أصدقاءه؛ الرجلان اللذان يفتقدان أصابع أقدامهما ويرتديان قفازات جلدية ناعمة؟ لقد أخبراه ألا ينظر أسفل الزهرتين، وقد نفذ هذا الطلب، وصَّله - كما وعد - لرجل ينتظر فوق منحنى معروف له عند نهر "كنهار". كان جزءًا من النهر يستخدم لتخزين جذوع الأشجار المهربة، كانت هناك عقدة في وجه الصخرة المقابل للمنحنى، بعلو عشرين قدمًا، وقد رأى "غافور" الرجل واقفًا هناك في انتظاره. كان الرجل من قبيلة منافسة، ولم يحب "غافور" الصفقة، لم يحبها على الإطلاق.

أعطاه الرجل صندوقًا آخر من نوع مختلف تمامًا، وأكبر من الصندوق الذي حمله أولًا بقليل، وقد أُغلِق الصندوق الجديد بغطاء ليس مسموحًا له بخدشه حتى. أعطاه الرجل موعدًا لتسليم الصندوق، يجب على "غافور" أن يعود بعده إلى الرجال في "جلجت" بالأنباء.

لم يخدش الغطاء، لكنه لم يكن متأكدًا من أنه سيُوصِل الصندوق. لقد دفنه في أكثر مكان سري استطاع التفكير فيه؛ ضريح "مريم"، عرين ثعلب في الواقع، وسيبقيه هناك حتى يحدد ما سيفعله به قبل موعد التسليم. ربما يكون ذهب من البلد بالكامل قبل أن يكتشفوا ما فعله! سيقترب من المكان الذي يوجد به أولئك الرجال في "جلجت"، الذين من المفترض أن يعود إليهما قبل أن يكتشفوا فعلته. أحب تلك الخطة، لكن عليه أن يفكر.

استكمل سيره، وقد تزايدت ثقة خطواته، وهو يقترب من انحناء آخر في نهر "كنهار".

هنا ارتفعت ضحكات النهر المرحة ذات يوم، وهي ترمي الصخور في طريقها لملاقاة نهر "جيليم". هنا المكان الذي يفترض بها أن تتوقف فيه عن كونها رفيقة سفره. انحرف طريقه إلى الغرب، في حين اتجه طريقها إلى الشرق.

عند الشلال الذي صنعته مياه النهار وهي تنحدر تاركة الوادي لتنتقل إلى الوادي التالي، انحنت ملكة ذات مرة لتغسل عينيها المتعبتين. لا يزال الانحناء يسمى "ناين سوخ".

تخطى "غافور" الطريق ونزل الجسر. وازن نفسه على صخرة قريبة من الشلال، وقد ابتل قميصه، وصار حذاؤه زلقًا. كان بمفرده مع هدير الشلال وضوء الشمس الذي يتسلل عبر فروع أشجار الصنوبر التي انتصبت عالية، نظر إلى أعلى نحو تلك الفروع التي وَثّقت لقرون بالقانون الذي كان يجبر ناس الوادي على الانتظار خمسين عامًا لكي يصل شجر الصنوبر و"الديودار" و"التنوب" إلى مرحلة البلوغ، وليس مسموحًا لهم بقطع تلك الأشجار قبل هذا، لكن لم يعد أحد ينتظر الآن، بالرغم من أنه بهذه الجزيرة، حيث يتحرك الوقت كما ينبغي له أن يتحرك، تم ترك الأشجار.

حبس "غافور" أنفاسه، ووجه أذنه نحو أطول الفروع، وأخذ يستمع لوقت طويل للغاية. نعم، في النهاية، تمكن من سماعها، السبب الذي جعل الغابة الجنوبية تدعى " تشور مور"، أو "سارقة الطاووس". انحناء النهر عند هذا المكان بدا كوعاء، يقوم بجمع أصداء الصوت ثم يلفها كأوراق الشاي. كلما طال انتظارك، كلما ازدادت صرخات تلك الطواويس. شعر بالرغبة في أن يقفز من فوق الصخرة وينطلق نحو الغابة ليطارد تلك الطواويس ليجمع ريشها، كما كان يفعل أثناء صباه.

ظل على الصخرة؛ انحنى إلى الأمام، وبدلًا من جمع الريش، جمع المياه النقية المندفعة من النهر بين يديه. دلك عينيه بها، فشعر بالراحة تغمرهما، لا بدَّ من أنه شعور يماثل ما أحست به الملكة "نور جيهان" منذ زمن طويل.

تغرغر ببعض المياه التي بدت نقية للغاية، ثم تمخط، وبلل أذنيه. شمر أساور أكمامه وسمح للمياه الرائقة بالانزلاق في نعومة على جلده، وحتى وصلت إلى مرفقه. ملأ كفيه من جديد قبل أن يسكب ما بها من ماء نحو مقدمة شعره، وحتى وصلت إلى مؤخرة عنقه، وفتح كفيه فاردًا أصابعه كأنها مروحة، لتصل بعد عظمتي كتفه. نزع حذاءه، وبعده جواربه. مدد قدميه - مد القدم اليمنى أولًا - تحت الشلالات. كانت المياه باردة لدرجة رائعة، وفي تلك اللحظة فقط، أدرك كم تؤلمه قدماه. حرك أصابع أقدامه، ثم مدد كاحليه. فكر لحظات في زوجته الموجودة في السهوب، والتي لا تغتسل الاغتسال الطقسي بعد الممارسات الجنسية، أو دورتها الشهرية. قرر أنه عندما يعود إليها، سيتأكد من قيامها بذلك.

ها قد انتهى من غُسله. لم يشعر من قبل بمثل ذلك النقاء الذهني أو العزيمة.

تحددت نيته. لم تعد هناك حاجة به ليسير إلى الجنوب، فماذا يوجد بـ"مانسيرا" بعد كل شيء؟ لا شيء له علاقة به. هو ليس صبي توصيل، ولا يعمل لديهم. ليس

الواشي الخاص بهم، وليس المهرب الخاص بهم كذلك، والأهم هو لا يبالي بشأن متاعبهم. وأخبر نفسه من جديد أنه ملَّ من تحمل أخطاء الآخرين. يجب أن يبدأ في الاهتمام بمصلحته؛ بوسعهم العثور على أيدٍ أخرى لتغلق صندوقًا جديدًا، وأيدٍ أخرى لتعبر بالصندوق عبر القناة، أو تخدش المنحدر الأكثر غدرًا، أو حتى يذهب بطائرة، فليفعلوا ما يشاؤون لتوصيل رسالتهم. هو رجل حر، مثل الرجال الأحرار الذين يعيش وسطهم الآن، سيفعل كما يشاء. رغب في الحفر لإخراج الصندوق.

لذلك اتجه نحو الشمال ثانية، ليصل إلى منزل "مريم"، في حين بدأ القمر في الظهور بالأعلى. جلست الأبقار تحت ظلال المساء، وقد التمعت قرونها بيضاء أسفل السماء المظلمة. انتظر، وفي منتصف الليل، عندما لم يعد هناك مَن ينظر، حفر مستخرجًا الصندوق الذي دفنه سابقًا في ضريحها. كان بلون الأرض، وقد لفه في قماشة حمراء لتجعل العثور عليه أسهل، ليس بسبب اللون بقدر ما ستكون بسبب الملمس، في حال أراد إخراجه في عجالة ولم يعد أمامه طريقة للعثور عليه إلا اعتمادًا على أصابعه، شعر بالشكر لأنه فعل ذلك، فقد ساعده هذا فعلًا في العثور عليه سريعًا - بالرغم من أن ملمس القماشة على أصابعه بدا أرفع، وأكثر نعومة، وعندما رفعه وجده أخف وزنًا بكثير عما يتذكره - لكنه لم يكن لديه وقت ليكثر من التفكير في هذا، فقد كان في عجلة من أمره. وسط الظلام، بدا له الصندوق الصحيح، فلا بدَّ من أنه هو، فقد ترك ذلك الصندوق فقط!

سوَّى الأرض من جديد للتأكد من أن "مريم" لن تلحظ الحفرة التي حفرها.

وبينما يسوي الأرض، لامست أنامله شيئًا آخر! شعر بملمس ذلك الشيء أكثر خشونة، أقرب إلى الملمس الذي يتذكر أنه تركه هنا، فتسمر مكانه شاعرًا بالارتباك. بدأ يحفر من جديد، ووجد صندوقًا آخر! كيف حدث هذا؟ هناك شيء خاطئ، أيهما هو الصندوق الذي يتوجب عليه أخذه؟ لم يكن لديه وقت للتفكير، فعليه أن يرحل الليلة. لم يكن لديه وقت ليحدد أي الصندوقين هو الصندوق ذو الوزن الصحيح والحجم الصحيح. حشر الصندوقين في حقيبته ومن جديد شرع في تسوية الأرض كما كانت، لكن هذه المرة بحرص أقل، وشعر بالذعر لأنه يخفي آثار شخص آخر. لم يجذب انتباهه شيء آخر، باستثناء أنه قبل أن يرحل لاحظ أن طرف الزهرتين اللتين أحضرهما لـ"مريم" قد انكمشتا إلى الداخل، وقد غزاهما الجفاف كأنما هما فأران منقلبان على ظهريهما، في المكان الصغير من الضريح الذي يعلو المكان الذي دفن فيه الصندوق الأول تمامًا.

لم ترَ "مريم" أي شيء من الموجود هنا غير الزهرتين، وها قد ذهب "غافور" ولا يزال رسغها يؤلمها، تتبعت الحيوانات إلى الغابة، فسارت بمفردها، وبالكاد التفتت إلى وجودها من الأساس. تضايقت مما بدا عليها من هزال، في حين امتلأ الهواء بصوت رنين أجراس حيواناتها وأجراس ماشية الجيران. كان بوسعها تمييز أي صوت أجراس ينتمي إلى ماشيتها، وأيها ينتمي إلى ماشية الجيران.

في وقت ما، كان كل منزل يفصله عن الآخر مسافة كافية لتسمح لماشية كل عائلة أن ترعى، لكن لم يعد هذا هو الحال الآن، وكان هذا سببًا آخر من أسباب التطلع إلى

هجرة الصيف في مراعي الجبال، لأنها بها ما يكفي من مساحة، لقد تسبب موت "كيران" في تدمير إيقاع حياة كل القبيلة.

ظلت بعض العائلات بين أحضان الجبال، في حين نزلت عائلات أخرى إلى السهوب مع عائلتها للمساعدة في إعادة بناء الأراضي المنخفضة، فأجَّروا الأخشاب وقصوا الحشائش من منطقة الغابة بالنيابة عن العائلة الحزينة. عرفت "مريم" أنه لو كان أحدهم مكانها، فستفعل هي و"سليمان" الشيء نفسه، لو تجاهلت حزن مَن بجانبك، سيتجاهلون حزنك أيضًا.

في الأيام التي حُملت فيها "مريم" على ظهر والدتها، بالطريقة نفسها التي ستحمل "مريم" "كيران" بها فيما بعد، اعتادت أمها أن تشرح لها أن الأخشاب وقص الحشائش بالماضي كانوا بالمجان! ستأخذ مؤسسة الغابات فيما بعد المواد كل ربيع، عندما تفكك العائلات أكواخها وتتجه صوب الجبال، وتعيد الخشب كل خريف عندما يعودون. أُخبرت "مريم" أن الإنجليز هم الذين اخترعوا هذا النوع من العمل، مبدأ سياسة الغابة المعتمدة على مصادر إيرادات، وهي السياسة التي تجبر الرعاة على دفع رسوم معينة للسماح لماشيتهم بالأكل، والسماح لهم بقطع الأشجار. قبل قدوم الإنجليز، كانوا أحرارًا في قطع الشجر وإطعام ماشيتهم، وكان المقيمون بالمكان ودودين، فيتركون البدو يخيمون في حقولهم في أثناء الهجرة، لأنهم يعرفون أنه عندما تتحرك الماشية إلى الأمام، يتركون وراءهم سمادًا طازجًا من روثهم. ماذا سيحتاجون إلى أكثر من هذا؟ بدأ التغيير في عيد ميلاد أم "مريم"، وبمرور السنوات، لم يعد حال الرعاة بأفضل من الروث الذي يتخلف عن الأبقار. اعتادت أمها أن تقول بحزن: "الجميع مرحب بهم، ما عدا نحن!".

ولهذا السبب، خُدع العديد من أفراد عائلتها في الشراء؛ متخلين عن حقوق رعاية بالمجان، مفضلين امتلاك رقع صغيرة من الأرض من الولاية التي أخبرتهم بما يجب عليهم زراعته، ومتى يزرعونه. يزرعون المحاصيل نفسها عامًا بعد الآخر، ولصالح مَن؟ لصالح الأشخاص أنفسهم الذين استولوا على حقوق رعاية الماشية الخاصة بهم، والذين لا يهتمون بفصول السنة.

كان "غافور" يتفاخر بكون البدو الذين يعيش بينهم أقوى من أولئك الذين ولد بينهم، لكن ماذا يمكن أن يفعلوه؟ "ليس لدينا غريزة قتال". تمنت لو أنه يستخدم ما تبقى من قوة داخله في القتال في المعركة الوحيدة التي تستحق.

كانت تلك خواطرها عندما لاحظت "ليلى"، ابنة جار لهم، وهي تسحب أغنامها بالقرب من "مريم" بشدة، لكن الاثنتين تعرفان بعضهما جيدًا. حيَّت كل منهما الأخرى بتبادل سباب القرويين المقيمين بالمكان.

قالت "مريم":

- التصقت مؤخراتهم بالمقاعد كما تلتصق القواقع بأوراق النباتات.

أجابتها "ليلى" ببعض الأصوات البذيئة من لسانها، وفي النهاية سألت "مريم" هامسة أذهبت إلى ضريحها ذلك اليوم وهي تعلم أن الآخرين لا يقبلون ممارستها

تلك، على الرغم من أنها تضاءلت بشكل كبير هذا العام.

بدأت "مريم" تبتعد، بينما تبعتها "ليلى" محذرة:

- إنهم هنا!

كانت ماشية الاثنتين تتغذيان على الحشائش نفسها الآن.

- أولئك الرجال من "بالاكوت".

شعرت "مريم" بالرعب يتصاعد داخلها، وقالت:

- ماذا يريدون؟

هزت "ليلى" كتفيها مجيبة:

- ما أرادوه طيلة الوقت؛ يريدون مجد الإسلام! لا يريدون آلهة وثنية أو أضرحة!

ضحكت الفتاة مع آخر كلماتها.

فكرت "مريم": "ليس الآن". مسحت العرق عن شفتها بالضمادة التي حول يدها، وأجفلت. صار الأمر موضوع وقت قبل أن يعثروا عليه! سرعان ما سيعثرون على عرينها الصغير المختفي وسط التل، بحجمه الذي يناسب تسلل ثعلب لكن لا يناسب رجلًا حاقدًا، أو هذا ما تتمناه.

تركتا أغنامهما وسارتا على أطراف أصابع أقدامهما حتى سجادة من حشائش "الكاكوا" التي تمكنهما من رؤية صف الأكواخ الخاصة بهم من خلفها، شعرت بالسعف المتشابك يدغدغ أنفها. "مواسم وثنية لزوجة وثنية!" كانت معتادة التهكم، ولكن الاعتياد لا يزيد من تحمل الإهانات! ومن ضمن مَن قال هذه العبارة؛ رجال يدعون أنفسهم بـ"حجاج"، وهم يتباهون بأنفسهم ليس فقط في وجهها وإنما كذلك في وجه كل "جورجاري" في المنطقة. لم يحج العديد من الرعاة في "مكة". بالطبع رغبوا فيها - فمَن لا يرغب في أن يظفر بالمغفرة عن خطاياه؟ - لكن كيف سيحصلون على المال؟ ارتدى الحجاج في الوادي قلنسواتهم كما لو كانت قرونًا.

كان بوسعها رؤية تلك القرون المزيفة الآن من وراء السراخس. كانوا من "بالاكوت"، وكانوا الأسوأ على الإطلاق، والأجدد ظهورًا أيضًا. لم يبدؤوا في الظهور هنا بالأعلى إلا في العام الماضي، ولهذا منعها زوجها من الاحتفال بـ"ديوالي". عرف أولئك الرجال من "بالاكوت" مدى ما يواجهه البدو من مصاعب بسبب الرسوم المفروضة عليهم للسماح لماشيتهم بالأكل من المراعي، ورسوم قطع الأشجار، والتصاريح السنوية، والضرائب والغرامات، والضغط عليهم ليبقوا هادئين بعد كل هذا، ومثل والدتها، كانوا يعرفون ما حدث بالماضي. بالرغم من أنها كانت أبعد من أن تسمعهم، فإنها استطاعت رؤيتهم يحومون حول صبيين صغيرين من قبيلة أخرى، لم يتعدَ عمرهما الثالثة أو الرابعة عشر عامًا. استطاعت أن تخمن أن الحجاج الذين لم يبدوا أكبر عمرًا كذلك سيبدؤون خطبة بذكر سياسات "البريطانيين". هذا هو اللقب الذي كان يطلقه عليهم الحجاج الصغيرون ذوو

القرون الصغيرة، لم يكونوا يدعونهم "إنجليز" مثل الباقين، وقد بديا شديدي الأناقة في ملابسهما السوداء.

صارت المرأتان الآن خلف صف من شجيرات "بكار" الطويلة، بجذوع أكبر بالكاد من حجمها..

- لقد أقام البريطانيون مستعمرات على أراضيكم وأنشؤوا سياسة الغابات لملء جيوبهم الشرهة!

استطاعت أن تسمعهم بوضوح وهم يتحدثون باللغة الهندوكية بلهجة غريبة. لقد عرفوا أنها ليست أرضهم ولن تصبح كذلك أبدًا.

-.. ومن قبلهم حطم ذلك الكلب السيخي المدعو "رانجيت سينج" وأتباعه مجد الإسلام!

تمكنت الآن من رؤية رجلين أكبر سنًّا، بعمامتين ملفوفتين بطريقة مختلفة عن طريقة الرجال "الجورجاريين".

- حتى مولد الشهيد العظيم "أحمد بن محمد عرفان" الذي كرس حياته للجهاد!

ثم حكى قصة طويلة عن معركة "بالاكوت" التي استشهد فيها "ابن محمد عرفان". كانت قد سمعتها من قبل، وعرفت ما حدث بعدها؛ دُفِن الشهيد في "بالاكوت" ليجعلها أرضًا مقدسة (لكنهم على الرغم من هذا ظلوا يدينون بالوثنية) ومصدر إلهام لقضيتهم. لقد خرج البريطانيون، لكن هناك آخرين يتربصون بأرضهم، والذين حاربتهم حكومة باكستان كثيرًا، في البداية ضد الجماعات الروسية في أفغانستان، والآن ضد إخوتهم الأفغان. ألم ينضم أولئك الرجال "الجورجاريين" الشجعان إلى القضية، والذين لم ينجح البريطانيون ولا السيخ ولا الغابة ولا الجبال ولا الأنهار حتى في ترويضهم؟ استطاعت رؤية الصبي يومئ برأسه، في حين كحت الآخر التراب بخفيه المطاطيين المستهلكين. صارت أقدامه معجونة بالتراب.

ارتدى الحاجان الصغيران زوجًا من الأحذية التقليدية المصنوعة من الجلد البني والبيج الموشَّى بالذهب، وقد وُضِعت كرة كبيرة حمراء على منتصف الشريط الموجود بمنتصف الخف، وارتدى الرجلان الأكبر سنًّا حذاءين من الجلد الأسود. بدأ أحدهما يتملق الصبي الذي يحفر الأرض، فداعب شعره، وقرص خده قائلًا:

- ماذا تقول؟

ثم أصدر أصوات قبلات. تمتم الصبي الذي كان لا يزال ينظر إلى الأسفل ببعض الكلمات جعلت الرجلين يضحكان، في حين أخذ الصبي الآخر يلعب بسلسلة ذهبية - يبدو أنها غالية الثمن - متدلية حول عنقه. كان لا يزال يعبث بالسلسلة بإحدى يديه عندما سحب يد الصبي الخجول بيده الأخرى، ورحب بالجميع داخل كوخ، وخلال ثوانٍ، كان الصبيان الصغيران يقودان الطريق.

يمكن استرضاء أولئك الرجال ذوي العمامات الملفوفة بشكل خاطئ ببعض السمن والسكر، واللحم والخبز، مثل مفتشي الغابات وجامعي الضرائب الذين أزعجوهم

في السابق، ومثل رجال الشرطة، والجنود، والجواسيس الذين يزعجونهم الآن. كلما ازداد طول موعظتهم، ازداد جوعهم؛ لا تعرف ما يمكن أن يحدث عندما ينتهي مخزونهم.

مما سمعته من كلام الرجال الذين اجتمعوا بالخارج في البهو، حيث لا ترتفع الجدران بما فيه الكفاية لتصل إلى السقف، وهذا ما سمح لها أن تسمع جيدًا – بالرغم من أن عليها أن تعمل مع الرجال في الغابة وليس تبادل الإشاعات معهم في الكوخ - إن صبر أولئك الرجال من "بالاكوت" على وشك أن ينفد هذا العام.

"بعكس الوعاظ الذين أتوا في العام الماضي"، قال الرجال إن هذه المجموعة لن تتوقف عند الكلام فقط. كانوا أصغر سنًّا ولديهم مخيمات تدريب، كما أنهم مسلحون، وقد استخدموا الأسلحة بالفعل ضد القرويين في الجنوب والغرب. أرادوا تجنيد الكثيرين، ولهذا فإن أبناءهم ليسوا في أمان. كانوا يطلقون جهادًا سُنيًّا ضد غير المسلمين وكل حلفاء الكفار، ومن ضمنهم أي شخص له علاقة بالحكومة، وهذا يتضمن الرجال الذين يستقلون العربات، بالإضافة إلى مفتش الضرائب ومفتش الغابة. لم يكونوا مهتمين بالغابة، ما لم يمكن استخدامها كمعسكر لو احتاجوا إلى الانتقال من "بالاكوت". أخبروا الرجال "الجورجاريين" أنهم يفهمون الحياة البدوية.

ابتعدت "مريم" في حنق. لا يصلي الرعاة بانتظام في المسجد، منذ ابتعدت بهم الهجرة كثيرًا وزجرهم رجال "بالاكوت" ذات مرة بسبب هذا. الآن، صاروا يدعون أنفسهم بدوًا؟ حبست أنفاسها، ثم ألصقت أذنها من جديد بالجدار.

قال أحد الرجال - كان صوت الرجل الذي تقدم للزواج منها قبل أن تفوز عائلة "سليمان" - إنه من العار كون أولئك الرجال، مثل مُلهمهم "أحمد بن محمد عرفان" منذ مائتي عام، يستهدفون المسلمين.

- يقولون إن الأمريكان يقتلون المسلمين في أفغانستان وفلسطين والعراق، فلماذا يقتلوننا؟

قال آخر:

- لم يقتلونا بعد.

شعرت "مريم" أن هذا صوت والد "ليلى". صار الأمر كما لو كان تفرقة بين أصوات الأجراس من جديد. خيم صمت طويل.

- مَن علينا أن نتعاون معه؟ الحكومة أم الميليشيات؟

- كلاهما!

- إذًا فكلاهما سيراقبوننا وكلاهما سيضربوننا!

خيم صمت طويل مرة أخرى، ثم قطع صوت ما الصمت أخيرًا:

- صحيح، لن يصيبنا الجفاف في الشمس، ولا البلل في الأمطار.

ارتفعت همهمات موافقة، تبعتها مختلف الأمثال التي تشرح الحقيقة المربكة نفسها؛ لقد حوصروا بين جهتين تكرههما بالقدر نفسه!

قال أحد الأصوات الذي كان ذا نبرة عالية وواضح التبرم:

- هل لا تزال القوافل تبالي بأمر "فاريبي"؟ مُغيِّر شكله؟

- هل كانوا يبالون بأمره من قبل؟ مَن كان؟

قال صبي صغير ذا صوت ضعيف ومتردد:

- لقد.. لقد رأيته اليوم!

ثم سمعتْ صوت رأس يُضرب.

- لا تكذب!

لا بدَّ من أن هذا صوت والده.

تمتم الصبي باعتذار خافت. ارتفع صوت رجل آخر، بدا أنه يبتسم، سائلًا الصبي:

- في أي شكل رأيته؟

استطاعت أن تميز ذلك الصوت كذلك. في يوم زفافها، كان قد تقدم للزواج منها - وكان يبتسم يومها كذلك - بمهر يتكون من بقرة مريضة، وهو يضع شراب "البراندي" المستخلص من "العرعر" في كوبه. قال الأب:

- الصبي ذا مخيلة واسعة.

ارتفعت همهمات توافقه على كلامه، وسرعان ما غُفِرت خطيئة الطفل.

استطاعت سماع صوت أقداح الشاي توضع على الأرض، وصوت أنفاس تُسحب من النرجيلة، ومع الأنفاس، خرجت عشر كلمات تحدثت عما يدور داخل صدور الجميع:

- مَن صار يعرف مَن يفعل ماذا في الوقت الحالي حتى؟

تبعتها همهمات موافقة.

- سيتصاعد التراب عندما يقع الجرف!

تصاعد المزيد من الاستحسان، ومعه المزيد من الدخان. بعد وهلة، تصاعد صوت لم تستطع تمييزه سائلًا:

- ماذا عن ذلك الرجل من معارف زوجتك، ذلك الرجل الذي عاد؟

ومن الجهة الأخرى للجدار، حاولت "مريم" قصارى جهدها لتبقى ساكنة!

- ذلك الغراب على الصخرة!

أجفلت "مريم"، فقد كان ذلك لقبًا يطلقونه على مَن ليس جديرًا بالثقة على الإطلاق! هذا بمنزلة اتهام لـ"غافور" بكونه يفضل أن يكون بمفرده عن أن يكون مع عائلته. ليس هذا منصفًا تمامًا، فهم مَن طلبوا منه الرحيل منذ سنوات!

ارتفع صوت "سليمان":

- ماذا عنه؟

- أهو مع الميليشيات؟

تلك المرة كان الصمت المخيم ثقيلًا لدرجة أنها رغبت في الطرق على الجدار، لتخبرهم أن يسرعوا ويجيبوا عن السؤال!

ارتفع الصوت الذي لم تستطع تمييزه من جديد قائلًا:

- رأيته يتحدث معهم.

تصاعدت همهمات متفاجئة.

- ماذا تعني؟

- في البداية، حاول التحدث معي، قال شيئًا عن الشرطة وإننا يجب أن نقف في وجههم، وإننا لا يجب أن نسمح باستعبادنا. تحدث عن أن بوسعنا التعلم من الأوزباكستانيين و"الأويغوريين" وبدو السهوب..

بصق صاحب الصوت، ثم أكمل:

- الذين تتساوي عندهم السيدات مع الرجال، أيظن أن بوسعه العودة بعد كل تلك الأعوام ويقودنا؟ إذا كنت تريد قيادتنا، كن في صفنا.

ارتفعت صرخات من عينة "أحسنت!" و"لم يجلب لنا ذلك الرجل إلا المتاعب!" و"الآن، بعدما عاد لا بدَّ من أنه سيجلب المزيد من المتاعب أو ما هو أسوأ!".

ارتفع صوت "سليمان" بنبرة حازمة مفاجئة قائلًا:

- لا! هو ليس في صفهم!

- لا؟ غريبة، مع أنه كثير الكلام.

ضحك بعض الرجال، وتنحنح "سليمان" مجيبًا:

- أكيد. ولجأت عائلة زوجتي إليه بسبب خطابه المتناقض، فكما تعلمون، لم أرغب في قبول عوض عن خسارتنا.

ارتفعت همهمات مواسية له، وسرعان ما امتلأ هواء المكان بالترحم والدعاء من أجل روح "كيران".

- إنها مشيئة الله.

- إنها مشيئة السماء.

- إنها مشيئة الجبال.

- إنها مشيئة الإلهة.

ومع آخر جملة، ارتفعت همهمات، وتنحنح البعض، في حين تململ البعض الآخر في أماكنهم، ميزت "مريم" صوت آخر، كان صوت والد الطفل الذي اقتحم الحديث سابقًا. واضح أن الصبي قد تبع دين والده، فلم يعد أحد ينادي الإلهة في العلن بعد الآن.

بدا كأنما الطريقة الوحيدة لإنهاء ذلك الصمت الغريب المخيم على المكان هي العودة بدفة الحوار نحو الغراب على الصخرة.

- هل أنت متأكد من أنه لا يعمل مع المقاتلين؟

أجاب "سليمان" بصوت واثق:

- متأكد!

أجابه صوت آخر غريب:

- لو كان كذلك، يمكنه إخبارنا بما يجب أن نفعله.

أجاب "سليمان" عليه:

- لو كان كذلك فعلًا فلن يخبرنا بما نفعله، ولكنني قلت إنه ليس منهم، فهو مع رجال آخرين، رجال ربما يكون لديهم اتصال بهؤلاء الرجال فعلًا، لكن لهم اهتمامات أخرى تمامًا! لا أعرف ما هي، لكنني متأكد من أنه ليس جهاد جماعة "السنة"!

- ما هو إذًا؟

ربما أدرك "سليمان" وجودها، فقد تنصتت على محادثاتهم في عدة ليالٍ سابقة، بعد إطعام عائلتها وإدخال أطفالها في فراشهم. ربما في كل مرة يعود فيها لها من الاجتماع، تفصح عيناها وقتها عن كل ما تلقته أذنيها!

كرر الصوت الغامض:

- حسنًا؟ لو لم يكن معهم، فماذا يريد؟

- العدالة.

- العدالة؟

ثم سمعت "مريم" صوتًا غير طبيعي كصوت أمطار الشتاء أو ثلج الصيف. تساقط الصوت في كل مكان من حولها، من فوق الجدار. لا، لم يكن صوت مطر ولا صوت ثلج، فما يسقط شيء أسوأ بكثير! كان صوت رجال اندمجوا معًا في ضحكة ساخرة.

ابتعدت عن الجدار نحو الهواء الطلق، متجهة نحو بيتها الحقيقي.

كانت ليلة اختفى فيها القمر وتثاقلت الرطوبة حتى كادت تزهق روحها. بحثت عن النجوم، لكن لا واحد منها كشف نفسه لعينيها. بحثت عن "غافور"، لكنه اختفى، ربما كان يتابع الغرباء نحو الشمال البعيد. لم تسمع منه منذ آخر لقاء لهما، وعندما تذكرت اجتماعهما الأخير، شعرت بالألم للطريقة التي كانت تفكر بها فيه. أيًّا كان مكانه الآن، تمنت لو يستطيع رؤية بعض النجوم، وعندما يراها، عرفت أنه لن يشير إلى تلك النجوم، مهما كان ثملًا، أو غاضبًا "فهي تشير فقط نحو ما يسلب الحياة".

آلمتها الطريقة التي يفكر بها رجال الوادي فيه، كانوا يشعرون نحوه بالاحترام والخوف في الماضي. اعتاد الصغار تحديدًا النظر نحوه كبطل، حتى لو كان بالنسبة إلى الكبار الذين يحملون شارة الشرف مجرد مصدر للإحراج، لكن الآن صار البعض لا يعرفه من الأصل، في حين تجاهله الآخرون. ألم يسمعوا عن مدى شجاعته، وكيف أظهر لمفتش الغابة ما يحدث لأولئك الذين يُتَّهمون ظلمًا بجريمة؟ ألم يمروا بمنزل المفتش المحترق وهم منكمشون خوفًا؟ ألم يروا شبح زوجته الميتة أو سمعوا صرخات أطفالها؟ لا، واضح أنهم لم يفعلوا! ومن الواضح كذلك أنها كانت فخورة بما فعله، بالرغم من أنها لم تستطع الاعتراف بهذا حتى الآن.

بالرغم من أن التغيير كان جزءًا من حياتهم، لكن ليس هذا التغيير، ليس تغيير "غافور"، ذلك الذي صار شاردًا هائمًا على وجهه.

استوعبت الآن أن الطريقة التي نظر بها إليها أول مرة، كان المقصود منها بحثه عن قيمته الحقيقية لو رفضه الآخرون، هل كانت ستفعل الشيء نفسه؟ لو لم يستطع أن يصبح قائد قومه، ألا يستطيع حتى امتلاك قطعة منها؟ بالرغم من أن اغترابهما اعتمد على كبت الرغبات، فإنه توقع أنها لا تزال تشتهيه. كان يعتمد على هذا. بالرغم من أن كل شيء آخر يجب أن يتغير، فهذان كانا الشيئين الوحيدين الثابتين بخصوص حبهما؛ ألا يستهلكاه، ولا يتخطياه. نظر إليها متوقعًا هذا التأكيد، وشعر بالغضب عندما لم يره.

عادت إلى الكوخ، وسحبت يدها السليمة فنجانًا من على لوح خشبي سميك تخفي وراءه بقية حاجاتهما، ومن ضمنها شراب "البراندي". كان طفلاها نائمين، وعلى الجانب الآخر، استمر الرجال في حديثهم. صبت بعض "البراندي"، وعقلها لا يزال يصول ويجول هنا وهناك.

كان هذا هو أكبر تغيير تخشاه؛ أيمكن أن يكون تاجرها وبائعها، الرجل الذي صار صاحب رائحة الفودكا الكريهة بدلًا من رائحة الثوم الغريبة، والذي صار يقدم لها اليأس عوضًا عن العسل، قد خلا من كل رغبة داخله في القتال؟ أيمكن أن يكون تتبعه لأولئك الغرباء إلى الشمال دون غرض؟ واضح أنه يحتاج إلى الاحتواء، لكنها لم تكن في حالة مناسبة لتقديم هذا لأحد، حتى لو رغبت في هذا، وهو ما لم يكن حقيقيًّا. ليس بعد كل المجهود الذي بذلته لمنع قلبها المحطم من أن يصبح باردًا.

حملت الفنجان متجهة إلى الغابة. مهما ساءت الأمور بالوادي، ومهما انحشر الرعاة بين الحكومة والميليشيات، فما حدث لـ"كيران" لا يمكن نسيانه. الصراع لم يتركها؛

تمنت لو كان بوسعها أخذ مكان "غافور"، فتذهب هي لتتبع الغرباء.

بدت الأشجار الواقفة أمام "مريم" بالظلام أعلى مما كانت تبدو عليه في أثناء النهار. استطاعت تسمية كل ظل؛ "ديار"، "بينتري"، و"كالاي"، كما كانت هناك ظلال أقرب إلى الأرض لنباتات ذات أوراق وجذور بوسعها علاج العديد من الأمراض، من الأرق إلى السيلان، وحتى السرطان! سردت أسماءها أيضًا؛ "آسمني بووتي"، "بريمي"، وطبعًا "الأم". فركت التربة بين أصابعها، ودارت عيناها باحثة عن الزنجبيل الذي يحبه الحيوانات.

في العام الذي التهمت فيه الشاه عنقي الزنجبيل ليُجبَروا على دفع غرامة فادحة، قالت أمها وقتها شيئًا بدأت "مريم" أخيرًا تفهمه، وهي تقف مكانها شاعرة بحلاوة "العرعر" الحمضية الدافئة تتخلل مسامها، مسحت الأم بيدها على جذور الزنجبيل وهي تقول: "إن النعجة كانت حكيمة لتلتهمه". قالت إن أفضل الأشياء بالحياة تتشابه مع الزنجبيل في كونها قوية، كثيرة، والأهم، تبدو كقطعة واحدة أفقية؛ بلا بداية أو نهاية واضحة، دائمًا في حالة حركة؛ في المنتصف، بين شيء وآخر، وبين حي وآخر. فلنترك العالم الرأسي للأشجار والجبال. كل شيء آخر، يخضع لمنطق ما - حتى الآلهة والجنيات - يتحرك مثل نبات الزنجبيل؛ متوازيًا مع الأفق، ليصل إلى كل مساحة بإمكانه الوصول إليها.

حسنًا، مثلما تفعل "مريم"؛ حتى لو كان هذا يحدث فقط داخل عقلها. أخذت رشفة، وشعرت بالدفء يتغلغل داخل عروقها كما كان يحدث لها في طفولتها عندما تلعق الثمالة الباقية من مشروب أمها وهي تشعر بالذنب. الآن، لم تعد تشعر بالذنب.

تذكرت بعضًا من أحاديث الرجال. لم تؤثر الكلمات نفسها في تفكيرها بقدر ما أثرت الطريقة التي نُطقت بها، بدت الكلمات بعيدة وعالية. علمتها والدتها أن النساء يتحدثن مع بعضهن بعضًا بلغة مباشرة وحميمية، في حين يعتمد الرجال على قول الأمثال لترفع من مقامهم، لكن لم يكن معنى هذا أن النساء يتحدثن مع الرجال بكلمات مباشرة، وإنما يبقين هذا الأسلوب لمحادثاتهنَّ معًا، ولا يعني هذا أن النساء ليست لديهن القدرة على الحديث أمام الجماهير، فهي نفسها قادرة على إثبات هذا. هل هناك من لم يثِن على قدراتها؟ كانت تخبر "مريم" بأنها يجب أن تمسك بمقاليد الحديث قبل زواجها. فسألتها:

- هل ملأتِ فمك بالدقيق؟

كانت تلك هي طريقتها لحث "مريم" ليس على الحديث فقط، وإنما لتتحدث بشكل صحيح أيضًا، فلو لم تتمكن "مريم" من ملء فمها بالدقيق، كيف ستتمكن من رؤية أن الفجوة يمكن أن تكون نافذة، أو بابًا بالجبل؟

استقرت "مريم" عند قدم شجرة "تشالاي"، بالرغم من أنها يمكن أن تكون جذع جني. أغلقت عينيها، شاعرة بجسدها يتمدد أكثر فأكثر؛ بلا أطراف، كأنها دودة تجاهد لتشق طريقها بصعوبة وسط كومة من الريش وأوراق الأشجار. انزلقت وحلقت؛ تابعت الغرباء نحو الشمال.

رأته على الفور، كان هناك.

بين نابين برزا من فكين لامعين - المكان الذي يولد فيه الجليد ولا يذوب فيه الثلج أبدًا - جلس رجل القرفصاء، واستند كتفه على شلال. لن يسقط، لكنه كان يتألم. لم تستطع أن تحدد كيف وصل إلى هذا المكان؛ ربما انزلق.

كانت الصورة واضحة للغاية، لدرجة أنها بدت كأنما هي سائل يتدفق، أو كما لو كانت يداها هي من تقودان اللحن. استطاعت الشعور بالألم الموجود في كتف الرجل الذي تبعها إلى القبور، لم يكن ألمًا جسديًّا فقط، تستطيع أن تجعله أسوأ. لو أرادت أن تجعله يئن، فسيئن. لو أرادت أن تجعله ينظر إلى أعلى، فسيفعل.

رؤيتها الأولى، أخيرًا!

سمعت صوت خفقات جناح ثقيل، بالضبط كما سمعته في بداية هذا الصيف، أول مرة رأت فيها صورة الرجل، قبل أن تدرك ماذا كانت ترى. اقتربت خفقات الجناح وستتقطع رؤيتها، على الرغم من أنها تتوق إلى رؤية ماذا سيحدث فيما بعد؛ داخل الناب اللامع، للرجل الذي يتألم ليس ألمًا جسديًّا فقط، الرجل الذي لم يستطع مثلها رؤية فتاة تخطو داخل قارب. أغضبها كونهما يتشابهان في شيء ما، لكنها كانت الحقيقة.

سكنت الأجنحة، واختفت رؤيتها؛ تلاشت تمامًا كما تختفي النجوم مهما حاولت التحديق إلى السماء حيث اختفت.

وبدلًا من منظر الرجل في الجبال، رأت بومة تحدق إليها - من فوق شجرة "بينتري" - إلى أسفل وقد علا صوتها المميز.

نادتها أجنحة العالم التالي، وقد انحنت إلى الأمام قليلًا. أحاط الريش وجهها، كأنه ظل شعرها، وبدت وجنتاها شاحبتين، وعيناها داكنتين مثل كهف مظلم. طبعًا كانت ستنتقي شجرة "العرعر" المفضلة لديها لترتاح عليها، تلك الشجرة التي تدخن أوراقها، وتحرق لحاءها، وتحمص ثمراتها. نادت "مريم":

- هل ملأتِ فمك بالدقيق يا أمي؟

حركت البومة جناحيها، وقد شقت ابتسامة خافتة طريقها عند طرف منقارها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القسم الخامس

سلام مفاجئ

حلمت بـ"فرحانة" تنام بجانبي من جديد، وتتحدث في أثناء نومها، لكن لم أستطع تمييز كلماتها. ربما كانت عن أمها ثانية التي كانت تهمس بدعواتها فوقها. "كنت أحلم بأمي عندما أشعر بالخوف". كانت تنام بجانبي، وأنا أستند على مرفقي أراقب القمر وهو يتسلل ليقبل وجنتيها. ترك ضوء القمر دائرة في ذلك المكان، دائرة لم تهتز إلا بقدر محدود، قبل أن يقفز داخل فمها، وهو أفضل ما فيها، حتى من دون ظهور القمر. كم مرة ظللت أحدق إلى شفتيها، معجبًا بصبغتها البيج التي تخللتها أبهى درجات اللون الوردي، قبل أن أمرر أناملي على قوسها الرقيق؟ استمر القمر يغمرها بقبلاته، واستمرت "فرحانة" في الحديث، بالرغم من أنني أعرف أنها نائمة، وعرفت أنه متروك لي أن أفعل كما فعلت والدتها. رفعت نفسي في الهواء ككرة من الريش، ومن هناك نفخت بعض الهواء على شفتيها، والقمر يزرع دائرة جديدة، قبل أن يتحرك نحو حلقها.

"نفسًا مقابل نفس. هذه هي طريقة التعبير عن الحب".

وأنا أحببتها؛ أحببتها أكثر من أمها، أو القمر. نامت بجانبي في الكوخ بـ"كاجان"، وكنا قد وصلنا للتو، وكل شيء بدا جميلًا. كان بابنا مفتوحًا لظلام الليل، كأنما ندعوه للدخول، وحولنا تناثرت أوراق زهور خضراء كالمخمل، وأسفلنا الأرض الحمراء. كنا قد أتينا من أجل هذا، وليس ليقع كل واحد منا داخل هوَّته الشخصية لنفترق، لكننا لم نفترق بالكامل بعد، كنا قد وصلنا للتو، وقد أحاط بنا الوادي كأنه يحتضننا أنا و"فرحانة" والبحيرات الزرقاء التسعة الساكنة والنقية داخل منحنياته.

في أثناء الليل، خلال نومي، ظللت أنفخ على عنقها، أظافرها، وركبتها؛ في الأماكن التي ترك فيها القمر دوائره.

في الصباح، اجتاحني شعور عارم غريب من الخمول. مددت يدي نحو شعرها، كأنه بطانية أرغب في الالتحاف أسفلها، لكن المكان بجانبي كان خاليًا. استقبلت اختفاءها بهلع غريب، في حين امتدت يدي تغلق المنبه، وامتدت اليد الأخرى تبحث عن حلم، ثم استوعبت أنه حلم فعلًا؛ لم نكن قد وصلنا للتو، وحدثت الكثير من الأشياء ولا يمكن إلغاؤها أو إلغاء أي جزء منها، ثم إننا لسنا في "كاجان"، وإنما في "جلجت". صار مكان "فرحانة" بجانبي خاليًا لأيام أكثر مما بوسعي أن أعد، والآن، حتى "عرفان" رحل.

نظرت إلى الساعة، إنها السابعة صباحًا. تركت فراشي وسحبت الستارة جانبًا، باحثًا عن تلك التلال المغطاة بالطحالب في أحلامي، لكن لم أستطع رؤية ما هو أبعد من ساحة الانتظار. أغرقت الأمطار "جلجت"، لتغطي الساحة بطبقة من وحل أحمر، لم تتوقف الأمطار منذ سحبنا سيارتنا "الچيب" نحو تلك البلدة منذ يومين، تدفقت رواسب من مجرى النهر لتغطي كيلومترًا من الطريق السريع، لتسد طريقنا.

وبالأمس - أتذكر هذا الآن - تركني الحلم شاعرًا بأنني تم التخلي عني بالكامل لدرجة أن أنفاسي احتبست، أخبرونا أننا سنضطر إلى الانتظار يومًا آخر على الأقل. فاض نهر "جلجت" أمس ليهاجم مسجدًا، ساحبًا معه اثني عشر مصليًا؛ من ضمنهم ثلاثة أطفال، لا يزال طفلان من الثلاثة مفقودين، في حين مات الثالث، لو لم تحدثْ فيضانات، فالغارات تحل محلها. لم يسمع أحد بخبر عن الأعمى والأعرج اللذين أُلقِي القبض عليهما منذ ثلاثة أيام.

في باكستان، من الصعب أن تعرف ما المأساة التي عليك أن تتعاطف معها أكثر. استلقيت في فراشي، أفرك بأناملي على قشرة من الدماء، فمنذ يومين، عندما كنت عائدًا إلى غرفتي بالفندق، تعثرت بشيء؛ قطعة خردة من المعدن، أو شظية من جمجمة. تعافت قدمي بصعوبة، لم أشعر بالألم، ولا حتى باليأس مع هذا التأخير الجديد. بمجرد أن استوعبت غياب "فرحانة"، واستوعبت أنه شيء مستمر كالأمطار وعوائق الطريق، بالكاد شعرت بشيء نحوه، باستثناء شعور مفاجئ بالسلام غير المتوقع. لا يزال لدينا وقت. كلما زاد بقاؤنا بالشمال، قدمت المزيد من الفرص نفسها لي، ولنا. في الوقت الحالي، شعرت بنفسي فارغًا من الطاقة؛ كان شعورًا غريبًا، فلم أشعر بمثل هذا التعب من قبل. شعرت كما لو كنت أُسحَب داخل زلاجة من الطين لأُبتَلَع وأُسحَق، لكن هذا جيد، فلم يكن يؤلمني. شخص ما ينفخ شيئًا ما نحوي، كما كنت أنفخ حبي ومباركتي نحو "فرحانة" في حلمي، باستثناء أن تلك النفحات لم تكن محملة بالحب أو المباركات؛ لكن لا بأس بهذا.

يا للسخرية، طرق "ويس" باب غرفتي ذلك اليوم. أتى إلى غرفتي ليسألني أأرغب في تناول إفطاري معه، فوافقت. بعد هذا لعبنا "السكرابل". لاحظت أنه توقف عن الحلاقة، كان يحيط بنا الكثير من الرجال حليقي الذقون، فلم أشعر أننا سننسجم معهم. رتب قطعه على اللوحة، غير قادر على التوصل إلى خطة أفضل من إنشاء طريق، ضحكت وقلت إننا نفكر في الشيء نفسه. شعرت بالانسجام لهذا التشابه، ثم إنه كان تقنية سهلة للعب، لأنني لم أشعر أنني حقًّا معه، وهو ما كان شيئًا غريبًا لكن ليس غير سار. قلت:

- اللحية، حرفيًّا، تليق بك.

ضحك مجيبًا:

- وتجعلني أبدو رفيعًا أيضًا، أليس كذلك؟

- لن أتمادى إلى هذا الحد.

وقف واضعًا إبهاميه داخل وسط بنطاله الچينز، قائلًا:

- ماذا تسمي هذا إذًا؟

- إبهامين رفيعين.

جلس مرة أخرى.

- تبدو جيدًا.

- لن أتمادى إلى هذا الحد.

بعد هذا - كان تقدم اللعبة بطيئًا للغاية لدرجة أنني لا أتذكر مَن منا فاز بها - انضم لنا سائقنا "نور شاه"، فاحتسينا بعضًا من الشاي المملح، ونحن نستمع لحكاياته العديدة عن الحكام والحصون، وصوت الأمطار وأخبار الرجال الذين اختفوا لا يتوقف.

شعرت تلك الليلة بغياب آخر، استغرق مني وقتًا أكثر مما يجب لأستوعب أن الأمطار توقفت. التفتُّ لجهة "عرفان" من الفراش لأوقظه لأسأله أمعنى هذا أن بوسعنا الرحيل غدًا، لكنه لم يكن هناك.

في الصباح، قادنا "نور شاه" إلى الطريق السريع بقدر ما سمح الطريق، وعند المكان الذي انسد فيه الطريق بسبب الطين خرجنا من "الچيب" وسرنا مؤقتًا عبر الطريق الصخري الزلق بسبب الطين الأسود حاملين متاعنا. تسلل مرافقنا - والذي لم أره ثانية منذ أول ليلة في "جلجت" وحتى خرجنا هذا الصباح - برشاقة كالغزلان.

بعدما عبرنا، قابلتنا سيارة "چيب" ثانية. كنت قد بدأت أتعلق بـ"نور شاه" وحزنت لفقداننا رفقته. جعلنا نعده بزيارة قلعة "بلتِت" - وأن نحاول تخيل العرش الذي اعتلاه الحكام ليحكموا من فوقه على قوات الإسكيمو بالسير فوق الأنهار الجليدية بأقدام حافية - عندما نصل إلى هناك؛ وعدناه بهذا.

استلقت "هونزا" مختفية داخل "قراقرم" بعذوبة مثل قطة غافية داخل صندوق. عرفت أن الجبال قد أخذت اسمها التركي المدعو "قراقرم" والذي يعني "الحصى الأسود" من الحصى والحجارة التي غطت الأنهار الجليدية في كل مكان من حولنا، في المكان الذي صرنا نعرف الآن أنه أكثر جزء من العالم يمتلئ بالأنهار الجليدية خارج القطبين. كان اختيار أحدهم لدراسته أو تصويره بمنزلة قطف ثمرة مشمش وأمامك سلة مضمونة مليئة بالآلاف.

هذا التضاد هو ما أبهرني؛ طبقات من التضاد بعضها فوق بعض. عند أبعد قمة يعلوها الجليد بارتفاع أكثر من سبعة آلاف متر، ومن ضمنها رمح "راكابوشي" الذي سيطر على الوادي بالثقة نفسها التي سيطرت بها "نانكا بربت" على أحلامي. لاح في الأفق القريب صف من القمم البنية الجرداء وقد غطتها أنهار جليدية رمادية، بدت من الزاوية التي ننظر منها بالأسفل لا تحمل أيًا من الجمال الأبيض الأخاذ للنهر الجليدي الذي شهدتُ زواجه أنا و"عرفان"، ولا حتى شابهت تلك التي مرت بنا ونحن في طريقنا إلى بحيرة "سيف الملوك". ارتفعت بطول خصر الوادي غابة منتصبة من شجر "الحور" التي كانت شاهدًا كئيبًا على آثام الأرض، والسماء، والجليد. تناثرت عبر أرضية الوادي حقول مسطحة بطول الطريق إلى أسفل، والذي ينتهي عند نهر "هونزا".

ربما لو لم تكن هناك جبال لبدا ذلك الوادي في غاية الجمال، ولو لم يكن هناك وادٍ لبدت الجبال شديدة الصلابة. الزهرة لديها أشواك، والقطة لديها مخالب، في حين لدى البومة الغضب الكامن في نظرتها، أما "هونزا"، فلديه موقعه! لو كانت

الجغرافيا تحدث بطريقة عشوائية، إذا فلآلاف السنوات كان هذا المكان يبذل قصارى جهده ليخرج بهذا الشكل.

يمكن أن تصل ركائز "هونزاكوت" إلى آلاف الأقدام أعلى الوادي، مررنا بالعديد من رعاة الغنم وقطعانهم التي ترعى في تلك المراعي الصيفية الجبلية، بينما نحن نمدد سيقاننا في أول يوم لنا بالمكان تعاملوا معنا بود ودفء، يبدو أنهم لم يسمعوا بنا بعد هنا؛ لقد رحبوا بنا!

تأثر "ويس" بالطريقة التي يحيي بها رجال ونساء "هونزاكوت" بعضهم بعضًا - إرسال القبلات في الهواء عند الافتراق، وزرع تلك القبلات على الأصابع عند اللقاء - فقبَّل الهواء أصابع "فرحانة" مرات ومرات، لكن انتباهها كان في مكان آخر تمامًا. ضحكت على تصرفات "ويس" المبالغ فيها قبل أن تنسحب لتسير مع النساء اللاتي بدَوْنَ جامدات الملامح، أكثر من حال النساء في وديان الجنوب. صوَّرتهن أيضًا، وتعاملت بود مع بناتهن. قلت لنفسي: "اترك ما حدث خلفك!" ليست كل الفتيات على وشك الاستيلاء عليهن، وليست كل النساء على وشك الشعور بالظلم.

حاولت عوضًا عن هذا تمني أن نصل إلى الحرية التي يجدر بنا أن نصل إليها هنا أنا و"فرحانة" لو سمحنا لأنفسنا بهذا، وفي عقلي أرسلت نحوها الكثير من القبلات عبر الهواء، ومررت بلساني على أطراف أناملها.

بالرغم من أننا رأينا في الوادي الكثير من الأنهار الجليدية، فإن أول شيء سنفعله غدًا هو زيارة نهر "التار" الجليدي. كان الطريق منحدرًا بشكل سيئ، لكننا اعتمدنا على أننا بصحبة "ويس" - رفيقنا الذي لا يقل قوة عن العملاق الأخضر - ذي الإبهامين الرفيعين. وبالرغم من أنني كنت طبعًا ظلًّا شاحبًا (أو داكنًا) بالمقارنة، فإنني فعلت حركات متهورة بما فيه الكفاية، ولا أقل قوة عنه، يكفيني كل الأماكن التي سرت فيها في المساء من دون كشاف حتى. كان نهر "هونزا" هو الذي سقطت فيه مرة؛ تحت سماء بلا قمر، في زيارتي الأخيرة هنا، وتمكنت من إخراج نفسي من الماء بطريقة ما، إذًا فأنا أستطيع التعامل مع "التار".

جلس النهر الجليدي قرب القشرة التي غطت قمة "التار" شديدة الاستقامة، والتي تدعى كذلك جبل "التار"، وقد ارتفعت خلف قلعة "بلتِت". قبل عودتنا إلى فندقنا، قررنا أن نرى كليهما. بهذه الطريقة، سنحافظ على وعدنا لـ"نور شاه" الذي كان أقرب صديق لحفيد الحاكم.

توقفنا في البداية عند القلعة؛ عند فتحة نافذة بلا نافذة تطل على الخليج، غطتها شِباك العنكبوت، تذكرت نافذة أخرى - ذات خمس أركان - في عالم من البيوت الأرجوانية والنوافذ ذات الزجاج المزخرف، لكن "نور شاه" أرادنا أن نتخيل الحاكم وهو جالس على عرشه في تلك الحجرة من القلعة، وهكذا فعلت، سعيدًا لأن تسكنني ذكرى ليست ملكي. كانت الأرضية سميكة النقوش، وعليها علامات الطباشير على شكل شبكة لعبة الحجلة، خطوت فوق تلك الشبكة، وأنا أجول بعينيَّ عبر الوادي باحثًا عن جبل "التار" من خلال شباك العنكبوت التي غطت إطار

النافذة. استلقت القمة عند ظهري، لسبب ما، ترددت أن أترك تلك الأطلال للنظر إلى الجبل مباشرة.

لذلك، تلكأنا عند شباك العنكبوت وخطوط لعبة الحجلة، وقرر سائقنا الجديد "دانيال" ألا يبقى خارج القصة، فأخبرنا أن أول من استقروا هنا ساروا جنوبًا من عند سفح "كي 2"، ومثل قوات الإسكيمو التي تبعتهم، عبروا الجليد بأقدام حافية. لم ينجُ منهم إلا اثنان، فقد مات الباقون في انهيار أرضي – كما أكد لنا - بدأ من "التار". لم تنجُ إلا فتاة وجِدَّتها. كل مَن يعيش هنا، وفي توأم الوادي "ناجار" - والذي يقع على الناحية الأخرى من النهر - أتوا من سلالة الفتاة التي كانت جميلة، وارتدت حول قدميها جلدًا إضافيًّا يمكنها من عبور أي نهر جليدي (وطبعًا أي انهيار)، وقد أهدت قومها كلتا الصفتين.

لم يكن من الصعب تصديق تلك الأسطورة. سار أهل "هونزا" في كل مكان من حولنا حاملين كميات كبيرة من العلف على ظهورهم، وقد سار معظمهم دون أحذية، وبقوة تحمل مذهلة، والأهم، كان أكثرهم من كبار السن والفقراء. رأيت الكثيرين من الرجال والنساء - والنسبة الأكبر كانت من النساء - المتقدمين في السن للغاية، لكنهم منغمسين في كل أنواع الأعمال المعتمدة على المجهود البدني، في حين تمكن بعض الرجال من الاتجاه إلى التجارة، فامتلكوا بعض المتاجر في المدن الكبرى، أو عملوا سائقين، واضطرت النساء إلى البقاء للاعتناء بالمزارع الصغيرة والبساتين والأطفال.

الآن بوسعي رؤية "فرحانة" وهي تسير مبتعدة عن القلعة نازلة الطريق، متجهة نحو امرأة تحمل سلة من المشمش على رأسها، وهناك فتاة صغيرة تسير بجوارها؛ قبل أن أراها، عرفتها! كانت لدى الفتاة ماعز سوداء.

سأل "عرفان"، وهو يقف بجانبي عند النافذة:

- ماذا تفعل "فرحانة" الآن؟

هززت رأسي.

- كان يومًا طويلًا!

- واحدًا عدة أيام طالت.

- سأطلب من "ويس" إحضارها.

قال "ويس" من مكانه خلفنا:

- أنا أسمعكما.

لم يتحرك أحدنا.

استدارت كل من "فرحانة"، والمرأة، والفتاة، وماعزتها إلى ناحية من الممر، غالبًا متجهات نحو واحد من الأكواخ العديدة ذات السقف المصنوع من القش، والتي مررنا بجوارها في طريقنا إلى القلعة.. غمغم "ويس" في حنق:

- هذا ليس وقته يا "فرح"!

بالرغم من كل القبل التي أرسلها إلى أصابعها، يبدو أنها لا تزال تجعله يستسلم.

اختفت "فرحانة" من أمام عيوننا التي كانت تتابعها بالمرصاد!

نزع "دانيال" شبكة عنكبوت، وقال:

- لن تكون النزهة جيدة في الأمطار، ربما تمطر غدًا.

نظرنا نحو السماء، مرت خمس دقائق تقريبًا، أو ربما عشرون. حكَّ "عرفان" رأسه.

- هل رأيت مرافقنا؟

لم أره، ولم أبالِ. بدأت السير متجهًا نحو "فرحانة"، وطبعًا لم تنتظر الأمطار حتى الغد، بل هطلت بمجرد أن غادرت القلعة، لتسير بجواري على الطريق.

خرجت "فرحانة" من أحد الأكواخ برفقة الفتاة.

- المرأة تعرف واحدة من الـ"بيتان" تتنبأ بالمستقبل.

- وما هي "بيتان" هذه؟

بدت عليها السعادة وهي تخبرني أن "بيتان" هذه هي "سلطة دينية"، تستنشق دخان احتراق فروع "العرعر".

- ثم إنها ترقص بعض الرقصات، على أنغام الموسيقى الخاصة بها.

- ماذا؟

- ثم إنها تشرب الدماء التي تخرج من رأس الماعز، ثم تدخل في حالة من النشوة، تصبح قادرة فيها على التحدث إلى الأرواح والجنيات.

لم أستطع تحديد أكانت تسخر مني. قلت:

- أتقصدين جنية مثل "بدر جمال"؟

- لم أسأل عن اسم أي منها!

تساءلت عن نوع الشيء الذي دخنته "فرحانة" لتقول مثل هذا الكلام.

وقف كل من "عرفان" و"ويس" ورائي في الطريق، ليسمحا لنا ببعض الخصوصية في حوارنا، بالرغم من شعوري بأنهما ولا بدَّ يتساءلان أكانت تلك الإستراتيجية قد نفعت. لم تتوقف الأمطار عن ضربنا بشدة، وكان الأمر سخيفًا؛ الطريقة التي استسلمنا فيها وتركنا لحمنا نهبًا لأنياب الأمطار.

سألت بحماقة مطلقة:

- هل تشعرين بالبرد؟

ركض "ويس" نحونا وقال:

- فلنتفقد الطريق من أجل رحلتنا غدًا، ثم نعود إلى الفندق.

أومأت برأسي إيجابًا، ولم تتحرك "فرحانة". سأل "ويس":

- هل سنتسلق في الصباح أم لا؟

أجابته "فرحانة":

- لا، ليس في الصباح.

مسح "ويس" لحيته المبللة مجيبًا:

- يا للمسيح! ألا يتذكر أحدكم لماذا أتينا إلى هنا من الأصل؟

أجابته "فرحانة":

- لمَ لا تذكرنا؟

كان هذا لطيفًا.

قال "ويس" وهو يشير بإصبعه نحو "فرحانة":

- كنتُ على أتم استعداد للعودة إلى "كاجان" يا شباب بعدكم، لكن الموضوع تعقد.

ربما سأبدأ في الإعجاب بذلك الفتي.

قالت "فرحانة" وهي تبدو ككاهنة:

- الناس يعيشون هنا، لا يمكننا تجاهلهم. لم نأتِ هنا لنأخذ بعض القراءات والصور ثم ننطلق في طريقنا!

اضطررت إلى إعطاء ظهري لها لأمنع نفسي من الصراخ. قرر "ويس" و"عرفان" الابتعاد، ليعطيانا بعض الخصوصية من جديد.

"فلنترك ما حدث خلفك!".

سألتها وأنا أستدير لأواجهها من جديد:

- هل تريدين رؤية الكاهنة؟

- لقد رأيتها بالفعل، ويطلق عليها هنا كلمة "بيتان".

- في الواقع اسمها في هذا الوادي هو "دانيال"!

- كاسم سائقنا؟

- بالضبط.

حدقنا إلى بعضنا بعضًا في غباء، لو لم نرحل سنصبح أضحية على مذبح الأمطار المتوحشة. سألت:

- متى؟

- متى ماذا؟

- متى رأيتِ الكاهنة؟

- أتقصد "دانيال"؟

- متى يا "فرحانة"؟

- دخنت قبل أن أذهب لرؤيتها.

- وماذا قالت؟

- قالت إننا سوف.. أتعرف شيئًا؟ لا أرغب في القول، لكنني أرغب في قضاء اليوم هنا.

- يجب أن نخرج إلى الطريق في الصباح.

هزت رأسها، وقالت:

- ماذا؟

- سنتسلق في المساء؛ في الأماكن التي يوجد بها أقل انهيارات أرضية وتساقط جليد.

بدأ صوتها يهدأ وهي تقول:

- هذا هو ما قالته هي إلى حد ما، كما قالت إنك يجب ألا تأتي!

ارتجفت بسبب مزيج الأمطار والرياح، وأضافت "فرحانة" بنعومة:

- أتعرف كم واحدًا فقدوا حياتهم على تلك القمة؟

- هل قالت إنني سأموت؟

- طبعًا لا.

ثم التفتت "فرحانة" عائدة إلى الكوخ. سارت أمامها الفتاة وماعزتها منطلقتين نحو الحقل، وأمامي وقف جبل "التار" كإصبع متعرجة من الجرانيت الصلب، في حين أخذ نهر "هونزا" يحوم حول محوره كثعبان. رسمت خارطة للمكان داخل رأسي.

قضيت آخر يوم لي في "هونزا" وأنا أتساءل أكان آخر يوم لي فعلًا. سرت إلى أقرب مدينة، وتدعى "كريم آباد"، وهي التي يختفي "التار" فيها. كانت السماء قريبة منا للغاية؛ كسلسلة جبلية من الأمطار داخل سلسلة جبلية من الحصى، وعند هذه المرتفعات دائمًا ما تفوز السماء بالمعركة التي تدور بينها وبين الأرض؛ تحدد مجال رؤيتي بسبب الصور التي تلعب داخل رأسي.

لم يتمكن "التار" من إثارة خيالي من قبل كما فعلت "نانكا بربت"؛ لم يُصوَّر بكثرة، ولا كتب عنه مثلها، ولا كان يجتذب متسلقي الجبال من كل ركن بالعالم، ثم إنه ليس

من أعلى عشرة جبال بالعالم. انتصب بطول حوالي 5,300 متر، فكان أقصر من "نانكا بربت" بنحو ثلاثة آلاف متر، كما لم يكن ذا جسد أبيض ناعم من القمة وحتى القدم مثلها. وهو بلا جنس، فلم يكن له حبيب أو حبيبة.

وبالرغم من هذا، علمت ذلك اليوم أن لديه جنًا. أيًّا كان السبب، فقد أثار ذلك الجن شهية اليابانيين تحديدًا، والذين حاول الكثيرين منهم أن يتسلقوا قمة "التار"، وهو ما تسبب في موت الكثيرين منهم. بعد موت رجل يدعى "آكيهيكو إيتو" بسنوات، كان الوادي لا يزال يتذكره، لأنه تحدث للناس بلسانهم قبل أن ينطلق في رحلته، كما لو كان سيتسلق جبال الألب - كما نحن فاعلون – من دون أن يأخذ معه حبلًا، أو حمالين، أو حتى أسطوانات من الأكسجين، ثم إنه تسلق الجبل في الليل.

بالطبع، لم تتضمن خطتنا التسلق. ليس نهر "التار" الجليدي بعلو نهر "غولكين" الجليدي مثلًا، فلم تكن لدينا حاجة إلى أدوات تسلق مبالغ فيها، وبالرغم من أنني لم أرغب في سماع المزيد، فإنني لم أستطع منع نفسي. شعرت كأنني أحدق إلى قطرة، بينما أترنح على حافتها، كان يجب أن أنظر!

خرج "إيتو" في رحلته عند منتصف الليل، متوقعًا أن ينهي التسلق قبل شروق الشمس، قبل أن تتزايد سخونة الصخور والجليد وتتحرك من أماكنها. نجح هو في هذا، لكن المشكلة التي حدثت، كما يحدث دائمًا، كانت عند النزول، فقد ابتلعته عاصفة ففقد طريقه! أمضى يومين كاملين على الحافة دون طعام، حتى بعد كل هذا نجا. لم يدخل الجن إلى كبد "إيتو" إلا بعد عودته إلى المعسكر، وببطء أغلق كل مؤشراته الحيوية.

اضطررت إلى سحب نفسي بعيدًا عن الحافة. توقفت عن طلب سماع المزيد من الحكايات، انتهى بي الأمر بقضاء اليوم بآخر طريقة متوقعة؛ قضيته مع "ويس"!

سرت طريقًا ترابيًا يمر من خلال بستان، وتراصت من حولي سلال المشمش، وقد وُضِع تحت الشمس ليجف، وبينما كنت أسير، حيَّتني سيدتان كل واحدة منهما ذات ضفيرتين طويلتين وقبعة. عرضت المرأة الأكبر سنًّا - والتي كانت خفيفة الحركة، وقد تناثرت على وجهها آلاف التجاعيد - حساءً من المشمش المجفف والكشك، وهو نوع من الجبن. عندما رفضت في تهذيب، ضحكت، وهي تشير إلى ظل شجرة حيث جلس "ويس" يغترف بملعقة، لينتشل آخر ما بقي في الطبق الذي أمامه من هدية المرأة له. قالت المرأة:

- هو لم يخجل؛ يجب أن تقلده.

لكنني لم أعد قادرًا على تقبل المزيد من كرم الضيافة. غمغمت:

- أنتِ كريمة للغاية.

زدت من سرعة خطواتي. سارع هو الآخر حتى لحق بي. قال:

- هذه هي ثروتكم الحقيقية، أهل الريف الطيبون.

تساءلت بداخلي: "هل صادقت الكثيرين هنا كذلك؟".

لكنني قلت:

- لديك معدة قوية، عادة تكون مجرد رشفة واحدة من المياه هنا كافية لجعل أهل المدينة سمر البشرة يصابون بالإسهال.

- هذا شيء جيد.

- لا، ليس جيدًا.

- هل هذا هو سبب رفضك؟

- لا، لم يكن هذا هو سبب رفضي.

على يساري، وقف الجانب الفضي لـ"راكابوشي" التي التمعت كمرآة، كاشفة بكل وضوح عن سر تسمية الجبل بهذا الاسم الذي يعني الجدار المضيء، يطلق عليها البعض اسمًا أقدم وهو "دوماني"، ومعناه "والدة الضباب"، لكنها تحررت من ملابسها اليوم. كما توقفت الأمطار بالكامل، وبدا الهواء باردًا ونظيفًا، بدت "راكابوشي" مختالة بنفسها بعد حمامها، وكنت حرًّا مع كاميرتي. كلما بقيت في تلك الوديان والتقطت المزيد من الصور، شعرت بفهم السبب الذي يوجب رؤية كل قمة بمعزل عن القمم الباقية، بالرغم من ارتفاع "راكابوشي"، فهي لم تثر الرهبة بداخلي كما فعلت قمة "التار" الأقصر قامة، في وقت مبكر من اليوم، ولا حتى أدارت رمحها نحو قلوب الرجال، مثل "الجبل العاري"، أو حتى فتحت ذراعيها بإغراء لنا، مثل "ملكة الجبال"، عندما نظرت أنا و"فرحانة" نحوها في البحيرة بدت قمة "راكابوشي" أنيقة بخطوطها - صحيح أنها حادة، لكن من درجة أرق - ولم يكن مفاجئًا إصرار الكثيرين على أنها أجمل جبل في باكستان، لكن هذا لا يعني أنها لم ترتكب جريمة قتل، فالذئاب البرية التي اتخذت مسكنها داخل صدرها مشهورة بمطاردة فرائسها بكل وحشية.

انحنى "ويس" نحو عدسة كاميرتي قائلًا:

- "فرح" محقة، فالتسلق أفضل في المساء.

انتشرت خصلة من الشعر الأشقر تحت الشريط الأخضر الذي ربطه حول رأسه، بهت اللون الأخضر ليصبح لونًا نحاسيًّا باهتًا، ممتزجًا بالكامل مع ما حوله من لون.

- هذه هي الطريقة التي تسلقنا بها جبل "شاستا"؛ في المساء، وعلقنا الكشافات على رؤوسنا، وأحضرنا معنا أدوات معدنية لإخراج الثلج. حملت عتادها بنفسها؛ إنها امرأة قوية.

- هل ستسحب بعض الثلج من "التار"؟

قال وهو يضحك:

- لا، ليس هذه المرة. يمكنك أن تطلق على ما سنفعله مهمة استكشافية.

لكنني لم أضحك، وتابع:

- ربما حينما نعود ثانية، حسب الظروف.

اتجه الطريق إلى أعلى نحو نهر "هونزا"، وبينما نتتبعه، بدأت "راكابوشي" تبتعد.

- يؤمن الهنود الأمريكيون أن أنهار جبل "شاستا" الجليدية السبعة هي درجات سُلم صنعه الرب، وينزل من السماوات. تمنيت أحيانًا في تلك الرحلة أن أفهم القصص التي أتت من هذا المكان.

شعرت بشيء في صدري لحظتها، شعرت بالسوء من أجله. رأيت صورة بالأبيض والأسود لصورة "سقوط طرحة العروس" وهي تغوص داخل إطار معلق على حائط، بدلًا من جانب "راكابوشي" الفضي التي تنغمس داخل أفق على شكل شجرة، وتذكرت كيف حدقت إليها بعد لقاء مع رجل رفضني بالكامل. تذكرت شعوري بالوحدة وقتها، وغياب تام لأي مكان أو أي شخص يمكن أن ألجأ له. لا أعتقد أن وحدة "ويس" شديدة، هذا لو كانت وحدة فعلًا. كان لديه "فرحانة" بعد كل شيء، وكذلك العديد من الأشخاص الذين لديهم الاستعداد لإعطائه آخر طبق لديهم من الحساء، لكن هناك شيء في الطريقة التي تحدث بها جعلني أندم على البرود الذي أبديته نحوه. كان ندمًا أخبرت نفسي أنني يجب أن أتغلب عليه. لديه "فرحانة". وضع يديه في جيوبه وتنفس بعمق، وقال:

- المكان جميل هنا.

شعرت أنني شديد الفظاظة، يجب أن أقول شيئًا. بدت السماء زرقاء كما تبدو في اللوحات التي يرسمها الأطفال. بدت أكثر لطفًا من أن تُصوِّرها. قال:

- طبعًا لا تحتاج دائمًا أدوات لتستطيع قراءة الثلج.

ضحكت، فاستطرد:

- لماذا لا تتقدم للزواج منها ببساطة؟

- ماذا؟

- هل هناك ما هو أفضل من هذا المكان لفعلها؟

- هل أخبرتك أنها تريد مني فعلها؟

- هل تحتاج إلى قولها؟

- عما تتحدثون في المساء؟

- تقصد عندما نكون بمفردنا؟

- ماذا سأعني غير هذا؟

- لماذا لا تعطيها متعة أن تقول لا؟

- لماذا؟

- أنت أهنتها.

ماذا أخبرته عني؟ شعرت بكل ذرة من التعاطف كنت أمتلكها نحوه تتبخر. استطرد:

- لا تكن متكبرًا، وإلا ستجد هي الطريقة لتجبرك على هذا.

- ألم تفعل هذا بالفعل؟

- كيف ذلك؟

- أتريد أن أقول الحقيقة؟

- من فضلك!

لكنني لن أترك له الفرصة لإهانتي. بدأت أسير عائدًا، فناداني.

- أتعرف صديق "ماثيو"، الرجل الذي عرفكما ببعضكما؟

توقفت مكاني.

- كان هذا أنا!

التفتُّ إلى الخلف في مواجهته؛ عشيق "ماثيو" السابق الذي كان يعرف فتاة باكستانية لطيفة شابة؟ مستحيل أن يكون هو!

- عما نتحدث في المساء حين نكون بمفردنا؟ كنا نتحدث عنك، وعما لو كنت مستعدًّا لتفتح عينيك على ما يدور من حولك، بالإضافة إلى أشياء أخرى.

- لكن أنت و"ماثيو"..

- ماذا بنا؟

- لا تبدوان كـ..

- ماذا؟

غزا جفاف مفاجئ حلقي منعني من التعبير عن أفكاري، ومن الاعتراف بهما حتى!

قال:

- المكان لا يبدو كـ"باكستان".

بدا مستمتعًا للغاية.

وببطء، بدأت العجلات تدور من جديد، وبينما تتزايد سرعتها، بدأت العجلات تصدر لحنًا. لم يكونا يتضاجعان؛ هذه هي الحقيقة بكل بساطة. "ويس" لا يشتهي السيدات، و"فرحانة" سيدة، يا للراحة!

خلال ثوانٍ، توقف اللحن فجأة، مثلما توقف الإشفاق الذي شعرت به نحو "ويس" من قبل. كانا يسخران مني، يلعبان بي أيامًا، وربما أكثر. لماذا اتهمتني "فرحانة" إذًا بالغيرة عندما ألقت الشال ذلك اليوم في المتجر؟ حدث هذا من قبل "كيران"، وقبل أن تنتقل للإقامة معه. كانا يستمتعان ببؤسي، حتى أكثر من ذلك، كانا

يستمتعان بمدى الخبث الذي يوصلني إليه بؤسي. ساعد ظهور أسوأ جزء مني في تعزيز تحالفهما، هذا أسوأ من مضاجعة بعضهما بعضًا.

سرت نحوه، حتى كدت ألامس ذقنه، وقلت:

- لماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟

- ولماذا لم تخبرني أنت بما كنت تفكر فيه؟

- ماذا كنت سأقول؟

- أنك مجرد وغد لا يشعر بالأمان ولا يثق بأي شخص، ربما كنت تمكنت من مساعدتك.

- أنا أثق بـ"عرفان"!

ضحك.

- وأين هو الآن؟

- ما علاقة هذا بما نقوله؟ كنت تعرف ما أشعر به عندما رحلت هي. كان بوسعك إخباري. كان يمكنك أن تقول إنها أتت لتقيم معك كصديق فقط.

- نعم، وبصفتي صديقها فقد تركت لها حرية إخبارك أو لا.

- لماذا تخبرني الآن إذًا؟

تسمَّر للحظة، ثم قال:

- ستعرف قريبًا.

بدأ يسير مبتعدًا.

قريبًا؟ بدأت عجلة أفكاري تهدر من جديد.

عاد من جديد وقال:

- شيء واحد أخير.

لوَّح فوق رأسي بشريط نحاسي، بدا كلسان يخرج في الشمس. استطرد:

- لقد قفزت قبلك. رأيتُ ضفيرتها ترتطم بالمياه في حين كنت في القارب، وعندما قفزت في النهاية، بقيت داخل المياه وقتًا أطول؛ أطول كثيرًا. لكن لا بدَّ من أنك تعرف هذا بالفعل.

تعثرت لحظتها على الطريق، فاحتكت ركبتاي بالحصى المتناثر الذي تسلل عبر الفتحات الموجودة في بنطالي. شعور جيد أن تبكي.

لم يكن "عرفان" موجودًا بغرفة الفندق ليلتها. نحتاج إلى تناول بعض الطعام قبل الخروج لاحقًا، فربما كان سبقنا إلى المطعم.

شعرت بجسدي يسترخي. شعرت كما لو هبت من داخلي أمواج من الأمطار الغزيرة، فغسلت عني طبقة سميكة من الطين لتزيلها عن عظامي. سيطر على جسدي شعور بالتعب المريح، أكثر راحة من التعب الذي هاجمني في "جلجت" حتى، فلم يكن بداخلي غضب، ولا لوم، ولا حتى نحو نفسي. ما شعرت به فعلًا عندما نزعت حذائي وجواربي وزحفت أسفل الغطاء، قبل أن أمدد ذراعيَّ فوق رأسي، ثم أطويهما بدقة عند البروز الموجود بجمجمتي والذي يلاصق انحناء رقبتي، كان غشاوة رقيقة من الحزن الجميل. فكرت في عائلتي.

فكرت في البداية بشقيقتي "سونيا" وثرثرتها الممتلئة بالحيوية، ورفضها الدائم للجلوس ساكنة وهادئة. ذات مرة، عندما كانت في نحو الثالثة أو الرابعة عشرة من عمرها، زارنا "عرفان" في منزلنا، وكان يحب "زليخة" وقتها، وقد ربطت قوة أكبر منهما قلبيهما معًا، كما لو كانا نهرين جليديين على وشك الزواج، وقد حُمِلا على أقوى الظهور وأكثرها تحملًا، في صمت مقدس، لتمر من على منحدر الجبل الذي يبلغ ارتفاعه عدة آلاف من الكيلومترات، ليجري الزواج على أنسب فراش من الأرض، في ذلك اليوم نظر إلى شقيقتي مدة ثوانٍ، وأعتقد أن هذه كانت أول مرة أنظر إليها فيها كسيدة. كانت جذابة وتعرف هذا عن نفسها قبل أن أنتبه له. أما الآن فالعالم كله يراه، وكنت شاكرًا لهذا. اقتربت لأتلو دعاءً لها يقول: "فلتحمها يا رب من المحتلين الذين يترصدون في الشوارع في هذه المدينة البعيدة..".

كلما توغلت أكثر في الدعاء، احتبست دعواتي في حلقي. لم أتصل بوالدتي منذ تركنا "كراتشي"، لا أحتاج إلى الاتصال بـ"سونيا"، فهي تعرف أني على الدوام معها، أما أمي تحتاج إلى تأكيدات، ولم أعرف أي تأكيد يجب أن أقدمه ومتى. منذ عرفتها وهي هكذا، بجانب إراحة الآخرين، كانت أمي تجد راحتها في قضاء كل جزء من كل يوم في إقامة الصلوات. بدت لي كأنها قد حجزت مكانها في الجنة بالفعل، أما حجز مكانها في الأرض فعائد لأبنائها وزوجها. هل تكسب ما يكفي من النقود؟ هل ستعود إلى البيت؟ هل ستتزوج "فرحانة"؟ كانت تسأل كل تلك الأسئلة لابنها، وفشل الابن بوضوح في إجابتها، لهذا عرضت عليه حلًّا من عندها - كيف تمكنت من هذا، أن تطلب تأكيدًا وهي تقدم تأكيدًا من ناحيتها؟ - أن الله سيقدم ما فيه الخير.

ثم يأتي أبي. لم يعلم بأمر "فرحانة" خلال مدة بقائنا في "كراتشي"، وإنما تعرفها باعتبارها شقيقة "ويس"، فهل صدق هذا؟ فمن الصعب تحديد ما يفكر أبي فيه، لكن لو كانت هي الفتاة التي سأتزوجها، فلم يكن لينظر إليها نظرة جيدة كزوجة ابن، نظرًا إلى أنها تسافر بمفردها - من دون عائلة - مع ابنه قبل زواجهما. (لم تحاول أمي أن تفكر فيها بشكل سيئ، وهذه هي طريقة تفكير أمي). أما بصفتها شقيقة "ويس"، فقد أحبوها جميعًا. مع "ويس"، صار أبي ثرثارًا، ومع "فرحانة" أصبح شهمًا! شديد الثرثرة والشهامة، بطريقة لا يستوعبها إلا رجل أسمر وهي تصدر عن رجل أسمر في حضور رجل أبيض و"شقيقته" البيضاء، وقد أحرجتني الطريقة التي سأل بها "ويس" عن رأيه في كل شيء، ومعي أنا كان الصمت هو ما يخيم على جلساتنا، فيغلف كل تعاملاتنا، كمهاجم يضرب ضربته على لوحة لعبة

"كارُم"، أو الطاولة المربعة. في مرة تقع الضربة على شبكة من حزن باكستان، وربما نحظى وقتها بمحادثة، وفي أوقات أخرى تصطدم بكل قطعة موضوعة على لوحة اللعبة في غضب متفجر، فنتبادل الغضب أكثر من الكلام.

- ما خططك للمستقبل؟

أصبحت:

- سأعود سريعًا.

فأصبحت اللوحة مقفرة، وهو يغطس داخل أعماق بحر من الوجوم. ترتبط بهجته بشكل وثيق بالرب، والعمل، والعائلة. وعندما يختفي واحد من تلك العلامات - ومن الواضح أن الفضل يرجع لي في كونهم كلهم يختفون - يميل عالمه. لو كان لي أن أوصل الموقف ببساطة، فأنا أضايقه! وربما يضايقني هو الآخر.

تذكرت ذات ظهيرة مؤلمة معه، كانت "فرحانة" وقتها في مهمة لإصلاح شيء ما (خط رفيع هو ما يفصل بين "إصلاح" الأشياء، و"تدميرها"، ولم تتمكن هي من تمييز هذا أبدًا)، وبينما هي تتقمص روح إصلاح الأمور هذه، أظهرت لوالدي بعضًا من الصور التي التقطتُها بصحراء خارج "توسان"، لم أرغب أبدًا في عرضها عليه، ولم أكن أعرف أنها حملتها معها، كانت صورة بشعة تعكس لقائي والدها بطريقة ما لم أستطع تحديدها، لكن في حين أنها رغبت في البقاء بعيدة عن موضوع عملي مع والدها، فإنها مع والدي تمادت للغاية!

لم يتغير تعبير وجهه ولا بدا عليه الاهتمام وهو يرمق قطعة الصبار ذات اللون البرتقالي اللامع الموجودة في الصورة. كنت سعيدًا بتلك الصورة المقربة تحديدًا، والطريقة التي بدت بها كل ورقة منقطة بأشواك بيضاء كالريش، فبدت كالزهور. لم أرَ الأشواك كزهور عندما التقطت الصورة، لم أرَ هذا إلا فيما بعد، ولهذا كانت الصورة مهمة، كأنها معجزة.

وضع والدي الصورة جانبًا وسأل "فرحانة" عن رأيها فيها.

بدا الأمر وكأنني غير موجود في الغرفة!

ترددت "فرحانة" في البداية، ثم قالت:

- حسنًا، لم أرَ نبات صبار بذلك اللون من قبل، لم يستخدم مؤثرات لتغيير الألوان، أي إن كل هذا طبيعي.

أومأ برأسه معلقًا:

- طبيعي.

ومن دون أن ينظر إليَّ، طلب مني إحضار "ويس" الذي جلس في الغرفة المجاورة يشاهد قناة "بي بي سي"، وعندما أتى سأله:

- ما رأيك؟

نظر "ويس" إلى الصورة قبل أن يعلق:

- لطيفة.

انتظر والدي منه المزيد، وعندما بدا واضحًا أن "ويس" لن يضيف شيئًا آخر، سأل والدي:

- هل ترى أي موهبة هنا؟

حك "ويس" رأسه قبل أن يجيب:

- بالطبع، أرى موهبة.

ثم عاد إلى الغرفة المجاورة ليكمل مشاهدة قناة "بي بي سي".

في غرفة الفندق الآن، أمسكت كاميرتي. تزايدت حدة شعوري بالحزن، مثل نبات الصبار الذي التقطت صوره، والذي بدا كأن لونه يتغير هو الآخر، كما لو كان يشع ضوءًا كالشمس، وقبل مرور وقت طويل، شعرت بأنني أحترق! خرجت من فراشي.

"فرحانة" في مهمة لإصلاح شيء ما طيلة الوقت منذ أتينا هذا البلد، أو ربما من قبل مجيئنا حتى، لكن ماذا تنوي؟ مَن أنا لأحدد؟

هل الأفضل أن أفعل كما نصحني "ويس" وأتقدم للزواج منها، لأعطيها الفرصة لتتمتع برفضي؟ لا أظن أن "فرحانة" ستتمتع بتلك الطريقة، فبوسعها إهانتي بشكل أسوأ لو أرادت عن طريق إخباري أنها قفزت قبلي يومها من المركب، لكنها رحمتني من هذا. خطر لي أنه ربما كان "ويس" يكذب ولم تصطدم أي ضفيرة بسطح البحيرة، لكنني أبعدت تلك الفكرة. عرفت أنني محق في تصديق ما قاله، كما صدقت الوجع الذي غزا صدري.

كانت هناك صور لها قديمة للغاية؛ صور كئيبة من ذلك اليوم عند الحمامات، في حين كنا نشاهد البجع وهو يغوص كالقذائف، ثم صور لـ"فرحانة" وهي تخلع ملابسها، محاولة أن تثير انتباهي بكشف ظهرها، قبل ساعات من الهجوم الذي حدث لي في الحديقة، ثم تلك الصور لنا ونحن نلعب، وأحيانًا ونحن نتحرك معًا، ثم صور تُظهر ساقيها المنحدرتين، جذعها النحيل، فخذيها الرشيقتين، وشفتيها المغريتين. وأنا؟ صورت ساقيَّ الهزيلتين وقضيبي المسترخي على فخذي كورقة وردة رقدت على الأرض، كما صورت أناملها وهي تبعث تلك الورقة إلى الحياة، كما أظهرت الصور التي في ذلك اليوم عند الشاطئ الكثير من الشبق والشهوة، لكن من دون لعب، وإنما لتوثيق المشاهد فقط، وقد ارتفعت مؤخرتها في قمة الكادر.

تخطيت بعض الصور حتى وصلت إلى تلك التي تُظهر المناظر الطبيعية العديدة التي التقطتها في "كاجان" - للبحيرة، والمقابر، ونهر "كنهار" - لكن كل الصور لم تثر بداخلي أي شيء، كما لم تفعل الصور التي التقطتها تلك الظهيرة في "راكابوشي" بعد الأمطار، حتى تلك الصور التي أظهرت النهر الجليدي - الذي ظهر كشعاع أبيض فوق سجادة من الحصى الداكن، كأنه راعي غنم يتقدم نحو

الظلام، ثم نحو الضوء، في حين أن النهر الجليدي ينحدر نحو الظلام - كانت تفتقد شيئًا ما. لو كان بوسعي الوصف بكلمات، ربما لم أكن سأرغب في أن أصبح مصورًا، لكنني لم أرَ أي معجزة هنا.

قال والدها ذات مرة إنه حتى فِعْل الرؤية نفسه يمكن أن يصبح جريمة سرقة، وربما جريمة قتل! ربما قال العكس أيضًا؛ حركة عدم الرؤية يمكنها أيضًا أن تصبح سرقة، وربما جريمة قتل كذلك! كان رفضي رؤية "كيران" - في البداية في المركب، ثم في البحيرة - هو ما قتلها! ولو لم تكن "فرحانة" قد رأتها أبدًا، فربما ظلت الفتاة على قيد الحياة حتى هذه اللحظة.

أين يوصلنا كل هذا إذًا؟ رغبت في "فرحانة" بكل بساطة! الليلة سأترك كل شيء خلفي بالفعل. إنها ليست مع "ويس" وإنما لا تزال معي. كل ما عليَّ فعله هو استرجاعها، وهو ما أنوي فعله، وسط الظلام، في أثناء التسلق الذي أُخبِرت أنني لا يجب أن أفعله. قالت إنني لن أموت، فما هو سبب البقاء بعيدًا إذًا؟ سيكون هذا أفضل من مغازلتها بأزهار زنبقة "كالا"، سأغازلها على الجليد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ملكة الجبال.. رحلة زرقاء

وقفوا داخل الكوخ.

- ماذا عن ذلك الرجل المدعو "غافور"؟ ألم يحرق بيت مفتش الغابة منذ سنوات؟ نعرف مدى خطورته. أتعرف أي صحبة يختلط بها؟ هناك أشرار في كل مكان ويعثرون على بعضهم بعضًا دائمًا، ويتسببون في المتاعب للآخرين، لا سيما المؤمنون الحقيقيون؛ مثلك مثلًا. أنت مؤمن حقيقي، أليس كذلك؟

نكز الرجل الضخم صدر "سليمان" بطرف بندقيته، فأجابه هذا الأخير:

- طبعًا!

- لأن هناك شائعات أن زوجتك تعبد إلهًا آخر، بل..

قالها باصقًا:

-.. إلهة!

- مستحيل يا صديقي! لا تصدق هذه السخافات!

- لقد سمعت أنها كافرة!

- أرجوك لا تقل مثل هذه الأشياء!

- وقد أقسم بعض الرجال أنها تصلي لآلهة وثنية، وأنها هي نفسها تمثل خطرًا علينا!

- لا! أرجوك..

- وأنها تمارس السحر!

- سيدي، ما تقوله ليس..

- لكنني لم أصدق أي كلمة!

حرك فوهة البندقية نحو ساق "سليمان" الخشبية، وبدأ يطرق بطرفها عليها، عبر بنطال "سليمان" الواسع، وتابع:

- لأنكما مسلمان تقيان تخافان الله، ومع الأسف، ضحية لإشاعة مغرضة، هذه هي طريقة قومنا؛ لا اتحاد، ولا أمة، ولا أي شعور بالولاء على الإطلاق! لكنني لا أصدق أبدًا أنكما يمكن أن تفعلا شيئًا ضد مَن هنا في هذا الوادي، بعيدًا عن عائلاتنا وبيوتنا، فقط لحماية أنفسكما.

- نعم! بالضبط!

- ستعمل معنا إذًا؟

- نعم!

- من أجل عائلتك ومنزلك؟

- نعم!

- قل أول كلمة!

بدأ "سليمان" يردد الكلمات، وأبقى الشرطي مؤخرة بندقيته على ساق "سليمان"، لكنه أبقى عينيه على "مريم". قرع قرع قرع! حركت شفتيها، كانت قد وصلت إلى منتصف صلاتها القصيرة عندما توقفت الدقات ليرتفع الصياح:

- ما دمتما مؤمنين حقيقيين فعلًا، فلماذا لا تتعاملان مع الضيوف حسب وصايا الرسول (عليه الصلاة والسلام)؟

انسحبت في أثناء منتصف تلاوتها لتعد لهم طعام الإفطار.

عندما رحلا، لاحظت أن الكلاب لم تنبح، وأدركت أن الكلاب لم تنبح طيلة الصيف. لم تنبح في اليوم الذي أتى فيه رجلا الشرطة - رجلان مختلفان، دائمًا ما يحضر رجال مختلفون عمَّن سبقوهما، لكنهم في الوقت نفسه متشابهون - باحثين عن المفجر والتهما الإفطار، ودنسا فراشها وتبولا داخل كوخهم. لم ينبحوا حتى عند البحيرة، في اليوم الذي خرج فيه جسد "كيران" ليستقر عند الشاطئ. كانت كلاب من فصيلة "جادي"، وكانوا في وقت ما شديدي الشراسة لدرجة تمنع أي أحد من الاقتراب منهم، لكن في وقت ما هذه السنة، لا تستطيع أن تحدد متى بالضبط، صاروا فاتري الهمة لا يتحركون، كالحشائش الجافة التي يستلقون فوقها طوال اليوم.

وحدث الشيء نفسه في الصباح التالي؛ أتى رسول حاملًا بعض الأنباء، فقد اختفى صبيان في الوادي. لم تتحرك الكلاب عندما وصل الرجل، باستثناء انتصاب أذن أحد الكلاب اليسرى، لم تتحرك الكلاب كذلك عند رحيله.

انتظرت "مريم" نزول الأذن مرة أخرى، ولكن ما حدث هو أن انتصب ذيل الكلب قليلًا، كأنما يكافئ انتظارها. وجدت هذا أكثر إثارة من الأخبار، لم تستطع التفكير في تلك الأخبار من الأساس! لا يمكنها أن تسمح للأخبار بالبقاء في أي ركن من منزلها، لا سيما تلك الأخبار التي تتعلق باختفاء الصبيين، فلو حدث هذا ستتمدد ثم ستبني شبكة كاملة، ثم ستجد "مريم" نفسها تسقط فيها ولن تتمكن من الخروج أبدًا، قبل أن تصبح هي نفسها جزءًا من الأخبار فتتحول هي إلى الصبيين المختفيين، أو يتحول ابناها الباقيان لهما.

كانت يداها لا تزالان مبتلتان من حلب والدة "كولا" التي أنجبت من جديد. تستطيع حلب الماعز بيد واحدة، أما البقرة فتحتاج إلى كلتا يديها. صحيح أنها تستطيع الإمساك بالحلمات بأصابع يدها اليمنى، لكن اعتصارها يتسبب في إيلامها. احتاجت إلى مساعدة ابنها في حلب الأبقار، وساعدها هذا الصباح، كما اعتاد مساعدتها كل صباح منذ إصابتها، قبل أن ينطلق إلى المتجر.

كان يتعامل مع الحلمات بشكل جيد، فيعتصرها بشكل يدفعها إلى التساؤل بداخلها عن الأشياء الأخرى التي يعتصرها. لم يكن في حاجة إلى التعلم، أول مرة شعرت بالاندهاش من السهولة التي تقبلته بها البقرة المدعوة "نور". تحركت أصابعه أعلى وأسفل ضرعها، ربت، وداعب، ثم انتقل بين الأربع حلمات كما لو كانت أجراسًا. داعب كل واحدة منها بإيقاع هو وحده يجيده، إلى الأمام والخلف، أوقاتًا بالكاد يلامسها ليجعلها تتورم، وفي أوقات أخرى تتباطأ مفاصل أصابعه حولها. خلال لحظات، تنتفخ أربعتها منذرات بقرب انفجارها. ثم يأخذ واحدة في كل يد، فيضغط بعنف، ثم يشد بقوة. يتعامل مع حلمتين في كل مرة. احتاج الأمر منه إلى عشرين دقيقة فقط ليريح "نور"، في حين كان يحتاج الأمر من "مريم" إلى ثلاثين.

كانت لا تزال تراقب أذن الكلب. لم يكن أي من الصبيين اللذين اختفيا ابنها، فشعرت بالراحة تغمرها بشدة بشكل أدفأ من الحليب. بدأت الأخبار تبتعد، وظلت أذن الكلب منتصبة في أثناء عودتها إلى الماعز، وهنا شعرت براحتها تتضاءل. تسابقت الأخبار على مئات من الأقدام الصغيرة. لم تنبح الكلاب. إذا حاول الرجال الذين اختطفوا الصبيين دخول منزلها، فستتركهم الكلاب يفعلون هذا دون إزعاج. لن تدرك "مريم" ما حدث إلا عندما تستيقظ في الصباح على صرخات الأبقار، وهي تتساءل لماذا لم يحلبها "يونس" كعادته قبل الذهاب إلى المتجر، ثم ستُهرَع نحو فراشه لتجده قد اختفى! في حين ستكون الكلاب في الخارج مستلقية على التراب في كسل، وقد انتصبت الأذن نفسها.

لم يستطع الرسول أن يقول مَن أخذ الصبيين، أهو من الرجال ذوي الملابس الرسمية، أم ذوي القبعات التي يعلوها نقش الجمجمة؟ قال الرجل:

- لقد بدؤوا كلهم يبدون مثل بعضهم.

قالها معربًا عن خوف جميع مَن في الوادي. كان الرسول أكبر من ابنها بسنة أو سنتين. ومثل ابنها، فلا بدَّ من أنه يتساءل: أي جهة يجدر به الانضمام إليها؟

كان لدى والدة "كولا"، والمدعوة "ماخيري"، حلمات صغيرة، حتى بعد ولادتها الثانية، وقد انتصبت حلماتها لأعلى كما انتصبت رأسها. تمنت "مريم" لو ترتخي ضروعها، لكن هذا لم يحدث، كانت لا تزال مشدودة وصعبة الحلب. تستطيع أن تُعدَّ بعض الشاي مع الحبهان والنعناع كما كانت تفعل في الماضي، لكنه لم يساعد عندما أعدته وقتها، وعلى الأرجح لن يساعد الآن. كانت "كيران" هي مَن سمَّتها، لأنها لم تفلح إلا في إثارة المتاعب، لكن "كيران" اعتادت الدفاع عنها كلما اشتكت "مريم" بخصوص حلماتها. ومثل شقيقها، أجادت "كيران" بطريقة تلقائية حلب الحيوانات. أزاحت "مريم" ذلك الخاطر بعيدًا. ليس بوسعها أن تدع روح ابنتها المحبوبة تشعر بالخجل لتباطؤها مع تلك الماعز! انتهت سريعًا - ربما بقوة أكثر من اللازم - ثم رحلت حاملة الدلو معها، من دون أن تنجح في العودة بعد دقائق للتأكد من أنها قد أدت المهمة على أكمل وجه. ماذا سيحدث لو تبقت بضع قطرات داخل حلمة الماعز؟ ماذا سيحدث لو صارت الماعز ساكنة كالكلاب!

ورث جميع أطفالها الصبر عن والدهم، فربما سيصبح الاثنان اللذان بقيا من أبنائها صبورين معها، عندما تصبح عجوزًا.

داخل الكوخ، صبت الحليب في وعاء فخاري استقر على لوح من الثلج داخل صينية. يُحضر ابنها الثلج مرتين يوميًّا، ليتمكنوا من إبقاء الحليب باردًا، وفي منطقة الجبال، لم يتوجب عليهم القلق بخصوص تلك الأشياء، لكنهم ليسوا في الجبال الآن، ويجب أن تتقبل هذا. يجب أن تخض الحليب لتصنع الزبد، وهو ما كان شيئًا صعبًا هو الآخر بيد واحدة، لكنها لن تطلب من ابنها أن ينحني بشدة لفعلها، ولا كانت ستزعج زوجها.

إنه ليس الموسم المناسب أو المعتاد لصنع الزبد، لكن خزينهم أوشك أن ينفد جزئيًّا، بسبب ما قدموه لتهدئة الرجال الذين يحتلون واديها الآن! واللبن كذلك. رغبوا في احتساء الشاي بالحليب الطازج في كل "زيارة". أطلقوا عليه نعمة من الله، أن يحصلوا على الحليب مباشرة من مصدره، في حين ينظرون إلى صدرها، وبينما يخبرونها بأن تقوم للصلاة. كما كانوا يطلبون إضافة كل ما يستطيع القدح حمله من سكر، ولهذا يجب أن تفكر في إحضار أقداح أصغر حجمًا.

جلست "مريم" عند حافة الفراش، تحدق إلى الوعاء الذي يحتوي على الحليب.

إذًا، فقد صاروا الآن يهتمون بأمر "غافور"، صار لديهم اسم ووجه لعبثهم، وأولئك الصبيين اللذين اختفيا، ما علاقتهما بكل هذا؟

لقد احتلت الأخبار مكانًا مميزًا في منزلها.

منذ عام، وقبل أن يحرق "غافور" بيت مفتش الغابة - لو كان هو فعلًا مَن فعلها - قبل أن يُعيَّن ذلك المفتش حتى، ضايق رئيسه قومها، إذ ادعى ذلك الرجل أن تصريح رعاية ماشيتهم مزور، وقال إنهم صنعوه بأنفسهم، وعندما أظهر زوجها له ختم الولاية، انطلق الرجل بالضحك، وقال وهو يخرج من جيبه قطعة من الورق، لم يروا مثلها من قبل:

- هذا؟ لا، الختم الذي على تصريحكم يجب أن يكون هكذا.

لم يكن بوسعهم القراءة، كل ما كان بوسعهم فعله هو إبداء أسفهم. فرض الرجل غرامة عليهم مقدارها ثمن كمية شهر من الحليب، وحاول إجبارهم على قبول برنامج الاستقرار، وقال لهم وهو يمزق تصريحهم:

- تعلموا الزراعة!

رأت قومها وهم يستسلمون، موافقين على تلقي قطع الأرض الضئيلة المخصصة لهم. رأت القدرة على القتال تتسلل من مسامهم مثلما تتسلل الرطوبة من قدر الحليب. رأت شقيقها الذي لا يزال يعيش في ولاية "بنجاب" عاملًا يدويًّا يتفق مع المقاولين الذين يستولون على عرقه، حتى ابن عمها الذي في الغالب سيصير مفتش غابة يومًا ما، يُهرِّب الأشجار عبر المياه أو عبر قوافل الزفاف، في حين يُصدِر غرامات في حق الرعاة لكون ماشيتهم تعدت حدودها. عندما وبخه زوجها الذي

تعهد بأنه لن يصبح أبدًا مزارعًا على خيانته قومه هذه على مائدة العشاء ذات يوم، قال ابنها الذي لم يتعدَّ وقتها السادسة من عمره، إنه يفضل أن يكون مفتش غابات على أن يكون راعي ماشية، وتتذكر أنها صفعته وقتها! لم تتحدث "كيران" التي لم تكن قد أكملت وقتها الرابعة مع شقيقها أيامًا.

والآن، مع تنقل كل أنواع الرجال في واديها دون تصريح - فبالنسبة إليهم، التحرك مجاني - أي نوع من أفكار الخيانة يدور في رأس ابنها؟ كانت لديه أصابع كالأرباب عندما يربت بها على حلمات البقرة. لكن بقيته رجل. لم يعد طفلًا، وإنما صار رجلًا.

تكرر عرض "غافور" الذي قدمه قبل رحيله في رأسها، "يمكنه أن يأتي معي يا "مريم". سيكون في أمان".

شقَّت "مريم" طريقها متثاقلة نحو وعاء الحليب، لم تكن معتادة السير بخطى متثاقلة هكذا من قبل، سكبت نصف كمية الحليب في وعاء خشبي، سرعان ما سحبته نحو الفراش، قبل أن تجلس أرضًا من جديد، لتسند الوعاء بين ركبتيها، وبمضرب خشبي طويل، ذكرها بالمجاديف التي تستعمل لتسيير المراكب في البحيرة، والتي خيَّمت عائلتها عند شواطئها منذ وقت ليس بالطويل، بدأت في خض الحليب، وهو النشاط الذي لم يكن سهلًا بيد واحدة، لكن تزايد حرارة اليوم يضطرها إلى فعلها الآن.

ربما كان صوت ازدياد كثافة الزبد هو ما سحبها نحو حلم غريب تسبب فيه العرق الذي غطاها. كانت تجلس معتدلة، وجسدها يتمايل مع إيقاع المضرب، لكن عقلها أخذ ينجرف بعيدًا لدرجة أنها ربما تصف ذلك الحلم بأنه مقدس، لكن لا يمكن وصف الرؤى، التي تتلاعب داخل رأسها بالقداسة، ولا حتى من قِبَل أكثر الآلهة شذوذًا!

كانت تشاهد، من خلال عينيَّ شخص آخر - عينيَّ رجل لم تعرفه - مجموعة من الصبيان "الجورجاريين"، وهم يتركون بيوتهم في وقت مبكر من الصباح. وبينما هي تشاهدهم من خلال زوج العينين الغريب هذا، بدأ رجل ثانٍ في تتبع الصبيين. تدلت سيجارة من بين شفتيه، ليست من طراز سجائر "بيدي" التي يدخنها الرعاة، وإنما من الطراز ذي الفلتر الذي رأته خلف أذن ابنها ذات يوم، كان اسم ذلك النوع من السجائر "دانهيل"، عندما ذهبت إليه في المتجر لتعطيه غذاءه الذي نسى أن يأخذه معه ذلك الصباح. أخذ الرجل الذي تدلت من بين شفتيه سيجارة "دانهيل" يراقب ضحيته، قبل أن يختار أضعف واحد في المجموعة، والذي كان صبيًّا ذا شعر بني مموج، وعينين ممتلئتين بالثقة، وأصابع حساسة، واعدًا إياه برحلة للمدينة بسيارته التي يمكن للصبي أن يقودها، والرجل الذي شاهد كل ما يحدث كان جالسًا داخل السيارة.

تغيرت الصورة وعادت لتصبح "مريم" من جديد، وعرفت أن ما رأته لم يكن نبوءة، بل كان ذكرى حدثت في وقت مبكر هذا العام، قبل أن يجهزوا حاجاتهم للرحيل صوب مراعي الجبال ببضعة أسابيع. رأت ابنها يستحم في التيار وسط

مجموعة من الصبيان الآخرين من عمره أو أكبر. لا تزال المياه باردة وكان هذا هو طقسهم السنوي - أن يقفزوا في المياه - قبل أن يرتحلوا من أجل رحلة الصيف، وبينما كانت تشاهدهم هذا العام، أخبرت نفسها أنه أتم التاسعة فقط، لكن حدث له تغيير ما، تغيير لاحظته لأنها كانت في عمره نفسه عندما لعقت العسل عن إصبع أقرب أصدقاء أخيها. نثر الصبيان المياه على جلد بعضهم بعضًا الناعم الأملس وهم يتضاحكون، وهم يلوحون بالشعر الذي بدأ يشق طريقه بين سيقانهم. عرفت أن تلك الضحكات ليست أكثر براءة من ضحكاتها عندما كانت بعمرهم، عرفت كذلك الطقس الذي يدور داخل الطقس، وما يستعرضه أولئك الصبيان الأكبر سنًّا، فبالنسبة إلى صبي في الثانية عشرة من عمره، الصبي ذو التاسعة ليس بالغًا بعد. أدرك الصبيان الأكبر السطوة التي يمتلكونها فوق المتفرجين الأصغر سنًّا، وهي قوة جعلت تيار النهر يسري، متمنين أن تحدث لهم – في أثناء انتظارهم بفارغ الصبر - المعجزة نفسها بين أفخاذهم كذلك. بعض الصبيان لن يفعلوا أكثر من مراقبة معجزات الآخرين.

أبعدت نفسها عن تيار المياه.

فتحت "مريم" عينيها وقد جلست عند حافة الفراش، كان هناك صوت خربشة على جدار بالخارج. لم تنبح الكلاب. لو كانت تلك طرَقات، فالرجال لم يطرقوا أبدًا.

انتظرت، لم تستطع تمييز الصوت، توقعت أن تنزاح الستارة جانبًا، لكن لم يحدث هذا. أيًّا كان مَن هناك فقد بدأ يسير مبتعدًا بخطوات ثقيلة، أو ربما لا يزال هناك ويتظاهر فقط بالرحيل ليستدرجها إلى الخروج، وغالبًا أن كل هذا يدور داخل عقلها فقط، حيث دارت العديد من الصور مؤخرًا. ربما كان كل هذا مجرد علامة على كونها حُبست بالداخل - كما هي الآن - بدلًا من التحرك تحت السماوات المفتوحة، حيث كانت تشعر دائمًا بالسلام.

ظلت بالداخل مع الصور التي تراها.

رأت شكلًا يسير وسط الظلام، وقد سار "غافور" خلفه، في حين أحاطت بهم مجموعة من ناس البلدة. كانوا كلهم هناك، الأربعة الذين ذهبوا إلى البحيرة ذلك اليوم. كان وقتًا متأخرًا من الليل وهبت الرياح وتساقطت الأمطار لتجعل الأمور أسوأ. انتصبت صخرة على مبعدة فبدت كشوكة مسنونة؛ رأت تلك الصخرة ثلاث مرات من قبل. كان الشكل يسير نحو تلك الصخرة، وهي متأكدة من هذا، فهكذا تسير الأمور، وهي تفعل هذا على الدوام. مثلما فعلت الملكة وعشيقها، ومثلما فعلت والدتها، ومثلما فعلت "كولا" و"ناماشا" و"نور"، ومثلهم فعلت "مريم زماني" و"كيران" وآلاف ممَن سقطت أسماؤهم ومروا بذلك الوادي، أو ظلوا دون ارتكاب جريمة قتل. استطاعت الشعور بالسلام يتلاشى بثقة، مثلما تلاشى المضرب الخشبي الطويل من بين أصابعها. لم يعد هناك شيء ملتصقًا بجلدها بعد الآن، لا المضرب ولا الحلمة، ولا العرق ولا الزبد حتى. كل شيء تلاشى.

بدأت الأمطار تتساقط بالكثافة نفسها التي شقت سترة الرجل، وهي تشاهده يضع قدمه الأولى فوق الصخرة. كان لدى ذلك الرجل نقطة حمراء على جبهته

كـ"بيندي" أو ياقوت، أي نوع هذا من الرجال الذي يُزيِّن نفسه كما النساء؟ لم تغسلها الأمطار، مهما تساقطت تلك الأخيرة على جبهته، مهما اقتربت من كوخها. كان أول تساقط للأمطار في ذلك الموسم، وقد أغرق صوت المطر صوت الأحذية التي خطت بالخارج.

بدأت تغترف من الزبد بهدوء على لوح قبل أن تضيف عليه شيئًا من الملح، وبهدوء راقبته وهو يذوب، ومع هطول الأمطار تكالب المزيد من أسراب الناموس والذباب، فأبقت الفرسة "ناماشا" سخطها بداخلها، لكنها استمرت في النظر إلى "مريم" بنظرات حملت كل ما اعتمل بداخلها من غضب، لكنها الآن رفضت أن تسير بمفردها داخل الغابة، ولا كانت مستعدة لتسمح لأن يرافقها أحد، حتى لو برسغ واحد سليم، ولا مستعدة أن تقبل الذرة التي طهتها "مريم" لها كل صباح مع كمية إضافية من الملح لمساعدتها على الهضم، بالرغم من كون الملح صار شيئًا نادرًا. كانت جائعة، وقد جعلها ذلك الجوع تصر على أسنانها. بدأت مهرتها "لوي تارا" تتعلم ثمن الإخلاص للرحم الذي أخرجها. هل هذا يعني التضور جوعًا؟

على مدار أول يومين بعد هطول الأمطار عليهم، كل مرة كانت تصدر فيها "مريم" صوتًا بلسانها وتسحب الحبل، تسير "لوي تارا" إلى الأمام بثقة، قبل أن تحني رأسها لـ"ناماشا". صرخت "مريم" بصوت أعلى من صوت تساقط الأمطار:

- لا تكوني حمقاء عنيدة كالحمير! أنتِ طفلة في مرحلة النمو.

وهنا تشم "لوي تارا" أمها، قبل أن تهز رأسها لـ"مريم"، ثم ترتجف في بؤس أسفل شجرة "سرو" تتخذها ملجأ. هنا تلوي "ناماشا" عنقها حول ابنتها مرة قبل أن تنتصب من جديد، متحدية "مريم" أن تقاطعها.

في اليوم الثالث خاضت "مريم" التحدي، فذهبت إلى الغابة وأحضرت معها شيئًا أكثر إغراءً من مجرد بيضة من مزارع مجاورة. أحضرت ثمرة مشمش تغطيها غلالة ذهبية تتخللها نفحة من اللون القرمزي. لم تتردد لحظة. مدت "لوي تارا" شفتيها نحو كف "مريم"، وقاومتها "ناماشا". لم تتوقف "لوي تارا" عن الأكل.

في اليوم الرابع، تقدمت المهرة نحو "مريم" بمجرد تلاقي أعينهما، وبمجرد أن حررتها، حتى اتجهت نحو الغابة. قالت "مريم" للأم:

- ألن تتبعينا؟

وقد جاوبتها "ناماشا" بأن أصرت على أسنانها. انطلقت "مريم" تلحق بالمهرة التي عثرت على البقرة "نور" عند أوراق نبات "لاسي"، وهي تلف شفتيها الرقيقتين حول الأوراق الرفيعة الطويلة. بدا الارتباك على "لوي تارا" للحظات، كأنما تريد أن تقول: "أين هي ثمرات المشمش؟".

في الحقيقة، حصلت "مريم" عليها من بائع الفاكهة، مقابل بعض الزبد، وأخفتها في الغابة قبل أن تحضرها للمهرة المستعدة للأكل. الآن، ربتت عنقها المخملي الناعم الذي يشبه لونه لون صفار البيض تحت أشعة الشمس الغاربة، تمتمت "مريم":

- غبية، المشمش ينمو في البساتين الممنوعة عليكم، والخيول الصغيرة لا تأكل ورق "البابرا".

فكت شعر المهرة المتشابك بأصابعها وهي تسألها:

- كيف نعيد أمك ثانية؟

أومأت "لوي تارا" برأسها، وتشممت حولها من جديد، قبل أن تنتزع بأسنانها الحشائش الطويلة التي انتصبت تحت قدمي "مريم".

امتلأت الغابة بمياه الأمطار. نظرت إلى غابتها لترى أعناق حشائش "الكاكوا" الرفيعة الغزيرة وهي تلتمع بلون بنفسجي، كأنها قطع من الزمرد اللامع المنثور هنا وهناك، في حين أن المهرة تحرك عرفها الجاف. في الماضي، عندما اشتكت "كيران" من وجع بأسنانها، وهو مرض اعتادته، غلت "مريم" بعض تلك الحشائش وتركت المياه لتبرد، لتشربها "كيران" فيما بعد، ليخف ألمها في النهاية.

في الماضي!

سحبت "مريم" "لوي تارا" داخل الغابة، وانتصبت أشجار "الصنوبر" الزرقاء من حولهما، ومعها بعض أشجار الصنوبر ذات الأوراق الطويلة، وقد التفت فروعها، وتساقطت أكوازها عند قدميها. بينما بالقرب من الأرض، ارتفعت أزهار "خاتامبال" الصغيرة. لم تستطع تذكر آخر مرة رأتها فيها، فالأعشاب لا تُزهر إلا في أثناء الرياح الموسمية، حينما يكونون في منطقة الجبال. تركت المهرة تمزق تلك الزهور بأسنانها.

استطاعت سماع صوت الرعد، لا بدَّ من أن قرون ثيران الإلهة قد اشتبكت في عراك ما. هكذا كانوا يعرفون الرعد وقتما كانت جدتها حية، وحتى أيام والدتها. عندما تكون ثيران الإلهة في حالة حرب، يكون العالم مثلها. خطت "مريم" داخل أشجار الصنوبر لتظفر ببعض الدفء والجفاف، حيث لن يعثر عليها شيء، ولا حتى الأمطار.

وداخل مجموعة الأشجار تلك، فكرت فيما وصلت إليه حياتها، ففي وقت مبكر ذلك الصباح ظلت في فراشها، كما اعتادت أن تفعل، شاعرة بفتور مغلف ببعض الهلع.

هل ستزعجهم الشرطة؟ أم إن مَن سيفعلونها اليوم سيكونون الرجال ذوي الملابس المدنية؟ لكن كليهما لم يأتِ، وتوجب عليها أن تجبر نفسها على الخروج من الفراش. بدا لها كأنما الشيء الوحيد الذي يسحبها لتشارك في هذا العالم هو معركتها مع حصانها. كانت تلك هي قوة العمل؛ سواء أظهر الرجال ذلك أم لا، فقد قبعوا في بيوتهم، مثل تلك الأنباء، على سيقان عدة. يمكنهم أن يظهروا في أي وقت؛ هم موجودون هنا بالفعل، خلف الستارة، بجوار أقداح الشاي، وفي التموجات الموجود على فراشها. لا يسع أحد الاختباء منهم، بالرغم من أنهم يستمرون في المحاولة. ظلت معظم الوقت داخل كوخها، والأسوأ أنها ظلت داخل نفسها، في حياة تعرف جيدًا أنها لن تعتادها أبدًا، حتى لو صار هذا هو روتينها اليومي.

عندما تنصتت عبر الجدار في الليل، استطاعت سماع الرجال والراديو الخاص بهم. عندما يديرون المؤشر يمكنهم التقاط صوت "المُلا" الذي أُلقِي القبض عليه منذ ثلاث سنوات، لمحاربته أمريكا داخل أفغانستان. بالرغم من أنه لا يزال داخل السجن، فإنه لا يزال لديه بعض الأتباع في "سوات"، بل وفي "مانسيرا" التي تقع في مكان أقرب. أهم الرجال أنفسهم الذين يقيمون المخيم حول "بالاكوت" ويقتحمون أكواخهم؟ لم تعرف الإجابة. كان الصوت الذي يصدح به الراديو يقول دائمًا إن الراديو خطيئة، ومثله التليفزيون، والكمبيوتر، والسينما، كلها خطايا. في "ناران"، كانت هناك متاجر لبيع أجهزة الكمبيوتر، وابنها يعرف كل شيء عنها، لكن بالنسبة إلى الراديو؟ ليس هذا جهازًا حديثًا، وبوسع "مريم" أن تسمع صوت الرجال وهم يديرون المؤشر الخاص به، كما اعتاد والدها أن يفعل ليتمكن من اقتناص أخبار الأماكن البعيدة مثل "بيشاور". ارتفع صوت "المُلَّا"، وهو يطلق لعناته على الراديو - الذي يرتفع صوته منه - واعدًا أن تلك البلدة سرعان ما ستصبح بلدة الله، من دون موسيقى، أو رقص، وبمدرسة إسلامية في كل وادي، ولتحقيق هذا الحلم، يحتاجون إلى الأولاد المحليين.

استطاعت أن تسمع عبر الجدار صوت زوجها وهو يقول إن الأمر يحتاج إلى تدخل الله لكي يستسلم ذلك الوادي لهؤلاء الرجال؛ تدخل في صورة فيضان، أو زلزال.

داخل مجموعة الأشجار التي احتمت بها داخل غابتها، لا تزال "مريم" تربت على "لوي تارا" التي عادت لتتشمم البقرة. وقعت عينا "مريم" على قطرة مطر تنحدر على شفتي ورقة أغفلتها "نور". توقفت القطرة عند الشفتين، وبدت الورقة كأنها تتموج لتغلف القطرة فتبقيها داخلها.

لو كانت قطرة المطر تلك هي ابنها، فلكم من الوقت ستتمكن "مريم" من الحفاظ عليه؟ لقد أخبرها هذا الصباح بعدما حلب البقرة أنه يرغب في أن يصبح تاجرًا، مثل عمه "غافور"! لم يرغب في أن يصبح مجرد راعي ماشية مثل والده، رغب في أن يرتدي مثل ثياب "غافور"، وبناطيل بأحزمة جلدية. رغب في التجارة بالأحجار الكريمة والجلود، وليس الزبد والحليب، رغب في السفر خارج الوادي، وخارج الجبال كلها حتى، لكن الصبي لديه طباع تجعله أشبه بوالده عما هو أشبه لعمه، كما كان متقلبًا، فلو أراد أن يصبح مفتش غابة أمس، فاليوم هو يريد أن يصبح تاجرًا، فكيف سيكون حاله غدًا؟ هل سيصبح مجرد "صبي محلي" في مخيم، حتى إن كان المحليون أنفسهم لا يعتبرون "الجورجاريين" من البلد؟

بدأ الغضب يعتمل داخل صدر "مريم"، بينما استمرت في تأمل قطرة المطر التي استندت إلى قمة الورقة. إذا عرفت الحكومة أن أولئك الرجال تدربوا في مخيمات قرب "بالاكوت"، أو بالجنوب في "مانسيرا"، أو ربما حتى بعيدًا في "سوات"؟ فلماذا لا يتخلصون من تلك المخيمات؟ سمعت هذا سؤالًا من الرجال أيضًا، بينما هي تتنصت عليهم عبر الجدار، وغضبهم يصل بمرارة تشابه مرارتها، عندما يتحول مجرى حديثهم إلى الصبيين الذين اختفيا. هناك الكثير من قوات الأمن، ومع ذلك لم يُعثَر عليهما. مَن أخذهما، ولماذا؟ المشتبه بهم من الأعداء لا يتعدون رعاة البقر، أو رعاة الأغنام الأسترالية الغبية!

"مريم" ليست مستعدة لتفقد طفل آخر. هل سيؤدي إبقاؤها "يونس" هنا بجانبها إلى فقدانه؟ هل إرساله بعيدًا مع "غافور" وسيلة أفضل للحفاظ عليه؟ بدا كأنما الاحتمالين الوحيدين المتاحين يعيدانها مباشرة إلى الجدل القائم بين جميع مَن حولها الآن. مهما كان ما فعلوه، فلن يصيبهم الجفاف في الشمس، ولا البلل تحت المطر، فلن يصبهم مكروه.

سحبت البقرة الورقة التي أبقت قطرة المطر بداخلها، وأمسكت القطرة بلسانها الأرجواني الطويل، وتركيزها منصب على المضغ فقط. قالت "مريم":

- اشربي جيدًا، وكلي جيدًا أيضًا.

نمت خلفهم مجموعة من أشجار الفستق البري، وهي واحدة من أفضل الأشجار في الغابة. تزهر تلك الأشجار في أواخر الشتاء لتخرج كتلة من الزهور بلون التراب الأحمر. بدت الطريقة التي عكست بها الأشجار الضوء وسط الهواء البارد أشبه بمعجزة. كان هذا بالنسبة إلى "كيران" علامة على أمر تثق به تمامًا، وعندما تعثر عليها كل فبراير؛ كانت تبتسم، لكنها لم تشر إليها ولا مرة. (يحتاج الأمر إلى نوع معين من الجهاد للإشارة). وكل سبتمبر، بعد عودتهم من الجبال بمدة قصيرة، عندما تكون ثمار الفستق الحمراء قد نمت وتحولت إلى اللون الأزرق، يهز كل الأطفال الأشجار ويجمعون تلك الثمار وحملها إلى البيت لوضع الملح عليها.

في شهر سبتمبر الحالي، هزت "كيران" الأشجار من مكان مختلف. دفنت "مريم" رأسها في وجه المهرة، وتنفست. على مر السنين، استطاعت أن تعالج كل أدوار الكحة التي أصابت أطفالها بأوراق من لحاء شجر الفستق. استنشقت رائحة المهرة - والتي بدت لأنفها مثل رائحة السماد الطازج، مع لمحة من رائحة الخشب التي تخللتها رائحة بخور - وتساءلت لو كان بوسعها معالجة الأم أيضًا، لكن من أي مرض يتوجب عليها علاجها؟ ابتسمت، وهي لا تزال دافنة رأسها وسط شعر المهرة، وأي أم يتوجب عليها علاجها من الأساس؛ الأم البشرية ذات الساقين أم الأخرى الحيوانية ذات الأربع؟

أكلت "لوي تارا" كمية كافية قبل أن ترفع رأسها، وقد تذكرت والدتها العنيدة. سألت "مريم" وهي تمد أصابع يدها اليسرى لتفك تشابك شعر رفيقتها:

- ماذا نحضر لأمك معنا؟

زفرت "لوي تارا" مخرجة أنفاسها في بطن "مريم"، والتي استطاعت الشعور بالدفء يمر عبر ملابسها التي بللتها الأمطار. تساءلت في سرها أكان يجدر بهما التوغل أكثر داخل الغابة لمقابلة زوجها، فلا بدَّ من أنه سيعيد بقية ماشيتهم إلى المنزل، ولا بدَّ من أن "جومانة" ستكون معه، ويمكن أن تقضي "مريم" وقتها مدة في فك ضفائر شعرها، بدلًا من فك ضفائر شعر "لوي تارا".

سحبت "مريم" المهرة بلطف عائدة إلى الكوخ، وتساقطت الأمطار كسلسلة من الحواجز عديمة الرحمة، التي تدفعهما إلى المكان الذي كانتا فيه، وهما يجاهدان للتقدم إلى الأمام. تحركتا على مراحل تخترقان جدارًا مائيًا، ثم يتوقفان تحت شجرة،

ثم يتقدمان إلى الأمام من جديد نحو جدار أثقل وأكثر سماكة. كانت بالكاد تتبين إلى أين هما ذاهبتان، لكن بدا أن في الغابة آخرين غيرهما - فقد استطاعت الشعور بهذا - يشقون طريقهم عبر عالم يتكون من الأسوار، الصلبة والخفيفة، وهم يصدرون أنغامًا خافتة لماشيتهم التي سمعت صوت أجراسها طيلة الوقت الذي كانت المهرة تأكل فيه. بدا الصوت مألوفًا للغاية، لدرجة أنها تمكنت من تجاهله بسهولة.

استمرت في سيرها، محافظة على الإيقاع الذي تؤديه لتتمكن من تفادي المطر، وهو إيقاع كادت تكون مستمتعة به كأنها تلعب. تمنت لو لم تحدث فيضانات هذا العام، فقد تحملوا ما يكفي. تمنت لو تُحسن الأنهار الجليدية التصرف، فلا تتزلق أسفل المنحدرات الجبلية لتسدَّ طريقهم وتكسر جسورهم. ليس هناك ما هو أكثر إثارة للقلق من نهر جليدي ينظر حوله ويقرر أنه لم يعد يرغب في التزاوج من نهر جليدي آخر، وبدلًا من هذا يذوب تدريجيًّا، قبل أن يندفع جاريًا كحصان. يمكنك استئناس حصان لكن لا يمكنك استئناس "جورجاري"، أو نهر جليدي.

استمرت في طريقها تحت الأمطار، محتمية بلعبتها وأفكارها. لم يذكر أحد "غافور" ثانية عبر الجدار طوال الليل، ليس منذ المرة التي ضحكوا فيها منه، بل إنها تجرأت مرة على التسلل إلى الضريح سرًّا في المساء، مخاطرة بأن يعثر عليها ذوو الملابس الرسمية أو القبعات ذات الجماجم، أو كلاهما، آملة في العثور عليه هناك، أو العثور على شيء؛ ريشة، أو قطعة قماش، لكنها لم تعثر على شيء، باستثناء الزهرتين اللتين التفَّتا حول مركزهما. كان هذا على غير عادته؛ إذا قال إنه سيجعلها تعرف بما حدث، فلا بدَّ من أنه سيفعل ذلك. ربما لم يحدث شيء، أو ربما..

لو كان الرجال يبحثون عنه، فهل اضطر إلى تغيير خطته؟ أين هو؟ ربما يجب عليها أن تدعو له، حتى لو داخل قلبها فقط، ففي أثناء اليوم يجب أن تظل بعيدة عن ضريحها. أصر زوجها على ألا تذهب قرب ذلك المكان، مهما كانت الظروف. هكذا لم تستطع أن تخرج ثانية الصندوق الذي احتوى على جواهر "كيران" وسنتيها اللبنيتين، والذي لفته في قطعة من القماش الأحمر. تلت صلاة سريعة فوق المكان الذي دُفن فيه، وتركته مرتاحًا مكانه.

في الحقيقة، لم تعد في حاجة إلى علامات من "غافور" بعد الآن، على الأقل ليست في حاجة إلى علامات تخبرها بمكانهم، فقد عرفت واستمرت في رؤيتهم عند أقدام الجبل يتحركون نحو صخرة بنية متعرجة، ولكن في كل مرة يرفع فيها الرجل قدمه ويبدأ في التسلق، يبهت المشهد أمام "مريم". في دقيقة يقترب من الجبل، وفي الدقيقة التالية يصبح محاصرًا، وفيما بين الاثنتين تكون هناك أمطار، وأجراس ماعز، وتلك الجوقة المنخفضة من الغناء والخوار.

توقفت "مريم" فجأة!

كانوا على بعد نحو مائتي قدم عن البيت، عندما أدركت أنها كانت تسمع شيئًا آخر، كما سمعته "لوي تارا"، فقد لاحظت "مريم" كيف انسحبت المهرة إلى الخلف في عصبية. كانت ضجة، دمدمة من الأصوات، أم البرق؟ انهيار أرضي أم زلزال؟

استطاعت سماع صرخة تبعتها جوقة كاملة من الصرخات، سرت رعدة من الخوف عبر ظهر المهرة، تعالت الكثير من الصرخات والنحيب كذلك، على بعد قبيلتين، ليست عائلة "ليلى"، وإنما العائلة المجاورة لهم كانوا مكروبين، وماذا كانت "مريم" تفعل؟ استمعت من على مسافة، وهي تربت "لوي تارا"؟ أهكذا تقابل إحسان أولئك الذين ضحوا بمراعيهم الصيفية في الجبال للعودة إلى السهول مع عائلتها في وقت حزنهم؟

سحبت "مريم" "لوي تارا" وهي تشعر بشيء ثقيل ومألوف في معدتها، لو كان لها أن تسميه، فلا بدَّ من أنها ستسميه الموت! عالم كامل من الألم لم يوجد قبل الموت، حتى حدث ذلك الأخير.

عثروا على واحد من الغلامين المختفين في حفرة الماء الخاصة بعائلته، ملأت الأمطار الحفرة، فارتفعت الجثة إلى السطح، وكادت أطرافه المنتفخة تبرز من فوق حافة سطح المياه، لكنهم لم يفعلوا. ظل جسده يتأرجح في المياه وسط البحيرة المبطنة بالطين، وقد تناثرت من حوله قشور المانجو وأحشاء الماعز، والتصقت أوراق زهور زرقاء في شعره. حلَّقت مجموعة من الغربان فوقهم بالسماء، أما على الأرض، فقد كان هناك الكثير من الرجال والنساء لدرجة منعت "مريم" من المرور، ومع ذلك فقد ألمَّت خلال لحظات بحياة الصبي بكامل تفاصيلها، وعيناها تعكسان ما يراه الآخرون. كُسرت ذراعاه وساقاه، واحترقت يداه، وشُقَّت مؤخرته، وقد سُحِق جزء من رأسه كأنها عبوة من الألومنيوم داس عليها حافر حصان. تُعرِّف عليه من السلسلة التي حول رقبته - والتي كانت هدية من قريب غني - ويبدو أنها ساعدت في خنقه!

تجمدت "مريم" مكانها، تذكرت رؤية الصبيين منذ عدة أيام، في حين كانت تختبئ في الغابة مع "ليلى". أحد الصبيين كان يزيل التراب بخف مقطع، والآخر يرتدي قلادة! تذكرت الصبي الثاني وهو يدعو مجموعة من الرجال إلى الكوخ. تذكرت الكرات الحمراء.

لم يُعثَر على الصبي الثاني، وكانت صرخات والدته هي الأعلى. أما أم الصبي الذي أخرجت جثته من المياه فلم تبكِ، وإنما أخذت تطلق لعناتها على الرب بصوتٍ عالٍ، حتى اضطروا إلى أن يصفعوها في النهاية لتصمت! صمت سيدوم بقية حياتها.

وفي تلك الأثناء تحدث الوادي، وهي محادثة بدأت بمجرد همسات لم تلبث أن تزايدت. أُخِذ الصبيين من أجل الحصول على "معلومات"، وأنهما "مشتبه بأنهما يعملان مع العدو. مَن أخذوهما كانوا رجالًا ذوي ملابس مدنية! لا، بل رجالًا ذوي ملابس رسمية! قالت "ليلى" إنهم كانوا يرتدون عمامات وأحذية غالية. قالت "مريم" إن الأحذية كانت عليها كرات، لكنَّ آخرين قالوا إن مَن أخذوهما رُؤوا آخر مرة على ضفاف نهر "كنهار"، يهربون الأشجار مرتدين أحذية غالية، كانوا من المخيمات. لا، هكذا أصر الباقون، لقد نزلوا السهول من الجبال. لا، صعدوا السهول من الجحيم. لا، بل من الجبال. أيهم؟ الجبال التي تقع في الشرق. لا، بل تلك الواقعة في الغرب. بدا لـ"مريم" أن عدد المتحدثين يتزايد، من بينهم رجال بملابس مدنية،

ورجال بملابس رسمية، وكانوا من الحكومة ومن المخيمات، من الجبال ومن الجحيم.

لكن في ذلك اليوم، بعدما صُفِعت المرأة التي أُخرِج طفلها من البحيرة، لم تعد "مريم" تستمع لهم. وسط كل ما حدث من ضوضاء، ظلت مبقية على رزانتها، فتتحدث بالكلمات التي تحتاج إلى قولها، وتوجهها إلى أولئك الذين تحتاج إلى توجيهها لهم. لم تعرف من أين أتت تلك القوة، ربما من سماع الصمت الذي خيَّم على المرأة التي صُفِعت. شعرت بالصمت يستهلكها وفكرت أنه من الأفضل لو تصرخ حتى يصل صوتها إلى العالم الآخر، لكن عندما همست بهذا في أذن المرأة فقدت وعيها، ولم تستطع "مريم" وقتها فعل ما هو أكثر من الإمساك بها، فأمسكتها، وخلال تلك اللحظة سقطت المرأة في بئر من الصمت سيدوم إلى الأبد.

نفخت بخفة فوق وجهها، أعدت لها قدح شاي الأعشاب المحلي ساعدها في النوم. لم يدعُ أحد "مريم" بالزوجة الوثنية في ذلك اليوم، فقد كانت هي الوحيدة التي فعلت ما هو أكثر من مجرد إطلاق اللعنات والكلمات وفقدان الوعي بعدما تمت الصفعة، لتنتقل إلى حلم أشبه بالغيبوبة.

شاهدوها، وسرعان ما أصبح اليأس صمغًا، سرعان ما أصبح غابة من الأذرع المتشابكة التي حملت السيدة إلى كوخها. تفكك التشابك لترقد المرأة فوق فراشها، ثم لم تستطع "مريم" أن تتذكر أين ذهب. قضت اليوم تتحرك بين منزلي العائلتين - العائلة التي عُثِر على ابنها، وتلك التي لم يُعثَر عليه. عادت بـ"لوي تارا" إلى "ناماشا"، التي استقبلت ابنتها بتأنيب إلى حد ما، والمتجر الذي يعمل به ابنها "يونس".

في طريقها، لاحظت نبات زنجبيل يشق طريقه من المكان الذي نما منه في النطاق غير المسموح لهم بدخوله من الغابة، ليتسلل إلى المكان المسموح لهم بدخوله. عندما وصلت المتجر، سحبت "يونس" بين ذراعيها؛ كان حيًّا!

ظلت ممسكة به حتى تململ هو قبل أن يدفعها بعيدًا. فيما بعد تسللت إلى الضريح الخاص بها - ولأول مرة منذ كان ذلك الرجل يلعب الناي المزدوج ويحكي القصص مثلما يفعل الأنبياء ويرقص مثلما يفعل الجن - لم تنتظر أي علامات، ولم تنتظر أي أغانٍ كذلك، وإنما شرعت في صنع أغانيها الخاصة. غنت للسيدة التي دام صمتها إلى الأبد، وأغنيتها كانت عن تلاقي ابن المرأة مع "كيران" عن قريب، في وادٍ يمتلئ بالجنيات والأمراء والفستق المحمص والخيول الطائرة. غنت للمرأة التي دام صمتها إلى الأبد عن النعيم، ليس بصفته مكانًا دافئًا، وإنما بصفته عالمًا من الجليد، يحتوي على بحيرات ساكنة وقمتين وحيدتين مصنوعتين من الأبواب والنوافذ، تدعيان "الملكة" و"العاري". ستظل "الملكة" بصورة أو بأخرى في الوادي، لكن "العاري" سينطلق إلى أماكن أبعد كثيرًا، أبعد من الجبال حتى، وسيعثر على أولئك الذين أخذوا طفلها منها وتسببوا في سقوطها وسط محيط عميق من الصمت لا يقل عمقه عن تلك البحيرة؛ سيعثر عليهما وسيفعل ما يتوجب عليه فعله، وستتمكن المرأة وقتها من الظفر ببعض الراحة في سلام، وتستمع لتلك الأغنية التي تحكي

عن جنة مصنوعة من الجليد والجنيات والفستق المحمص والخيول الطائرة؛ جنة انتصبت بين قمتين تحرسان "كيران" وذلك الصبي الذي سيصبح معها قريبًا، سيكون معهما وقتها ملابس جيدة ليرتدوها، وربما يتمكن الصبي من إقناع "كيران" بتضفير شعرها، وربما يضفِّره هو لها حتى. سيُركِّز مع صوت صليل أساورها، وسيُطعِم الماعز التي فقدوها في ذلك العالم المؤقت بسبب شراهة الخراف الأسترالية. سيكونون كلهم هناك، ومعهم والد المهرة الصغيرة كذلك، الذي اصطدم بالسور المصنوع من الأسلاك الشائكة ليجعل زوجته تزداد مرارة وخبثًا في هذا العالم الآخر.

أحيانًا، سيركب الطفلان الحصان معًا، ليتنزهوا به فوق القمتين، حيث سيخطون على مواطئ القدم المضمونة، ليخطوا عبر الصخور المنبسطة، عبر الأنهار العادية والجليدية، وفوق حشائش الجبل النامية، ولو شعرا بالنعاس سيريحان رأسيهما على ظهره المخملي الناعم، لتمتلئ أحلامها بنعومة المخمل. ستظهر أحلامهما بأفضل ألوان تسمح بها مخيلتهما الصبية، والتي بالنسبة إلى "كيران" ستحتوي على كل درجة ممكنة من اللون الأزرق؛ أزرق كأجنحة الجنية، أو أزرق كذيل طائر "الرفراف"، أو ربما أزرق كزهرة "جاني آدم".

هكذا غنت "مريم" للمرأة التي دام صمتها إلى الأبد، في حين تزايدت الأحاديث في الوادي، ومعها تزايد وقع الأقدام الرسمية والأحذية العادية والمدرعات، ومعهم تزايدت كذلك شهية أولئك الذين استولوا على مقاليد حياتهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

جبل «التار»

في الواحدة صباحًا، أنزلنا سائقنا قرب قلعة "بلتِت"، لنبدأ رحلة تسلق جبل "التار". لن يأتي معنا، لكنه انتظر حتى صعدنا الطريق الذي انحرف بجوار البيت الذي قضت فيه "فرحانة" طيلة أمس. وصلت أخبار خطتنا إلى القرية، ووقف الكثيرون خارج بيوتهم وسط البرد لرؤيتنا، ومن ضمنهم المرأة التي قادت "فرحانة" إلى "الكاهنة". كانت الفتاة الصغيرة وماعزتها هناك كذلك. سقط نور كشافي بالخطأ على وجهها الذي بدا مفرط الجدية، فتمتمت باعتذار عن سقوط النور على عينيها، فردت عليَّ برفع يدها اليمنى ولوحت مودعة.

مِلتُ بكشافي بعيدًا، باحثًا عن قميص وبنطال أخضر، لكنني لم أرَ أي أشباح منذ دخلت ذلك الوادي، ومن حسن الحظ لم أرَ أيهم الآن كذلك.

سار أمامي كل من "ويس" و"فرحانة" اللذين بديا مختلفين تمامًا، وبجانبي كالعادة، سار "عرفان". ووراءنا كان مرافقنا من "كاجان". لم أفهم ما الذي يجعل رجلًا مثله يعمل بالتجارة يوافق على خوض تلك الرحلة معنا، لكن بدا لي أنني سألت الكثير من الأسئلة الخاطئة في رحلتنا، فقررت ألا أطرح هذا السؤال، لو كانت رغبته هي متابعتنا طيلة طريقنا إلى النهر الجليدي، فمن أنا لكي أطالب بتفسير؟

لم أرَ أي سيارات مسلحة منذ دخلنا هذا الوادي أيضًا. كان المكان عامرًا بالسلام لدرجة جعلته يبدو متكلفًا وشديد البرودة.

شعرت بالشكر لأنني ارتديت سترة إضافية أسفل المعطف المضاد للريح الذي أرتديه، وهي نفسها التي ارتديتها في تلك الليلة في "سان فرانسيسكو".

"ست-رة، ست-رة!" تذكرت الرجل وهو ينطقها ليلتها. من حسن الحظ أنه ترك الـ"ست-رة" لي يومها. كان حذائي صلبًا، وقد اشترى "عرفان" مصباح رأس لي من المتجر في "كريم آباد". هذه هي الطريقة التي يقضي بها يومه بشكل عملي كعادته. لم أرتدِ مصباح رأس أبدًا في أي من تمشياتي الليلية، ولم يناسبني هذا المصباح عندما جربت ارتداءه، كانت شرائطه واسعة بالرغم من كل ما بذلته من جهد لتعديل مقاسها، ولم أستطع اعتياد الإحساس بثقل وزن ما عند منتصف جبهتي، مهما قدم ذلك الوزن من إضاءة، بالإضافة إلى أنها كانت عدسة حمراء، فنشرت لمعانًا باهتًا غريبًا على الوادي الذي امتد على فطرته من حولنا. ارتدى "عرفان" كشافه بسهولة شديدة كما ترتدي العروس طرحتها، بل إن كشافه بدا مناسبًا له!

وبينما كنا نقترب من قاعدة الجبل لاحظت لمعانًا على ساقيِّ "ويس"، ثم لاحظت لمعانًا مماثلًا على ساقيِّ "فرحانة"، لكن بشكل أصغر. لقد أتيا مستعدين، حتى كشافات الأقدام أحضروها معهما. سألت "عرفان":

- هل فكرت في هذا؟

هز رأسه نفيًا. تذكرت في صمت أننا عندما احتجنا إلى خيمة عند ضفاف بحيرة "سيف الملوك"، زودنا "عرفان" بها. هل "ويس" و"فرحانة" مستعدان أن يتنازل كل واحد منهما عن كشاف مما يحملانه لكي يسمحا لأربعتنا بمشاهدة أفضل؟ ربما انتظر كلانا أن يُقدَّم العرض، وعندما بدا واضحًا أنه لن يُقدَّم، قال "عرفان":

- فلنبقَ على مقربة من بعضنا بعضًا، لكن ربما يجب أن يغير كل منا شريكه، ابقَ أنت مع "ويس".

لا بدَّ من أنه فكر في أنني سأفضل ذلك الترتيب، بالرغم من معرفتي بمدى عدم الراحة التي سيشعر بها "عرفان" لوجوده مع "فرحانة". لم يعرف خطتي لاقتفاء أثرها على الجبل. وافقت في الوقت الحالي. سألته:

- هل لديكَ بعض المياه؟

أومأ برأسه إيجابًا، ثم سألني:

- ألديكَ أنت بعض البسكويت؟

أومأت برأسي مجيبًا.

- السماء رائقة، أي إننا سنصل إلى النهر الجليدي خلال خمس ساعات على أقصى تقدير.

نظر كلانا إلى أعلى، إلى السكاكين المسننة التي انتصبت من قمة "التار" أمامنا. لم أستطع رؤية السماء جيدًا. سمعته يتمتم:

- مظلمة.

كانت تلك هي آخر كلماته لي قبل أن يخطو فوق طريق منحوت وسط كتل من الجرانيت بضخامة منضدة لأربعة أفراد. كانت أطراف الصخور حادة؛ حنيت رأسي إلى الأسفل وبدأت التسلق.

بعدما صعدت بضعة أمتار إلى أعلى، استوعبت أنني أتسلق على أربع، فقد كان هذا أسهل. وضعت كشافي في حقيبة ظهري، وصرت أعتمد بالكامل على الكشاف المعلق برأسي، مع مساعدة طفيفة من البقعتين الصفراوين الضئيلتين على بعد عدة أقدام أمامي، والمعلقتين بساق "ويس". لم أناده لأطلب منه أن يبطئ من خطواته.

كنت وحيدًا مع أفكاري، والأدرينالين الذي يتسارع في عروقي، والوزن الذي تعلق بظهري، فقد كانت حقيبة ظهري ثقيلة؛ بداخلها وُجِد ما هو أكثر من بعض المياه والبسكويت وكشاف. اضطررت إلى تعديل حملها أكثر من مرة، وتعديل المصباح المعلق برأسي كذلك، والذي تحول إلى نوع غريب من الضغط العقلي، لو كانت لديَّ عين ثالثة، لتسببت لي في صداع دائم. غطت العدسة الجدار الذي انتصب أمامي باللون الأحمر الباهت نفسه الذي غطت به الطريق، فبدا العالم كأنه صورة فوتوغرافية غطاها الصدأ. حتى وقت طويل، تسبب ذلك المنظر الغريب في تشتيت انتباهي؛ فكرت أن اللون هو المكان وعدمه في الوقت نفسه.

تأقلمت عيناي في النهاية، وبدأت أرى التباين في درجات الألوان. بدأت أميز البني من الأسود، والبني المحترق من الرمادي. كانت هناك برك كونتها الأمطار وذوبان الثلج الموسمي، لكن ما أثار دهشتي أن الصخور لم تكن زلقة للغاية. من حسن حظنا توقفت الأمطار، سعدت للشعور بما يوجد تحت كعب حذائي المطاطي، والطريقة التي داعبت بها أصابع قدمي أركان الحذاء لتحديد حجم ومتانة موطئ قدمي، والطريقة التي مسحت بها أصابع يدي على حواف الجرف لتقدير الارتفاع. عرفت أنني في حالة انسجام تامة عندما توقفت عن تفقد ساعتي، وحتى استيعابي هذا لم يجعلني أبالي بتفقدها. انفتح صدري على مصراعيه ليندفع الهواء البارد ناشبًا أسنانه، ليتركني عاريًا من الجلد وشاعرًا بالنشاط. لم أحاول اللحاق بـ"ويس"، أو "عرفان"، أو "فرحانة" التي ستحملها ساقاها المدببتان إلى أعلى منًّا جميعًا. سألحق بهم وبها في النهاية. سأقول كل ما تدربت على قوله؛ أما الآن فهناك الكثير لفعله من دون القلق بخصوص الفروق الدقيقة للأسرار البشرية.

بمرور الوقت، شعرت بالسماء تقترب. استطعت رؤية النجوم التي بدت كقطع متناثرة من الجليد اللامع، وفي لحظات معينة بدت قريبة مني للغاية، لدرجة أنني شعرت أن بوسعي الإمساك بها بين أناملي. لم يكن ظل "التار" محفورًا في الصخور، وإنما كان يتحرك عندما أتحرك، ومع كل خطوة كانت السماء ذات قطع الجليد تنزلق إلى أعلى وإلى أسفل من حول كتفيه المدببتين، أم من الأنسب أن أتحدث عنه بصفته أنثى؟ لمَ لا، فكما قلت سابقًا، كل الأشياء الجميلة تبدو لي أنثوية، وقد بدت "التار" من هذا الارتفاع جميلة فجأة. كانت تتحرك عندما أتحرك. وقد انحدر نهر "هونزا" أسفلي، ليحتضن قدميها المستديرتين كأنه خلخال.

استطعت أن أسمع كذلك صوت حك وفرك. استلقى أحدهم على ظهرها ثم سحب نفسه إلى الأعلى، وقفز شخص آخر أو تعثر. كنا خمسة فقط لكننا صنعنا ضجيجًا كافيًا لنظل ملحوظين من بعضنا بعضًا عن طريق الأذن أكثر من العين الثالثة.

لكن "التار" لم تحمل الأصوات لنا كما كنا نستقبلها. لا بدَّ من أن ساعة قد مرت منذ رحيلنا قبل أن أشعر أنني سمعت صوت "فرحانة" تسقط. كنت أصعد فوق صخرة ضخمة اهتزت تحت وزني، وعرفت أنني يجب أن أمر فوقها سريعًا وإلا ستسقط بي، لكنني تركتها تميل وتسقط بي!

وقفت ثانية، وبحثت عن المكان الذي ظننت أنني سمعت صوت "فرحانة" آتيًا منه، لكنني لم أعثر على أي شخص. كنت قد تركت حقيبة ظهري في المكان الذي سقطت فيه، فتتبعت خطواتي - حاملًا كشاف الرأس بيد - عائدًا إلى المكان، لكنني لم أعثر على الحقيبة. زحفت على ركبتيَّ وجرحت يدي الأخرى، فشعرت بجرحي ينزف. انتظرت، منصتًا لصوت النهر، محاولًا التقاط صوت أي خطوات. صار النهر يسري في زوايا أكثر مما يسري في منحنيات، كطفل يتخطى بضع درجات من السُلم في أثناء نزوله، لكن باستثناء صوت النهر، لم أسمع غير صوت سقوط الصخور المعتاد. ناديت:

- "فرحانة"؟

لكنني كنت قد فقدت حسي بالاتجاهات فلم أستطع تحديد الاتجاه الذي اعتقدت أنني سمعت صوتها آتيًا منه.

ناديتها ثانية:

- "فرحانة"؟

سمعت صوتًا باهتًا على بعد فتحركت أسرع، لكن من أين أتى؟ من على يميني! نعم، كنت متأكدًا من هذا. تسلقت بتهور، وشعرت بالصخور تدور من تحتي لتسقط في النهر الذي بدا قريبًا. عرفت أنني سأنزلق لو لم أهدئ من سرعتي، لكنني لم أفعل. عرفت أنني لو انزلقت فلن يسمعني أحد، وعرفت أنني لا أعرف إلى أي وجهة أنا ذاهب. عرفت أنني لم أعد متجهًا صوب "فرحانة"، فلا بدَّ من أنها قد تحركت من مكانها بالفعل، لكنني رغم كل هذا لم أقلل من سرعتي.

ما زلت أستطيع سماع شيء، لكنني لم أستطع تمييزه. ربما صوت أقدام، نمر؟ بدأ الخوف يتسلل داخلي. هناك شيء يتنفس بالقرب مني، وكنت متأكدًا من هذا، كما تأكدت من سماعي صوت خطواته، كما عرفت أنه لا يرتدي حذاءً في قدمه. أسرعت حتى صار النهر يجري من فوقي، لكن كيف حدث هذا؟ كيف أسمع صوت المياه الجارية فوق بالسماء هكذا، في حين أن تلك السماء تبتعد عني، كما أحاول أنا الآن الابتعاد عن صاحب تلك الأقدام المخملية والأنفاس الضارية التي سمعتها، شلال؟ لا، فلم تكن هناك شلالات مياه على هذا الجبل. بدأ صوت الخطوات الناعم يبهت، وبدأ صوت التنفس يتباطأ، ليحل محله صوت سمعته من قبل، لنهر لا يسري في منحنيات بقدر ما يسري في زوايا، وهنا رأيت جسدًا يتخطى بضع درجات من السُلم، طفلة صغيرة تتراجع إلى الخلف في عالم باللون البني المحمر المحترق الذي ينتمي إلى الصور الفوتوغرافية العتيقة. كانت تعطيني ظهرها، لكنها مالت برأسها إلى الجانب كما لو كانت تعرف أنني أراها. استطعت سماع صوت أقدام - كليك كليك كليك، والتي بدت لأذني كأرق صوت خطوات سمعته في حياتي - تبعها صوت رنين جرس مبهج.

توقفت في النهاية، وعندما توقفت، أدركت أنني كنت أتبع تلك الفتاة التي لم توجد على الإطلاق! لم يكن هناك شخص آخر، كنت أتخيل وجودها! لا يوجد رعاة ماشية في الجبل في هذا الوقت من الليل، كما لا توجد نمور جائعة، ولا بد من أن "فرحانة" لم تسقط من الأصل!

منعت "التار" صوت الخطوات التي تتابعني قبل أن تتسنى لي الفرصة للابتعاد. كان مرافقنا حاملًا حقيبة ظهري معه، وقال:

- لقد سقطت هذه منك.

- شكرًا لك.

جلست شاعرًا بخيبة الأمل، لكنها ممتزجة بشعور غريب بالراحة. خيبة أمل لأن الصوت لم يكن صوت "فرحانة"، ومرتاحًا لأنه لم يكن صوت شبح، كما شعرت بالإحباط كذلك لأنني افتقدت الصحبة البشرية، في حين كنت حتى تلك اللحظة أظن

أنني قد تمكنت من التأقلم مع كون جمال تلك الليلة وتحدي التسلق هما رفيقاي الوحيدين.

ملت أستند إلى جدار المنحدر، متسائلًا في داخلي عما كان سيحدث لو كنت قررت أن أتتبع الشبح طيلة الطريق إلى الهاوية التي تقع بالأمام. قال الرجل الذي رافقنا:

- ليس هذا مكانًا مناسبًا للتوقف.

لم أستطع سماع صوت "فرحانة". كيف سأتمكن إذًا من تنفيذ خطتي بمرافقتها على هذا الجبل؟ أوشكت أن أسأله أيعرف أين الباقين عندما سمعت الهدير. ارتمى كفاي على الحصى، وبدا كأن هذا هو مصدر الصوت، أسفل جلدي مباشرة. ضغطت أكثر، محاولًا الاستماع بيديَّ، كما لو كنت سأتمكن من خلال الضغط تحقيق موازنة جسدي وإيقاف الاهتزاز. الآن فقط لاحظت أن الجدار الذي استندت إليه كان مبتلًّا متداعيًا، وقد جلست منزعجًا عند الحافة. ازداد صوت الهدير، وقال الرجل:

- استدر ببطء دون أن تقف.

فعلت كما قال، مبقيًا يديَّ على الحصى، وقد ملت إلى الأمام وأنا أستدير نحوه، وفي هذه اللحظة سقط شعاع من البرق فوق حافة "التار"، لينير منطقة الجبل الموجود على الجانب الآخر من المضيق الذي كان بطول "التار" نفسه، لقد انقسم لمجم من الإبر بالبروز الخطرة نفسها. انطلقت صاعقة ثانية، فرأيت صخرة بحجم منزل تنحدر إلى أسفل جانب الجبل، ومع الصاعقة الثالثة تحطمت الصخرة إلى ثلاثة أجزاء وهي تنزلق على المنحدر. عندما اختفت أكبر الثلاث قطع حجمًا وسط الهوة، توقف الرعد الذي التمع في السماء ومعه توقف الهدير أسفل كفي.

لو كنت على الجهة الأخرى من النهر، كنت سأموت!

ترنحت غير قادر على رفع يديَّ عن الحصى، وغير قادر على التحرك مطلقًا. عرفت أنني لو ملت إلى الخلف ثانية سيتحطم الجدار لأسقط من الحافة! لكن من جهة أخرى، كان موقعي غريبًا للغاية. كنت أميل إلى الأمام بزاوية قرابة 40 درجة، وامتدت على يساري مساحة من الفراغ، ووقفت على يميني هيئة داكنة على جبل داكن تنتظر مني أن ألتفت. شعرت بدوار متزايد، لو لم أنسحب مبتعدًا سأسقط دون حتى أن يصاب ذلك الجدار بسوء.

قلت وأنا لا أزال أحاول التمسك بالحصى بأصابعي:

- لقد شعرت بالهدير بوضوح.

تنفسي صار عاليًا لدرجة أن أيًّا كان مَن يتسلق هذا الجبل فلا بدَّ من أنه سيسمعه! ربما كان ما سمعته باكرًا قبل رؤية طيف الفتاة هو صوت خطواتي الثقيلة!

قال مرافقي:

- نعتقد أحيانًا أننا نشعر بالجهة الأخرى. لن أقلق لو كنت مكانك، ففي أثناء الليل، نادرًا ما يسقط "التار".

سكت لحظة، قبل أن يكمل:

- لكن لو كنت مكانك، ما كنت وقفت هنا.

ثم سرعان ما ذاب وسط ظلام الليل.

كانت الساعة الثالثة والنصف صباحًا، وقد خيم الصمت على المكان بالكامل. صرت أتفقد ساعتي كثيرًا الآن. بدأت أشعر بالارتفاع. كنت أتوقف بين الحين والآخر لأظفر ببعض الماء، أو لمضغ بعض البسكويت. لم أعد أشعر برئتيَّ نظيفتين وإنما صارتا متورمتين، ومثلهما قدماي اللتان شعرت بهما قد صارتا ثقيلتين، ومثلهما حذائي، وحتى الحقيبة التي حملتها على ظهري بدت أثقل وزنًا. والأسوأ، أنني بدأت أحس بالشعور نفسه الذي راودني في "كاجان"، بل حتى في "جلجت"؛ الشعور بأنني مراقب. ربما مَن يراقبني جن "التار"، أو توأم "التار"، الذي ارتفع مهددًا خلفنا كظل. كنت بمفردي، لكنني لست كذلك. أخبرت نفسي أنه لا يوجد شيء باستثناء الهلع المتبقي من قرب السقوط في الهوة، فقد كنت موشكًا أن أموت. هذا هو كل شيء.

ضغطت على نفسي للاستمرار، مستعيدًا في ذاكرتي تلك اللحظة فوق الحافة. ابتعدت في النهاية بالرغم من أنني لا أستطيع تحديد كم من الوقت قضيته هناك بعدما رحل مرافقي. لم أتمكن من تفقد ساعتي لأنني لم أرغب في رفع يدي وقتها، بقيت حاليًّا بزاوية الأربعين درجة تلك، وبدأ جسدي يتصلب. ربما كان الخوف من ألا أتمكن من الحركة ثانية هو السبب في زحفي ببطء على مؤخرتي مبتعدًا، دفعة واحدة كل مرة، محاولًا النظر إلى أي شيء باستثناء حذائي. كانا على أرضية صلبة. ادفع!

لا يزالان على أرضية صلبة. عندما وقفت في النهاية، كان "التار" صامتًا، لا هدير، والنهر يسري في منحنيات من جديد، لكنني لم أتحرك. شعرت بنوبة من الخوف تهاجمني من فوق ذلك الجدار المتمايل، والآن صرت أحملها معي وأنا أتحرك إلى الأمام.

لم أكن متأكدًا أحدت عن الطريق أم لا، لكن ما أنا متأكد منه هو أنه لا يزال أمامي طريق طويل إلى أعلى. قال كل من "عرفان" و"ويس" سابقًا إن النهر الجليدي لا يصل إلى القمة. قالا إن المسافة تحتاج إلى نحو أربع أو خمس ساعات. ربما كان كل ما قطعته هو نصف المسافة فقط! حاولت ألا أشعر بالغضب تجاه "عرفان". المفترض أننا كنا سنبقى جميعًا على مرأى من الباقين، حتى لو تتبعنا الكشافات المعلقة بالسيقان. لماذا لم ينتبه لي إذًا؟

راودني قلق من نوع جديد، هل يفترض أن أكون أنا مَن يعتني به؟ وماذا عن الآخرين؟ هل "فرحانة" في أمان؟ كنت سأسمع صرخة. لم يتعرض أحد للخطر. فعلت ما قاومت فعله منذ ابتعدت عن النهر، فوجهت كشاف الرأس الذي أحمله نحوه، وهو يغطس آلاف الأمتار على أرضية الوادي. لا شيء يظهر - بالرغم من

أنني لم أعرف على وجه التحديد ما يمكن أن ينتظرني؛ انهيارات أرضية؟ لا، كانت "التار" وظلها هادئان.

شربت المزيد من المياه، كما فككت حقيبتي عن ظهري. كنت قد وضعت كاميرتي قبل الخروج، ومعها العدسة المقربة ذات مقاس الـ 300 مليمتر والتي أضافت إلى الوزن بضع جرامات، أكثر مما يتوجب بالنسبة إلى رجل يكون مصورًا في الصباح ورجلًا سعيدًا في المساء! قبل رحيلنا، قلت لنفسي إنني أرغب في التغيير، فهل لو صرت مصورًا في المساء، سأصبح رجلًا سعيدًا في الصباح؟ ولو صرت رجلًا سعيدًا في الصباح، هل سأجعل "فرحانة" أكثر سعادة؟ لهذا أخذت كاميرتي معي. كانت خطتي أن ألتقط بعض الصور للنهر الجليدي قبل مغازلة "فرحانة" بجواره، قبل النزول إلى فندقنا وهي بجواري.

ربما كانت الكاميرا هي ما جعلتني أشعر بأنني مراقب، كنت مدركًا وجودها في حقيبتي وفي صحبتي. كانت معي تلك الليلة في المقابر، قبل الرحيل عن "كاجان"، عندما شعرت بوجود عيون خلفي، وكما حدث في تلك الليلة، كان عقلي هو ما يقود قدميَّ. أعترف أن تسلق جبل ليس منحدرًا لكنه متدرج، يعتبر مناسبة جيدة ليستخدم الإنسان عقله، لكنني وثقت بغرائزي أكثر في الماضي - حتى لو خذلتني معظم الوقت - وقد أحببت كيف أرى العالم بشكل مختلف من دون كاميرتي في الليل. الآن، شعرت أنني مجبر على فعل شيء بها. أخرجتها، ثم أدخلتها ثانية.

وبينما كنت أعيد الكاميرا ثانية، لاحظت صندوقًا ملفوفًا في قماشة حمراء أسفل العدسة المقربة. لم أضعه هناك. لا بدَّ من أن هذا الصندوق كان سببًا في ثقل الوزن. ربما وضعه "عرفان" في هذا المكان، وقد عبأه ببعض السكاكر أو بعض الفاكهة، لنلتهمها عند وصولنا إلى النهر الجليدي.

واصلت التسلق، وبدأت أشعر بالحماس لكون هناك احتفال ما ينتظرنا عند نقطة لقائنا. لن أفتح الصندوق. سأدع "عرفان" يقرر متى نفتحه، ومع هذه الفكرة، شعرت بأنه بإمكاني أن أعود لأصبح نفسي من جديد. سعدت لأنني بصحبة مفاجأة تم اختياري لحملها، شعرت أنني قد صرت الرسول الصالح، وفي الوقت نفسه، عادت النجوم لتلتمع من جديد في متناول أناملي تقريبًا، وكان الليل صافيًا.

بدأ عقلي ينحرف من جديد، لكن هذه المرة لم تكن بسبب صوت خطوات مكتومة أو صوت رنين أجراس ماعز، وإنما سمعت هذه المرة صوت "فرحانة"، وقد رنَّ كنغمة أجمل من رنين الأجراس. كنا في حمامات "سوترو"، في ذلك اليوم من شهر مايو، في عيد ميلادها. رأيت وشاحها البرتقالي - أمامي على جبل "التار" - وهو يتدحرج عبر الروث الأخضر، وهي تسأل:

- مَن أجمل إذًا؟ الصحراء أم الجبال؟

لم أستطع معرفة كيفية عقد مقارنة بينهما من الأصل، كيف تقارن مكانًا بريًّا رأسيًّا مع أكثر الأماكن البرية العمودية مناعة في العالم. والآن ها أنا ذا، في عالم مظلم طولي يتحرك عندما أتحرك، بين أنياب نمت لها أسنان عندما حاولت المرور بينها،

دون أن يكون هناك مَن أستنجد به لو سقطت بين أكبر فكين، وهو الفك الموجود بالأسفل! أخبرتها أن التجربة كانت تملأني بالطاقة عن طريق إبعادي عن نفسي، كأنني أشاهد العالم من وراء كاميرا، لكن الآن الكاميرا معي، وأنا مَن اخترت أن أزيحها جانبًا.

- حسنًا، ماذا يجعلك أكثر سعادة؛ الصحراء، الجبال، أم زيارة تلك الحمامات البائسة معي؟

- أنا سعيد في أي مكان أكون فيه معك.

قريبًا سأصبح سعيدًا من جديد. قريبًا.

بعد نصف ساعة، وجدت أنني أسير وسط الطين، وبدأ تساقط أمطار خفيفة. اتسخت يداي من إخراج قدميَّ من الوحل، فمسحتهما ببنطالي الچينز. كانت الصخور مغطاة بالتراب، ولم أستطع العثور على طريق أسير فيه. سأضطر إلى السير بجوار الجبل بدلًا من التسلق، لكن أي جهة للجبل هي الأنسب؟ شعرت أنني تائه تمامًا. اتجهت إلى اليمين، ومددت يديَّ أمامي، أتحسس الظلال من حولي باحثًا عن سطح جاف أمسك به، لكن ما شعرت به - بشكل أكثر حدة هذه المرة - كان زوجًا من العيون.

عندما حاولت الالتفات اكتشفت مذعورًا أنني درت حول حافة دوران، عبر حفرة، تقود إلى حافة ثانية! لكنني هذه المرة لم أكن مستندًا إلى جدار متهاوٍ، وإنما وقفت فوقه! كنت في موقف أسوأ، فلم يكن بوسعي رؤيته حتى! لم ينر كشاف الرأس الطريق، فكانت قدماي بالكامل في الظلام، ومعنى تقدمي إلى الأمام هو سقوطي في الهوة، دون أن يراني أحد غير "التار" وصدى صوتها. ليس هناك غير أن أنسل إلى جهة اليسار في الطين من جديد، رافعًا قدمي حتى لا تعلق في الحفرة التي كنت محظوظًا لتفاديها دون أن أعرف وجودها. كان الأمر أسوأ بكثير من آخر مرة، فالأمطار تتساقط الآن لتجعل الأرض ملساء بالكامل، وهناك تلك الحفرة! بالإضافة إلى أن قدميَّ كانتا ثابتتين في مساحة صغيرة للغاية لدرجة أنني لم أستطع حتى التفكير في الجلوس أو محاولة الزحف على مؤخرتي! أنا مضطر إلى القفز؛ أنا مضطر إلى القفز وسط الظلام. حاولت أن أضغط على الهلع المتزايد بداخلي، والذي أطل برأسه مستكشفًا بضع إنشات إلى أسفل، لكنني وجدته يرتد إلى ضعف المسافة. على أي حال فالأسوأ قادم، فضوء كشافي بدأ يخبو، وطبعًا لم أحضر معي بطاريات احتياطية. من جديد أخذت ألعن "عرفان"، ثم بدأت ألعن نفسي لاعتمادي عليه.

لماذا استمررت في هذا؟ لماذا أوشكت مرتين أن أخطو نحو حتفي؟ الأمر يبدو كأنما هناك ما يدفعني لفعلها، لكنها ليست رغبتي!

رغبت في الصراخ: "هذه ليست قدميَّ!"، ثم أعتقد أنني فعلتها فعلًا! أعتقد أنني أخذت أصرخ بعض الوقت أنهما ليستا قدميَّ! لكن سرعان ما فكرت أن هذا أسوأ وقت للصراخ. يجب أن أنزل عن تلك الحافة، لا يمكنني الاستمرار في الوقوف هنا إلى الأبد كما جلست على الحصى من قبل. لا يتحمل موقفي أن أستسلم لأي

مشتتات، يجب أن أفكر بوضوح فيما سأفعله، ثم يجب أن أتوقف عن التفكير؛ يجب أن أتصرف.

توقف عن التفكير. توقف عن التفكير!

تنفست بعمق مرتين، ثم قفزت إلى اليسار، شعرت بالحفرة بأطراف أصابع قدمي، وقفزت. سقطت ووجهي إلى أسفل وسط الطين، لكنه كان طينًا وليس هواءً، أي إنني في أمان. سحبت حقيبتي عن كتفيَّ وسبحت إلى الداخل - لا يمكن أن أسمح لنفسي بالتفكير فيما نجوت منه للتو! يجب أن ينحصر تفكيري في أشياء صغيرة مثل أنني لا يمكن أن أدع كاميرتي تسقط هنا - سبحت بالداخل دون أن أتخلى عن كاميرتي، أو الصندوق، أو الكشاف، لكنني فوجئت بضوء كشاف موجه نحو وجهي. قال صاحبه:

- اقتربت!

كان صوت مرافقنا، وكان شديد الهدوء. سألته بصوت مرتجف:

- هل هناك طريق إلى أعلى من هنا؟

- نعم.

أجابني وهو يمد يده نحوي، ليسحبني بسهولة كأنني غصن صغير، بالرغم من أنني اعتقدت أن جسده أكثر هزالًا مني. تبعته إلى داخل بطن الجبل، مبتعدين عن ذراعها الممزقة المخادعة.

صارت الأمطار أثقل. كانت السترة الخاصة بي مزودة بقلنسوة، أما سترته هو لا، لكن لم يبدُ عليه أنه يبالي بالأمر. هذا شيء جيد للتركيز عليه؛ شيء جيد للغاية.

- ما اسمك؟

- "عسكروف".

- "عسكروف"؟

ضحكت.

- هل أنت من "كاجان"؟

لم يجبني. جربت حظي بسؤال آخر:

- ما هي تجارتك؟

- الأحجار الكريمة.

- حقًّا؟ وبمَ تقايضها؟

- أشياء عديدة.

- مثل ماذا؟

- السمن.

- سمن؟ ألا تصنعون ما يكفي هنا منه؟

ابتسم. كانت تلك أول مرة أراه يبتسم فيها، ولم يكن مشهدًا جميلًا. سألته:

- هل هناك أحجار كريمة أو سمن عند النهر الجليدي؟

اختفت ابتسامته. وفضلت مظهره من دونها.

- هل تسلقت هنا من قبل؟

- لم يعد باقيًا مسافة كبيرة؛ ستسمع.

ومن جديد اختفى. ناديت من خلفه:

- أسمع ماذا؟ وأين الباقين؟

لم أتوقع منه إجابة، وبالفعل لم تصدر عنه واحدة. لقد ساعدني مرتين، مرة عندما كنت تائهًا، ومرة عندما كنت في خطر؛ كان يراقبني.

بهت لون السماء، فبدت وكأنها تتقلب على جانبها، تاركة درجة أخف من اللون الأسود من خلفها. بدأت المنطقة البرية العمودية تبدو أقل مناعة، وفي الوقت نفسه تقريبًا، لفظ مصباحي أنفاسه الأخيرة بوميض خافت بدأ أشبه بضرطة صامتة. مزقت الشريط الخاص بالمصباح، فلم يعد معي غير مصباحي فقط. سمعت المزيد من الصخور تتساقط، لم يصدر عنها صوت التحطيم العالي نفسه الموحي بالهزيمة كالذي صدر عن الانهيار الأرضي لتوأم "التار"، لكنه كان هديرًا عاليًا بما يكفي، تبعه تيار من الصخور الأصغر حجمًا. أهو نمر أم مرافقنا؟ شبح أم "فرحانة"؟ كان هناك صوت صرير كذلك، فمثلما يفعل الليل، كانت الصخور تتقلب في أثناء نومها.

التهمت المزيد من البسكويت، وشربت القليل من الماء. يجب أن أحافظ على الكمية المتبقية. لم يعد باقيًا معي غير نصف الزجاجة تقريبًا. أخذت رشفة أخيرة قبل أن أغلق الزجاجة من جديد. عندما نظرت إلى أعلى رأيت ساقين تلمعان على علو عشرين قدمًا فوق رأسي؛ مثل الجبال، قائمة محظوراتي تصير أقل مناعة هي الأخرى. صرخت بصوتٍ عالٍ:

- "ويس"! أين الجميع بحق الجحيم؟!

تحمست للغاية لرؤيته لدرجة أنني كدت أنسى أخذ حقيبتي. سمعته يجيبني:

- أنا هنا. كدنا نصل.

- انتظر!

لكنه لم ينتظر. صرت وحيدًا من جديد! اللعنة على "عرفان"، و"ويس"! و"فرحانة" كذلك! ألم ترغب ولو مرة واحدة في تبادل كلمة على انفراد معي في أثناء تسلقنا؟

و"عسكروف" هذا، أين هو الآن؟ هل مل أخيرًا من متابعتي؟ مثلما فعل الجميع! لن أترك نفسي أسأل - ليس هنا، وليس الآن - لماذا كان يتابعني. ربما طلب منه "عرفان" أن يبحث عني. عرف "عرفان" أنني لن أتبع "ويس". "عرفان" الذي كنت أترك له بغباء تخطيط كل الجوانب العملية لكل رحلة. ربما كانت "فرحانة" محقة، فقد كنت أذعن له أكثر من اللازم. ربما كنت أستجدي محبته بطريقة خاطئة تمامًا. ربما تحتاج "فرحانة" إلى رؤيتي على الخط الأمامي، وليس محصورًا في الخلف هنا. ربما كانت ستسير بجواري، لو كنت مَن يقود المسيرة.

ضغطت على نفسي للاستمرار؛ لم يعد بوسعي أن أصبح في المقدمة الآن. كل ما أستطيع فعله هو الضغط على نفسي للاستمرار. ركزت على الدائرة الصغيرة التي ألقاها ضوء الكشاف عند قدميَّ. كان ذلك الضوء الشحيح هو كل ما كنت أحتاج إليه لإقناعي بالانضمام إلى إيقاع رحلتهم من جديد، وإزاحة كل أفكاري البائسة جانبًا. تمنيت لو تتحمل البطارية حتى تتحول السماء إلى اللون الرمادي، وربما حتى اللون الذهبي. حاولت حصر تفكيري في هذا. أيها الكشاف، لا تمت! أضئ وقتًا أطول قليلًا!

بدأت أرى ألوانًا داخل رأسي؛ أمواج رمادية كالتراب، قِمتها بلون الفحم، وأسفلها بلون الكريمة، وقد تأرجحت ألوان حوافها البالية في رقَّة ما بين أخف درجة من اللون الأصفر، إلى أكثر درجة براقة من اللون الزهري. بدا شديد الحيوية أمامي لدرجة أنني تساءلت أكان لدى شقيقتي شال من طراز الـ"دوباتا" بهذا التصميم، أو ربما ساري. ربما كان لأمي، أو لغريبة تخطو نازلة أرضية فضية لشارع جانبي تنيره مصابيح بيضاء، وقد انتفخ القماش من ورائها كأنه سحابة. لم أعرف لكم من الوقت استمرت الصورة في مخيلتي، لكن أخيرًا رفعت عينيَّ تجاه الضوء عند قدمي، لاحظت وجود لطخات من الثلج في كل مكان من حولي الآن، أكوام التمعت في الليل.

كان المنظر شديد الجمال لدرجة أنني ظننت أنني قد تعثرت في الأرضية الفضية التي ظهرت في خيالي. كنت بمنتصف واحة! كم شعرت بالعطش لحظتها! اغترفت بعضًا من الثلج بأصابعي، وكان طعمه مرًا ومألوفًا. سحبني إلى تلك الليلة التي أضاءها القمر في "كاجان"، والتي خيم عليها صمت الإغراء لدرجة ثقيلة، مثل الليلة الحالية، انحنيت على ضفاف نهر "كنهار" لأجمع الشذرات الفضية داخل لساني، واقتحم انعكاس ما سطح المياه. نظرت إلى أعلى في اللحظة نفسها. لم تكن هناك بومة، ولا قمر مستدير.

صارت السماء أفتح لونًا، لتصير رمادية موشَّاة بخيوط ذهبية. شكرت مصباحي، وأغلقته. تمددت بعض كريستالات الثلج مستيقظة، وخلدت أخريات إلى النوم. بالطبع كانت نجومًا تساقطت من السماء! نثرتهم يد جنية فوق تلك المنحدرات! رغبت في حشر نفسي بجانبهم، لأنغمس في طعمهم المر وكل ما يتعلق بهم.

بدأت أسير من جديد، وقد علق مذاق ذوبان الثلج في فمي، لكن المزيد من الثلج قابلني، في حين بدت السماء بلون أخف درجة من درجات الخوخ. بوسعي سماع

صوت الطيور الآن، صوت بعيد صغير، لكن كانت هناك إثارة لا يمكن ألا ألاحظها في الهواء، وشعرت بها تتزايد. لم يمر بي فجر باعث للبهجة مثل هذا. نظرت إلى قرص الشمس الذي ما زلت لا أستطيع رؤيته، لكن لا بدَّ من أنه يستطيع رؤيتي. كنت أرتجف وأتصبب عرقًا وبمفردي بالكامل، لكنني شعرت أنني أقل وحدة. ربما كنت أتخيل لكنني لم أبالِ. درت نحو الشمس، مرة بعد أخرى، وضحكت.

عندما توقفت عن الدوران، باعدتُ قدميَّ لكي أتمكن من استعادة توازني، وأنا لا أزال أضحك. وفي المقابل سمعت صوت أنين! لم يكن صوتًا بشريًّا، ولا بدا كصوت انهيار صخري، وإنما بدا كصوت أنين يأتي من مكان آخر. فكرت في البداية أنه صوت حوت، ثم فكرت أن "لكنني على جبل"، ثم كانت ثالث فكرة راودتني هي "حوت على جبل".

لم أسمع صوت حوت يغني من قبل، لكنني تخيلته مشابهًا لهذا الصوت الذي سمعته. اندفع داخل فراغ داكن من وزن لا يمكن تخيله، في حين تبحث الرئتان عن متسع للتنفس، وحُمِلتُ إلى أعلى وأعلى، حتى سمعت أول صوت للهواء في صورة شرخ. استمر الوحش في سحبي نحو نفسه، وبينما يتزايد صوت التهشم والرفع، سمعت نبرة مميزة لصوت الثلج، كأنما جثة قديمة تحاول التحرر من القبر الضخم الذي دفنت فيه. لقد وصلت عند النهر الجليدي.

كان الجزء الذي صادفني أولًا هو الجزء الكلاسيكي الأزرق العتيق من الأنهار القطبية الجليدية، وهو لون لم أره في "قراقرم" من قبل، لكنني كذلك لم أصل إلى هذا العلو هناك، ثم إنني استمررت في الارتفاع. تمدد أمامي بحر رمادي من الصخور وركام الحصى المتبقي من الأنهار الجليدية من الوادي الموجود بالأسفل، وكانت هناك كذلك مجموعة منها بلون أزرق أثيري، وأخرى باللون البنفسجي الرقيق. شعرت بعقلي متألقًا. لم أستطع أن أتذكر متى أخرجت كاميرتي، أو متى ضغطت على العدسة المقربة، لكن يبدو أنني فعلت. لم أكن أفكر في الصور التي التقطتها أصابعي، لكنني وثقت بيديَّ تمامًا.

وبينما استمر النهر الجليدي في التشقق، تحررت ذكرى.

سألت "عرفان"، وكنا وقتها في الصف الثامن، كيف يتمكن ضوء الشمس من التنقل عبر الجليد؟ وماذا يحدث لهذا الضوء؟ أعتقد أنني وقتها بلغت الثانية عشرة من العمر، وهو في الثالثة عشرة. كنا في فريق واحد أنا و"عرفان" في مختبر الفيزياء لمشاهدة تكون قوس قزح في المنشور الزجاجي، في حين أخذ مدرسنا يشرح أن الشمس لها ألوان مختلفة، وكل واحد منها له كم مختلف من الطاقة، فبينما يحمل اللونين البرتقالي والأحمر كمًّا قليلًا من الطاقة، يحمل كل من اللونين البنفسجي والأزرق كمًّا أكبر منها. قال "عرفان" إنه يشبه اللون الأزرق، وأنا اللون الأحمر. وافقته بسعادة. بجانبي، في كوب حراري عازل، طفا مكعب وحيد من الثلج. سألته عما سيحدث لو مر الضوء عبر الثلج بالطريقة نفسها، وهل سيكون الضوء الأزرق هو مَن يمر أولًا؟ أجابني بالإيجاب.

بالقرب من القمة، سحبتني كريستالات "التار" داخلها. اختفى الأحمر والأصفر، وتمدد الأزرق حول الثلج. عندما أدرت كاميرتي، رأيتهما، كان "عرفان" يقبِّل "فرحانة" على شفتيها!

أعتقد أنني التقطت صورتهما قبل أن أدرك ما أنا على وشك أن أحتفظ به.

كأنني أحتفظ بأمير وجنية داخل قطعة من الكريستال، وأحدهما يطبع أرق قبلة على شفتي الأخرى، وحركاته شديدة الرقة كأنما هو مولع بها.

كانت أعينهما مغلقة، ويستشعران بعضهما بعضًا من خلال طبقات الملابس - حتى إنه قبَّل أكمام سترتها الحمراء - وقد حمل وجهاهما تعبيرات متطابقة؛ مظهر مهيب، كما لو كانا يُحلِّقان على سجادة من الريش، وكم بديا متحدين في صعودهما! تحررا من تعجلهما، وخزيهما. لو كانا قد أبقيا هذا سرًّا حتى الآن، فها قد انكشفت كل أسرارهما، وبين أحضان هذا الاكتشاف، لم يعد لديهما ما يستوجب الخوف من افتضاح أمرهما. عرفت أنني لم أقبِّلها بتلك الطريقة منذ وقت طويل للغاية. للحظة قصيرة للغاية - وقبل أن يخطو غضبي مقتحمًا الموقف - عرفت مدى صدق تلك اللحظة. والتقطت كل تفصيلة فيها. أصدرت الكاميرا صوت "كليك" المميز لها، في حين لم يستطع عقلي أن يوقف اليد التي وثق بها بشدة. تجمع في تلك اللحظة كل ما افتقده عملي حتى الآن، وما كنت أتحرق شوقًا واستعدادًا لالتقاطه؛ الجاذبية، والجمال، والصدق، كان هذا بمنزلة معجزة.

ثم حل بعدها القبح. رأيت الصدع الموجود خلف "عرفان". رأيت ضوءًا بلون أزرق نيلي يتسلل من القمة، ودفقة من دوامة لازوردية تشبه زعنفة تحيط بالحواف الجليدية التي بدأت تذوب تحت أشعة الشمس، وعلى مسافة بدت الهوة الواسعة السوداء التي يمكن أن يقع فيها. من السهل أن ينزلق. لم أستطع رؤية العمق، فربما كان كل ما ستسببه هو جرح سطحي، لكن في الوقت نفسه سيكون من المستحيل سحبه من دون العتاد التي لم نحضرها معنا.

خطا عقلي داخل الموضوع وصفع يدي مبعدًا إياها. كيف أستطيع تصوير "عرفان" بتلك الطريقة؟ أي شياطين استحوذت عليَّ؟ تراجعت يدي إلى الوراء. شياطين جيدة. مهلًا، كل ما عليك فعله هو الصعود إلى أعلى ودفعه! كان مشغولًا بكمها فلن يتمكن من المقاومة. ربما كان أكثر ذكاءً، لكنه أصغر حجمًا، لو حاول الشجار معك، فستكسب المعركة، لكن أولًا اسحب نفسك بعيدًا عن تلك القبلة، لكن كيف؟ يد مَن ستساعد في ذلك؟

كاد جلدي يحترق من فرط الدفء المتصاعد بينهما، ولم أعد أستطيع التنفس بسهولة. استطعت الشعور بعزيمتي تضعف! لم أستطع منع نفسي من المشاهدة. ما هو الشيء المميز إلى هذا الحد في أكمامها؟ وماذا ينوي أن يفعل بعد ذلك؟ يجثو أمامها؟ يقبل حذاءها اللعين؟

وكأنه يجيب عليَّ، زمجر النهر الجليدي؛ شهوة عالية التردد، وتعذيب منخفض التردد. كل هذا الضغط على سطحه تحت ضوء الشمس! أليس من المفترض أن

يعني شروق الشمس حلول ساعة الأمل؟ موسم إبداع بعض القصائد أو ما شابه كما أسماه البعض؛ تبًّا للشعر.

بعد هذا سيطرت عليَّ الرغبة في الاختفاء. ذلك الشلال من الضوء الذي ينحدر نازلًا على جوانب القمة؛ أستطيع أن أنحدر معه. كان هو الطريقة الوحيدة لتحرير نفسي من التفكير، بعد أن عدت إلى التفكير ثانية. بديا صغيرين للغاية في اتحادهما شديد الوثوق؛ حبيبتي السابقة، وأقرب أصدقائي سابقًا. كل الخزي الذي رفض الاثنان حمله اتجه نحوي ليعيقني أحتاج إلى التخلص منه. أحتاج إلى أن أصبح شخصًا آخر. فقط لو حدث هذا سأتمكن من إخراج كل ما يدور في أعماقي من انهيارات وأثقال.

أخفيني! اعتصرت عينيَّ مغلقًا إياهما. وفعلت قدماي الباقي.

كان اليوم شديد الحرارة، وقد تركت حقيبتي من خلفي. لم أشعر بالحاجة إلى تتبع خطواتي. هناك نصف الزجاجة الممتلئة بالماء بداخلها. كنت متأكدًا من أنني لن أتمكن من النزول من دونها، لكنني بقيت في مكاني على الحافة، تاركًا إحساس العطش يغزو لساني. ربما كانت الحافة نفسها التي قابلتها في وقت مبكر من هذا الصباح، عندما أوشكت أن أسقط لألقى حتفي؛ ليت هذا حدث.

بدأت تتردد داخلي كل الأسئلة التي لا أتمكن من تركها معلقة. هل هي مرتهما الأولى؟ أم إنه كان معها كل تلك الليالي التي قضيناها بعيدًا عن فندقنا؟ هل يعود الموضوع إلى المرة التي سألني فيها على ضفاف البحيرة أكانت هي عشيقة "ويس" بالماضي؟ أم إن الموضوع بدأ قبل هذا، عندما كنا في "كراتشي"؟ لا، في الكوخ في "كاجان"، ثم في اليوم السابق لرحيلنا متجهين إلى "جلجت"؟ قال إنه يرغب في العودة إلى "كراتشي" من أجل - كيف وصف الموضوع وقتها؟ - أسباب شخصية. هل كان يحاول تحذيري؟ وماذا عن نظرة عدم الموافقة تلك التي ظهرت في الصباح التالي لرؤية البومة، وهو آخر يوم مارست فيه الحب مع "فرحانة"، هل كانت في الحقيقة نظرة غيرة؟ ألم يتغير أسلوبه معي من وقتها؟ وماذا عن "زليخة" المسكينة؟ لقد أتى هنا ليودعها، وفي خضم قيامه بتلك العملية سرق "فرحانة"؟

ستقتلني الأسئلة قبل أن يتمكن العطش مني. أي فارق سيصنعه هذا؟ ربما وجدت رجلًا أفضل لتعود معه، أو ربما رجل أفضل فقط بكل بساطة.

لم يعد بوسعي سماع صوتهما.

أيهما أسوأ، جريمة ترتكبها لأنك لا تنظر، أم جريمة ترتكبها لأنك نظرت؟ تلك التي حدثت بالخطأ، أم تلك التي خُطط لها؟ كانت كخطأ خُطِّط له. بدت أكثر كحادثة.

ماذا حدث بالضبط عندما اقتربت منهما؟ هل اقتربت منهما؟ لا أستطيع أن أتذكر.

أتذكر بعض الأشياء فقط، مثل التساؤل أكان لديَّ ما يكفي من قوة لدفعه، وقد سمعني - أم الأدق في الوصف أن أقول سمعتني؟ - النهر الجليدي. أتذكر شعاعًا من الشمس يداعب حافة "التار"، وبدأ العرق يتصبب منها، ثم عدلت من وضع ظهرها وهي تتكمش حول نفسها، ثم تمددت، ثم تقدمت. كانا أحمقين للوقوف على تلك

الحافة، وحتى مع هذا، لم أكن لأفكر في إمكانية تحرك جسديهما الملتحمين اللذين انزلقا نحو الحافة، في حين تأرجحت "التار" قليلًا، إلى الأمام والخلف، كأنما تهز كتفيها هزة لا تكاد تبين، وأخذ "عرفان" ينزلق إلى الوراء، وعندما فتحت "فرحانة" عينيها أخيرًا، كان هو يمد يده نحوها حين رآني! مد يده نحو الكم الأحمر الذي كان يقبله منذ لحظات، عندما كان الجليد متماسكًا، والشمس لا تزال وراء قمة "التار". ورأيتها وهي تسحب كمها بعيدًا. لم ترغب في السقوط معه. لن تمسك بجسد غارق آخر. تركته، وانطلقت بالصراخ طلبًا للمساعدة!

كان بوسعي رؤية الموقف من مكاني على الجانب الآخر من الهوة، فقد ظهر ظل "التار"، وقد نزعت الشمس عنه ما ارتداه من أقنعة، والتي رقد أسفلها لسان خشن من الحصى يمتد بين صفين من الأسنان الحادة. كانت هناك أسطورة عن ذلك الجبل، لكنني لم أستطع تذكرها. لا بدَّ من أنها تتضمن شيطانًا وموتًا. زحفت الرياح صاعدة وربما لم يكن الجلوس هنا فكرة جيدة. انحنيت إلى الخلف وتركت الرياح العاتية تمزق لحمي. بدا المنظر شديد البهاء. العينان مغلقتان، وبدت الوجنتان شديدتي الاحمرار، في حين أخذت الأيدي تحوم هنا وهناك. أكثر بهاءً مما كنا، عندما نظرت أنا وهي إلى الماء عند حافة بحيرة "سيف الملوك".

قذفت له حقيبتي، وقلت:

- هناك مياه باقية.

لم يتحرك. لاحظت كذلك صندوقين من السكاكر، وليس الصندوق الذي رأيته في قاع الحقيبة فقط، وكلاهما كانا ملفوفين في قطعة قماش حمراء. قررت أن آخذ واحدًا منهما لنفسي في آخر لحظة، ثم قذفت الحقيبة. أمسكها. انتظرت منه أن ينظر إلى أعلى، وعندما فعلها أخيرًا، سعدت لأن الضوء طمس وجهه.

رآني كل من "ويس" و"فرحانة" وأنا أرحل. وجه "ويس" كلامه لي:

- هل ستُحضِر مَن يساعدنا؟ أعتقد أن ساقه كُسرت.

هل كان يسألني؟ أليس هو الرجل الشجاع الذي صارع الدببة القطبية بيديه العاريتين؟ أليس بوسعه أن يسحب رجلًا أسمر من فوق حافة زلقة؟

على الأقل كان لطيفًا بما فيه الكفاية ليعلن نفسه هذه المرة. تنحنح مرافقنا، وانتظر بعض الوقت، قبل أن ينزل إلى أسفل الحافة حيث كنت أختبئ من العالم، صرت أفتح عينيَّ بصعوبة. همست:

- أريد بعض الماء.

لم يقل شيئًا. سألت:

- هل معك ماء؟

هز رأسه.

- لماذا أتيت إلى هذا الجبل؟ لا توجد عليه أحجار كريمة أو سمن.

لم أهتم حقًا بما ستكون إجابته. كل أسئلتي صارت متعبة. أجابني بابتسامة شنيعة ذكرتني بشخص آخر قابلته في الماضي. سألته:

- أتريد سترتي؟

- لماذا؟

- أنت تتبعني.

لم يكن سؤالًا، بل كان أقرب ليكون إذعانًا. ضحك؛ سألته:

- لماذا تتبعني؟

كان يهز رأسه ويبتسم ويضحك في الوقت نفسه. أخذت عيناي تتسعان وأنا أسمع إجابته:

- لكي أقتلك!

- وفيمَ ستتاجر إذًا؟

استمر في الضحك.

رأيت أنه لم يكن سيئًا المظهر للغاية. كانت أسنانه - وهي الجزء الذي أتحدث معه - هي أسوأ جزء في جسده، لكن التعبير الذي بدا في عينيه البنيتين الواسعتين كان لطيفًا بشكل فاجأني. ربما كان هذا نابعًا من رغبتي في رؤيته بتلك الطريقة، لكنني في النهاية رأيته بتلك الطريقة فعلًا. اعتلى رأسه شعر بدا كالأسلاك بلون الدقيق، وقد تهدل حتى لامس كتفيه. كان لونه أغمق من لون شعر "كيران" ومعتنى به بشكل أفضل. في الواقع، كان هو ككل معتنٍ بنفسه أكثر، فملابسه جيدة، تكونت من سترة رمادية من النسيج الخشن، ربما من صوف "الياك"، بنقوش بيضاء حول الأزرار. لم تكن النقوش ملطخة بالطين كما كان من المفترض أن تكون، نظرًا إلى الظروف من حولنا. ارتدى قلادة من الأحجار - الكريمة غالبًا - السوداء كبيرة الحجم، لكنني لم أرَ أي أحجار كريمة بهذا اللون من قبل، وحزام من الجلد الطبيعي، وحذاءين ثقيلين. كنت أظنه لا يرتدي حذاءً، فقد كان شديد الهدوء في أثناء سيره، لكن هذا الرجل لم يمشِ فوق الأنهار الجليدية على كعب قدميه على أي حال.

لم ألحظ البندقية التي استقرت عند قدميه إلا الآن، وأنا أنظر نحو الحذاء، لو كان قد حملها حول كتفيه كما يفترض بالحراس المسلحين أن يفعلوا، فلربما كنت لاحظتها، بالرغم من أن المكان كان مظلمًا، فكيف سألاحظ؟ لكنها لم تكن من النوعية التي تُحمَل حول الكتف، كما لم تكن هي السلاح الآلي نفسه الذي رأيته معه في أول مرة قابلناه فيها في طريقنا إلى "جلجت". كانت مسدسًا، ومن داخل جيب سترته الداخلي أخرج زجاجة، ولأنني كنت أشعر بالعطش فقد مددت يدي نحوها وقدمها بعطف، لكن رائحتها أكسبت فمي مذاقًا مرًّا. هززت رأسي. إذًا فهذا هو الإفطار.

أشار من خلفه قائلًا:

- أتعرف أنهم يدخلون في البيات الشتوي الآن، مثل الثدييات والطيور. عندما تشرق الشمس ويذوب الجليد يتقلبون، ويكون الثلج الرفيع هو صاحب أعلى صوت.

إذًا سنتكلم أولًا.

بدا ما قاله كأنما هو مثل شعبي صيني من نوع ما. "الثلج الرفيع ينقلب بأعلى صوت؟" نعم؟ وكيف يتقلب الرجل على الحافة إذًا؟ وأي رجل هو مَن سيفعلها؟ الرجل الذي نزل هنا باختياره، أم الرجل الآخر على الحافة الأخرى بالأعلى، والذي انزلق؟ قررت ألا أسأل.

شرب من زجاجته، فتبللت شفتيه، وبدا جلده بلون أسمر مصفر كحزامه. رفع إصبعه إلى هاتين الشفتين النديتين هامسًا:

- اصمت!

بالرغم من أنه هو مَن كان يتحدث من الأصل.

- اسمع.

ومن حلقه ارتفع صوت قرقرة، بدا كصوت محرك بالرغم من أنه من الواضح أنه يشير إلى المياه.

- الصوت الخافت هو صوت المياه وهي تتدفق بعدما عثرت على فتحة جديدة.

لم أسمع أي أصوات منخفضة، ولا مياه متدفقة. لم أسمع غير صوته.

- هناك دائمًا فتحات في الجبال. دائمًا يمكنك العثور عليها لو تعلمت كيف تتبع الصوت، وهي مهارة ستناسبك عندما ترحل عن هنا.

ابتسم، وكان قد نطق بكلمة "ستناسبك" بالإنجليزية. كيف ستناسبني؟ وأرحل إلى أين؟ كان يتحدث باللغة الأردية دون أدنى أثر للهجة جنوبية فيها، وقد ألقى وسطها العديد من الكلمات الإنجليزية، وصار حديثه يفتقر إلى المنطق.

- هل تعرف؟ من الصعب الاستمرار.

أومأت برأسي.

- ماذا تعرف؟

بدا صوته قابلًا للكسر كالزجاجة الموجودة في يده. ترددت، فسألني:

- أيمكنك العزف على الفلوت؟

هززت رأسي نافيًا، فسألني من جديد:

- ولا الطبل؟

هززت رأسي نافيًا من جديد. فقال:

- ما فائدتك إذًا؟

أومأت برأسي، فأخرج من جيب آخر آلة فلوت مزدوجة مزينة بشرائط متعددة الألوان وقد تضفرت بشكل معقد، وهو يأمرني:

- خذ، جرب العزف على هذه.

حملتها بين يديَّ، أمرني:

- اعزف.

عندما حملتها بين شفتيَّ شعرت بمذاق الطلاء الذي عليها. لم يخرج منها أي صوت، فضحك الرجل. وبدأ يعزف.

استمعت من جديد إلى اللحن الذي سمعته يوم أُخِذ جسد "كيران" إلى السهول بالأسفل. تذكرت كم امتلأت وجنتا أخيها بقبلات الهواء، وكم ملأ وداعه شواطئ البحيرة، وكم غنى كل من "ملكة الجبال" و"الجبل العاري" الأغنية قديمًا. لم أستطع تذكر رؤية هذا الرجل يومها. كلما ظهرت تفاصيل ترنيمته الحزينة أكثر فأكثر، اندفعت متقلبة عبر الوادي كجيشين توأمين من السحب الداكنة، كل واحد منهما يرمي الآخر ببرق في صدره، وقد ردت الجبال من جانبها برعد أقوى.

عندما توقف، لم أبكِ، لكنني بدأت أشعر بالخوف. جفف شفتي كل أنبوب برفق بطرف قميصه.

- عزفتها يوم ولادتها، هل كنت تعرف هذا؟

لم تكن النظرة التي ارتسمت في عينيه لطيفة على الإطلاق. بصق على الخشب وبدأ يلمعه. أخذ يهمهم:

- ست سنوات مقابل ست نجوم من "جيرجيتي". وعدت بهذا، وأنا أحافظ على وعودي.

شعرت بنفسي أنسل خلسة مبتعدًا عنه، بالرغم من أنه لم يكن متاحًا أمامي مساحة كبيرة لفعل هذا، لم يكن هناك إما الهاوية، وإما أن أبقى بجانبه.

ومن دون أن يرفع عينيه من على الفلوت قال:

- كنت نازلًا من السهوب عندما حدث ما حدث. من كازاخستان؛ أتعرفها؟

ترددت.

- إنها ترقد فوق مائتي بليون برميل من النفط؛ أتعرف هذا؟

أومأت برأسي.

- لكن أمريكا رفضت مد أنابيب النفط عبر إيران!

كان يضحك بعنف الآن، وهو يفك أزرار سترته بعدما وضع الفلوت على حجره، وقد بدأت الأحجار السوداء عند حلقه تلتمع بالعرق.

- لكن الآخرين يوافقون!

لم يكن لديَّ مكان أذهب إليه.

- تشحن الصين النفط الخام طيلة المسافة حتى إيران من باكستان؛ ثم إلى الصين مرة أخرى. الصين، وكازاخستان، وباكستان، وإيران. "طريق الحرير الجديد"؛ أتعرف هذا؟

أومأت برأسي.

- لكنهم رغم كل هذا لا يزالون فقراء، ولهذا يحتاج أصدقائي إلى مساعدتي.

مد إصبعه إلى الزجاجة ذات الملصق الأحمر. بدأ يشرب ما فيها ببطء.

- هل هم أصدقائي؟

ظللت ساكنًا مكاني، متمنيًا ألا ينتبه إلى كوني أحاول العثور على مهرب. كيف وصف الموضوع؟ "هناك دائمًا فتحات في الجبال". أهذا مثل شعبي صيني آخر؟ استمر في حديثه:

- كما هو الحال دائمًا. لكننا الآن نركض على الأرض والمياه.

نظر إلى نقطة أبعد من رأسي. أضاف وهو لا يزال ينظر بشوق نحو الهوة:

- نركض دائمًا.

لم أستطع التحدث. التقط الكاميرا الخاصة بي مكملًا:

- لقد رأيت كاميرات كثيرة أفضل من هذه.

أخذ يهزها بين يديه بخشونة، ثم يقلبها يمينًا ويسارًا بحثًا عن زر التشغيل. تنحنحت وأنا أشير نحو الزر بعيني وذقني.

ضغط على الزر، فنظرت بعيدًا. ستظهر له الصور الأخيرة أولًا. ظهرت صور النهر الجليدي، وهي ما تسببت في زيادة حجم ابتسامته بلا شك. على الأرجح، لقد رآهم أولًا، فقد كان يسبقني دائمًا طيلة الطريق، أي إنه كان بوسعه أن يقتلني في أي لحظة في طريقنا إلى أعلى، لكنه انتظر، راغبًا في جعلي أرى، وقد أسعده هذا. بدأ يتخطى بضع صور إلى الخلف. بدأت أراهما داخل عقلي من جديد. المفترض أن أشعر بالإهانة لاهتمامه الواضح برؤية "فرحانة" عارية، لكنني - بالرغم من أنني أخذت أخبر نفسي أن الموضوع لا يهمني - شعرت بالإهانة لحظتها أكثر مما شعرت بها في ذلك اليوم على الشاطئ، ولا بدَّ من أن صور الشاطئ هي تلك التي يحدق إليها، وقد أوشكت عيناه الواسعتان أن تنفجر، وكنتُ بالكاد متضايقًا من الأصل. عندما صارت الصور المعروضة أمامه، صور جسدها، أخذ يتمهل في تقليبها. لم أقاطعه.

في النهاية، وضع الكاميرا أرضًا على الحصى دون جرابها، ومن دون أن يغلقها. جاهدت الرغبة داخلي لسحبها لتكون بأمان.

مرت لحظات. كانت الشمس عالية، أكثر علوًّا من الرجل الموجود بجواري. بعد هنيهة جرؤت على سؤاله بصوت خافت:

- هل سنرحل؟

حك ذقنه، وانتفضت بضع شعيرات منها ذات لون بني ذهبي مع الريح التي خدشت حلقي لدرجة الجفاف. شعرت بإغراء لتناول مشروبه.

- والدة "مريم"؛ كانت مرافقة.

شعرت بالإثارة لسماع اسمها يُنطَق أمامي.

- نعم؟

- مرافقة للمرضى؛ عندما تهيم روح بعيدًا، تعيدها هي.

استمررت في النظر إليه بأكبر قدر ممكن من الاهتمام. استطرد:

- أنت مريض، لكنني لم آتِ هنا للمساعدة.

كان مثيرًا للفضول كيف صارت الرغبة في الحياة تتأجج بداخلي بشدة الآن، بعدما كنت قد فقدتها بالكامل في وقت مبكر من الصباح. ابتسم مكملًا:

- ظننت أنني سأقتلك!

لم أفقد الإرادة على الإطلاق. كانت بمنزلة صديق منبوذ رحبت به عند عودته مرة أخرى، وبينما رفعت الإرادة رأسها لتملأ المكان الذي أفسحته لها، تساءلت عن "عرفان". ألا يزال واعيًا؟ تمنى جزء كبير يتمدد بداخلي أن يكون واعيًا، بالرغم من رغبتي في إخماد صوت ذلك الجزء. لا يمكن أن يكون كل من "ويس" و"فرحانة" قد وصلا إلى من يساعدهما بعد، بالرغم من احتمالية اقترابهما من هذا. لا، لا يمكنني الاعتماد على هذا. ربما يمر الكثير من الوقت قبل أن يتمكنا من العودة ثانية إلى المكان نفسه.

وبحلول هذا الوقت، ماذا سيحدث لي؟

لقد قال: "ظننت أنني سأقتلك!"

كان يتأمل وجهي بعينين صغيرتين حمراوين. سألني:

- أتفهمني؟

بدت عليه الحيرة. قررت استغلال الفرصة وسألته:

- هل قتلت أحدًا من قبل؟

بدا كأنما يتذكر شيئًا، قبل أن يعبس وجهه، كأنما يطرد ذلك الخاطر بعيدًا.

- أنت رجل مريض، رجل في طريقه إلى الموت، وأنا لم أقتل رجلًا مقبلًا على الموت أبدًا.

حسنًا، هذا مبشر.

- تعتبر حياة المنفى أسوأ من الموت. ستعيش وحيدًا إلى الأبد.

أهذا مثل شعبي آخر؟

ابتسم، وقد بدت عليه السعادة فجأة. كانت مختلفة عن ابتسامته، لدرجة أنه كاد يبدو وسيمًا.

- كنت سأعطيك الخيار، لكن المحتضرين لا خيار لهم، ولا أظن هناك فائدة منه.

قال آخر جزء وهو يشير إلى بندقيته، قبل أن يلتقطها، ثم أطلق النار على الهوة.

ضغطت بيديَّ على أذنيَّ. لو كانت الجبال أجابت من قبل على صوت الفلوت الخاص به بسلسلة من أصداء الصوت الراعدة، فقد رددت الآن وديان وتجاويف جمجمتي صوت الطلقة داخلها. كانت هناك المئات من الأسطح داخلي لتصطدم بها، مهما أغلقت أذنيَّ بكل قوتي.

مر وقت طويل للغاية قبل أن أجد الشجاعة الكافية لنزع يديَّ، وعندما فعلت تقيأت! لم يكن في معدتي إلا بعض البسكويت وبعض المياه، ولم يقرر هذان الاستسلام والصعود بسهولة. سقط خيط من الرغوة على ذقني وقميصي، وعلى نعله.

عرض عليَّ الزجاجة من جديد، فكدت أتقيأ مرة أخرى.

- لم يكن سيتوجب عليَّ فعل ما هو أكثر من التأكد من عدم العثور عليك أبدًا!

لا تزال تلك الابتسامة تتلاعب على شفتيه. رقدت الزجاجة بجوار مسدسه، وغطاؤها لا يزال عليها.

رددت له الابتسامة. ما زلت أشعر بالحمض المتصاعد بداخلي. سألني:

- أتعرف ما هو الاختيار الذي أمامك؟

هززت رأسي نفيًا فأجاب:

- إما أن تذهب خارج منطقة الجبال كلها ولا تعود أبدًا، وإما تموت!

أشار من جديد إلى بندقيته. اعتصرت أذني ثانية وأجبت:

- لا!

هز كتفيه متظاهرًا بأنه تفاجأ، كما لو كنت قد رفضت بعض الحلوى.

أغلقت عينيَّ وفكرت بسرعة. سيكون مناسبًا لي للغاية أن أرحل، فالابتعاد لمسافة كبيرة سيكون بمنزلة حارس عظيم لحياتي! ربما أتوقف سريعًا لأمر بأمي في "كراتشي"، قبل أن أعود إلى "سان فرانسيسكو"، أو ربما إلى الصحراء. سأنسى كل ما حدث. سأعيش غير مثقل لا بإحساس الخزي، ولا إحساس الاشتياق، لا يقيدني الماضي، ولا تكبلني الذاكرة. كلما تقدمت بالمستقبل، قلَّت سيطرة الماضي عليَّ. جازفت ثانية بسؤاله:

- هل سنرحل؟

أطلق النار من جديد وقال:

- قلت لا، لا خيار.

هذه المرة حنيت رأسي كالجبان، لكنَّ عينيَّ على أي حال بقيتا مفتوحتين. كنت أسمع وأشاهد، حتى لو كان معنى هذا أن يزيد الشرخ الموجود في الوادي الضيق الموجود أسفل المنحدر طنين أذني، وجعل كل صوت يخبو كما لو كنت أغوص إلى قاع البحيرة. امتلأت أذناي بالمياه، لكن لا بدَّ من أن أستمر بالاستماع؛ انتظرت. بدا الرجل كأنه في حالة من النشوة؛ ينظر إليَّ، ثم تتجه نظراته الحالمة إلى الهاوية من خلفنا. ينظر إلى الزجاجة، ثم ينظر إلى الفلوت. ينظر إلى الكاميرا، ثم ينظر إلى الهوة من جديد. يكرر كلماته، كما لو كان يؤدي أغنية.

- ليس جنوبًا ولا عبر البحار، من حيثما أتيت. لا، لا، لا؛ أقصد الشمال.

قلت:

- الشمال؟

وبدا صوتي بعيدًا للغاية، وتابعت:

- هذا هو الشمال.

ضحك ثانية وقال:

- شمال الصين.

ثم بدأ يوضح الخطوط العريضة - بتفاصيل مبهمة ملتوية كالمتاهات، وبطريقة غنائه الغريبة نفسها - للمصير الذي خططه لي؛ متنكر في شكل تاجر سأصل عند بلدة "تاشكرغان" التي تقع عند الحدود، حيث سأمر بـ"قشغر"، وبعد هذا سأمر بنقطة تفتيش، وسيكون المرور بنجاح أصعب جزء في المهمة، حيث تنخفض الحرارة إلى أقل من صفر، فهي تثير قلق الرجال الذين سيخبرونني بأن أنزع كل ملابسي وسط كل هذا البرد، وسأُعطَى اسمًا جديدًا، وملابس مختلفة، ارتداها آخر رجل أتى إلى هذا الممر، وهناك رجل يمر في الجانب الآخر، ربما دون أصابع يدين أو قدمين، وطبعًا دون أن تُغسَل الملابس التي امتلأت بكائنات تمكنت من النجاة من البرد ويجدر بي أن أتعلم منهم، وبعد هذا ربما أكون مستعدًّا لـ"طريق الحرير" بشكل لائق، والذي سآخذه من "قشغر" إلى "يرقند" متتبعًا خطوات أولئك الذين فعلوا الشيء نفسه آلاف السنين، وكان هذا الطريق يدعى وقتها "طريق الأشباح" لأنه مسكون، لهذا سأحتاج إلى أن أجهز نفسي. سأتابع الأشباح عن طريق أذني، وأحاول تعلم أيها يجب أن أتفاداه وأيها يجب أن أجلس بجانبه عند النيران نرتشف بعض الشاي المختلط ببذور نبات "الدُّخن"، ونحكي قصصًا عن الخيول الطائرة التي تغيرت أسماؤها كألوان الهالة التي يحلقون من خلالها؛ "بيجاسوس"، و"تولبار"، و"جنون خار". سأسمعهم يذهبون، وستنطفئ النيران، وسرعان ما ستختفي الأرواح، وإذا لم أنزعج بسهولة، فسأعثر في النهاية على طريقي إلى

بحيرة "كاراكول"، أكثر البحيرات سوادًا، والتي أحاطت بها جبال "بامير"، وستنعكس الجبال على سطح البحيرة، بقممها ووديانها التي انقضت على أعماق "كاراكول" كأجنحة زرقاء في أعماق مظلمة، وسيزورني من جديد الجن والجنيات، والبوم والأقمار المكتملة. سأنحني قرب ضفاف البحيرة لأغسل قدميَّ المتعبتين، وأشرب من ثلوج الأنهار الجليدية الذائبة وأرى نفسي وعشيقتي، بالرغم من أنه لم يقل هذا، بل قال إن الاثنين اللذين يقصدهما هما "الملكة" و"العاري"، واللذين سينعكسان كما لو على بحيرة أخرى، ارتكبت فيها جريمة لا يمكن ذكرها، ويتوجب على أحدهم أن يدفع الثمن.

كان يرمش بعينيه كسحلية تحت الشمس.

تشققت شفتاي؛ استطعت الشعور بالطعم الدافئ المريح للملح والدم. هز رأسه نفيًا وقال:

- لا، لا تسير الأمور هكذا.

لم أعرف أكنت أفضل أن ينظر إليَّ أم ينظر من خلالي.

- فأنت تدفع الثمن بالفعل، أكنت تعرف هذا؟

عادت الابتسامة إلى وجهه، واستطرد:

- لكن أخبرني، هل كنت ستختار تلك الحياة لو تركت لك الخيار؟

حياة من النفي والوحدة بدلًا من الموت؟ حياة من دون حب، مع صخور قاحلة فقط؟ في وقت من الأوقات كنت أعتقد نفسي راغبًا في العزلة والبقاء مجهولًا، لكنني ارتجفت الآن. إنه محق؛ أنا مريض.

أجبته:

- المحتضرون ليس أمامهم خيار.

ضحك.

- أنت تنصت لي جيدًا.

- أنت تتحدث جيدًا.

ابتسم، ثم حلَّ صمت طويل من جديد، ثم قال:

- أيمكنك سماع هذا؟

من ورائي، ظننت أنني لا أزال أسمع زحف النهر الجليدي، وقلت له هذا، فأجابني:

- لا، لا، ليس النهر الجليدي، وإنما صديقك. إنه يتحرك.

قررت أن أقف، ببطء، ببطء شديد.

فتح عينيه، قال:

- شيء واحد أخير.

فجلست من جديد على الأرض، واستطرد:

- لو تركتك ترحل، يجب أن تمنحني شيئًا في المقابل.

مقابل ماذا، مقابل عقد جديد على حياة موحشة؟

أخذ كاميرتي معقبًا:

- سآخذ هذه، وهناك شيء آخر أخير.

انتظرت. كان ينظر إلى جانبي، إلى الصندوق الملفوف بقطعة القماش الحمراء.

- أين حقيبتك؟

- أعطيتها له.

أجبته مشيرًا نحو الاتجاه الذي حوصر فيه "عرفان". بدا عليه الانزعاج وهو يسألني:

- هل أخرجت شيئًا منها؟

- فقط هذه.

أجبته مشيرًا إلى الكاميرا الموجودة بين يديه، ثم أشرت نحو الصندوق مكملًا:

- وهذا.

نظر بعيدًا، وهو لا يزال بادي الاضطراب. لم أظن هذا من عادته. سألته:

- لماذا؟

بدأ يضحك مجيبًا:

- لم أكن أنتوي أبدًا أن أقتلك ببندقية.

وبينما كنت أنزل الجبل، سمعت صوت الفلوت الذي يعزفه، كأنه يودعني! شعرت بالنغمات تدعمني في البداية، ثم صارت تزعجني. شعرت بها تتأرجح من حولي، كمجموعة من الخيوط الحريرية المتشابكة تتطاير حول خصري. كانت تتأرجح أمامي في الغبار وأنا أسير؛ كأنما تقول الوداع! الوداع!

أخذت الأنغام تقفز وتركل، تتخطى وتسخر من هذا الجن الغيور، هذا المرشد الطائش. "ولا حتى الأميرة الجنية تستحق أن تقع من أجلها!" كان هذا ما قاله "عرفان" من قبل، عند حافة نهر جليدي مختلف في طريقنا إلى البحيرة. كاد كلانا ينزلق؛ تعلقت بسترته لأستند إليه، وتركني هو أفعل هذا.

أكانت لديه ساق مكسورة فقط؟ هل لا يزال حيًّا من الأساس؟ بدأ شعور من الحنين ينتابني.

لم يرحني الهبوط، حتى عندما تلاشى اللحن وتزايد ثقل وملل أفكاري تحت وطأة التعب الجسدي الذي هاجمني. الآن صار الوقت رفيقي الأكثر ثباتًا، فهو الذي سأعيش فيه حكايتي من جديد، وساقاي تشقان طريقهما بصعوبة على قمم "التار" المتعرجة، صانعة مسافة تفصل بيني وبين كل مَن أحببته، مسافة لا تحمي على الإطلاق. استمررت في طريقي، مستمعًا لصوت الصخور المتساقطة والذكريات المحيطة بي؛ مفكرًا أنني يجب أن أعود لأساعد "عرفان"، فهو في خطر. في المرة السابقة، سبحت مبتعدًا عن "كيران" و"فرحانة". والآن، كنت أركض مبتعدًا عن "عرفان". وربما ستتركه "فرحانة" و"ويس" أيضًا. أين هي المساعدة إذًا؟ لقد تُخُلِّي عنه، وصار في خطر شديد، في حين أنني، على الصعيد الآخر، خرجت من دائرة الخطر.

لم ألتفت إلى الخلف.

قبل أن أصل إلى أول بلدة، رأيت قوافل من الشاحنات تتجه نحو سفح الجبل. توقفوا عندما رؤوني.

- هذا هو!

- لا، ليس هو.

- إذًا ما هذا الذي يمسكه؟

خرج رجلان من الشاحنة وأخبراني أن أضع الصندوق الذي أمسكه أرضًا، وبينما أخذ أحدهما ينظر إلى الصندوق، فتشني الآخر بخشونة. ضحك ساخرًا عندما رأى بطاقتي الشخصية، واستولى على الأربعين دولارًا التي كانت في حافظتي. سألاني عما يوجد داخل الصندوق، فقلت إنه بعض الطعام، فسألاني أين كنت، حاولت أن أشرح لهما أنني كنت مع مجموعة من الأصدقاء، لكن لساني انحشر في مكان ما من مؤخرة حلقي. لا بدَّ من أن "عرفان" كان سيتمكن من الشرح بشكل أفضل، بالإضافة إلى أنهما ليسا أصدقائي. قال رجل آخر من مكانه داخل شاحنة أخرى:

- نحن نضيع وقتنا.

- هذا الرجل يكذب!

- إلى أين تتجه؟

ناداه الباقين من داخل الشاحنة:

- أسرع!

أجبت مرتجفًا:

- لا، لا أعرف.

- ماذا قلت؟

- ليس هو مَن نبحث عنه.

وبينما يتجادلون، ظهرت سيارة "هوندا" سوداء وسيارة "هيونداي" بيضاء بالقرب من المكان. هتف رجل من داخل السيارة "الهوندا":

- فتِّشاه.

ثم توقفت السيارة بالجوار.

قال رجل من داخل السيارة "الهيونداي":

- كونوا حريصين، فربما كان يحمل متفجرات.

هل سمعتهم جيدًا؟ بدأت أضحك.

وعلى الفور أحاطوا بي. كانوا ستة، ووجه كل واحد منهم بندقيته نحو رأسي، وبدأ أحدهم يصرخ:

- ما هذا؟

دفع رأسي إلى أسفل مرغمًا إياي على الانحناء إلى الأمام، محدقًا نحو الصندوق الملفوف بالقماشة الحمراء. لن يلمسوه. قلت بصوت مرتجف:

- هذا حلوى.

قال رجل نحيف بوجه متجهم للرجل الضخم الذي كانت يداه تضغطان على رأسي:

- إنه هو.

ركل الرجل الضخم مؤخرة ركبتي فوقعت على الأرض، وصرخ الرجل النحيف:

- انهض!

وعندما نهضت، صفعني على مؤخرة رأسي وأخبرني أن أركع، وهنا حدث أغرب شيء. فبينما ابتعدت الشاحنات والسيارات، سار الرجال الستة إلى الخلف بخطوات واسعة، وبنادقهم لا تزال مصوبة نحو رأسي؛ ساروا بخطوات ثابتة ثقيلة مبتعدين عني، كما لو كانوا برؤيتهم لي كانوا قد رأوا لغمًا غير منفجر. شعرت بالاندهاش من خطأهم. إنهم خائفين مني؛ خائفين من الرجل الضعيف الذي يبقى دائمًا في الخلف، الذي يركض مبتعدًا عند الخطر.

كان الرجل النحيف هو أبطأ واحد في التحرك، والذي ظهر على وجهه خطين متوازيين يمتدان من عظام وجنته حتى أنفه، كما كان هناك خطين آخرين على الجهة الأخرى من وجهه، يمتدان من أنفه وحتى فكه. تأملت تلك الخطوط، وهو ينبح بأوامره للباقين:

- عندما نصل عند تلك الشجرة التي رُبطت قطعة قماش في فروعها..

أشار إلى ما خلفه، فرفعت رأسي للنظر نحو نهاية الطريق تجاه ما بدا لي كهيئة شجرة، وهو يكمل كلامه:

- ستفتح الصندوق، هل تفهم؟

أومأت برأسي إيجابًا، لكنني في الواقع لم أرَ خلفه إلا مساحة بنية من الأرض اللامعة. كان يومًا حارًّا، وقد تزايد ثقل الغبار في الأفق. أين ذهب الجميع؟ لم أكن وحيدًا بالكامل بتلك الطريقة منذ بداية رحلتنا، حتى عندما رغبت في البقاء وحيدًا. كانت العيون تتابعني حيثما كنت. أين هم إذًا مَن يتهمونني؟ ألا يرغبون في رؤيتي الآن؟

- هل تفهم؟

سمعت الرجل يكرر جملته وهو ينسحب نحو السماء الحارقة.

استمررت في الإيماء برأسي، حتى عندما أدركت أنه لم يعد ينظر نحوي.

- هل تفهم؟

نعم. نعم. وافقه عنقي، ومثله عمودي الفقري؛ كل جزء من جسدي كان ينحني في موافقة. كنت أرتجف من قمة رأسي وحتى أخمص قدمي. نعم! أفهم! استغرق مني الأمر بعض الوقت، لأرى أنني لم أكن أومئ برأسي فقط وإنما أبكي أيضًا.

- افتحه الآن!

ربما كان لديهم مكبر صوت، وإلا فكيف سيتمكن الصوت من الوصول إليَّ من تلك المسافة البعيدة بهذا الوضوح؟ حدقت إلى السماء، ثم القماشة الحمراء.

- افتحه الآن!

كانت هناك قنبلة وهم يريدون مني فتحها. لم تكن حلوى أو فاكهة، ولم يضع "عرفان" الصندوق مكانه، فكيف وصل الصندوق إلى هذا المكان إذًا؟ أتذكر أنني أوقعت حقيبتي عندما تهت في الجبل أول مرة، ووقتها عثر مرافقنا عليَّ وعلى الحقيبة، وأعادها إليَّ!

وقبل أن نفترق، سألني أين الصندوق الثاني؛ كان مع "عرفان".

تذكرت التمر المقدس، ذلك الذي أُهدِي لرجال الشرطة في "مانسيرا" و"بالاكوت"؛ تلك التمور التي وُضِعت داخل صندوق أخفيت فيه قنبلة صغيرة يدوية الصنع، وثُبِّت زر إطلاقها في الغطاء. كان الانفجار كافيًا لقتل كل الموجودين داخل نطاقه، وبالتأكيد سأكون في نطاق الانفجار المفترض لو حدث، والرجال الآخرون بعيدين عنه.

حدقت إلى قطعة القماش الحمراء دون أن ألمسها. لم تكن هناك صورة تمر في أي مكان أمامي. تخيلت الصناديق الأخرى وهي مغلفة بورق ذهبي لامع ملفوف بدقة حول الحواف. تخيلت الورق وهو يتجعد عند أقل لمسة، بالرغم من أن لمسة مَن فتحوه لم تكن رقيقة بالتأكيد. تخيلت صورة التمر الضخم المليء بالعصارة وهو على الغطاء اللامع، ربما بجانب بعض المكسرات، لكن هذه مجرد قطعة قماش حمراء.

كانت "فرحانة" مع "عرفان".

سمعت صوت طلقة، أعقبتها صيحة:

- افتح الصندوق حالًا أيها القذر!

بالتأكيد لن تأتي القنبلة في كل مرة متنكرة في صورة تمر مقدس. ربما تأتي في صورة أي شيء، حتى الحلوى والفاكهة!

تقدم الرجل النحيف نحوي، صارخًا أنه سيطلق النار عليَّ أولًا قبل أن أفتح الصندوق؛ وقد أصابني هذا بالارتباك. ظننتهم يريدون مني أن أفتحه، وقبل أن أفهم، ضرب مؤخرة بندقيته في وجنتي! سمعت صوت تكسير، قبل أن أسقط على جانب الطريق. انضمَّ إليه رجلان آخران، وهنا فقط لاحظت أن أيهم لم يكن مرتديًا الملابس الرسمية، وقد شتتني هذا كذلك.

ضربة عنيفة! هذه المرة كانت الضربة موجهة إلى معدتي. القبضة التي رأيتها تبتعد عنها كانت ضخمة كثمرة الشمام. تقيأت دماءً على حذائه، لم يعد بوسعي الرؤية جيدًا.

- سأقولها لك للمرة الأخيرة. عندما نصل إلى تلك الشجرة اللعينة..

رفع ذقني وحركها يمينًا ويسارًا، فصرخت وشعرت بجانبي وجهي يتموجان كالزيت تحت أصابعه.

- عندما نصل إلى هناك، ستفتح الصندوق. هل فهمت هذه المرة أيها القذر؟ يا ابن العاهرة؟

بدؤوا يتراجعون إلى الوراء من جديد.

- والآن، افتحه!

سمعت صوتي يخرج من حلقي بحشرجة مخيفة:

- لا! أرجوك! لا!

لكن لم أسمع أي إجابة.

"دعوني أبتعد، مثلكم. انظروا إلى الصندوق، إنه مجرد صندوق بريء المظهر. دعوه يرقد هناك. ادفنوه لو أردتم ولن يعرف أحد بوجوده. لن أتفوه بحرف عن الموضوع. أعدكم، أعدكم بحياتي!".

اعتدلت بأقصى ما بوسعي لأعود إلى وضع الركوع من جديد. ركعت أمام أولئك الرجال الذين صاروا آمنين بجانب شجرة لا أراها. أخذ عقلي يهدر، واستسلم جسدي بالكامل. استمررت في الركوع، بالرغم من رغبتي في تمزيقهم بأسناني. أردت أن أشكرهم أيضًا لإبقائهم على حياتي في حال قرروا الإبقاء عليها، بدافع من الطيبة الباقية داخل قلوبهم. رغبت في ركلهم!

استمررت في الركوع. أردت أن أسكت الجزء الموجود بداخلي الذي يسأل عن السبب الذي يجعلنا نضطر إلى تحمل من لا نطيقهم. لماذا؟ لماذا نرضى بتلك

الحياة؟ كيف يمكننا احترام أنفسنا بعد هذا؟ كيف سأتمكن من النهوض من جديد؟

بدأت أتحشرج ثانية.

- اسمعوني أرجوكم! اتركوني أعيش!

مجرد حشرجات.

خطر لي أنه ربما من الأفضل أن أموت. بوسعي أن أفتح الصندوق ببساطة. لا داعي للمزيد من الإهانة. يمكنني أن أنهي كل هذا الآن. ذكرت نفسي بأنني رغبت في إنهاء كل شيء من قبل، عند النهر الجليدي، قبل أن يذكرني مرافقنا أنني لا زلت أرغب في الحياة.

التقطت الصندوق، كان خفيفًا؛ خفيفًا للغاية! أليس من المفترض أن تكون القنابل أثقل من هذا؟ ماذا يمكن أن يكون موجودًا فيه أيضًا؟ كرز؟ أحذية صغيرة؟ ببطء شديد، بدأت أفك العقدة التي ربطت أركان القماشة الأربع معًا. بدت كأنها لفافة تحتوي على بعض أرغفة "الشباتي" الساخنة.

أصبح الصندوق من دون غلاف الآن. كان صغيرًا ولونه أبيض، ولم أشم منه رائحة "شباتي" وهذا كان جيدًا، لأنني لم أشعر بالجوع.

لمست غطاء الصندوق.

حاولت أن أدعو في سري لكنني لم أتمكن، فقد شعرت في تلك اللحظة تحديدًا بالغضب تجاه الله!

من جديد، توسلت إليهم من أجل المحافظة على حياتي.

- أتوسل إليكم، سأفعل أي شيء تريدونه!

ومن جديد كرهت نفسي، وبعد ما بدا لي كوقت طويل للغاية، تلقيت إجابة في صورة لكمة نحو أسناني! استلقيت على جانبي متكورًا وسط التراب، واستمررت في تلقي الركلات.

لم أعرف كم مر من الوقت، قبل أن ألاحظ أن الشمس بدأت تجفف الدماء الموجودة في فمي ولم يكن هذا شعورًا مريحًا. بدا غريبًا كيف يمكن عزل الشعور بالألم - حتى ولو كانت كل قطعة من جسدي تؤلمني - وجعله شيئًا منفصلًا، ومنحه الاهتمام والعناية الخاصين به. حاولت أن أرطب الأجزاء التي جفت عليها الدماء ببصقة من فمي، لكن تحريك شفتيَّ تسبب في تمزيق القشرة التي تكونت عند أطراف الجرح. استمررت في المحاولة. يجب أن أتمكن من ترطيب شفتيَّ دون تحريكها؛ بوسعي فعل هذا.

كان هناك أمامي حقل كشعلة من النيران، لو أن هذا مجرد وهم، فهو لم يكن مشهدًا بغيضًا. بدت النيران على مسافة كوهج برتقالي دافئ، وقد التمعت بمنتصفه مجموعة من الحبوب بلون وردي. الفوضى في مكان آخر، بعيدًا عن ذلك الوهج

البرتقالي، ولا أحد سيزعجني وأنا أركز كل رغبتي في العناية بذلك المكان الصغير من الأرض المضطربة، وهو طرف فمي.

قبع صندوق أبيض صغير على بعد بوصات معدودة من أنفي. ما زلت منصبًّا بكامل تركيزي على شفتي. صنعت فقاعة ضئيلة للغاية لكن الشمس سحبتها بعيدًا، صنعت واحدة أخرى. كنت أواجه صعوبة في إبقاء عينيَّ مفتوحتين، ومع ذلك كان بوسعي أن أفتحها فتحة ضيقة للغاية، ومنها استطعت النظر إلى العالم، واستطعت مواجهة الصندوق.

سحبت الصندوق نحوي، كان جانبه هو المواجه لي. من جديد لمست غطاءه الذي لم يكن مغلقًا بلسان ولا حتى بقطعة من اللاصق، سيكون من السهل فتحه إذن. اعتصرت عينيَّ مغلقًا إياهما. شعرت بالألم، فأرخيت عضلات عيني وعددت حتى عشرة. الوداع. عددت حتى عشرين، ثم عددت حتى مائة. الوداع. مائتان. نزعت الغطاء!

كانت عيناي مغلقتين. عددت حتى ثلاثمائة. لم أمت! تمزقت شفتاي وأنا أصرخ:

- أسرعوا! أسرعوا!

من جديد مر الوقت. بدأت أفكر من جديد ضد رغبتي. لماذا لم تعمل القنبلة؟ هل هي جهاز من نوع مختلف؟ أي نوع من الأجهزة هي؟ ما هو سبب قلة معلوماتي عن موضوع مثل هذا؟ لماذا كنت تحت رحمة مَن يعذبونني بسبب معرفتي القليلة هذه، بينما هناك مَن يعرفون أقل مني حتى؟

- أسرعوا! أسرعوا أيها الملاعين الجبناء! أسرعوا!

لم أكن أتوسل من أجل حياتي، وإنما من أجل موت مضمون أكثر. بدا هذا منطقيًّا. لقد وعدوني بموت سريع، سأفتح الغطاء وأتمزق إلى أشلاء ولن أشعر بشيء. هذا منطقي، لكن بدلًا من ذلك، فالموت الذي ينتظرني على بعد بوصتين، اتضح أنه من نوع غير معروف. هذا ليس منطقيًّا على الإطلاق؛ كان بمنزلة خيانة.

- لقد وعدتموني أيها القذرون! نفذوا وعدكم اللعين!

مَن يمكن أن يفعل شيئًا كهذا؟ مَن يمكن أن يكذب على رجل محكوم عليه بالموت؟ مَن يمكن أن يفعل شيئًا كهذا؟

ماذا كان سيحدث لو أن الانفجار حدث وأنا أركل وأرفص؟ أهكذا أريد أن أموت؟ تخيلت التعبير الذي سيرتسم على وجهي وقتها! تخيلت عينيَّ وقد اعتصرتهما مغلقًا إياهما، وفمي مفتوح على اتساعه وينزف. يا له من منظر شنيع! لا، أفضل أن أذهب بكرامتي. أفضل أن أغلق فمي في وقار. أفضل أن أذهب ويداي مضمومتان، عيناي مغلقتان، وشفتاي مرتخيتان. لا يمكن أن يرفضني هذا المصير. هذا تحت سلطتي. بوسعي أن أنهي حياتي بحبس أنفاسي. سيحتاج الأمر إلى وقت أكثر من القنبلة، لكن ربما يفيد. سحبت أضلعي إلى أعلى حتى ذقني، فارتفع صراخهم لكنني لم أصرخ، وإنما حبست صرخاتي داخل فمي. سمعت صيحة:

- انظر بداخله! انهض وانظر بداخله!

هل أصابني الصمم أم أصابهم التعب؟ كانت صيحة مرتجفة، فرفعت رأسي عن الأرض، وأنا لا أزال أحبس أنفاسي، لكن لم أستطع النظر إلى ما بداخل الصندوق. رفعته عن الأرض.

هناك أساور، وقلادة، ومعهم ما بدا كسنتين لبنيتين بنهاية بنية. اندفع الهواء خارجًا من فمي فشعرت بالاختناق، ثم فقدت الوعي.

لا أتذكر بوضوح ما حدث بعد هذا، لا بدَّ من أن الرجال اقتربوا بأنفسهم ليروا الغموض الذي كشفت عنه الستار. عندما استعدت وعيي، كانت الجواهر محطمة ومرمية في كل مكان من حولي، كنت مدركًا - بالرغم مما أنا عليه من ضعف - أن المياه موجودة في مكان ما. فكرت في وضع بعض الثلوج الذائبة فوق شفتيَّ. فكرت في تتبع هجرة رعاة الأبقار والماعز الذين تحملوني كثيرًا، وربما عاملوني بلطف أكثر مما أستحق، فدعوني على شاي مُعدٍّ على الحطب. رأيت على قمة تل مغطاة بالحشائش لمحة من ظل له قرنان أطول من قدميَّ؛ أهو حيوان "ياك"؟ أم شيطان؟ لمحت كذلك لطخة حمراء، وبينما أدقق النظر لمحت ضفيرة شعر داكنة تنثر ضوء الشمس أمام عينيَّ.

"لقد قفزت قبلك في المياه. رأيت ضفيرتها وهي ترتطم بالماء"، ثم بدأت أرى المزيد، الطريقة التي تقطب بها وهي تفك تشابك شعرها بالمساء. كانت تقطيبة مختلفة تمامًا عن تلك التي ارتسمت على وجهها في القارب بذلك اليوم، ثم رأيت "كيران" تسقط في المياه بالقرب مني، وأنا أشاهد ببساطة.

انطلقت "فرحانة" بالصراخ: "أمسك بها!" قبل أن تسقط إلى الوراء في ركن القارب المتأرجح، لترتطم قدمها اليسرى بذراعي. سمعت صوت - صليل أساور، كسر عظام - وأنا أشاهد فقط. سمعت صوت طرطشة المياه و"فرحانة" تقفز من جهتها بالمركب حتى تتمكن من السباحة سريعًا، لتتمكن من إنقاذ "كيران" التي تغرق في ناحيتي. سمعت صوت خشخشة، و"فرحانة" تُسحب نحو جُب مظلم من الرواسب الطينية التي كانت "كيران" تشدها نحوها، لكن الآن، على تلك التلة المغطاة بالحشائش، وبعدما حطم الرجال محتويات الصندوق بوقت طويل وتركوني بعد ركلة وداع، الآن فقط حاولت الركض نحو الصورة التي تمثلت أمامي - أخيرًا قفزت من القارب، وكان بوسعي رؤية نفسي وأنا أفعلها - لكنني لم أعرف ما نتج عنها.

في النهاية، لا بدَّ من أنني سقطت قرب كوخ أحدهم. ربما لم يكن بعيدًا عن الجبال، وربما كان بعيدًا للغاية، فلم أكن أعرف أين أنا. نمت هناك وقتًا طويلًا، واستيقظت لأجد نفسي مغطى بالضمادات، وبجواري حساء خفيف جدًّا من المشمش. وهذه المرة، قبلت الهدية. سأضطر إلى اعتبار نفسي مستحقًّا كرم ضيافة الأغراب من جديد بطريقة ما، لكن الهدية لم تناسبني هذه المرة، أتذكر أنني تقيأت عدة مرات، حتى أتى يوم ما توقف فيه القيء.

أتذكر كذلك سماع صوت الراديو الذي لم أكن أحلم حينما سمعته. تعثرت بمكان بعيد عن القلعة كثيرًا، وقد انتبه أحدهم لي، وقدموا لي بعض المياه والمساعدة، لكنني لم أقبل المساعدة - حتى سقطت أمام ذلك الكوخ - في جزء من الوادي بدا أقل شبهًا بالبلدة وأكثر شبهًا بمساحة منقطة مكونة من كوخ أو اثنين. أتذكر أنني توقفت في ركن كوخ منهم، يحيط بي الصابون، والدقيق، وقطة، وتاجر يدير مؤشر الراديو حتى سكنت الضوضاء الإستاتيكية الخارجة منه. تساءلت أكنت قد وصلت إلى "كراتشي"، أو كان كل ما حدث لم يحدث! لأنها القصة نفسها، على الأقل في البداية.

"انفجرت قنبلة في فندق هذا الصباح، لتقتل غريبًا وسبعة باكستانيين.."

تركت الكوخ، وهُرِعتُ عائدًا إلى الداخل حينما سمعت هذا: "قالت التقارير إن المتفجرات حُملت داخل صندوق مثل بعض القنابل الأخرى التي فُجِّرت هذا الصيف. وكان المفجر من بين القتلى! أوضح الشهود أنه قد وصل إلى "جلجت" منذ عدة أيام، بساق مكسورة. لم تعلن أي جماعة مسؤوليتها عن الهجوم، وكان هناك العديد من الأطفال في الفندق وقت الانفجار الذي تسبب في مقتل ستة أشخاص، من بينهم أمريكي، بالإضافة إلى وجود ثلاثة رجال شرطة، وثلاث نساء، وطفلين من بين الجرحى. ماتت طفلة من جراحها في أثناء نقلها إلى المستشفى، وقد أُخطِرت عائلة الأمريكي المتوفى".

كانت المرأة التي قدمت لي الحساء ذات عينين خضراوين، وقد عقصت شعرها على شكل ضفيرة لفتها حول وجهها البيضاوي. أرادت أن تطعمني بعض الكشك، ولحم الحمل، واللوز والكرز. أبقت الماعز في حظيرة الماشية، وأخذت تغزل خيطًا من الصوف شديد الرقة لدرجة أن بوسعه الدخول عبر فتحة الأذن. كانت عيون أطفالها صافية كالسماء، وبوسع زوجها أن يشفي دون كلمات. كان لا بدَّ من أن أسأل مما يعالجني، في حين انطلقت ابنته بالضحك وهي تجيب:

- من النزيف، وعظامك المكسورة، والديدان.

وأضافت أنني يجب أن أشرب من منقوع زهور "أروشا" لطرد الديدان عن طريق مفاجأتهم، ولوقف النزيف والتورم. كان أكثر علاج تذوقته في حياتي مرارة، وقد جعلتني رائحته أرى الأشياء المسطحة بعدد كبير من السيقان.

ساعدني صبي عدة مرات في الذهاب إلى الحفرة الموجودة قرب حظيرة الماشية. لم يكن بوسعي الاحتفاظ بشيء داخل معدتي، ولا حتى المياه. أخبرت نفسي، لقد تمكن "عرفان" من نزول الجبل دون أن تتعدى خسائره كسر ساقه. وصل حيًّا، وعلى الأرجح كان سيظل حيًّا لو لم ألقِ له بحقيبتي، لكن ربما كنت أنا من سيفتح الصندوق وقتها!

رائحة حظيرة الماشية كانت كريهة!

مَن هو الأمريكي المذكور؟ لو كانت امرأة لكانوا قد ذكروا هذا. طبعًا كانت "فرحانة" في طريقها إلى الديار لوالدها، لكن معنى هذا أن "ويس" هو مَن - كيف

أستطيع قولها! - مات. كيف أستطيع توقع شيء شنيع كهذا؟

حدث الانفجار في "جلجت"، وهذا ما يعني أنهم كانوا في طريقهم إلى الجنوب - دون البحث عني أولًا - تخليت عنه، وهو تخلى عني، لكنني على الأقل لم أحاول سرقة حبيبته "زليخة"، لو كان قد بحث عني، هل كنت سأود رؤيته؟

عندما فتح الصندوق، هل كانت "فرحانة" معه؟ هل نظرا في حقيبتي ولاحظا الصندوق وضحكا وهما يجلسان معًا لمشاركة أيًّا كان ما يتوقعان العثور عليه بالداخل؟

- لا بدَّ من أنهم سيذكرون لو أنها كانت امرأة، أليس كذلك؟

سألت الصبي، وقف وانتظر حتى انتهيت قبل أن يحملني عائدًا إلى الكوخ، للمرأة ذات العيون الخضراء والرجل الذي يشفي دون كلمات.

ربما مرت أيام، أو أسابيع حتى - فلم أطلب منهم أن يخبروني بالوقت - قبل أن أستعيد الشعور بحدود وجهي من جديد. كل ما كان بوسعي فعله هو أخذ نفس ضئيل، أو رشفة قليلة من الحساء.

سألت الفتاة التي أخبرتني من قبل عن زهور "أروشا" عن الطريق إلى أقرب محطة حافلات، أو لو كانت تعرف حتى سائقًا يمكنه أخذي جنوبًا إلى الطريق السريع في سيارته "الچيب"، أو لو كانت تعرف أي شخص على الإطلاق، أي روح طيبة تقبل أن تأخذني إلى الديار. ابتسمت في دفء، ربما تخللته بعض الشفقة، ثم استدعت أخاها الذي كان الصبي الذي حملني إلى حظيرة الماشية طيلة أسابيع غالبًا. بدا التعبير نفسه على وجه الأخ، باستثناء أنه ربما تخلله بعض الخوف. نادى الصبي على والده الذي كان لديه يدان طويلتان نحيلتان باردتان، لكنهما لم تصلا إلى درجة برودة جبهتي! هز رأسه، فافترضت أنه يقصد أنني لا أحتاج إلى المزيد من العلاج، أكثر مما بوسع أصابعه أن تقدم على الأرجح. نادى زوجته التي دخلت الحجرة تشع رائحة تشبه رائحة الفحم والزيوت الحلوة. قدمت لي بعض الجبن، قائلة إنه جيد للروح. أخذت قطعة صغيرة، وأعدت السؤال الذي سألته لأطفالها وزوجها، لكن بدا أن العائلة كلها تتفادى هذا السؤال، وعند إصراري، ومع تقبلي المزيد من الجبن الذي تحمله، قررت أخيرًا أن تجيبني:

- منزلك؟ أتريد أن تؤخذ إلى منزلك؟ لا يعود المرء إلى منزله إلا مرة واحدة، وهي بعد الموت.

أدرت ظهري لها، وكان لا يزال بوسعي شم رائحة الفحم والزيوت التي تفوح منها، على الأرجح كانت رائحة زيت لوز. أخبرتني أنني يجب أن أرقد ساكنًا حتى أشعر أنني قوي بما فيه الكفاية لـ... وهنا ترددت المرأة... للعودة إلى المنزل؟ هكذا فكرت أنا. لا، فلن تتمكن من قول هذا الآن، لأن معنى حدوث هذا هو أنني سأموت.

ظلت واقفة مكانها، في سكون كالأبدية. وعوضًا عن استكمال جملتها، ألقت عليَّ مثلًا شعبيًّا آخر بدا أرقّ لأذني، ولن أنساه، بالرغم من أنني ربما لن أستخدمه في الوقت الحالي:

- حاذر من الضيف الذي لا يأكل!

سمعت "عرفان" يقول هذا المثل ذات مرة، على ضفاف بحيرة، بعدما التهمنا ثمار الكمثرى بعد العسل. بعدما رحلت "فرحانة" مع الفتاة. لم يخطر لي لحظتها أن أسأله عن معناه، لكنني سألت مضيفتي الآن، فشرحت لي أنه يشير إلى الناس الذين لا يؤدون الأشياء من أعماق قلبهم، أو ما هو أسوأ، مثل تجاهل رغبة قلوبهم تمامًا. قالت السيدة بصوتها الناعم الرقيق إن قلب الإنسان ضيف عليه، ويجب أن يهتم بتغذيته والترحيب به.

إذًا، فهل هذا ما قرر "عرفان" فعله؟ تغذية ضيفه؟

استلقيت مكاني محني الظهر على السرير - مدركًا بالكاد أن هذا هو غالبًا الفراش الوحيد الذي يملكونه - وقد أعطيت ظهري للمرأة التي تصاعدت منها رائحة زيت اللوز.

واجهت النافذة التي استطعت رؤية شجرة مشمش من خلالها، وقد أخذ عصفور "نقشارة الشجر" يتقافز بين ثمار الفاكهة، وقد أخذ حلقه الأصفر الرقيق يهتز عندما تتحدث المرأة، ويتوقف عندما تتوقف هي.

- القلب ضيف..

استمرت في تكرارها بصوت ثابت رقراق كسطح البحيرة. واستطردت:

- وهو يستحق أفضل غرفة في المنزل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

النهاية

حان الوقت لوضع الأوراق أرضًا.

حان الوقت لوضع أوراق الصنوبر الطازجة على أرضية نظيفة وفراش أنعم من معظم الأشياء، باستثناء الريش أو اللحم. كان لحمها متورد اللون كثمار الخوخ، واعتادت الطفلة أن تريح رأسها ذا الشعر المجعد البني الكثيف عليها عندما تشعر بالتعب من جمع الأوراق والفروع. لا بدَّ من ترتيب الغطاء جيدًا لإبقاء البيت جافًّا، هكذا شرحت "مريم"، بالرغم من عدم حاجتها إلى هذا.

جمعت الفتاة البالغة الرابعة من العمر كل المواد بخفة دون أن يُطلب منها، وأحضرتها إلى والدتها، في حين أحضر ابنها الشموع. سيرحل هذا العام. لم يكن وهج الشموع محسوسًا للغاية - فقد كانت الرياح شديدة هنا عند حافة البحيرة، كما تساقطت الأمطار - لكنه قال إنها أفضل من مصابيح الزيت الصغيرة، فأشعلوا الشموع الطويلة ذات الخيوط التي تصدر أزيزًا مع كل تغير للجو، وضحكت هي حينما كانت بمفردها، لأن ابنها سيضطر إلى قطع فتيل الشمع وإعادة الشعلات إلى الحياة ببعض الرقة والكثير من الكبرياء.

شاهدت "مريم" طفليها الباقِيين، "يونس" و"جومانة". كانا يحملان الشموع في الخارج وسط الظلام، بعدما أمَّنت الخيام.

احتاجوا إلى وقت أطول من المعتاد ليصلوا إلى الجبال هذا العام. تحركوا كلهم ببطء بعد الزلزال، وبجانب هذا اضطروا إلى تغيير طريقهم. أقاموا مخيمهم في العام الماضي عند قدم النهر الجليدي، في حقول البطاطس التي نضجت بسرعة تحت دثار بطانية من الروث الدافئ الذي تركته الماشية، لكن خلال الأمطار الموسمية، جُرِّفت الحقول. حدث هذا أكثر من مرة سابقًا، لكنه لم يحدث بتلك الشدة، وفي عقلها استطاعت سماع الطريقة التي زمجر بها النهر الجليدي. فعلها وكل الضغط محبوس بداخله، فجعل العالم يشعر بنبضه، آخذًا ما في طريقه من حقول، وبيوت، وماشية، ومحصول. عندما تسبب الزلزال في انبعاج الأرض، خلف وراءه بحيرة صناعية صغيرة، وقد أجبرتهم الظروف على التخييم بجوارها.

استغرقوا وقتًا أطول كذلك في ترك السهول. خاف جزء بداخلها من عدم تمكنهم من الرحيل على الإطلاق، ولا تستطيع أن تصدق أنهم هنا حتى الآن، ولا أن طفليها يتسللان وسط الليل، سرًّا، دون وجودها معهما، بشمعتين، وهمستين، ووجهة واحدة ظنت أن بوسعها تخمينها. شاهدتهما يبتعدان، فقط اضطرت في النهاية إلى تركهما يذهبان.

في الأراضي المنخفضة رحلت القوافل أيضًا بعدما عُثِر على "فاريبي"، أو "مُغيِّر شكله". رحلوا في صمت كما أتوا؛ كل رجل مرتديًا ملابس رسمية ويتجسس في ملابس مدنية، أو هذا ما قاله الناس. اُستبدِلوا بقوافل مختلفة، تحمل الطعام والبطانيات للناجين المصدومين الذين حدقوا إلى الكاميرات وفي الغبار الثقيل

المتخلف من حياتهم السابقة. فقدت "بالاكوت" بالكامل، حسبما قالوا. لم تسمع "مريم" بكل هذا الإرهاب أو تنفست بكل هذا الكم من الموت. أطلقت الإلهة العنان أخيرًا لكل ما اعتمل بداخلها من غضب على واديهم، وقد رقد الكثير من الرجال والنساء وحتى الأطفال - أكثر مما رأت "مريم" في حياتها - تحت الأرض!

حتى الآن، وبعد مرور أشهر عدة، لم يعد بوسعها فعل ما هو أكثر من عزل بعض التفاصيل من دمارهم المشترك، مثل الطريقة التي كانت تشاهد بها البقرة "نور" في الغابة قبل حدوث ما حدث. بدأت عينا "نور" تتقلبان داخل عينيها، ولم يعد ذيلها يحك ظهرها كالسابق، وإنما صار منتصبًا كثعبان يهتز ويرتعش، كما لو كان على وشك أن يسقط! كانت "مريم" تحدق إلى تحركات أكثر وحوشها سكونًا عندما نطحتها "ماخيري"، الماعز ذات الحلمات المنتصبة لأعلى، من الخلف لتنقذ حياتها! فقد سقطت شجرة فستق على المكان الذي وقفت فيه "مريم". كيف حدث هذا؟ لقد اهتمت بجمع ثمار تلك الشجرة منذ أسبوعين، والآن ها هي "نور" ترقد أسفلها، وذيلها لا يزال يتلوَّى. سحبها رجل من عائلة "ليلى" بعيدًا عن المنظر المريع، وبينما هما يركضان، شعرت بالعالم كله يركض من حولهما.

لكن بالأعلى هنا وسط الجبال، حتى في ذلك العام، ظل الزمن على سكونه. رقدت بحيرة "سيف الملوك" ساكنة مظلمة، كعين غافلة باردة، وقد أبقت البحيرة عينيها مغلقتين خلال برودة الشتاء، ويبدو أنها ستستيقظ من سباتها خلال الربيع الذي حلَّ الآن، لتغلف الشواطئ أسفل العشيقين "الملكة" و"العاري". في هذه الليلة، شعرت "مريم" بأن الحبيبين قد خلدا إلى الراحة. سيراقبان طفليها وخيامهم، لكن لن يكون لديهما سبب للشكوى. ربما باستثناء عندما لاحظوا اختفاء ثلاث خيام؛ أول خيمة فيهم كانت لعائلة الصبي الذي عُثِر عليه في حفرة المياه في العام الماضي، والثانية لعائلة الصبي الذي لن يُعثَر عليه أبدًا، أما الثالثة فكانت ملكًا لعائلة حطمها انهيار صخري حدث عندما تحركت الأرض. تركت العائلتين الأوليين للمدينة، ليعمل الزوجان والصبية الباقون حمَّالين، لتحميل وإفراغ أجولة الحبوب في مزارع الولاية، واحتفظت الزوجات والبنات بكل صمتهن في قلوبهن التي أصبحت ساكنة الآن. ظلت مساحة الخيام الثلاث فارغة.

كانت هناك وفيات أخرى، قبل حدوث الزلزال حتى، ومن يعلم، فربما لعبت الإلهة دورًا في هذا أيضًا. ضربت الشرطة بائعًا حتى الموت لإخفائه بعض المعلومات تضمنت هويته. ادعت الشرطة أنه لم تكن معه أوراق لإثبات شخصيته. مَن كان هو؟ ولأي ولاية ينتمي؟ لم يكن معه أوراق لتجيب عن تلك الأسئلة، وقد مرت دورية لتتفقد كل مَن في الوادي - المقيمين، والبدو، وكل مَن بين هذا وذاك - وتفقدت إثباتات شخصيتهم. أخرجت "مريم" كل ما يملكونه من ورق مهما كان تافهًا. أخرجت تصريحات رعاية الماشية، والضرائب المدفوعة، والمواد التي تُستأجر كل خريف، ومرة واحدة ذات صيف عندما اضطروا إلى تغيير مكان إقامتهم مؤقتًا لتغير ظروفهم، لكن لم يكن هناك إثبات لميلادها. زوجها معه واحد، ولم يستطع أن يتذكر كيف أو أين أصدِر، كأن ذلك المستطيل الصغير الذي يحتوي على بصمة إبهامه واسمه بمنزلة هدية من الله. أما "مريم" فلم تكن لديها هدية مماثلة. مدَّ الرجال

أيديهم إلى أقرب شيء استطاعوا الوصول إليه، "يونس". جذبوا أذنيه وصفعوه على رأسه مرة بعد الأخرى، حتى ارتخى عنقه، فأخذت "مريم" تصرخ وتضرب الأرض الصلبة بساعديها (حتى رسغها الذي لم يشف أبدًا من إصابته). عندما سقط، بدؤوا يضربون ظهره بأحذيتهم وبنادقهم، فتمثل أمامها الصبي الذي وجدت جثته في البحيرة، ولم تستطع التفوه بحرف، خذوا ما تريدون لكن اتركوا الأطفال. أخذوا المهرة "لوي تارا" ومعها الماعز ذات لون سقوط أشعة الشمس الغاربة على صفار البيض. وقد أخذوها في عامها الثالث، وهي لا تزال كفرخ الدجاجة داخل قشرته، فهي لا تزال مهرة. أخذت تتشمم الأبقار، الأوراق التي بللتها قطرات الأمطار، وأولئك الذين تخلوا عنها.

لم تعد "مريم" تجرؤ على الاقتراب من "ناماشا" من لحظتها، وإنما صار زوجها هو مَن يهتم بأمرها الآن، وهو مَن يطعمها ويسقيها. وحده هو مَن استطاع التعامل مع ألمها. لم تتساءل "مريم" عن كيف يفعلها، لكن حتى زوجها لم يكن قد طلب من المهرة أن تحمل ولو غرضًا واحدًا فقط - لا حَمَل، ولا حتى وعاء نحاسي - على ظهرها في هجرتهم الأراضي المرتفعة. كانت المهرة سترمي كل هذا عن ظهرها على أي حال، تاركة إياهم ليدوروا طيلة الطريق بجوار "الجبل العاري" ليدي الرب القويتين، واللتين كانتا ستسقطهم.

فهناك حدود للمتاع الذي يستطيع أي كائن أن يتحمله.

بعدما أخذوا "لوي تارا" بوقت قصير، وافقت على رحيل "يونس". هذه المرة، كانت هي مَن تركت علامة لـ"غافور"؛ قطعة قماش حمراء، كما كان هو يفعل، وقد أتى فعلًا بمظهر واسم جديدين، لا يزال متألقًا من نجاحه مع الأجانب، وقد أعلن بخصوص هذا:

- لن ترينه مجددًا.

لم تطلب أبدًا معرفة المزيد. شعرت بإحساس طفيف للغاية من الاضطراب، نتج عن صورة عابرة لم تعترف بها إلا لنفسها، فلم يكن واضحًا لها أبدًا أي رجل هو مَن رأته محبوسًا في الجبال المتعرجة، فقد كان يعطيها ظهره، لكن مرة واحدة - واحدة فقط - نظر إلى أعلى، ولم تظنه لحظتها الرجل نفسه الذي فكرت فيه من قبل، فالرجل الذي رأته كان ذا ملامح مدببة وجبهة متغضنة، مثل الرجل الطيب، صديق قومها، والمدعو "عرفان". محبوسًا.

شعرت بالحيرة. خطأ؟ خطأها أم خطأه؟ وتذكرت تلك الليلة التي احترق فيها بيت مفتش الغابة، والطريقة التي هرب بها الرجل من البيت ولم تتمكن زوجته من ذلك. شعرت بالضيق - كيف يمكن مقارنة الموقفين من الأساس؟ بالموقف الأول كان هناك حريق، أما هنا فهناك هوة، وهذا أبسط اختلاف - فدفعت الصورة المرتسمة أمامها بعيدًا وهي تشكر الآلهة أن تلك الصورة المشوهة لم تزرها ثانية أبدًا. لهذا عندما طمأنها "غافور" بقوله:

- لن ترينه مجددًا أبدًا، مهما كانت الكمية التي ستدخنينها من أوراق "العرعر".

لم تطلب منه وقتها معرفة المزيد. كل ما قالته هو إنها لم تدخنها أبدًا طيلة حياتها. يمكنها أن ترى جيدًا دون فعلها. ضحك وضحكت هي الأخرى قبل أن يضيف هو:

- حتى أمك، فلتتبارك روحها، لن تراه مجددًا.

وهنا أيضًا لم تتمكن من منع نفسها من الابتسام، بالرغم مما في طريقته في الحديث عن الأرواح من عدم احترام.

عندما طلبت منه أن يأخذ "يونس" معه، حك لحيته الجديدة السوداء، بل إنه صبغ شعره - ربت خديها - والذين صارا نديين فجأة، ولعق ما علق بأصابعه من دموعها كما لعقت هي قديمًا ما بأصابعه من عسل.

لا بدَّ من أن أمها ستقول إنها لا يجب أن تتمسك بشيء باستثناء أطفالها وماشيتها. أحيانًا ما يكون حتى الأطفال والماشية أكثر مما بقدرة الشخص على التحمل.

زحفت "مريم" في هدوء نحو الجانب البعيد من الشاطئ، حيث اختفى ضوء الشمعتين. كانت ليلة باردة ساكنة، وقد لفَّت شالًا حول صدرها، وشعرت بالرمال تحت قدميها. كانت تلك هي أول عودة لها إلى المكان حيث أخذت منها "كيران"، وتلك هي أول لمسة للمياه الجليدية التي سحبت طفلتها. حذرت كلًّا من "يونس" و"جومانة" بأن يبقيا بعيدًا عن البحيرة، وبالرغم من أنها تثق بهما، فإنها تتبعتهما.

كانا متوجهين إلى ضريحها الذي يقع داخل الكهف. الضريح الذي ربما لا يزال باقيًا، أما الضريح الموجود بالأراضي المنخفضة فستدفنه قبل الرحيل، لو لم تكن الإلهة قد فعلتها ودفنته أولًا. سيكون أمامها خيارات محدودة، حتى بعد الإشاعات التي بدأت تنتشر عن كونهم قد عثروا على القاتل، وكون الرجال ذوو الملابس الرسمية والملابس المدنية قد بدؤوا يرحلون، وبدأ عمال الإغاثة في الوصول. لا يزال بالإمكان سماع صوت واحد فوقهم، في حين تستعد "مريم" للرحيل للجبال. كان صوت "المُلَّا" وهو يدعي وصول أجنحة الانتصار لكل واد في كل مقاطعة، وفي كل مدينة، وقرية، وبلدة. لهذا تخلت "مريم" عن طقوس الاغتسال بالكامل هذا الربيع، وهي تتمنى في قلبها ألا تُعاقب عائلتها على هذا، فلم تكن غلطتها أنه لا يمكن إبقاء تلك الطقوس على قيد الحياة. كان لديها دليل آخر قوي على درجة الخطر الذي يحيط بمذهبها. قبل الزلزال مباشرة، كانت قد حفرت رقعة صغيرة من التراب في ضريحها، من أجل الصندوق الذي احتوى على متعلقات "كيران"، لكن الصندوق اختفى. أحدهم لوث الضريح، ومن الواضح أن الإلهة لا تعارض هذا.

وبينما هم يبدؤون صعودهم، كان "المُلا " يدعي الانتصار.

شاهدا والدتهما تفعل ذلك، وها هما يفعلان مثلها أيضًا، عندما ظناها لا تنظر تجاههما. تسلقا أبعد تل عن المراكب والخيام واستمرا في طريقهما نحو الجبل الذي لا يمكن رؤيته ما لم تتخيله. انطفأت الشموع مرتين وربت "يونس" بنطاله، كما رأى الرجال يفعلون من قبل. أخرج علبة الثقاب، وأشعل عودين معًا، محيطًا الشعلة المزدوجة بكفه لكيلا تنطفئ، ثم أعاد إشعال الشمعتين.

في النهاية وصل الطفلين للكهف.

تحدث "يونس، ونظرت "جومانة" إلى الداخل، وأخبرها بما سيفعله عندما يرحل. سيصبح تاجرًا، وكل التجار الجيدين لديهم لحى، قال "يونس":

- السيد "غافور" يقول إن الإنسان يبيع أفضل عندما يداعب لحيته.

واتبع هذا بحك ذقنه الملساء، وحكت "جومانة" أيضًا ذقنها. وبصفته سيصبح رجل أعمال، فسيحضر لها الكثير من الأشياء التي ستجعل خدها يتورد كما يحدث لأمهما عندما يحضر السيد "غافور" الزهور لها. خفضت "جومانة" عينيها، محاولة أن تتدرب على الكيفية التي ستبدو بها سعيدة. كان الأمر سهلًا، لأنها كانت على ركبتيها بالفعل، ترتب سجادة من أوراق الصنوبر على الأرض غير المستوية. حملت حزمة كبيرة بين يديها - وقد حرصت على ألا تدع لهيب الشمعة يحرقهم - وهي الآن تُليِّن الأرض متمهلة، في حين يتحدث "يونس".

عندما انتهت من إعداد السجادة، جلسا عليها معًا، وقد وجها لهيب الشمعتين نحو الرسومات التي اعتلت جدار الكهف، ومن بينها رسومات تمثل المهرة "لوي تارا" في أوضاع مختلفة. أحيانًا بمفردها، وفمها مشغولًا بالتهام شيء ما، وقد لوت عنقها لتبادلهما النظر. وأحيانًا أخرى تقفز نحو ثمرة خوخ. هناك أبقار أيضًا، وفي بعض الأحيان، كانت "لوي تارا" تذهب لملاقاتهم. كان لونها أصفر فاتح ولون الأبقار يميل نحو الأزرق الفاتح، لكن معظم تفاصيل عالمهم كانت بالأبيض والأسود. كانت هناك فتاة كذلك؛ "كيران"! لكنها ظهرت مرة واحدة فقط، ويتوجب عليك الاقتراب بشدة لتتمكن من رؤيتها، لدرجة أن الشمعة تركت أثرًا على الجدار. وقفت "جومانة" بقدميها الحافيتين اللتين مسحتا أوراق الصنوبر ذهابًا وإيابًا، في حين أن أصابع قدميها تنغمس فيها وهي تحاول التركيز، وقد حملت شمعتها أعلى الفتاة من جهة اليسار، ليسقط الضوء على وجهها الذي لم يبدُ أزرق ولا أصفر، وإنما بلون الجدار نفسه، زهريًّا، كلون "كيران" الحقيقية، بالرغم من أنها لم تعد متأكدة من هذا.

خطت "جومانة" إلى الخلف - ربما سترى بشكل أفضل من زاوية مختلفة - ولاحظت ورقة صنوبر عالقة بالخاتم الذي ترتديه بإصبع قدمها، والتي أزعجتها، فحاولت إخراجها. مر خاطر - صورة – في ذهنها. كانت صورة زائغة لكن ملحة كالوجع الذي يصيب الأذن. كانت صفًّا من الخواتم وقد تراصت داخل صف من أصابع الأقدام المنتفخة. تذكرت أن هذا يقلقها، كيف ستتمكن أمها من انتزاع الخواتم بعدما تتورم أصابع القدم كالحلمات؟ شعرت بخوف رهيب يستولي عليها مصدره أن أصابع قدمها ستنحشر داخل تلك الدوائر من الأجراس، وهي تحاول هي جاهدة أن تنتزعها.

حاول أخوها بسعادة أن يسحب أصابع قدمها، وكان يسحب بقوة لدرجة آلمتها، وتمنت لو تستطيع أن تصف له سبب خوفها، لكنها لم تتمكن.

قبَّلها أخوها حينما تساقطت دموعها، وقد أطلق على كل دمعة منهم "جومانة"، ومعناها "لؤلؤة فضية". بعدما تساقطت منها عدة مجموعات من اللآلئ، تسمرت

مكانها عندما فوجئت بمدى سرعة اختفاء كل لؤلؤة منها، وسريعًا ما نسيت السبب في بكائها وتوقفت دموعها. ليس هناك ما يجذب انتباهها. عادا للحديث.

قررا تقليد أمهما وجدتهما المتوفاة. أديا عرضهما الخاص، وترنما بأدعيتهما الخاصة، وشربا من شرابهما الخاص، ودخنا أوراقهما الخاصة. ربت "يونس" على جيوبه، ليعثر على صندوق الثقاب ثانية ليشعل فرعًا متخيلًا، لأن هذا أسهل من الذهاب للخارج لإحضار فرع حقيقي، ثم تظاهرا بالرؤية. قال "يونس":

- قولي أرى الشر.

قالت "جومانة":

- أرى الشر.

قال "يونس":

- لا تيأسي يا صغيرتي!

ضحكت "جومانة"، وصاح "يونس":

- افعلي هذا وقولي إنك تريدين المزيد من السكر!

عقدت "جومانة" أصابعها معًا وقالت:

- أريد المزيد من السكر!

وكانت هذه بمنزلة الإشارة لكون اللعبة قد تغيرت. الآن هما يقلدان الرجال الذين أزعجوهما طيلة العام.

استخدم "يونس" حزامًا هو في الحقيقة رباط، وحشر داخله مجموعة من الصخور الصغيرة، وحمل لحية من كوز الصنوبر قرب ذقنه، وأخذ يصدر حفيفًا وهو يسير.

- مَن أنا؟

ابتسمت "جومانة" له بأسنان كاللؤلؤ، فترك خشبة المسرح ليهمس سريعًا في أذنها، ثم عاد إلى مكانه مكررًا:

- مَن أنا؟

- جهادي!

والآن صار يرتدي شاربًا من الأوراق السميكة، بصق، وحك خصيته. ضيق عينيه، وقد تمكن من إجادة دور أن يبدو شهوانيًّا، قبل أن يسأل سؤال "مَن أنا" ثانية، همس في أذن "جومانة" بشيء ما.

- مَن أنا؟

- مفتش!

تخللت أصابعه شعره لينزله إلى أكتافه - بالرغم من أنه لا يصل إليها، لكن التأثير واضح - وارتدي عباءة فضية، ربما كانت مجرد غلاف بسكويت، واحدة من الكثير من الأغراض التي يتركها المسافرون خلفهم، دون أن يعرفوا أن هذا ضريح مقدس، مثل المشبك المعلق في حزامه. حمل ورقتين من أوراق الصنوبر بالقرب من ذقنه لتحلا محل لحية، بل وحمل معه زجاجة كذلك.

- مَن أنا؟

كرر سؤاله، وهذه المرة لم تحتج "جومانة" إلى المساعدة، وقالت:

- السيد "غافور"!

وفي اللحظة التالية صار جادًّا للغاية. سار ببطء وهو يعرج، وقد وجه ذقنه إلى أسفل وقطب حاجبيه.

- مَن أنا؟

- بابا!

والآن، عادا من جديد إلى لعبتهما، ليقلدا أمهما وجدتهما ثانية، لكن هذه المرة صارا أكثر رسمية في حركاتهما؛ حمل "يونس" ما هو مفترض أن يكون الفرع الذي يُدخَّن - وأعاد إشعاله بذكاء - حول الكهف قائلًا:

- اتركوا منزلنا.

تبعته "جومانة"، وهي تترنم بالكلمات نفسها:

- اتركوا! اتركوا!

قال "يونس":

- لا، ليس بتلك الطريقة!

هناك الكثير من التركيز والتعليقات، في حين يجري تنظيم الطقوس، والتدريب عليها، وأدائها مرة بعد أخرى.

أصر "يونس" قائلًا:

- احمليه هكذا.

فرفعت "جومانة" ذراعيها إلى أعلى بشكل مستقيم، ثم بدأ "يونس" يدغدغها.

وبينما أخذت "جومانة" تصدر عويلًا، سحبت "مريم" أنفاسها مذكرة نفسها والأرواح بأنهما مجرد طفلين. ليس هذا تدنيسًا للمكان ما دام شيئًا بريئًا، قالت هذا من بين أنفاسها، حيث أطلقت ضحكة مختنقة، وظل كل شيء بداخلها. ما تريده حقًّا أكثر من أي شيء هو أن تنضم لهما. ستتخلى بكل سعادة عن الخوف والحزن، لو عنى هذا أن بوسعها أن تلعب طيلة الأشهر التي سيقضونها في الجبال، لكنها عوضًا عن هذا، شاهدت من خلال الشق بجانب الجدار، وهو شق ضيق اعتادت أن

تتلصص منه عبر السنين قبل دخول كهفها، فلن يكون من الحكمة دخول الكهف ويوجد مسافر بالداخل.

شاهدت طفليها اللذين استعادا وقارهما من جديد، وسحبت نفسًا آخر وحبسته، في انتظار أن ينتهي ذلك الحنين داخل صدرها، لكنه طبعًا لم ينتهِ. لكنها لن تزعجهما فقط لمجرد أن ترضي شراسة حبها، وإنما ستدعهما يكملان لعبتهما، التي لا ينتظران فيها نهاية العالم بقدر ما يستمتعان بها.

وبعد رحيلها بفترة بسيطة، انتهى عملهما، فخلد الطفلان إلى النوم، ورقد "يونس" على ظهره، واستندت "جومانة" إلى صدره. في منتصف تلك الليلة، سقطت فوقهما ريشة، تماثل في بياضها تلك الأجنحة التي خفقت بالأعلى وسط ظلام تلك الليلة، كأنما تُؤمِّنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

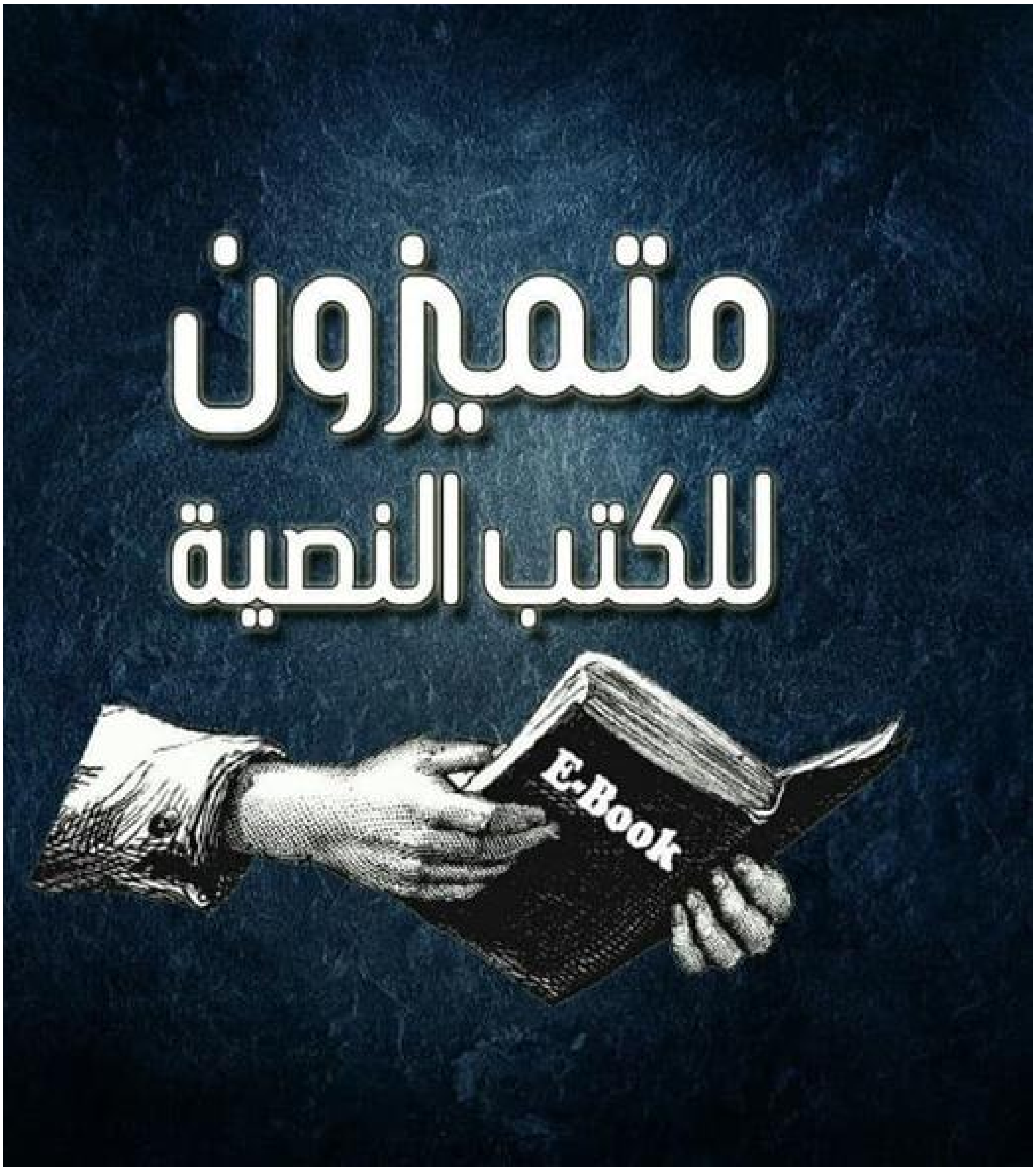
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

القسم الأول

قُل «بومة»!

الطرق إلى «كاجان»

تزاوج الجليد

جن وجنية

ثقل في الجفون

"ملكة الجبال".. طقوس وثنية

القسم الثاني

"ملكة الجبال".. أرض خارج الأرض

أقدام باردة

"كيران"

قبل الصلوات

"ملكة الجبال".. أرق من الجلد

القسم الثالث

الجبل العاري.. من منظور علوي

القسم الرابع

حقائق رَجِبة

ملكة الجبال.. سلسلة من الهمسات

تغيير شكل

ملكة الجبال.. عن العدالة!

طوبى للغرباء

ملكة الجبال.. مرحبًا بالجميع!

القسم الخامس

سلام مفاجئ

ملكة الجبال.. رحلة زرقاء

جبل «النار»

النهاية